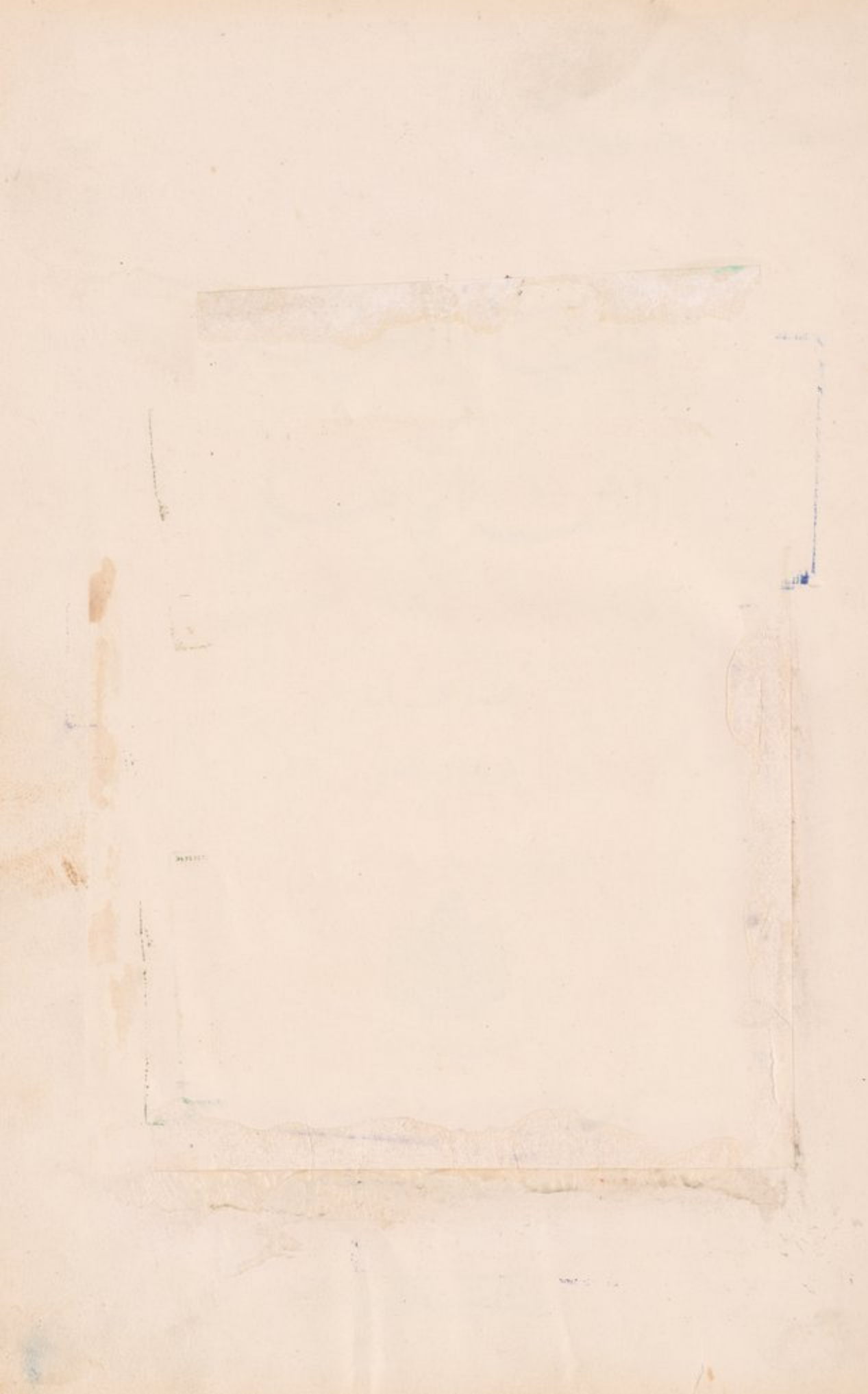




892.709
H 88 k A
أحمد محمد الحوفي

المدرس بكلية دار العلوم بجامعة فؤاد الأول

الحياة العربية
من
الشعر الجاهلي

الطبعة الثانية

مزيدة ومنقحة



مستند الطبع والنشر

مكتبة نهضة مصر ومطبعاتها

١٨ شارع كامل صدقي باشا « الفجالة سابقاً »

مطبعة نهضة مصر

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة الطبعة الأولى

عهدت إلى كلية دار العلوم في العام الجامعي الماضي أن أدرس لطلبتى تاريخ الأدب في العصر الجاهلى ، فرأيت أن السكتب المؤلفة فيه تتلاقى في منهج واحد يتناول العصر من حيث تاريخ أدبه ، وبيان أقسامه ، ودراسة أعلامه ، وخصائص كل منهم إلخ ... وما من شك في أنه نهج حسن ، وأصحابه خليقون بالشناء .

لكننى رَوَّيت طويلاً لأتلمس منهجاً آخر في دراستى ، وأتخير هدفاً آخر لطلبتى ، فاهتديت إلى هذا المنهج الذى سلكته ، والذى أستطيع أن أجمله في أنه دراسة للشعر الجاهلى في شتى فنونه ، لا من حيث نشأتها وبواعثها وميزاتها ، وخصائص الشعراء في تناولها ، وأثر شاعر في شاعر ، وتأثر شاعر بشاعر ، بل من حيث إن الشعر الجاهلى صدَى قوى للحياة العربية : اجتماعية ، وأخلاقية ، ودينية ، وذات عادات ومعتقدات ، فهو ترجمانها وسجلها .

وقد قصدت من هذه الدراسة إلى أشياء : أن أثبت أصالة الشعر الجاهلى وصحته — إلا مانبه الثقة على وضعه — من طريق غير التى سلكها المناخون عن أصالته وصحته ، ولعلها أهدى وأقوم ، ذلك أن الأدب مرآة الأمة ، ومُجْتَلَى عواطفها ، ومَعْرِض أخلاقها ، ومظهر معتقداتها وعاداتها ، والمعبر عن مثلها وآمالها وآلامها ، والمتحدث عن صلة الأفراد والجماعات بعضهم ببعض ، وعن صلة الأمة بغيرها إلخ.. وهذا السكتاب قائم على أن الشعر الجاهلى وثيق الصلة بحياة العرب ، ما جَلَّ منها وما صَغُر ، هو جداول ورواضع نابعة من هذه الحياة تحمل في مجراها ما فى ينباع

من صفاء ومن كُدرة ، ومن خير ومن شر ، فلو أنه كان موضوعاً مصطنعاً لناقض حياة العرب في كثير أو في قليل ، مهما تكن براعة واضعيه وناحليه ، ومهما تكن خبرتهم بنظم الحياة العربية ؛ لأن طبائعهم لا بد أن تغلبهم ، ولأنهم لا يستطيعون أن ينسلخوا من بيئتهم انسلخاً يجعل منهم عرباً أقحاحاً وهم يحيون في الحواضر في القرن الثاني والثالث .

وقصدت إلى شيء آخر : أن أجلو الحياة العربية في شتى صورها جلاء لا يعتمد على التاريخ وحده ، وإنما يستند أولاً إلى الشعر الذي صور هذه الحياة فأحسن تصويرها ، ولست أنكر أنه عرضة لأن يتطرق إليه الكذب والمبالغة ، ولسكني أرى أنهما يتطرقان أيضاً إلى التاريخ المدون والآثار المنقوشة ؛ لأن التاريخ تسجيل فرد أو أفراد ، فهو عرضة لأن يتأثر بالرواية المنقولة ، ولقد تكون مدخولة ، وعرضة لأن يميل مع الهوى والعاطفة ، ولكن الشعر تسجيل آلاف من قبائل شتى ، في زمن طويل ، ففيه مجال أوسع لاستكناه الحقيقة من سجلات متنوعة ، خلفها شعراء عبّروا عن عواطفهم صادقين ، وصوروا حياتهم العامة غير كاذبين ، وإذا كان في شعرهم ألوان من الخيال تضخم الواقع فإن من مميزات الأدب في العالم كله هذا التخيل والتجميل الذي لا يخلو من تهويل .

على أن الشعر أدق تصويراً للحياة لأنه يتناول ما يهمله التاريخ .

وقصدت إلى شيء ثالث : أن نقف على حيوات العرب قبل الإسلام ، لأن معرفتها ضرورية لمن يدرس تاريخهم وأدبهم ونفسياتهم وعقليتهم في الجاهلية وفي الإسلام ، فقد بزغ الإسلام فوجد نظاماً وعادات ومعتقدات وأخلاقاً ورسالات ، أبقى على بعضها ، وهذب بعضها ، واجتث بعضها من جذوره ، ولسكن ذلك لم يدم طويلاً ، فما هي إلا حقبة من الزمن حتى تشعث بعض ما هذبه الإسلام ، ونجمت جذور من بعض ما اجتثه الإسلام ، فلا بد من دراسة الحياة الإسلامية ، وإلى أي حد كان

تأثيرها في العرب . ولا بد منها أيضاً لفهم ما خلفوا من أدب جاهلي وغير جاهلي .
وكان مقصدي الرابع أن أشوق إلى دراسة الأدب باتخاذ إحدى الطرائق
لدراسة المجتمع العربي ، ولست أشك في أن كثيراً من ضروب حياة العرب يبعث
إعجابنا بهم ، فيكرمهم وتناصرهم وشجاعتهم وغيرتهم وحمايتهم لنفسائهم ، الخ... ولقد
ينتهي بنا الإعجاب إلى الأسوة بهم .

وقسمت هذا الجزء إلى خمسة أبواب :

الباب الأول يشتمل على بحوث تمهيدية .

والثاني يتناول الحياة الاجتماعية .

والثالث يصور الحياة الخلقية .

والرابع يدرس الحياة الدينية .

والخامس يعرض ألواناً من عاداتهم ومعتقداتهم .

وأرجو أن أكون قد اهتديت إلى طريق من النهج ، وجديد من الرأي ،

وما توفيقي إلا بالله .

أحمد محمد الحوفي

القاهرة في ٣ المحرم ١٣٦٩
٢٥ أكتوبر ١٩٤٩

الطبعة الثانية }
ذو القعدة ١٣٧١
أغسطس ١٩٥٢

الباب الأول

فصول تمهيدية

الأدب وتطوره

معناه في الجاهلية وصدر الإسلام . اشتقاق الكلمة . دلالتها الخلقية . مناقشة آراء في اشتقاق
المعنى الخلقى

معناه في العصر الأموي . دلالاته الثقافية . اشتقاق المعنى الجديد

معناه في العصر العباسي الأول . اتساع الدلالة الثقافية

معناه في العصر العباسي الثاني . ضيق الدائرة الثقافية

دلالة أخرى للكلمة أحياناً في العصر العباسي

- ١ -

دلت كلمة الأدب في العصر الجاهلي على الدعاء للمأدبة ، فالأدب هو الداعي إلى
المآدب ، قال طرفة :

نحن في المشتاة ندعو الجفلى لا ترى الأدب فينا ينتقر^(١)

ثم توسعوا في معناها فاشتقوا منها الأدب بمعنى الأخلاق الكريمة والسجيا
النبيلة ؛ لأنه يادب الناس إلى المحامد ، وينهاهم عن المقابح ، وبين المعنيين صلة وثيقة ،
لأن العرب يحبون في بادية مقفرة شحيحة بالزاد ، فتمدحوا بالقرى ، وبالغوا في
الحفاوة بالضيف حتى تخرق فيها بعضهم ، فكان من الطبيعي أن ينتقلوا من معنى الأدب
الحسي المادى إلى ذلك المعنى النفسى الخلقى .

ولسنا نستطيع أن نحدد الوقت الذى نشأ فيه هذا التجوز ، وإن كنا نجد في
العصر الجاهلي نصوصاً تدل عليه منها قول بلعام بن قيس السكناني - الذى شهد
حرب الفجار الثاني : -

أصبحت آتى الذى آتى وأتركه وبات أكثر رأى الناس مرّتابا
وإن أمت والفتى رهن بمصرعه فقد قضيت من الآداب آرابا^(٢)

(١) ديوان طرفة ٦٠

(٢) المؤلف والمختلف للأمدى ١٠٦

ومنها قول عتبة بن ربيعة لابنته هند يصف لها خاطبها — أبا سفيان ولم يذكر اسمه — : « يؤدب أهله ولا يؤدبون » . وردها عليه : وإني لأخذه بأدب البعل ، مع لزوم قبتي ، وقلة تلفتي ، (١) .

وفي جمهرة الأمثال لأبي هلال العسكري في كلامه على المثل : « ويل للشَّجِي من الخَلِي » ، قوله : المثل لا كُثم بن صيفي ، وذلك أنه ذكر له رسول الله صلى الله عليه وسلم فكتب له كتابا جاء في رد المصطفى عليه قوله : « بأدابه المرسلين » (٢) ، ولعل أصل الجملة أدب أو بعث بأدابه المرسلين ، أو أدبني بأدابه التي أدب بها المرسلين .

وقد سائر الحكمة مدلولها الخلق إلى صدر الإسلام ، ففي الحديث الشريف « أدبني ربي فأحسن تأديبي » وقول النبي عليه الصلاة والسلام « القرآن مادة الله في الأرض » (٣) وقول سيدنا عمر لابنه : « يا بني انسب نفسك تهمل رحمتك » واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك » وقول علي رضي الله عنه : « وأدبتكم بسوطي فلم تستقيموا ، وحدوكم بالزواج فلم تستوسقوا » (٤) وقوله : وقد لبس للحكمة جنتها ، وأخذها بجميع أدبها من الإقبال عليها ، والمعرفة بها ، والتفرغ لها ، (٥) وقول حجر بن عدي الشهيد للإمام علي : « يا أمير المؤمنين نقبل عظمتك ، وتؤدب بأدبك » ،

ولكن بعض الباحثين لم يطمئنوا إلى اشتقاق الكلمة من الأدب بمعنى الدعاء إلى المسأدب ، وعرضوا آراء لا نقرهم عليها .

فالمستشرق الإيطالي الأستاذ نلينو يشتقها من الدَّأب بمعنى العادة ، ويرى أن كلمة دأب جمعت على أدآب ثم قلب الجمع إلى آداب ، كما جمعت بئر ورئم على آبار وآرام . واشتقت كلمة أدب من الجمع آداب .

(١) الآمال ١٠٤/٢ .

(٢) جمهرة الأمثال ص ٢٠٣ طبعة بمبي . وفي طبعة المطبعة الخيرية على هامش أمثال الميداني بأذانه ،

(٣) لسان العرب مادة أدب .

(٤) شرح ابن أبي الحديد لنهج البلاغة ص ٢ من ٥٣٦ تستوسقوا : تجتمعوا .

(٥) المصدر السابق ٢ / ٥٣٥ .

وهذا فرض ، وتكلف لا نقره

١ — لأن كلمة آبار وآرام لم يشتق منهما مفردان تكون الصلة بينهما وبين بئر ورئم كالصلة بين أدب ودأب في الحروف والمعنى ، فيقال مثلاً لبئر وإرئم .

٢ — لم يذكر شيئاً في هذا الاشتقاق في اسم معنى قدمت عينه على فائه في الجمع ثم اشتق منه فعل جديد .

٣ — لم يرد في معجم أو نص جمع كلمة الدأب أو الدأب على أدآب ، ولكن ورد في كتب اللغة جمع بئر على آبار وآبار ، وجمع رئم على آرأم وآرام .

٤ — لم يرد الدأب بمعنى الأدب ، لأن الدأب العادة والشأن والاستمرار حسناً أو قبيحاً ، والأدب خلق كريم في أول معانيه .

والدكتور طه حسين كان في أول الأمر يدين برأى الأستاذ نلينو . ولكنه بعد ذلك يحار في الاهتداء إلى مصدر الكلمة ولا يرتضى رأياً من الآراء ، فيفترض أنها من لغة قبيلة عربية قديمة ، ولكن النصوص المثبتة لمعناها الأصل ضاعت . وهذا رأى يعتمد على هدم البناء بمعول من الخيال والفرض لا يبني ولا يهدم .

والأستاذ مصطفى جواد يرى أنها مشتقة من الهذب ، وقلبت الهاء همزاً كما في هيا وأيا وهراق وأراق . ولكن يضعفه أن الكلمة لم تستعمل مرة على هذا الأصل لا فعلاً ولا اسماً .

ويرى الأب أنستاس الكرملي أن الأدب « صناعة الأديب الوارد في اللغة اليونانية باللفظ والمعنى ، فمن معاني الأديب عندهم الحسن الغناء اللذيذ المحادثة والمنادمة والمجالسة ، المثير لهوى جلسائه بأنغامه المشجية وحديثه الريق » (١) لكن هذا الرأي محتاج إلى دليل ، ومفتقر إلى إثبات أن العرب أخذوه من اليونان .

ويذهب الأستاذ أحمد حسن الزيات إلى أن (أدب) معناها الإنسان في لغة السومريين الذين عمروا جنوب العراق في فجر التاريخ ، وبما لا مساع للشك فيه أن

قبائل سامية نزحت من الجزيرة العربية إلى أرضهم حوالي القرن الثلاثين قبل الميلاد فغزتهم وأخضعتهم واقتبست من لسانهم وأديانهم وعمرانهم ، فلماذا لا ننظر أن هذه الكلمة السومرية قد دخلت العربية بلفظها ومعناها ، ثم تحولت إلى آدم واستعملت كذلك في اللغات السامية ، وبقيت العربية وحدها محتفظة بالأصل لقدمها وعدم اختلاطها ، ثم استعملت هذه الكلمة في الوصف استعمال المصادر ، فأرادوا بها الرجل الذي استكمل مزايا الإنسانية من حرّ الخلال وكرم الفعال ، وحسن السيرة ، كما نقول اليوم فلان آدمي وفلان إنسان ، ثم قلبها الزمن على وجوه الدلالات حتى صارت إلى ما صارت إليه . وبما يساعد هذا الفرض قول التبريزي في شرح الحماسة كان الأدب اسما لما يفعله الإنسان فيتزين به في الناس ^(١) .

ومع تقديرى للأستاذ وتحريزه في عرض هذا الفرض أدفعه بأن المراد من الكلمة إذا الرجل الكريم الأخلاق أو الممتاز بصفات ، لا الخلق الكريم نفسه ولا الصفات المميزة لبعض الناس ، وليس في اللغة إثارة تؤيد هذا المعنى أو تشير إليه ، وحتى كلمة التبريزي نفسه صريحة في أن الأدب ميزة وحلية يتزين بها الرجل في الناس ، على أن استعمال هذه الكلمة وصفاً كما تستعمل المصادر بعيد الاحتمال . وبعد فهذه آراء تبحث عن أمومة للكلمة في غير جنسها ، وأما في اللغة العربية نفسها ، وبعضها ينصب شباهاً لا صطياداً جديداً ، وأقوى منه ذلك الرأي التليد الوطيد

وفي العصر الأموي ظل هذا المعنى الخالق الصرف حياً شائعاً ، ومنه قول سالم ابن وابصة الأسدي :

إذا شئت أن تدعى كريماً مكرماً أديبا ظريفاً عاقلاً ماجداً حراً
إذا ما أتت من صاحب لك زلةً فكن أنت محتالاً لزلتك عذراً

وقول مزاحم العقيلي في وصف الإبل :

وهن يصرفن النوى بين عاجٍ ونجران
تصريف الأديب المذلل^(١)
ولكن الكلمة تطورت إلى معنى آخر ، هو الشعر والنثر ، وما يتصل بهما من الشرح والأخبار والأنساب ، وهذا ضرب من الثقافة اختص بتدريسه لأبناء الخاصة وأولياء العهد طائفة من الأساتذة سموا المؤدبين . ومن ذلك قول معاوية : « اجعلوا الشعر أكبر همكم وأكثر آدابكم ، فإن فيه مآثر أسلافكم ، ومواضع إرشادكم ، وقول عبد الملك بن مروان لمعلم ولده : « أدبهم برواية شعر الأعشى ، فإنه - قاتله الله - ما كان أعذب بحره ، وأصلب صخره ، . وسُمي الملمون بهذه الثقافة أدباء أيضاً ، قال أبو العيزار كما ذكر الجاحظ أو عبيدة بن هلال اليشكري كما ذكر المبرد في مدح الخوارج :

أدباء إما جنتهم خطباء ضمناء كل كتيبة جرار^(٢)
على أنه كانت في العصر نفسه ثقافة أخرى لم تشملها كلمة أدب هي القرآن الكريم والحديث الشريف ، وهذه هي الثقافة الشرعية أو الدينية فمن أين اشتق هذا المعنى الجديد للأدب ؟

جرى الباحثون على أن المعنى الجديد وليد القديم ؛ لأن المؤدبين كانوا يتوخون من الثقافة الأدبية تهذيب الأخلاق ، ورياضة النفوس على النبالة ، ولكني أرى أن المعنى الجديد إنما جاء من الأدب وهو الأمر العجيب ، قال الأصمعي : جاء فلان بأمر أدب أي عجيب ، وأنشد :

سمعت من صلاصل الأشكال أدباً على لباتها الحـوالى
أو من الأدب وهو العجب والدهشة ، قال منظور بن حبة الأسدي :
بشمجى المشي عجول الوثب غلابة للناجيات الغلب

(١) الأديب والمؤدب : البعير المذلل المنقاد .

(٢) البيان والتبيين ٣٠٩/١ .

حتى أتى أزيها بالأدب^(١)

فالأدب الأمر العجيب ، أو الدهشة والعجب ، والصلة بين الأدب بمعناه الفني وبين هذين الأصلين صلة وثيقة ، لأن الأدب عجيب يثير النفوس بعباراته ومعانيه وأخيلته ، وهو أيضاً نتاج عن عجب من منظر أو حادث أو شعور ، ونتاج يدعو إلى عجب القراء والسامعين ، ويعزز رأي هذا أن بعض الشعر الذي كان يدرس ويروى على أنه أدب حافل بالمجون والغزل الفاحش ، كشعر طرفة وامرئ القيس والأعشى ، فاشتقاق المعنى من الأدب بمعنى الأمر العجيب أو العجب والدهشة أكثر ملاءمة للأدب ومسيرة له من اشتقاقه من الأدب بمعنى الخلق الكريم . وإذا فالأدب بمعنى الدعاء للمأدبة أصل للأدب بمعنى الخلق العظيم ، والأدب بمعنى العجيب والعجب أصل لذلك الفن الجميل الرفيع من شعر ونثر .

وفي أواخر العصر الأموي وأوائل العصر العباسي الأول أو ، في القرن الثاني والثالث نشأت علوم اللغة العربية ، وتميزت بموضوعاتها وأسمائها فكان النحو والصرف واللغة ، واتسع نطاق كلمة أدب فشملت الشعر والنثر وما يتصل بهما من شرح وأخبار وأنساب ومسائل من النحو والصرف واللغة والنقد ، وألفت كتب بهذا المعنى مثل طبقات الشعراء لابن سلام المتوفى ٢٣٢ هـ والبيان والنتبين للجاحظ المتوفى ٢٥٥ هـ والكامل للبرد المتوفى ٢٨٥ هـ والشعر والشعراء وعيون الأخبار وأدب الكاتب لابن قتيبة المتوفى ٢٧٦ هـ ونحن نجد مثلاً في كتاب الكامل شعراً ولغة وصرفاً ونحواً وتاريخاً وبلاغة ، لأنهم فهموا الأدب على أنه ثقافة عربية لغوية جامعة . ولم يكن الأدب ثقافة المسلمين الوحيدة في ذلك الحين ، فإنهم كانوا قد ارتقوا وتحضروا وأجادوا فهم دينهم ، وقوى اتصالهم بغيرهم ، فازدهرت ثقافتهم الدينية ،

(١) لسان العرب مادة أدب . الشمجي : النافة السريعة . الأزبي : السرعة . النشاط . الناجيات : النوق السريعة . صلاص الأشكال : وسوسة الخلى .

واتسعت دائرتها عما كانت عليه في القرن الأول ، ففرعت إلى القرآن الكريم وتفسيره وقرآياته ورسمه ، وإلى الحديث الشريف وعلوم الحديث ، وإلى الفقه وأصوله ، والكلام ومذاهبه ، كما ازدهرت ثقافتهم الدخيلة من منطق وفلسفة وطب وفلك ...

ولكن الأدب لم يشمل هذين الضربين من الثقافة ، فهذه فلسفية وتلك دينية ، على أن الدلالة الخلقية ما فتئت حية تدور على الألسنة وأسلات الأقلام ، فإن الجاحظ مثلاً في البيان والتبيين عقد فصولاً في الأدب منها (كلام في الأدب) ذكر به عدة حكم ووصايا بما يهذب الأخلاق ^(١) ، وذكر لابن هرمة أبياتاً في الرثاء منها بيت يمدح المرثى بالكرم وحسن أخلاق الخدم في لقاء الضيوف :

هَشَّ إِذَا نَزَلَ الْوُفُودُ بِيَابِهِ سَهْلَ الْحِجَابِ مُؤَدِّبَ الْخُدَّامِ ^(٢)

وابن المقفع المتوفى سنة ١٤٢ هـ سَمَّى كِتَابَيْنِ لَهُ فِي الْأَخْلَاقِ (الْأَدَبُ الْكَبِيرُ) وَ (الْأَدَبُ الصَّغِيرُ)

— ٤ —

وقد كان النقد يتدرج في نضجه وارتقائه منذ القرن الثالث ، ونهض علماء مستقلاً متميزاً من الأدب في القرن الرابع ، وسمى بلاغة حيناً وبياناً حيناً وبديعاً حيناً ، وكان رواة الأدب قد قللوا من الاستطراد اللغوي والنحوي فيما يروون ويدونون ، فضائق دائرة الأدب التي كانت رحبة شاملة في القرنين السابقين ، وانحسر لفظ الأدباء عن العلماء واستقل به الكتاب والشعراء ، لأن العلوم استقلت فاختص بكل علم رجاله ، حتى قالوا ختم تاريخ الأدباء بشعوب والمبرد وكانت وفاة المبرد ٢٥٨ هـ وثعلب ٢٩٢ هـ . وهم يقصدون بالأدباء هنا المهتمين بالثقافة العربية جملة ، وصار الأدب يطلق على الجيد من الشعر والنثر وما يرتبط بهما من شرح ونقد وهذا هو معناه في كل اللغات الآن

على أن هذه الكلمة دلت في العصر العباسي أحياناً على معنى أوسع من هذا كله، دلت على الاستنارة والمهارة النظرية والعملية، فالفلسفة أدب، والصيد والشطرنج أدب، والسياسة وخدمة الملوك أدب، والأديب هو المثقف المستنير اللبق، قال الوزير الحسن بن سهل المتوفى ٢٣٦ هـ: «الآداب عشرة: ثلاثة شهرجانية، وثلاثة أنوشروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن. فأما الشهرجانية فضرب العود ولعب الشطرنج ولعب الصوالج، وأما الأنوشروانية فالطب والهندسة والفروسية، وأما العربية فالشعر والنسب وأيام الناس. وأما الواحدة التي أربت عليهن فقطعات الحديث والسمر وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس،^(١)

ومن النصوص الدالة على أن الأدب هو المهارة وأن الأديب هو اللبق الحسن التصرف ما أنشده ابن أبي كريمة:

ألا زعمت عفراء بالشام أني غلامٌ جوارٍ لا غلام حروبٍ
وإني لأهذي بالأوانس كالدمى وإني بأطراف القنا للعوبُ
وإني على ما كان من عنجهيتي ولوثة أعرايتي لأديبُ^(٢)

وجاء في إحدى رسائل الجاحظ قوله: «إنا وجدنا الفلاسفة المتقدمين في الحكمة ذكروا أن أصول الآداب التي يتفرع منها العلم لذوى الأبواب أربعة: فمنها النجوم وأبراجها وحسابها، ومنها الهندسة وما اتصل بها من المساحة والوزن والتقدير، ومنها الكيمياء والطب وما يتشعب من ذلك، ومنها اللحون ومعرفة أجزائها ومخارجها وأوزانها، فأدخل في الأدب العلوم الرياضية وبعض العلوم الطبيعية، متأثراً بأرسطو فقد سمي العلوم الرياضية الأدب في تقسيمه للعلوم المأثور عنه^(٣)

وأدخل إخوان الصفا في عداد العلوم الرياضية التي سميت الأدب أحياناً

(٢) البيان والتبيين ١/١٤٩

(١) زهر الآداب ١/١٤٢

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ج ١ ص ٥٣٣

السحر والكهانة والكيمياء وغيرها إلى جانب اللغة والشعر والرياضة^(١) وكانوا يعتبرون معرفة النغم وعلل الأغاني من أرقى فنون الأدب ، وفيها وضع عبيد الله بن طاهر من ندماء الخليفة المعتضد بالله المتوفى ٢٨٩ هـ كتابه (الآداب الرفيعة) ، لذلك قال ابن خلدون : « وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء الأدب لأنه تابع للشعر ، إذ الغناء إنما هو تلحينه ، وكان السكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه ، وقال : « يجمعون لذلك من كلام العرب ما عساه تحصل به الملكة من شعر على الطبقة ، وسجع متساو في الإجادة ومسائل من اللغة والنحو مبثوثة أثناء ذلك متفرقة ، يستقرى منها الناظر في الغالب معظم قوافي اللغة العربية ، مع ذكر بعض من أيام العرب ، يفهم به ما يقع في أشعارهم منها ، وكذلك ذكر المهم من الأنساب الشهيرة والأخبار العامة فالآداب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف ،^(٢) وقد جمع أبو القاسم إسماعيل بن أحمد الشجري من شعراء القرن الرابع ضروب الأدب في قوله :

إن شئت تعلم في الآداب منزلتي وأنى قد عداني العز والنعم
فالطرف والسيف والأوهاق تشهدلى والعود والنرد والشطرنج والقلم^(٣)

(١) الرسالة السابعة ج ١ .

(٢) المقدمة ص ٤٤٨ — ٤٨٩

(٣) الأوهاق : المجال القوية ترمى في أنشودة لتؤخذ بها الدابة والإنسان ، وغرض الشاعر حرف السكدية التي ينال بها المال

تاريخ الأدب

وهل للأدب تاريخ؟ نعم فإن الأدب كائن حي متطاول العمر، فلا بد أن يؤرخ، لا بد أن نعرض لحالته من قوة أو من ضعف، وأن نحيط خبراً بالمؤثرات العامة في حياته من بيئة طبيعية واجتماعية وحرية أو عبودية وثقافة أو جهالة وحرب أو سلم الخ، لنعرف الينابيع الأولى التي استتقت منها النفوس والعقول، ولا بد أن ندرس الحركة الفكرية في كل عصر وتأثيرها في الأدب، وتأثر أديب بغيره وتأثيره في غيره، ونعلم خصائص كل أديب وخصائص الأدب في كل إقليم الخ.

فمؤرخ الأدب إذا لا بد من أن يلم بتاريخ العلوم والفلسفة والفنون الجميلة، ولا بد أن يدرس الحالة السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية للعصر الذي يدرسه دراسة تمكنه من فهم الأدب وظروفه، ومن المعرفة بالأديب وإنتاجه، على أنه فوق هذا كله لا بد أن يكون هو نفسه أديباً ذا ذوق، ليتشايح ذوقه وثقافته، فليس تاريخ الأدب علماً صرفاً، وإنما هو مزيج من العلم ومن الذوق، وكيف نريد من حرم نعمة الذوق الأدبي أن يؤرخ هذا الذوق؟ ولو أن مؤرخ الأدب اقتصر على ذوقه وحده دون أن توازره الثقافة العامة لضلّ، قال رجل لخلف الأحمر: إذا استحسننت أنا الشعر فما أبالي ما تقول فيه أنت وأصحابك، فقال خلف: رأيت إذا استحسننت أنت درهما ثم قال لك الصراف: إنه ردىء، أكان ينفعك استحسنائك له؟ (١)

وقد نتساءل ما قيمة تاريخ الأدب وما أثره؟ ولو نظرنا إلى العصور الأدبية كلها لأجبنا بأن هذا التاريخ يبصرنا بحياة الأدب والحركة العلمية والفكرية وما أثر فيها فرقاها أو هبط بها، ثم هو يبصرنا بآثار الأدباء والعلماء والمؤثرات في أديبهم

وعلمهم، لنسترشد بذلك في فهم إنتاجهم، ونوفر الجهد الذي كان مضطراً كل منا أن يبذله لو انفرد بالبحث والدرس، وهيات أن يتسع له وقته أو تمسكنه وسائله، على أنه يبعث فينا الشوق إلى مواصلة الدراسة، ويهديننا إلى طرق البحث القويمة المجدية.

ومن حق الأدب علينا أن ندرسه؛ لأنه ميزة تميز بها الإنسان، ولأنه لغة الروح وترجمان القلب وصقال النفس، وهو بعد ذلك وسيلة بلاغ الرسل إلى العباد، والإرهاص الذي يتقدم ثورات الأمم على عسف طال، أو خمود استطال، فتنفلت من قيودها، وتنطلق من خمودها، وتثب على أنغام الأدباء إلى أعلى مُثُلها.

اللغة العربية

اللغات السامية

اللغة العربية سامية

أطوار رقيها وتهذيبها وعوامل التقريب بين اللهجات

— ١ —

اللغات السامية هي لغات الجنس السامي الذي اتصلت شعوبه اتصالاً وثيقاً ، واتحدت في النشأة ، والبيئة ، واللون ، وارتبطت بروابط طبيعية واجتماعية جعلتها جنساً من البشر متميزاً ، سواء رجعنا إلى تقسيم التوراة أم إلى التقسيم الطبيعي (١) وأول من أطلق على لغات هذا الجنس (اللغات السامية) المستشرق الألماني شلوتزر ١٧٨١ م ولكن هذه التسمية على ذبوعها وخفتها غير جامعة وغير مانعة ، لأن بعض من يتكلمون بها ليسوا من الجنس السامي مثل الأحباش فلغتهم سامية وهم حاميون (٢)

— ٢ —

واللغة العربية المستعربة سامية ، ولا بد أنها استمدت كلمات من أخوانها الساميات كالحبشية والحميرية والعبرية والآرامية القديمة .
ذلك أن إسماعيل عليه السلام تعلم العربية من جرهم الثانية التي كانت قد هاجرت

(١) فالتوراة ترجع النوع الإنساني كله إلى أبناء نوح الثلاثة . سام ، حام ، يافث ، فتقسمه إلى ثلاثة أجناس . والتقسيم الطبيعي يعتمد على طبيعة الناس من اللون والغطرة ، والبيئة ... الخ . والجنس السامي في رواية التوراة هو نفسه في رأى العلم .

(٢) بعد أن تفرعت من اللغة الأنثوية الحبشية لهجات حامية امتزجت بالعربية السامية امتزاجاً محالاً الأولى وأبقى الثانية حتى صارت اللغة الأنثوية أو الحبشية تعد من اللغات السامية ، كما أن اللغة المصرية القديمة امتزجت باللغات السامية حتى خرجت من طبيعتها الأولى وعدها بعض اللغويين من السامية (مقدمة الأساس في الأمم السامية ولغاتها)

من اليمن إلى مكة ، وامتزج بهم وأصهر فيهم . ويقال إنه كان لإسماعيل لغة أخرى عبرية أو كلدانية ، فقد كانت أمه هاجر مصرية ، وأبوه يعرف السكندانية ، ومن البعيد أن ينسب إسماعيل لغة أبيه ولغة أمه ، بل القريب أن تمتزج لغة أبويه بلغة أصهاره ، ونشأ من إسماعيل ومن ذراريه جيل عربي جديد هم العرب المستعربة .

وانتسب المضريون - العرب المستعربة - إلى أبيهم لا إلى أمهم ، وإن كان النسب إلى الأم شائعاً في العصر الجاهلي ، ورفض النبي صلى الله عليه وسلم أن ينسب المضريون إلى آكل المرار ، وذلك أن وفد كندة قدم على النبي برياسة الأشعث ابن قيس ، وقال الأشعث للنبي : « يارسول الله نحن بنو آكل المرار وأنت ابن آكل المرار » فتبسم النبي وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعة بن الحارث ، وكانا تاجرين يوغلان في بلاد العرب ، فإذا سئلا من هما ؟ قالا : نحن بنو آكل المرار يتعززان بذلك - لأن كندة كانوا ملوكا - ثم قال لهم : « لا بل نحن بنو النضر ابن كنانة ، لانفقوا أمنا ، ولا نلتقي من أئبنا » (١)

ويقال إن القحطانيين هاجروا من الفرات أو الحبشة إلى اليمن وعمروها وأضافوا إلى لغتهم من لغة أسلافهم المعينيين الذين هم من بدو الآراميين أو بقايا البابليين ، عبروا إلى اليمن قبل القحطانيين ، وكانت لهم بها دولة قبل سبأ وحمير ، وهم الذين اقتبسوا الحروف الفينيقية التي تطورت إلى الخط المسند أو القلم الحميري .

فاللغة العدنانية استرفت من هذا كله ، وقد تطورت إلى المضرية الفصحى في الوقت الذي زالت فيه الدولة الحميرية حوالى أوائل القرن السادس للميلاد ، وفي الوقت

(١) سيرة ابن هشام ٢٥٤/٤ وآكل المرار : الحارث بن عمر بن حجر السكندى ، والمرار نبات مر إذا أكلته الابل تقبضت مشافرها ، وسمى الحارث بذلك لأن عمرو بن الهبولة الفسافي أغار عليهم والحارث عائب فغم وسبى وكانت في سببه امرأة الحارث فقالت لعمرو في سيره : لسكأني برجل أدلم - مسترخي الشفتين - أسود كأن مشافره مشافر بعير آكل مرار قد أخذ برقبتك ، تعنى الحارث ، فسمى آكل المرار ، ثم تبعه الحارث وقتله واستنقذ امرأته وما كان أصاب (سيرة ابن هشام ٢٥٥/٤)

الذى بسطت فيه سلطانها على أكثر أرجاء الجزيرة ، وتوحد اللسان العربى إلا ما ينجم عن طريقة النطق ويسميه العلماء اختلاف اللهجات .

وعلماء اللغات يفضلون اللغات السامية على الحامية والآرية بكثرة مفرداتها ، وتنوع أساليبها ، واطراد قياسها ، ووضوح مخارج حروفها ، وهم أنفسهم يقدمون العربية على أخواتها السامية بهذه الميزات وبغيرها ، حتى رأى كثير منهم قدماء ومحدثون شريون وغربيون أن العربية أصل اللغات السامية أو أقربها إلى السامية الأولى ؛ لنشأتها فى أقدم موطن للساميين ، وبقيائها معزل عن الاحتكاك باللغات الأخرى . وهم قد وازنوا بين العربية والسريانية والعبرية فاتضح أنهما متأثرتان بها ، بدليل أن الكلمات التى بها ضاد — وهو حرف خاص بالعربية — نقلت إلى العبرية بالصاد ، وإلى السريانية بالعين ، ولو كانت العربية هى الناقلة لبقيت الصاد أو العين على أصنامهما لأن الحرفين فى العربية فلا مدعاة للإبدال .

— ٣ —

لسنا نستطيع أن نزعم أن اللغة العربية قد ولدت ناضجة كما وصلت إلينا لأن هذا مخالف لقوانين التطور ، وطبيعة اللغات تأباه ، فلا بد أن مرت بهذه اللغة أطوار ومؤثرات رقتها وأنضجتها وأوصلتها إلى درجة من الكمال جعلتها خليفة أن ينزل

بها كتاب الله . ~~وهذه هى أطوار التهذيب~~ وأهم أطوار التهذيب هى :

١ — نزل إبراهيم بالحجاز وترك هنالك ابنه إسماعيل عليهما السلام ، وأصهر إسماعيل فى جرهم الثانية وهى قحطانية ، فكان لسانه ولسان نسله متأثراً ببلغة أبيهم وبلغة قحطان .

وكان من الطبيعى أن تمتزج لغة إسماعيل ببلغة جرهم ، وأن ينطلق لسانه فى مجال أوسع ويشقق عبارات أوضح ، لسكاله الفطرى الذى لا يفتقر إلى تلقين ولا تعليم ، وجرى على لسانه بنوه من بعده ، وامتد الزمن باللغة ينميا ويكملها حتى ظهر عدنان

أبو العرب المستعربة ، فنشأ جيل جديد ذو لغة أعظم ثروة ونمواً ، أسهم فيها الجميع ، لأن دارهم وبيئتهم وأخلاقهم وشيمهم واحدة ، وبينهم تصاهر وتشابك واجتماع لا ينقطع .

ب - ثم انشعبت قبائل من أولاد إسماعيل ، وجعلت لغتها تنمو وتتطور ، وساعدها أنها لم تُكْتَبْ فتتأني في تطورها أو تجمد ، لأنها لغة قوم أحرار ذوي فطر سليمة يُصَرِّفون لغتهم كما يُصَرِّفون أزمّة نوقهم وأعنة خيلهم ، وكان يأخذ بعضهم عن بعض بالمخالطة والمجاورة والتلاقي في الأسواق ، فتنقل الكلمات من قبيلة إلى أخرى كما تنقل العروض .

ح - ولقريش وحدها في هذا المضمار نصيب عظيم من الجهد والفخر ، فإن التطور الأول كان عمل القبيلة الأولى ، والثاني كان من صنع القبائل جميعاً ، أما هذا فجهد قریش ، وقد أعانتها على ذلك أمور :

(١) أعانها الدين ، فالقرشيون يقيمون بواد غير ذي زرع ، وهم مفتقرون إلى أن تهوى أفئدة الناس إلى البيت الحرام ، وقد استجاب الله دعاء سيدنا إبراهيم ، فجعل الكعبة الشريفة وجهة العرب أجمعين يحججون إليها أو يعتمرون ، وكانت القبائل التي تفد على مكة للحج ذات لهجات منها الجيد ومنها الرديء ، وقريش تستمع إلى الوافدين وتستصفي من لهجاتهم ما يروقها ، وكان النازلون ينقلون عن قریش وبيشون في الجزيرة ما نقلوا .

(٢) وساعدها التجارة ، فقد كان القرشيون يرتحلون في كل عام رحلتين ، رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكانوا أحياناً يضربون في الأرض ويمشون في منابها إلى فارس وإلى الحبشة كما مسيحي . وهم قوم صناعتهم الكلام ، يضيفون إلى لغتهم ما يغذيها ، ويزودونها بما ينميها ويرقيها .

وقد ساعدهم على التجارة موقع بلادهم الجغرافي ، وأنهم أهل الكعبة التي يدين العرب لها فلا يعتدى عليهم أحد في رحيلهم . وإن اطمئنانهم على حياتهم وأموالهم ،

وإن امتيازهم بالرحلات التجارية لجديران بأن يكونا نعمة يذكرهم الله بها ، قال تعالى :
 « لا يلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم
 من جوع وآمنهم من خوف ، قال الزمخشري : إنهم كانوا آمنين فى رحلتهم ،
 لأنهم أهل حرم الله وولاية بيته فلا يتعرض لهم ، والناس غيرهم يتخطفون
 ويغار عليهم ، قال تعالى : « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يُحْبِى إليه ثمرات كل شئ رزقاً
 من لدننا ، ولكن أكثرهم لا يعلمون ، »^(١)

(٣) وظاهرتها المسكنة السياسية التى استمدتها من نفوذها الدينى والاقتصادى ،
 حتى قال أبو بكر فى رده على الأنصار يوم السقيفة مؤيداً حق المهاجرين فى الخلافة :
 « ... وهم أولياؤه وعشيرته وأحق الناس بهذا الأمر من بعده ، ولا ينازعهم
 ذلك إلا ظالم ، وقال فى خطبته الثانية : لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش ،

(٤) وكانت لهجة قريش أغنى اللهجات وأطوعها وأقدرها على التعبير ، لأن أهلها
 أرقى ، ولأنهم أغنوها بما أضافوا إليها

(٥) على أن الأسواق المشهورة — وهى عكاظ ومجنة وذو المجاز — كانت على
 مقربة من مكة ومن موسم الحج تفد إليها القبائل ، وعكاظ خاصة يجتمع العرب
 جميعاً يتوافدون إليها من كل حذب وصوب ليتفادوا أسراهم ، ويتحاكوا فى
 خصوماتهم إلى بنى تميم ، ويتفاخروا بأحسابهم ومحامدهم وشجاعتهم ، ويتباهوا
 بالبليغ الرائع من القول ، فينشد الشاعر قصيدته ، ويخطب الخطيب خطبته . فى عكاظ
 أنشد عمرو بن كلثوم مطولته ، وفيها كانت تضرب للنابعة قبة من آدم ليتحاكم إليه
 الشعراء ، وقد أنشده الأعشى والخنساء وحسان فى قصة مشهورة^(٢) وفيها خطب قس
 بن ساعدة خطبته التى سمعها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورواها ، ذلك أن وفد
 بكر بن وائل قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما فرغ من حوائجهم قال :

هل فيكم أحد يعرف قس بن ساعدة الأيادي؟ قالوا: كلنا نعرفه، قال: فما فعل؟ قالوا: هلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كأنى به على جمل أحمر بعكاظ قائما يقول: «أيها الناس اجتمعوا واستمعوا، وعوا، كل من عاش مات، وكل من مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبرا، وإن في الأرض لعبرا، مهاد موضوع، وسقف مرفوع، وبحار تموج، وتجارة تروج، وليل داج، وسما ذات أبراج، أقسم قس حقا لئن كان في الأرض رضا ليكون بعده سخط، وإن لله عزت قدرته دينا هو أحب إليكم من دينكم الذي أتم عليه، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أرضوا فأقاموا أم تركوا فناموا؟» ثم أنشد أبو بكر رضى الله عنه شعرا حفظه له وهو:

في الزاهبين الأولين من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى— ولا من الباقيين غابر
أيقنت أنى للاحما لة حيث صار القوم صائر^(١)

وكانت عكاظ ملتقى الجميع، حتى إن من أراد أن يثار ولم يعثر على واثره طلبه في الموسم، ومن أراد أن يعمل عملا تعرفه العرب ويشهدها عليه عمله في عكاظ^(٢) وقد عمرت من ٥٤٠ م إلى أن نهى الخوارج الحرورية ١٢٩ هـ وكانوا يجتمعون (بسوق عكاظ) من أول القعدة إلى العشرين وفى (بجنة) قرب مكة بقية القعدة، وفى (ذى المجاز) بجانب عرفة أول ذى الحجة، ومنها ينصرفون إلى عرفات حيث الموقف الأعظم. وكانت لهم أسواق بين بلادهم وبلاد العجم يلتقون فيها للتسوق والبيع، وهى

(١) مجمع الأمثال للميداني ٩٩/١

(٢) الأغاني ١٣/٢

أوسع أبواب الدخيل والمغرب ، ذكر منها الجاحظ (سوق الأبله) (وسوق الأنبار) (وسوق الحيرة) .

وكانت لهم أسواق آخر تتوالى ، ينزلون في (دومة الجندل) أول ربيع الأول ثم ينتقلون إلى (هجر) بالبحرين حيث السوق في ربيع الآخر ، ثم يرتحلون إلى (عمان) بالبحرين أول جمادى الأولى ، ثم ينزلون سوق (المشقر) بالبحرين أول جمادى الآخرة ، ثم ينزلون سوق (صُحار) بعض أيام من رجب ، ثم تقوم سوقهم في (الشحر) بين عمان وعدن في نصف شعبان ، ثم في (حضرموت) نصف ذى القعدة ، ومنهم من يحوزها وينزل (بسوق صنعاء)

فالسبب التي كانت تقرب بين لهجات العرب أثرت وأنتجت قبل أن تصير لقريش السيادة في الإسلام ، وللشعر نصيب في هذا التقريب ، قال الدكتور شورتز والاستاذ ليورنارد كنج في تاريخ هارمزورث العالمى ص ١٨٩٢ : « وقبل أن تؤسس مكة بزمان طويل كان من عادة الحاج أن يجتمعوا في بعض الأماكن في الأشهر الحرم يقيمون أسواقا يتبادلون فيها السلع كما يتبادلون منتجات القرائح ، وكان أشهرها عكاظ ، يجتمع فيها من قبائل العرب شجعانهم وفصحائهم يتنافسون في الأشعار ، ينشدونها غزرا بعشائرهم وإشادة بأعمال رجالهم ، أو اجتهدا في الفوز بالجائزة التي كانت تعطى لأحسنهم غزلا ونسيبا ، وكان مشايخ القبائل يرأسهم من ينصبونه (أمير الشعراء) يحكمون في تلك المسابقة التي كانت تقام في أشهر السلم ، والتي كان يُتَشَوَّف إلى نتيجتها في جميع أنحاء بلاد العرب .

وقد عرض هذا الكتاب نفسه لسوق عكاظ وبين أثرها فقال :

« وفي أيام ما قبل الإسلام على بعد يوم فقط من مكة كان يقام السوق والمجتمع السنوى العظيم : سوق عكاظ ، نسبة إلى السهل الذي كان يقام فيه ، كان يأتيه الناس من جميع الطبقات من كل فج في الجزيرة ، ويستمر شهر ذى القعدة الذي كان يسبق شهر الحج في الجاهلية كما يسبقه في الإسلام ، فيه كانت المسابقات بين الخيل ، والألعاب

وتناشد الأشعار ، وجميع أنواع الملاحى تروح على الناس عناء الأعمال التجارية في سوق عام يكاد فى شموله واتساعه يكون معرضاً قومياً ، وفيه أيضاً كان الرؤساء من عرب الشمال ينظرون بينهم فى أمهات الأمور من حرب وسلم وحلف وتعاهد وثأر وتقاض ، فكان أولاد نزار — كما كانت العرب المستعربة تحب أن تدعى — يجتمعون فى نوع من منتدى عام لا يقل عراقه فى القدم عن منتدى طيبة ، وإن كان أثره ما دام قائماً أكبر فى بلاد العرب كلها مما يمكن أن يكون قد أتىح لمنتدى طيبة فى قديم اليونان ، وكان لرؤساء قريش المقام الأول فى ذلك المجتمع ، لقربه من ديارهم ، ولما كان لهم من ثروة وشجاعة وحسن خطاب ،^(١)

فلا بد أن لهجات العرب فى ذلك الوقت كانت متقاربة يسهل التفاهم بها ، ونستطيع أن نتصور زحمة الأسواق بالوافدين عليها وكثرتهم إذا ما نظرنا إلى أسواقنا فى الأقاليم ، وإلى اجتماعات الناس فى الموالد كالمولد الأحمدى والدسوقى ، ثم إذا ما علمنا أن للهنود سوقاً يقيمونها فى هر دوار على ضفاف السكنج فى كل سنة ويجتمع فيها نحو ثلاثمائة ألف نفس ، و يقيمون حجاً فى ذلك المكان مرة كل ١٢ سنة يبلغ فيه عدد الحجاج نحو مليون نفس

وشأن العرب فى أسواقهم شأن اليونان القدماء فى الجناسيوم (الملعب الرياضى) إذ كانوا يجتمعون للألعاب البدنية وفيهم الفلاسفة والعلماء ، فيغنمون فرصة الاجتماع ويتباحثون ويتناظرون كما كان يفعل العرب فى عكاظ

وبعد ، فقد كانت هذه الأسواق على مقربة من مكة ، والعرب جميعاً يدينون لقريش بسيادة دينية ولغوية كما قدمنا ، فهم يحاكون لهجتها ، ويتأثرون منطقتها ، وقريش أيضاً تنتقى من لهجاتهم أفصحها ، ومن كلماتهم أعذبها .

فليس فيها شىء من معيب اللهجات ، قال معاوية يوماً : من أفصح الناس ؟ فقال قائل : قوم ارتفعوا عن خلخانية الفرات ، وتيامنوا عن عننة تميم وتياسروا عن

كسكسة بكر ، ليست لهم غممة قضاة ، ولا طمطانية حمير . قال : من هم ؟ قال :
قريش . قال : ممن أنت ؟ قال : من جرم^(١)

وقالوا أيضا إن لغتهم سلمت من عننة تميم ، وكشكشة ربيعة ، وكسكسة هوازن ،
وتضجع قيس ، وعجرفية ضبة ، وتلتة بهراء^(٢)

وبذلك كله بلغت اللغة درجة من الرقي والوحدة أعدتها لأن ينزل القرآن الكريم
بأسمى لهجاتها لهجة قريش ، فتمت به الوحدة اللغوية ، وما زال القرآن الكريم هو
الحفيظ على هذه الوحدة والدرء لهذه اللغة ، يصونها من أن تمحوها النوازل ، أو
تنشعب منها لهجات مختلفات تنقطع صلتها بالنبع الأول فينضب ويحف

موقع سوق عكاظ

استعرض الأستاذ حمد الجاسر من الرياض ، أقوال المؤرخين القدماء في تحديد
موقع عكاظ :

١ — محمد بن إسحاق (المتوفى ١٥١ هـ) من كتاب شفاء الغرام بأخبار البلد
الحرام تأليف أبي الطيب الفاسي ، مخطوط في مكتبة الشيخ عبد الستار الدهلوي بمكة
ج ٢ ص ٤٩٣

٢ — محمد بن عمر الواقدي (١٣٠ — ٢٠٧ هـ) نقلا عن معجم البلدان ٢٠٢/٦

٣ — أبي عبيدة معمر بن المثنى (١١٠ — ٢٠٩ هـ) نقلا عن معجم ما استعجم

للبيكري ص ٦٦٠ طبعة باريس سنة ١٨٧٧

(١) البيان والتبيين ٢١٢/٣ لخلاخانية الفرات : لهجة لأعراب الشجر و عمان باليمن يحذفون بعض
الحروف اللينة كقولهم مشاء الله يريدون ما شاء الله والظاهر أن بعضهم نزلوا بشط الفرات بعد الإسلام .
العننة : قولهم أن في موضع عن الكسكسة : لهجة لبني بكر بن وائل أو ربيعة ومضر أو تميم يلحقون
بعد كاف الخطاب سيناء . الغممة : الكلام المبهم . الطمطانية : لهجة لمحير يدلون لام التعريف ميا مثل
أمصيام في الصيام .

(٢) مجالس نعالب ١ / ١٠٠ — ١٠١

- ٤ — الأصمعي (١٢٢-٥٢١٦) عن معجم البلدان ٢٠٢/٦
- ٥ — ابن هشام (المتوفى ٢١٨ هـ تقريبا) عن كتاب التيجان في ملوك حمير ص ٢١٠ طبعة حيدر آباد
- ٦ — الأزرقي (المتوفى ٢٤٤ هـ تقريبا) عن كتاب المحبر لابن حبيب ص ٣١٥ المطبوع في الهند
- ٧ — محمد بن حبيب البغدادى (المتوفى ٢٤٥ هـ) عن كتاب المحبر ص ٣١٥ المطبوع في الهند
- ٨ — عرام بن الأصبغ السلمى عن كتاب (أسماء جبال تهامة وسكانها وما فيها من القرى وما نبت عليها من الأشجار وما فيها من المياه) نسخة خطية ملك الشيخ محمد نصيف بجدة ، وقد نقل البكرى وياقوت معظم هذا الكتاب
- ٩ — ابن واضح اليعقوبى (المتوفى ٢٩٢ هـ) عن تاريخ اليعقوبى ص ٢٧٧ طبعة العراق
- ١٠ — الهمداني (المتوفى ٣٣٤ هـ تقريبا) عن (صفة جزيرة العرب طبعة ملر في ليدن ص ٢٦٢ و ٢٦٤ و ١٦٤ و ٧١)
- ١١ — أبى عبيد البكرى (المتوفى ٤٨٧ هـ) عن كتابه معجم ما استعجم ص ٦٦٠ - ٦٦٢ طبعة أوروبا سنة ١٨٧٧
- ١٢ — الشريف الإدريسي (المتوفى ٥٦٥ هـ) عن كتابة نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ورقة ١٠٢ ج ١ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٦٣ جغرافية
- ١٣ — ياقوت الحموى المتوفى ٦٢٦ هـ عن كتابه معجم البلدان ١١٣/٦ و ٢٧١/٧
- ١٤ — الحيرى مؤلف الروض المعطار، نسخة مكتبة عارف حكمت شيخ الإسلام المخطوطة بالمدينة المنورة
- ١٥ — الفيومى (المتوفى ٧٧٠ هـ) عن كتابه المصباح المنير ٤٩/٢ بولاق

١- مخلص منها

- ١ — أن موقع سوق عكاظ في أعلى نجد ، فليس في تهامة ولا في الحجاز
- ٢ — أنه في بلاد قيس عيلان من مضر ، ثم في بلاد بني نصر بن معاوية بن بكر ابن هوزان بن قيس عيلان
- ٣ — أنه يبعد عن الطائف مسافة تتراوح في تقدير المتقدمين بين عشرة أميال أو يزيد (١٢ ميلا) أو مسيرة يوم
- ٤ — أنه على طريق اليمن من مكة بين المناقب وكلاخ ، ولليمن إلى مكة طريقان : تهامي يأخذ على الساحل ، وآخر يأخذ على أطراف السراة مارا ببلاد عسير وهو الذي يقع عكاظ فيه

مشاهدة الخاصة

تنطبق الأوصاف السابقة على الأرض الواسعة الواقعة شرقي الطائف بميل نحو الشمال خارج سلسلة الجبال المطيقة ، وتبعد تلك الأرض عن الطائف نحو ٣٥ كيلو ، ويمدها غربا جبال بلاد عدوان ، وجنوبا جبال أسفل وادي لبة . . وشرقا صحراء رُكبة وشمالا طرف رُكبة ... (١)

(١) عن مجلة المجمع العلمي العربي ج ٣ مجلد ٢٦

١ تموز ١٩٥١ - ٢٧ رمضان ١٣٧٠

اللغة العربية واللهجات

لغة الشمال ولغة الجنوب
اختلاف اللهجتين طبيعي
اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة
لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات في الشعر الجاهلي ؟
بعض الشعر المروى يسجل اللهجات . القراءات واللهجات . اللغة واللهجات
رحلات القحطانيين إلى الشمال قديمة وثابتة
معنى كلمة أبي عمرو بن العلاء

لغة الشمال ولغة الجنوب

ذكر الدكتور طه حسين بك في شكه في الشعر الجاهلي أن لغة الشمال غير لغة الجنوب ، معتمداً على كلمة لأبي عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عربيتهم كعربيتنا » ، ومعتمداً على أن الكشف الحديث قد أثبت خلافا جوهريا بين اللغتين ، فكيف جاء الشعر الجاهلي كله باغة أهل الشمال ؟ ثم نفى أن يتخذ القحطانيون لغة الشمال ترجمانا عن عواطفهم ولغة أدبية لهم ، مع أن السيادة السياسية والاقتصادية ، والحضارة — وهي أمور من شأنها أن تفرض اللغة على الشعوب — قد كانت للقحطانيين لا للعدنانيين .

ورد على من يقول إن أهل الجنوب هاجروا إلى الشمال ، وتأقلعوا واصطنعوا لغة الشمال بأنه يشك في صحة نسب الذين هاجروا ، بل يشك في الهجرة نفسها : متى كانت ؟ ومن المهاجرون ؟ وإلى أين هاجروا ؟ (١)

ثم قرر أن العدنانيين أنفسهم كانت لهم لهجات ، فكيف جاء الشعر المروى كله بلهجة قريش ، مع أن في الشعراء يمينيين وقيسيين وربعين الخ ؟ وقد قرأ العرب القرآن

الكريم بلهجاتهم ، فأمالوا حيث لم تكن تميل قريش ، ومدوا حيث لم تمد الخ .
وعجب من أنه لم يحدث مثل هذا في الشعر المروى .

ورد على من اعترض عليه بأن اللهجات كانت قائمة بعد الإسلام فلماذا لم
تظهر في الشعر الذى قيل بعده ؟ بأن العرب قد اتخذوا بعد الإسلام لغة قريش
دستورهم (١)

اختلاف اللهجتين طبيعى

ولا يمارى أحد فى أن لهجة الشمال كانت مغايرة للهجة الجنوب ، ولا يدفع أحد
أن لهجات القبائل فى الشمال كانت تختلف إلى حد ما ؛ لأن هذا وذاك راجعان إلى
طبيعة المنطق وتأثير الوراثة والبيئة ، فليس بعجيب أن اختلفت اللهجات ، بل كان
العجيب لو أنها اتحدت ، فما زالت اللهجات تنشعب من اللغات وتتباعد وتتقارب
حسب العوامل المؤثرة فى الناطقين بها وفى اللغة نفسها .

والأمثلة على ذلك كثيرة جدا ، فالأمة العربية تصطنع لهجة قريش الآن
وتتخذها لسانها الأدبى والرسمى ، ولكننا نجد أن لهجة المصرى مغايرة للهجة السورى
والعراقى والحجازى ، وهذه المغايرة قائمة حتى فى النطق باللغة الفصحى
شعراً وخطابة .

بل اللغة المصرية العامية ذات لهجات ، مع أن أصلها واحد ، فللصعيد لهجة
وللدلتا أخرى ، ولقد تختلف لهجة الناس فى قريتين من (مركز) واحد على
قرب ما بينهما .

كانت اللهجتان مختلفتين إذاً ، ولكنه خلاف بين لهجتين أو لهجات من لغة
واحدة ، وقد تقاربت اللهجات فى أواخر العصر الجاهلى حتى كان أهل الحجاز
ونجد يفهمون عن أهل اليمن ويفهمونهم ، كما يتفاهم الآن سكان الصعيد وسكان

الوجه البحرى أو سكان السودان وسكان مصر ، وكما يتفاهم أهل باريس وسكان بروكسل .

أريد من هذا أن أقرر أن لا عجب فى أن يروى الرواة أن لهجة الشمال كانت غير لهجة الجنوب ، وأن هذا لا يطعن فى صحة ما قرره التاريخ أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب .

وقد جلى ابن خلدون هذه الفكرة فى قوله : « ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربى لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية فى دلالتها بأمور أخرى ... ولعلها تكون فى أواخره على غير المنهاج الأول فى لغة مضر ... ولقد كان اللسان الحميرى بهذه المثابة ، وتغيرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميرى وتصاريف كلماته ، تشهد بذلك الآنقال (النقوش) الموجودة لدينا ... ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر فى الكثير من أوضاعها ، وتصاريف وحركات إعرابها ، كما هى لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر » (١)

لم ير ابن خلدون إذاً فى اختلاف اللهجتين دليلاً على أن العدنانية لم تنشأ من القحطانية ، بل احتج لهذا الخلاف بأنه يشبه ما بين لغة عصره ولغة مضر التى نزل بها القرآن الكريم .

اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة

على أن النقوش التى تظهر اختلافاً بين لهجة الشمال ولهجة الجنوب غير القديمة ليس تاريخها محدد ، والخلاف فى جملة قليل طفيف لا يقطع الصلة بين اللغتين ، بل إنه يعززها ؛ لما بينهما من كثير من وجوه الاتحاد ، وليس معنى الخلاف أن لغة الجنوب ليست أصلاً للغة الشمال ، فلغتنا العامية انشعبت من العربية ولسكنها تباينها والإنجليزية الحديثة تولدت من الانجلوسكسونية وهى تباينها ، وفى فرنسا لغات

لها خصائصها ومع ذلك فإنها لا أثر لها في إنتاج الأدباء من أبناء هذه الأقاليم ، فلغة النقوش محلية ليست بذات صبغة أدبية ، فالنوبيون يكتبون اليوم بالعربية مع أنهم يتكلمون غيرها فيما بينهم ، والأمة العربية الآن تتكلم لغة وتكتب أخرى ، وما من شك في أن اللغة الإنجليزية واحدة ، ولكن البون عظيم بين إنجليزية تشوسر وإنجليزية ماكولي ، وبين إنجليزية ألفرد الملك وإنجليزية تشوسر .

وربما كانت لهجة الشمال في ذلك الوقت أيضاً مقاربة جداً للهجة الجنوب ، ولو عثرنا على نقوش بلغة الشمال من عهد نصوص الجنوب لوجدنا اللغتين متشابهتين ومتقاربتين تقارب الفرع وأصله ، لأن الموازنة بين لهجة عدنان التي رويت قبيل الإسلام بقرن ونصف قرن وبين لهجة قحطان التي كانت قبل ذلك بنحو خمسة عشر قرناً^(١) موازنة تغفل البيئة والزمن وأثرهما في اللغة ، وتهمل ما تعرض له سكان الجنوب من خلط بالآحباش والفرس ، ثم هي موازنة بين لغة عدنان في الشمال وبين لغة من بقوا من قحطان في الجنوب ولم يرتحلوا إلى الشمال ، ونحن نعلم أن كثيراً من القحطانيين قد هاجروا إلى الشمال ، وتربوا في بيئة أخرى ، ولهجت بلغة الشمال ألسنتهم ، وانقطع بلغة الجنوب عهدهم ، شأنهم شأن الأسر التركية الكثيرة التي وفدت على مصر ، وأقامت بها في العصر الحديث ، فها هو إلا زدح من زمن حتى نسوا تركيتهم ، وانطلقت باللغة العامية العربية ألسنتهم ، ولم يعد لهم بالتركية إلا نسب يحفظونه ، وكثير منهم يفسونه ، هذا مع البون الشاسع بين التركية والعربية العامية ، ومع القرابة الوثيقة بين لهجة الجنوب ولهجة الشمال ، وفي تاريخ اللغات مثل كثيرة تعزز هذا الرأي .

ونحن نعلم أن العرب كانوا يتفاهمون ، ولا يجدون مشقة في تفاهمهم ، سواء التقوا فرادى أم جماعات في نواديهم أو أسواقهم أو مواسمهم أو حروبهم ، فمثلاً

(١) يرى جلازر أن أقدم النقوش هي المعبية وأن أقدمها يرجع إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . ويرى مولر أن أقدمها يرجع إلى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد (النقد التحليلي لسكتاب الأدب الجاهلي ص ١٧٢)

كانت قريش ترحل إلى الشمال وإلى الجنوب قبل الإسلام فتخالط هؤلاء وهؤلاء ففقههم عنهم ، ويفهمون عنها ، واستهل الإسلام وعرض النبي عليه الصلاة والسلام الدين الجديد على القبائل ، ووفدت عليه وفودهم من أنحاء الجزيرة فتكلموا وتكلم معهم دون حاجة إلى ترجمان ، ونجد تفصيلاً عن وفد كندة برياسة الأشعث بن قيس ، وعن وفد همدان وما دار بينهم وبين الرسول عليه الصلاة والسلام من قول ، ولا نجد إشارة إلى صعوبة في التفاهم^(١) وبعث النبي كتباً إلى جهات كثيرة بلغة قريش ، وأوفد إلى اليمن علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل فلم يحتاجا في التفاهم إلى وسيط ، وأتاب عنه بعض المسلمين ليفقهوا القبائل في الدين ويجمعوا الزكاة ، ولم يرو التاريخ أن صعوبة في التفاهم نشأت في حالة من هذه الحالات .

حقاً كان لأهل اليمن لهجة تختلف بعض الاختلاف عن لهجة الحجاز ونجد في بعض مظاهر الصوت والدلالة ، والقواعد والمفردات ، فالنقوش التي قرئت تدل على أن لغة الجنوب أقدم من لغة الشمال ، وعلى أن الأولى أصل الثانية وليس بينهما فرق كبير .

فمن حيث الهجاء ترسم التاء المربوطة مفتوحة في اليمن كما في (كلبت) الحميرية وكتابة العدنانية ، ويحذف حرف المد غالباً من أواسط الكلمات وأواخرها كما في (ذ) الحميرية بمعنى (ذو) العدنانية و (ذن) بمعنى (ذان)

على أن هذه المغايرة الهجائية ليست فرقاً حاسماً ، لأن الكتابة رمز للغة ، وقد تقصر عما ترمز إليه ، ونحن الآن نسكتب (ذلك) بدون ألف بعد الذال (وهذان) بدون ألف بعد الهاء ، ونسكتب إسماعيل وإبراهيم أحياناً بغير الألف الوسطى ، وكان العرب في صدر الإسلام يكتبون بغير نقط ولكنهم يقرءون ما يكتبون . ومن حيث القواعد بعض الخلاف صغير كرسم القحطانيين نون التنوين ميماً مثل

(نعمتم) فى (نعمة) والنون والميم متقاربا المخرج ، وبعضه كبير مثل إثبات حرف العلة فى الفعل الناقص إذا اتصل بواو الجماعة كما فى (هَقْنِيُوا) الحميرية وأَقْنُوا العدنانية بمعنى أعطوا فى اللغتين .

ومن حيث المفردات بعض الخلاف طفيف كما فى (هَقْنِيُوا) السابقة إذ قلبت الهاء همزاً فى لغة الشمال ، وهذا القلب شائع عندهم نحو هراق وأراق وهياوأيا ، وكما فى عَدَوَ بمعنى اجتاز ، وبعضه كبير كوجود كلمات فى اليمنية ليست فى العربية الشمالية مثل (حجن) بمعنى لأن .

ومن المستطاع رد هذا الخلاف كله إلى أنه تطور فى اللغة .

ولكن ماذا نقول فى وجود كلمات فى الجنوب وليست فى الشمال ؟

الجواب على ذلك أن المعاجم قد ألفت بعد الإسلام ، فمن المحقق أن تَسَدَّ من جامعها كلمات مستعملة ، وقد وجدت كلمات فى الشعر الجاهلى ولم يسجلها معجم .

أما اختلاف الدلالة فإنه تطور أيضاً . وتمش مع الزمن والاستعمال والتجوز ، فشلا (بعل) معناها فى الجنوب صاحب وفى الشمال زوج ، و (وَقَه) معناها فى الجنوب أجاب وفى الشمال أطاع ، وبين المعنيين ارتباط وثيق كما ترى .

وأما التغيرات المبني على التخفيف فكثير كإبدال الهاء همزا فى أفعل الرباعى ، وكحذف آخر الفعل الناقص المسند إلى واو الجماعة كما سبق ، وكحذف الإشباع من الضمير المتصل الغائب نحو (أخوه) فى لغة الشمال و (أخهو) فى لغة الجنوب ، وهذا التخفيف دليل واضح على أن عربية الشمال تطورت من عربية الجنوب ، لأن التطور يحنح دائماً إلى التخفيف والتسهيل ، ونحن نرى ذلك فى لغتنا العادية المولدة من العربية ، ونراه فى الإنجليزية فشلا Large كانت تنطق فى عصر تشوسر (١٣٤٠ — ١٤٠٠ م) بتحريك الآخر و Have كانت تنطق فى عصر مارلو وشكسبير

بتحريك الآخر أيضا . وكانت علامة المضى تنطق متحركة في الأفعال الضعيفة فيقال

• Loved

أما التشابه بين اللغتين فقوى وكثير جداً كاتحاد الضمائر واسم الإشارة واتحاد بعض الكلمات لفظاً وإن لم يتفق المعنى تماماً ، واتحاد بعضها معنى وإن تغير اللفظ بعض التغير ، واتحاد بعضها لفظاً ومعنى ^(١) ، وهذا الاتحاد وهذه المغايرة الناشئة عن التطور تعزز رأى العرب القدماء فى أن لغة الشمال وليدة لغة الجنوب ، وتعزز ما قاله ابن خلدون من أن المضرية نشأت من الحميرية كما نشأت لغة العرب فى عصره من اللغة المضرية .

ومن الأمثلة على الاتحاد (بورك وتبارك اسم الرحمن الذى بالسما) و (نذرت للذى بالسما نذرا لأنها أخطأت ببيته ومحرمه ، ولأنها وطئت موطنا غير طاهر) وهناك مئات من الكلمات المشتركة بين اللغتين فى أقدم النقوش مثل أخ وأخت وركب ووثن وشبل وأسد وسبع وشهر وشيب وقلب وقليل وحادثة وغلالم وثن وفرس وإبل وحررة وخميس وخريف ومقتو بمعنى مساعد الخ ^(٢) . وإذا كانت اللغات السامية متقاربة فى أول أمرها فأحرى بلهجة الشمال ، ولهجة الجنوب أن تكونا متقاربتين بصورة أوضح وأقوى ، يقول الأستاذ جرجى زيدان : « وقد ساعد العرب على التوسع فى وسائل التجارة فضلا عن توسط بلادهم أنهم كانوا يتكلمون لغة قريبة من لغات أكثر الأمم المتمدنة فى ذلك الحين ، لأن اللغات السامية كانت يومئذ لاتزال متقاربة لفظاً ومعنى ، فالعربى والسكدانى والأشورى والعبرانى والحبشى والفينيقى كانوا يتفاهمون بلا واسطة ، لقرب عهد تلك اللغات من الشعب بما يشبه حال اللغات العامية العربية اليوم من اللغة الفصحى ، فكان العربى من حمير أو مضر إذا جاء العراق لايحتاج فى مخاطبة السكدانى أو البابلى أو الأشورى

(١) النقد التحليلى لكتاب الأدب الجاهلى ١٨٢-١٨٦

(٢) النابغة الذبياني عمر الدسوقي ١٢

إلى ترجمان ، وكذلك إذا يمم فينيقية أو الحبشة فإنه يفهم لسان أهليهما كما يفهم الشامي لسان أهل مصر اليوم ، ويؤيد ذلك ما جاء في التوراة عن إبراهيم الخليل ، فإنه تزوج من بلاد الكلدان في نحو القرن العشرين قبل الميلاد ، فاجتاز سوريا وفينيقية وبلاد العرب وخالط أهلها ولم يفتقر في مخاطبتهم إلى مترجم ، وكذلك بنو إسرائيل في تيههم حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، فإنهم قضوا أربعين سنة في أعلى جزيرة العرب ولم يحتاجوا إلى مترجم بينهم وبين أهلها ^(١) .

لماذا لم يظهر اختلاف اللهجات في أكثر الشعر المروى ؟

وهذا سؤال يدور بالخلد ويسترعى النظر ، معتمداً على ما سبق من تقرير المخالفة بين اللهجات ، ولكن الإجابة عنه ميسرة ، ومستمدة من حقائق مقررة :

١ — علمنا في تهذيب أطوار اللغة أنها بتراخي الزمن وتطاوله وجهود أبنائها ، واختلاط بعضهم ببعض تقاربت حتى كادت تمحى فروقها قبيل الإسلام إلا ما بقي من لهجات خاصة لم تستطع الألسنة أن تنفلت منها ، وقد نبه عليها العلماء ، ولو كان هناك خلاف جوهرى ما استطاع الإسلام في سنوات قليلة أن يلوى ألسنة الحميريين إلى لسان قريش ، ولما استطاع أن يستلغى العرب كافة بلهجة قريش .

٢ — والتاريخ يحدتنا بأن سيادة اليمن كانت منذ أواخر القرن الرابع الميلادى قد زالت ، وتناوشتها الفتن والمنازعات الداخلية ، ومنيت بالاحتلال الأجنبي الحبشى ثم الفارسى بينما شرع نجم القرشيين يتألق وشرع سلطانهم التجارى والثقافى والدينى يمتد على جيرانهم وعلى اليمن ، ولغة العدنانيين كانت حينئذ أرقى من لغة القحطانيين ، وقد خلفهم الحجازيون في مكانتهم التجارية منذ القرن السادس للميلاد .

على أن انتصار لغة على أخرى ليس ناشئاً عن الغلب السياسى وحده ، بل يرجع إلى عوامل أخرى أيضاً منها رقى اللغة ، وثروتها الأدبية والعلمية ، فالرومان أخضعوا

اليونان سياسيا ولسكنهم خضعوا لهم أديا وثقافيا ، والأترك لم يستطيعوا أن يثبتوا لغتهم في بلد من البلدان التي فتحوها .

٣ — على أن الرواة والعلماء لم يرووا الشعر ، ولم يدونوا اللغة على نطق القبائل قبل تهذيب قريش للغة ، ولسكنهم تناقلوا ما كان قبيل الإسلام ، وفي صدر الإسلام إذاً الأدب بلغة قريش في الأعم الأغلب ، ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام ^(١) ، وهم أرادوا من جمع اللغة وتدوينها تسجيلها وتسهيل تعلمها ، وتخليد أدبهم ، وخدمة علوم القرآن والحديث ، واللغة الكفيلة بتحقيق ذلك كله قرشية وهي مصرية راقية ، يقل فيها الاختلاف .

وأقدم ما وصل إلينا عن الأدب الجاهلي لا يعدو قرنين قبل الإسلام ، وكانت لغة الشمال قد تغلبت على لغة الجنوب ، واستأثرت بالمحادثة مع بعض تحريف ، وبالأدب دون تحريف والموازنة بين لغة الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا منذ أول القرن الخامس الميلادي وبين لغة النقوش التي ترجع إلى قرون قبل ذلك موازنة فيها تعسف ، وليس من الصواب أن يحكم باحث — بناء على ما بين المهجتين المتباعدتين الزمن من بعض الفروق — أن شعر امرئ القيس كله منحول لأنه بلهجة قريش وامرؤ القيس يعني الأصل

وكيف ينسى أن لغة اليمن في عهد امرئ القيس كانت غير لغة اليمن التي تروىها النقوش وهي قبله بقرون ، وأن امرأ القيس وأضرابه قد اصطنعوا لهجة الشمال لغة أدبية لهم ؟

٤ — ذلك أن اللغة العربية الشمالية جاورت اليمنية القديمة وصارعتها صراعا انتهى في أواخر العصر الجاهلي بانتصار العربية الشمالية ، لأنها كانت أرقى ثقافة وأدبا ، وأغزر مفردات ، وأدق قواعد ، وكان نفوذ عرب الشمال التجازي والسياسي والثقافي والأدبي والديني قد شرع يتغلغل في اليمن التي كانت ضعيفة في ذلك الوقت

فكانت جميع الظروف الملائمة للتغلب اللغوى عوناً للغة الشمال على لغة الجنوب ، وهذه الحالة شبيهة بحال اللغة الألمانية في صراعها مع لهجات المناطق السويسرية المجاورة لألمانيا ، وبحال اللغة الفرنسية في صراعها مع لهجات المناطق البلجيكية والسويسرية المجاورة لفرنسا ، فقد انتصرت الألمانية والفرنسية كما انتصرت لغة العدنانيين على لغة القحطانيين ؛ لأن الظروف متشابهة ، بل إن القرابة القوية بين العربية الشمالية والجنوبية قد سلحت الأولى بسلاح لم يكن للألمانية والفرنسية لأن قوة القرابة بين اللسانين المتصارعين تدلل لأرقاهما سبل الانتصار ^(١).

وقد صرعت العربية الفارسية ، واستعرب كثير من الفرس ، وكان من ذرائعهم أدباء شعروا ونثروا بلسان عربى مبین كما شعر ونثر العرب الخُلص .

وكان للدوريين من اليونان شعر وأوزان ، ولليونانيين شعر وأوزان ، فلما ظهرت أثينا على البلاد اليونانية ذاع الشعر اليونانى والأوزان اليونانية ، وجرى عليهما الدوريون إذا شعروا أو نثروا ، وعدلوا عن لغتهم ولهجاتهم وأوزانهم وأساليبهم إلى لغة الأثينيين ولهجتهم وأوزانهم وأساليبهم .

ولم يكن اصطناع اللغة السائدة للتعبير الشعرى نهج الشعراء وحدهم ، بل شاركهم رعاها هذيل الضاربون قرب مكة ، فاصطنعوا فى شعرهم لغة تغاير لغة التخاطب ، على أنها مستمدة من جميع اللهجات ، والعرب يفهمونها فى كل مكان ، ويبدو أن هذه اللغة الغنائية أو الشعرية لم تسدْ فى الحجاز ونجد وحدهما ، بل امتدت إلى قلب البلاد العراقية أيضاً ، وصارت بعدُ أم العربية الفصحى ^(٢).

وقد اتخذ شعراء الجزيرة فى شتى أماكنهم وعلى الرغم من اختلاف قبائلهم لغة مشتركة ، تدل سماتها على أنها لغة شعرية ... وهناك أمثلة عدة تدل على وجود لغات

(١) فقه اللغة على عبد الواحد بتصرف ص ٦٠-٦٣

(٢) العرب والامبراطورية العربية . بروكلمان ٣٢

أدبية في الأمم البدائية مع وجود لهجات مختلفة للقبائل الشمالية لم يحدثنا النحاة إلا عن قليل منها (١)

تغلبت لغة الشمال في ميادين الأدب كما تغلبت في الخطاب ، غير أن لغة الأدب دامت خالصة فصيحة لا تكاد تغاير لغة الشمال في شيء ، وهذه طبيعة اللغات المنتصرة في كل عصر وكل أمة ، يصيبها التحريف في لغة الحديث ولا يكاد يمسها في لغة الأدب . فاللغة اللاتينية تطورت تطوراً كبيراً في لغة المحادثة في البلاد التي دانت لها ، فنشأت منها لهجات مغايرة لأصلها وهي : الفرنسية والإيطالية ، والإسبانية ، والبرتغالية الخ . ولكنها ظلت لغة أدب وكتابة حتى فاتحة العصر الحديث دون أن يعثرها تغيير كبير ، واللغة العربية القرشية مازالت لسان الأدباء إلى اليوم ، ولم تتأثر باللهجات المحلية والقومية ولكنها في لغة المحادثة خاضعة لتأثير البيئة والنطق .

« وفي إنجلترا اليوم عشرات من اللهجات التي يشق على كثير من الإنجليز فهمها ، والإحاطة بها كلها ، بيد أن هناك لهجة واحدة ينطق بها الجميع حين يتقابلون أو يتعلمون أو يكتبون ، وهي لغة الأدب والصحافة ولغة الطبقة الراقية واسمها اللهجة التعليمية العامة Public School Dialect » (٢)

بعض الشعر المروى يسجل اللهجات

على أنهم دونوا لهجات شافهم بها الأعراب في البادية ، وهي بقايا من اللهجات المتباينة التي كانت في الجاهلية ، وقد اقتصروا في تدوينهم على ما يحتاجون إليه في تصاريफ الكلام ، أو إقامة الدليل على قاعدة أو منطق ، ولم يتوسعوا ليدونوا اللهجات كلها ، وتاريخها ، ولو قد فعلوا ذلك لجاءنا علم كثير . وقد وصل إلينا كثير من اللهجات المختلفة حفظها التاريخ على أنها مناح من النطق

(١) النابغة الذبياني ص ١٧ . عن بروكلمان

(٢) النابغة الذبياني ١٦

اختصت بها بعض القبائل ، وقررها كثير من العلماء ، ورووا عليها شواهد ، ويمتد بنا البحث لو تقصينا كل ما قيل ، فنجتزي ببعض إشارات لتكون مثالا لهذا الاختلاف الذي قال الدكتور طه إنه لا أثر له فيما روى من شعر .

وكتب اللغة والأدب والنحو حوافل بهذا الاختلاف .

وسنضرب أمثلة لبعض أنواعه معتمدين على نصوص تمثل هذه الأنواع :

١ — قد تختلف دلالة اللفظ على معنى ، كهذه الآيات من قصيدة خنافر الحميري

التي رواها أبو علي القالي :

ألم تر أن الله عاد بفضله فأنقذ من لفتح الزخبيخ خنافرا

وكشف لي عن جحمتي عماهما وأوضح لي نهجي وقد كان دائرا

دعاني شصار للتي لو رفضتها لأصليت جمرأ من لظى الهوب واهرا

وفسر الزخبيخ بالنار ، والجحمتين بالعينين ، والهوب بالنار ، والواهر بالساكن

مع شدة الحر ، وقال إنها كلها كلمات يمانية .

وأورد لشاعر يمني أيضاً قوله في أمه التي أكلها الذئب :

فيا جحمتا بكّي على أم واهب أكيلة قلوب ببعض المذائب

وفسر القلوب بالذئب ، وهو القلب أيضاً ، والكلمتان يمانيتان (١)

وقال لسان العرب : القلب والقلوب والقلوب والقلوب والقلوب : الذئب ،

يمانية ، وذكر البيت السابق (٢)

وقال القالي في موضع آخر : السرحان الأسد بلغة هذيل ، والذئب بلغة غيرهم

من العرب (٣)

وتستعمل ذو اسما موصولا عاما في لهجة طيء ، قال بجير بن عنمة الطائي :

(١) الأمالي ١/١٣٥-١٣٦ (٢) لسان العرب مادة قلب

(٣) الأمالي ١/١٠٦

وإن مولاي ذو يعيرني لا إحنة عنده ولا جريمة
ينصرني منك غير معتذر يرمى ورائي بالسهم والسلمة^(١)
وفي رواية لسان العرب بامسهم وامسلة
وقال سنان بن الفحل الطائي :

فإن الماء ماء أبي وجدى وبثرى ذو حفرت وذو طويت^(٢)
وأهل الجنوب يعرفون بأم لا بأل كما في رواية اللسان لبنت بحير .

٢ — وتختلف القواعد النحوية نفسها اختلافا كان له ضجيج وعجيج . فمثلا بعض
اللهجات على إعراب المثني بالالف ، ومنه :

نزود منا بين أذناه طعنة دعته إلى هابي التراب عقيم^(٣)
وبعضها على لزوم الأسماء الخمسة الألف ، ومنه قول أبي النجم العجلي
أوروبة^(٤)

إن أباه وأبا أباه قد بلغا في المجد غايتاهما
وهذيل تستعمل متى بمعنى من ، ويجرون بها ، ومنه قول أبي ذؤيب :
شربن بماء البحر ثم ترفعت متى لجج خضر لهن نثيج
وبعض القبائل لا يجزمون الفعل بلم ، ومنه :

لولا فوارس من نعم وإخوتهم يوم الصليفاء لم يوفون بالجار^(٥)
وبعضها تحذف النون من المضارع المرفوع ، ومنه :

أيدت أسرى وثيقتي تدلكني وجهك بالعنبر والمسك الذكي^(٦)
والطائيون يحذفون آخر الفعل الناقص في غير إسناد إلى ضمير بارز ، ومنه .
نستوقد النبل بالخصيض ونص طاد نفوساً بُنْتُ على السكرم^(٧)

(١) المؤلف والمختلف للآمدي ٥٨ جريمة : جريمة . سلمة : حجارة (٢) حماسة أبي تمام ٢٣٦/١

(٣) فقه اللغة لابن فارس . تاريخ آداب العرب للرافعي ١٤٥/١

(٤) الدرر اللوامع ج ١ ص ١٢ (٥) الخصائص لابن جني ٣٩٣ والمفني والأشعموني

(٦) الخصائص ٤٩٤ (٧) شرح حماسة أبي تمام للمرزوقي ١٦٥/١

وقد وردت كلمة (أملوك) دالة على الجمع في مدح حُجَّية بن المضرب ليعفر ابن زُرْعَة ملك رُدْمان — قبيلة من عرب اليمن : —

فإن كنت سآلا عن المجد والعلا وأين العطاء الجزل والنائل الغمر فنقب عن الأملاك واهتف بيعفر وعش جار ظل لا يغالبه الدهر^(١) وقالوا إن الأملاك اسم جمع بمعنى الملوك ، وفي رأي أنها ليست اسم جمع بل هي جمع للملك ، وهذه الصيغة اليمينية ومثيلاتها متأثرة بصيغة حبشية مماثلة لها ، فالأحباش يستعملون (أفعول) للدلالة على الجمع ، والعرب قد ضموا أول الجمع ، على أنه نادر في العربية ، فلم يذكر السيوطي منه إلا ثلاث كلمات : أموز للقطيع من الظباء ، وأحبوش لجبل الحبش ، وأركوب لجماعة الركاب^(٢) .

٣ — وقد يقع الاختلاف في بنية الكلمة نفسها بإبدال حرف مكان حرف فمثلا أنطى لغة في أعطى ، ومنه قول الأعشى :

جياذك في الصيف في نعمة تُصان الجلال ، وتُنطى الشعيرا^(٣)
وفي لعل لغات منها لعن ولغن ، ولأن ، ولون ، وتقول العرب : لعلك ، وعلك ولعنك ولغنك ، أنشد أبو النجم :
اغد لعلنا في الرهان نرسله^(٤)

وتتعاقب السنين والثناء ، ومنه قول أبي ذؤيب :
قَصَرَ الصبوح لها فُشِّرَجَ لحمها بالني فهي تثوخ فيها الإصبع^(٥)
وتتعاقب العين والهمزة فتبدل الهمزة عينا في لغة قيس ، ومنه قول ذى الرمة :
أَعَنْ تَوَسَّمت من خرقاء منزلة ماء الصبابة من عينيك مسجوم ؟^(٦)
وتبدل العين همزة مثل قول : حطائط بن يعفر أو دريد
أربنى جواداً مات هزلاً لألني أرى ماترين أو بخيلاً مخلدا^(٧)

(٢) الزهر ٨٣

(١) الأملأ ٥٣/١

(٥) الأملأ ١١٤/٢ شرح : خلط . النى :

(٤) الأملأ ١٣٤/٢

(٣) الأملأ ٥٧/١

(٧) الأملأ ٧٩/٢

(٦) لسان العرب مادة عين

الشجم . تثوخ : تدخل

وتبدل السين تام ، ومنه :

يا قبيح الله بنى السعلاة عمرو بن يربوع شرار النات
ليسوا أعفاء ولا أكيات

ويروى غير أعفاء ولا أكيات (١)

وتبدل كاف الخطاب للأثني شينا ، وأنشد ابن الأعرابي :

على فيما أبتغى أبغيش بيضاء ترضيني ولا ترضيش
وتطبي ود بنى أيش إذا دنوت جعلت تنيش
وإن نأيت جعلت تدنيش وإن تكلمت حش في فيش
حتى تنقى كنعنيق الديش (٢)

وخضعت كاف الديك لما خضعت له كاف الخطاب فانقلبت شينا أيضا .

وتبدل أواخر بعض الكلمات المجرورة ياء ، مثل الثعالى فى الثعالب ، والأرانى فى الأرانب ، قال النمر بن تولىب الشكرى فى وصف عقاب :

لها أشارير من لحم تمره من الثعالى ، ووخر من أرائها (٣)
وذكر المبرد فى السكامل أن بنى سعد بن زيد مناة ، ولحم ، ومن قاربها يبدلون
الحاء هاء لقرب المخرج ، فيقولون فى مدحته مدهته . ومنه قول رؤبة

« لله در الغانيات المدّه ، أى المدح

وقوله فى الأرجوزة نفسها :

« برّاق أصلاد الجبين الأجله ، أى الأجلح (٤)

وتختلف حركة المنقوص ، فمثلا تميم تقلب ياء المنقوص ألفا وتفتح ما قبلها ،
فتقول فى بقيّ بقيّ ومنه قول زيد الخيل

(١) الأمالى ٦٨/٢ (٢) بحال تلعب ١٤١/١

(٣) سر الصناعة لابن جنى . تاريخ آداب العرب للرافعى ٥٥/١

(٤) الأمالى ٩٧/٢ أصلاد : جمع صلد وهو الحجر الصلب . الأجلح : الذى انحسر شعره من مقدم

رأسه فوق الصدغين

نصول بكل أبيض مشرفي^١ على اللاقى بَقى فيهن ماء
وأهل الشمال يقولون هو خَلْب نساء أى يلصق بقلوبهن ويحل منهن محل
الخلب وهو حجاب القلب ، وأهل اليمن يقولون هو خَلْم نساء ، والخلم عندهم
الصديق^(١)

القراءات واللهجات

على أن قراءات القرآن الكريم إن هي إلا مظهر لتسجيل هذه اللهجات وهى أمثلة
تاريخية لاريب فيها .

ذكر المبرد أنه قد قرى^٢ (ولا تأخذكم بهما رأفة فى دين الله) بدل رأفة^(٢)
وقرى^٣ (أفتمرونه على مايرى) بمعنى أفندفعونه بدلا من أفتمارونه^(٣) وذكر أن فى
مصحف ابن مسعود (ودوا لو تدهن فيدهنوا)^(٤) والقراءة فيدهنون على
العطف . وقرأ عبد الله بن مسعود (ما ينظرون إلا زقية) والقراءة (إلا صيحة)
والمعنى واحد^(٥) .

وذكر الطبرى أن قراءة زيد بن ثابت (إن آية ملكه أن يأتكم التابوه) وأن
قراءة أبان بن سعيد وعثمان (التابوت) ، وقرأ عيسى الشقفي قوله تعالى (يتواری
من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هـون) (على هوان) وقرأ الأعشى
(على سوء)^(٦)

اللغة واللهجات

ولم تتمثل اللهجات فيما روى من شعر فحسب ، بل تمثلت أيضا فى اللغة المروية

(٢) السكامل ٣٢٤/١

(٤) السكامل ٢/٢

(٦) القرطبي ١١٧/١٠

(١) الأمالى ٢٤/١

(٣) السكامل ٣٥١/١

(٥) تفسير الطبرى والكامل للمبرد

نفسها ، فالتضاد ، والترادف ، وكثرة الجموع للكلمة الواحدة ، وتغيير بنية الكلمة بتقديم حرف وتأخير حرف — هذه كلها من آثار اللهجات .

فمن أسباب الترادف في اللغة أن اللهجات امتزجت فصارت أشبه ببحيرة ، امتزج بمياهها الأصلية مياه أخرى انحدرت إليها من جداول كثيرة ، وإلى هذا يشير ابن جني في كتابه الخصائص إذ يقول : وكلما كثرت الألفاظ على المعنى الواحد كان ذلك أولى بأن يكون لغات الجماعات اجتمعت لإنسان واحد من هنا وهناك ، ويشير إليه ابن فارس في كتابه الصحابي إذ يقول : « فكانت وفود العرب من حجاجها وغيرهم يفدون إلى مكة للحج ، ويتحاضرون إلى قریش مع فصاحتها وحسن لغاتها ورقة ألسنتها ، فإذا أتتهم الوفود من العرب يتخيرون من كلامهم وأشعارهم أحسن لغاتهم وأصنى كلامهم ، فاجتمع ما تخيروا من تلك اللغات إلى سلامتهم التي طبعوا عليها ، ^(١) »

وكثرة صيغ جموع التكسير للكلمة الواحدة كعبد وناق وناجمة عن اختلاف اللهجات ، وأن لكل قبيلة وزنها القياسي المطرد غالبا ، وشبهه بهذا اختلاف أوزان الأفعال الثلاثية ، وتعدد مصادر الفعل الثلاثي ، وليس من الصواب في شيء أن يعدد قوم جموع الكلمة الواحدة ويعددوا مصادر الفعل الواحد ، ويختلفوا هذا الاختلاف في بنية الفعل نفسه ، لأن اللغات وسائط للإفهام لا للتعمية والإبهام .

ثم إن الكلمة قد تكون واحدة في الأصل ولكن اللهجات تختلف فيها بتقديم حرف أو وضع حرف مكان حرف ، كأن تقول قبيلة فاذ وتقول أخرى فاض ، وتقول قبيلة عاث وتقول أخرى عثا الخ ، وواضح أن أصل الكلمة واحد .

وفي كل هذه الأحوال التي أسبقنا جمع مؤلفو المعاجم مفردات اللغة جمعا لامراعاة فيه لنسبة كل كلمة لقبيلتها ، فنخيل إلينا أنها كلها لهجة واحدة .

على أن جامعي اللغة من النصوص ومن مشافهة العرب في البوادي قد توخوا العرب الفصحاء الخالص الذين لم يفسد لسانهم بخلاط ولا حضارة ، وآثروا أن يرووا عن قيس وتميم وأسد ، ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين ، ولم يأخذوا عن غيرهم من بقية القبائل ، أو ممن تأثروا بالحضارة ، أو ممن كانوا يتأخمون الأمم المجاورة .

رحلات القحطانيين إلى الشمال

أما أن القحطانيين نزحوا من الجنوب إلى الشمال حتى قبل عصر إبراهيم عليه السلام فإن التاريخ يثبته ، فقد كانت قبائل يمنية الأصل في شمالي الجزيرة قبل الإسلام مثل : لخم وغسان والأزد ، وهو جو فنكر ، وليونارد كنج قررا في الفصل الذي كتبه عن بلاد العرب قبل الإسلام في المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث العالمي : « أن نفس سيل الأمم الممكن تتبعه في العصر الإسلامي من جنوبي شبه الجزيرة إلى الممالك المتمدينة حول البحر الأبيض المتوسط كان جاريا في الوقت الذي طغى فيه الكنعانيون ثم الآراميون على الشرق ، ، والذي كتب تاريخ العرب القديم في المجلد الثامن من تاريخ المؤرخ العالمي يقول : « إن اللوحات الأولى المنبعثة من أول شيء يستحق أن يسمى تاريخا تكشف لنا عن بلاد العرب خاضعة كلها أو كلها تقريبا لحكم جنس جنوبي الأصل هم العرب الصرحاء أو العرب القحطانيون ، والأستاذ سييس A. H. Sayce العالم الأثرى الكبير يقول في الفصل الذي كتبه عن الامبراطوريات الأولى في العراق ومصر في المجلد الثالث من تاريخ هارمزورث : « إن تاريخ الشرق القديم الذي كان منذ أقل من قرن لا يملأ إلا صفحات ، قد كشف البحث الأثرى الآن عنه فصار المؤرخون يعرفونه كما يعرفون تاريخ القرون الوسطى ، وإن أول ذلك التاريخ المعروف سابق على الألف الثالث قبل المسيح ... ونحن نستطيع أن نقرأ الخطابات التي كتبها الملك البابلي الذي جاهده إبراهيم ، وعصر

موسى بل إبراهيم أخذ يبدو لنا فى أدق تفاصيله ، كما يبدو منظر طبيعى من خلال تلسكوب وبعض ما كتبه الأقدمون تخليداً لمجد بابل ، يذهب إلى ما وراء عصر حمورابى معاصر إبراهيم ... وكثير من خطابات حمورابى وخلفائه من بعده محفوظ اليوم فى متاحف أوربا وكانت مصر خاضعة للهكسوس وكان الساميون الكنعانيون يعبرون الصحراء ذاهبين آيبين ، ويجدون لدى بلاط قومهم الهكسوس ما وجده إبراهيم من الترحاب ، ولم يكن عجباً أن يرقى عبرى مثل يوسف إلى مقام وزير ،^(١)

ونحن نعلم أن الهكسوس قد حكموا مصر نحو خمسة قرون حتى أخرجهم أحسن الأول حوالى ١٦٠٠ ق . م وأن عهد إبراهيم جد يوسف عليهما السلام كان قبل المسيح بمالا لا يزيد على ألفى عام .

والعرب العاربة كانوا يسودون شبه الجزيرة قبل ذلك كما اتضح من قبل ، وإذا فما يقوله تاريخ الأدب عن أصل اللغة العدنانية متفق مع الحقائق التاريخية ، وسيادة القحطانيين على البلاد العربية ، كانت قبل عهد إبراهيم عليه السلام بآمد بعيد .

والتوراة تحدثنا بصلة الجنوب بالشمال ، فتذكر أن ملكة سبأ وفدت على سليمان عليه السلام حوالى ٩٥٠ ق . م ، والقرآن الكريم عرفنا هذه الوفادة . ثم إن المراجع التاريخية الإفرنجية تقرر أن فى العُلا شمالى بلاد العرب نقوشاً معينة تدل على صلة المعينيين بهذه الجهة .

وكان اليمينيون يحترفون بالتجارة ، وينقلون متاجر الهند إلى مصر والشام ، مارين فى طريقين من الجنوب إلى الشمال ، أحدهما يحوب الحجاز ، وقد أقامت قبيلة جرهم بالحجاز قبل وفادة إسماعيل ، وقيل إنها وفدت عليه ، وكان ذلك قبل الميلاد بنحو ألفى عام .

« وقد ثبت من النقوش التي كشفت أواخر القرن الماضي أن قبائل معينة هجرت الجنوب ويممت الحجاز وشمالاً الجزيرة في الألف الثاني قبل الميلاد، وهي القبائل التي عرفت في التواراة باسم (معونيم) وفي الكتابة الهيروغليفية باسم (معين مصران) وغزت بطون منهم جنوباً فلسطين، وأنشأوا لهم دولة في منطقة غزة، وظلوا إلى عهد الإسكندر الأكبر،^(١)

ولما انهار سد مأرب حوالى ١١٥ ق.م وغمر البلاد هاجر كثير من سكان اليمن إلى الشمال، والقرآن الكريم يسجل هذا، وكان من المهاجرين بنو ثعلبة (ومنهم الأوس والخزرج) وخزاعة وقد جاؤوا الحرم، وأجلوا عنه قبيلة جرهم الأولى. والأزد وقد استوطن بعضهم عُمان، وبعضهم استوطن تهامة، وهم أزد شنوءة، وأقام جفنة بن عمرو وأبناءؤه بالشام، ومنهم الغساسنة، وطى قد استوطنوا جبلى أجا وسلمى النخ.

وهؤلاء المهاجرون قد حملوا معهم لغتهم اليمنية إلى المناطق التي هاجروا إليها، وامتزجت اللغتان بالمجاورة، والمصاهرة، والمعاشرة، والمتاجرة، والمخالطة، امتزاجاً جعلها لغة واحدة، إلا ما كان ينجم عن بعض العادات الكلامية.

معنى كلمة ابن العلاء

أما كلمة أبي عمرو بن العلاء: «ما لسان حمير وأقاصى اليمن بلساننا ولا عريبتهم بعريبتنا»^(٢) فهي صالحة لأن يكون معناها:

١ — أن الحميرية الموغلة في القدم — وكانوا كثيراً ما يعبرون عن القحطانية بالحميرية — هي التي تغاير لغة قریش، فليست حميرية القرن الخامس الميلادى — وهو

(١) النابغة الذبياني ص ١١

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٨

عهد الأدب الجاهلي المروى — هي المغايرة للغة قريش ؛ لأن النصوص التي عثروا عليها في النقوش وفيها خلاف بين اللغتين ، نصوص معينة أو سبئية أكثرها غير مؤرخ . وفي رأى جلازر أن أقدمها هي المعينية ، وأقدم هذه يرجع إلى القرن الخامس عشر أو السادس عشر قبل الميلاد ، وأحدثها يرجع إلى القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد ، وفي رأى مولر أن المملكة المعينية والسبئية كانتا متجاورتين وأن أقدم تلك النقوش يرجع إلى ما بين القرن التاسع والثامن قبل الميلاد .

٢ — أن اللغتين عريبتان ، ولكن التطور والمكان والزمان والأحداث والألسنة الخ قد شققت من اللغة الواحدة لهجتين ، بدليل : « ولا عريبتهم بعريبتنا ، والعرب يطلقون على اللهجة اللسان .

اتصال العرب بغيرهم

التجارة . اتصالهم بالفرس بطرق شتى . اتصالهم باليونان والرومان . اتصالهم بالحبشة . آثار هذا الاتصال في اللغة والأدب .

لم يكن العرب بمعزل عن العالم القديم ، فقد تبينا صلاتهم بالعالم القديم في بعض ما مر بنا ، وكان لهذا الاتصال طرق شتى ، وله في اللغة والأدب والعقلى آثار .

التجارة

١ — اتصل العرب بالأمم منذ عهد قديم اتصالا تجارياً ، فكانوا يقدمون على الفرس بالتجارات والبياعات ، ويمتارون من عندهم الحب والتمر والثياب وغيرها^(١) ، وكانوا إذا أجدبوا قصدوا العراق وفارس فيعطيهما الفرس التمر والشعير ، ويعودون إلى بلادهم خوفاً من الذلة في سلطان دولة أعجمية^(٢) . واستعان الفرس بعرب الحيرة على خفارة قوافلهم التجارية التي كانت تتغافل في الجزيرة العربية ، ولا سيما إلى سوق عكاظ ، لقاءً جعل يقدمونه لأشراف القبائل الذين يحمون القوافل من العدوان ، وكثيراً ما كانوا يردونه إن اعتدى معتد على القافلة وعجزوا عن حمايتها^(٣) ، وقد يجرُّ الاعتداء على القافلة المحمية حرباً كما حدث في يوم السلان ، إذ قامت حرب بين النعمان الثالث أبى قابوس بن المنذر الرابع (٥٨٥ - ٦١٣ م) وبني عامر ابن صعصعة ، لأن العامرين اعتدوا على لطيمة كسرى أبرويز المتجهة إلى عكاظ ، فغضب النعمان واستنفر أخاه لأمه وبرة بن رومانوس الكلبي ، وجمع بني تميم ، والتقى الجيشان بالسلان ، واقتتلا قتالاً شديداً ، وكان النصر لبني عامر على جيش النعمان^(٤) .

(٢) السكامل لابن الأثير ٢٢٨/٢

(٤) السكامل . لابن الأثير ٣٩١/١

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبري ٢٩١/١

(٣) جغرافيا الإسلام ١٤

٢ - وكان في جزيرة العرب طريقان للتجارة بين المحيط الهندي والشام ، أحدهما يسير من حضر موت شمالاً إلى البحرين على الخليج الفارسي ثم إلى صور ، والآخر يسير من حضر موت موازياً البحر الأحمر متجنباً صحراء نجد اللافتحة وهضاب الشاطئ الوعرة ، وعلى هذا الطريق مكة .

وكانت التجارة قديماً في قبضة اليمنيين ، حلقة الاتصال بين أوروبا وبقاع الشرق القاصية ، ولم يقتصروا على منتجات بلادهم بل شملت متاجرهم ، السلع التي كانوا يجلبونها من إفريقية والهند أيضاً ، وكانت النفائس كالعاج والعطور والأفاويه والحجارة الكريمة والتبر والأرقام وغيرها أهم ما يتاجر به العرب . واستعانوا بالفينيقيين زمناً طويلاً لبيع سلعهم ، لأن لغة هؤلاء وهؤلاء متقاربة ، فكان الفينيقيون يخزنون سلع العرب في مدنهم الكثيرة كمدينة صور ، ثم يبعثون بها إلى الخارج لبيعها . وكان العرب والبابليون يتنافسون في الاتجار مع الهند ، (١)

وكان لسبأ أسطول بحري يخز البحر الأحمر ناقلاً البخور إلى مصر لحاجة الهياكل إليه ، وقد ورثت سبأ من معين هذا المركز التجاري ، كما كانت لها قوافل تخترق الصحراء إلى الشام وفلسطين لنقل السلع التجارية (٢) .

كان السبئيون إذن هم حلقة الاتصال التجاري بين الهند والحبشة وبين شمالى آسيا وإفريقية وجنوب أوروبا ، وكانت عُمان مركزاً لهذه المتاجر ، إليها ترد ومنها تصدر ، وكانت المتاجر تنقل أول الأمر في البر إلى البحر الأحمر ثم تحملها السفن إلى مصر والشام والعراق ، وبعد حين قضت صعوبة الإبحار في البحر الأحمر أن تنقل التجارة برّاً من شبوت في حضر موت إلى مأرب حاضرة سبأ ثم إلى مكة ، ثم بطراً فغزة .

فلما تغير طريق التجارة حوالى القرن الأول للميلاد ضعفت سبأ وتهدم سدها ،

(١) حضارة العرب . جوستاف لوبون ١١٩

(٢) تاريخ الإسلام السياسي ٤/١ عن ٣٠٤ Hell, Cultur der Araber P. P.

وتفرق سكانها والراجع أن تحويل تجارة الهند إلى طريق البحر كان في أيام البطالسة، لأن دولتهم قامت في القرنين الثاني والأول قبل الميلاد بمشروعات تجارية الغرض منها السيادة على التجارة الشرقية . ومنها تعبيد الطريق بين قنا والقصير ، وإعادة بطليموس الثاني (٢٨٥ - ٢٤٦ ق) فتح القناة التي تصل النيل بالبحر الأحمر ، وبذلك صارت السفن تأتي من الشرق إلى مصر ، واستطاع التجار المصريون من البطالسة أن يخرجوا من البحر الأحمر إلى المحيط الهندي ، وأن ينافسوا التجار العرب منافسة خطيرة ^(١) . وخلفتها حمير ، وامتد سلطانها على قبائل العرب الشمالية إلى القرن الخامس الميلادي ، ولكنها لم تصل إلى مكانة سبأ في بسطة ملكها وعظم ثرائها ، لأن الحميريين فقدوا مصدر ازدهارهم عند ما تحول قسم من التجارة الهندية إلى مصر ، ^(٢)

وقد أثرى اليمنيون من مركزهم التجاري ، ومن خصوبة أرضهم ، فعاشوا في سعة من العيش لم ينعم بها غيرهم من سكان شبه الجزيرة العربية ، ولا سيما كبرائهم الذين كان لهم حظ من رفاهية العيش والتنعيم والتفنن في الأكل ، يطبخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان ، ويُعمل فيها السكر والقلوب ، وتُطَبَّب أو انيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفي بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابه جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهنود والحبوش ، ولهم الديارات الجليلة ، والمباني الأنيقة ، ^(٣)

٣ — وإذا ما رجعنا إلى بزوغ الدعوة إلى الإسلام وجدنا المشركين يضطهدون المسلمين اضطهاداً يلجئ مئات منهم إلى الفرار بدينهم ، فإلى أين فروا ؟ فروا إلى الحبشة التي تربطهم بها صلات تجارية ، ومنهم من هاجر بأهله كعثمان بن عفان وأبي حذيفة بن عتبة بن ربيعة ، وبعثت قريش في أثرهم مندوبين عنها ليزينا للنجاشي ألا يقبل

(١) عصر ما قبل الإسلام ٧٤

(٢) العرب والأمباطورية العربية : بروكلمان ١٤ (٣) صبح الأعشى ٧/٥ الغاشية : الزوار والأصدقاء . القلوب : جمع قلب مثله القاف وهو شجرة النخلة ولها يؤكل ، وهو جارها (لسان العرب)

في مملكته هؤلاء الوافدين هما عبد الله بن أبي ربيعة وعمرو بن العاص ، وجمعت قريش لها هدايا للنجاشي ولبطارقه ، وتحاور مندوبا قريش والمسلمون في مجلس النجاشي وبطارقه ، وانتصر المسلمون وطاب لهم المقام في بلاد الحبشة مدة من الزمان ^(١)

ولم يكن اختيار النبي بلاد الحبشة مهاجراً للمسلمين ناشئاً عن أنها تدين بدين سماوي فهي لا تتعدى عليهم ولا تضطهد الإسلام لأنه دين سماوي ، فقد كانت الحيرة وغسان بلاداً مسيحية ، وكانت اليمن يهودية ومسيحية ، فلماذا لم يلجأ إليها المسلمون ؟ إنما كان هذا الاختيار الموفق ناشئاً عن صلات وثيقة تجارية بين العرب والحبشة من ناحية ، إذ كانت أرض الحبشة لقريش متجراً ووجهاً ^(٢) ، وناشئاً عن شيء آخر هو أن الحبشة مسيحية مستقلة ، أما الحيرة فمسيحية خاضعة للفرس المجوسية ، واليمن فيها مسيحية ويهودية ولسكنها خاضعة أيضاً للفرس ، والغساسنة مسيحيون خاضعون للدولة الرومانية ، فكيف يحمون ديناً يغيّر دين ساداتهم ؟ ثم إن المناذرة والغساسنة واليمنيين كلهم عرب ، وقريش التي تناوى النبي وتناصبه العداء عربية ، فهم ينفسون على رجل عربي أن يستلب منهم نفوذهم كما نفست عليه قريش .

٤ — ومنذ القرن السادس الميلادي آتت التجارة إلى عرب الحجاز ، وسهلت لهم مكانتهم الدينية أن يجوسوا خلال الصحراء آمنين ، واشتروا برحلتى الشتاء والصيف ، لإيلاف قريش إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ،

وقد اعتمد الروم على تجار مكة في حاجاتهم حتى فيما يترفون به كالحرير ، ويستظهر بعض مؤرخي الإفرنج أنه كان في مكة بيوت تجارية رومانية تزاوّل الشؤون التجارية للرومان ، وكان فيها أحباش يرعون مصالح قومهم التجارية ^(٣)

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٤٤ - ٣٦١ (٢) الأغاني ٥٠/٨ ساسي

(٣) عن فجر الإسلام ص ١٥ Arabia Befor Mohammad

وصارت مكة تعج بالتجار من كل ناحية ، وكانت تهيمن على المتاجر التي تتجه من الجنوب إلى الشمال وتمربها ، وتتقاضى عليها ضرائب . وكانت حياة المسكين قائمة على التجارة ، ومن أجل ذلك كانوا لا يجدون من وقتهم ما يمكنهم من الانخراط في أعمال الشرطة أو الجيش ، فاستأجروا جنداً مرتزقة من إفريقية ومن الأحباش ، ليقوموا بحراستهم . واصطبغت مكة بصبغة دولية ، فسحت المجال أمام ألفاظ رومية وفارسية وحبشية ، ولذلك سماها بعض المستشرقين بندقية بلاد العرب (فينيسيا) . وذكر المستشرق أو ليرى في كتابه (بلاد العرب قبل الاسلام) أن مكة أصبحت مركزاً للصيرفة ، يمكن أن يدفع فيها التجار أثمان السلع التي ترسل إلى بلاد بعيدة ، كما كانت عملية الشحن والتفريغ لهذه التجارة الدولية تتم هناك ، كذلك كان يتم التأمين على المتاجر وهي تجتاز الطرق المخوفة بالمخاطر .

وكان للدول المجاورة كيزنطة وفارس ممثلون في قلب مكة كما ذكر ذلك الواقدي والمستشرق لا مانس^(١) .

وكانت القوافل التي تقصد الشام تسوق من أسواق عينتها لهم الحكومة الرومانية ، لتحصل منهم على الضرائب ، ولتراقب الوافدين من الأجانب ، فمثلاً كانت تنزل في أيلة (العقبة الآن) ومنها إلى غزة حيث تتصل بتجار البحر الأبيض ، ومن غزة يذهب بعض التجار إلى بصرى . وقد رأى سترابو هذه القوافل ، وشبه القافلة منها بجيش . وذكر الطبري أن قافلة منها بلغت خمسمائة بعير وألفاً ، وقد كانت عير قريش يوم بدر ألف بعير^(٢) .

وكان بنو عبد مناف أول من سنّ الرحلتين لقريش ، رحلة الشتاء والصيف ، فقد أخذ هاشم وعبد شمس والمطلب ونوفل العيصم لقريش ، فانتشر القرشيون من الحرم ، أخذ لهم هاشم حبلاً من ملوك الشام الروم وغسان ، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر فاختلفوا إلى أرض الحبشة ، وأخذ لهم نوفل حبلاً

من الأكاسرة فاختلفوا إلى العراق وفارس ، وأخذ لهم المطلب حبلا من ملوك حمير فاختلفوا إلى اليمن فخير الله بهم قريشاً وأصلح أحوالها فسموا المجبرين ^(١) .

وكانوا يفتخرون باتساع متاجرهم ، فمثلا سهيل بن عمرو الذي رفض النبي عليه الصلاة والسلام أن ينزع ثيابه أسلم وحسن إسلامه ، وسكن الناس يوم قبض الرسول بقوله ... إن أكثركم قتباً في بر وجارية في بحر ^(٢) .

هـ — ولهذا الاتصال التجاري آثار في اللغة والعقلية نرجى الحديث عنها إلى بيان الاتصال بكل أمة ، ولكننا نذكر هنا أثر اتصالهم بالهند .

كانت السيوف ترد إليهم من الهند ، فقالوا هندی وهندواني ومهند ، وكانت القناتنقل من الهند إلى الخط على ساحل البحرين فقالوا خطية ، ونسبوا إلى الهند المسك فقالوا داريني لأنه كان يجلب من الهند إلى دارين .

وكانوا يجلبون من الهند عطوراً وبخوراً ، من مندل وقار وغيرهما .

قال امرؤ القيس :

وباناً وألويّاً من الهند ذاكياً ورنداً ولُبني والسكباء المقتراً ^(٣)

وقال ابن هرمة :

كان الركب إذ طرقتك باتوا بمندل أو بقارعتي قمارا

وقال العجير السلولى :

إذا ما مشيت نادى بما في ثيابها ذكى الشذى والمندلى المطير ^(٤)

وفي اللغة العربية كلمات هندية مثل مسك معرب مشكا وإن عدها السيوطي والفيروز ابادى فارسية ، وقال ابن جنى في التدليل على أصلتها العربية إنها مشتقة من أمسكت الشيء ، كأن المسك لطيب رائحته يمسك الحاسة عليه ولا يعدل

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ١٨٠/٢ وجمع الأمثال ٦٦/٢

(٢) البيان والتبيين ٢٥٣/١

(٣) ديوان امرؤ القيس ٦٩ المقتر : الساطع الراحمة (٤) لسان العرب مادة طير

بها صاحبها عنه ^(١) ، وفي هذا تكلف وتمحل ؛ لأن الكلمة سنسكريتية أصلها (مشكا) ، ^(٢) . وذكروا الكافور على أنه فارسي ، وهو هندي على لغة أهل ملقا ، ولفظه عندهم (كابور) ^(٣) .

وليس أدل على وثاقة الصلة التجارية بين الهند والعرب من أن نواحى البصرة كانت تسمى فى صدر الإسلام أرض الهند ، وسميت الأبلّة كذلك ، وما نشأت هذه التسمية إلا لتردد كثير من السفن إلى هناك حاملة متاجر الهند .

الاتصال السياسى والحربى بالفرس

الاتصال قبل إنشاء إمارة الحيرة . الاتصال عن طريق الحيرة . الاتصال عن طريق اليمن . الاتصال عن طريق الحروب . آثار الاتصال .

- ١ -

اتصل العرب بالفرس قبل أن تنشأ إمارة الحيرة بزمان طويل . فقد أدوا الجزية للملك قورش (٥٥٠ ق . م) بـ خورآ ولبانا ، ألف وزنة كل سنة ، وكانوا أعوانا لقمبيز فى فتحه مصر ٥٢٥ ق . م يعدون له الماء فى البادية ، وكانوا فى حملة الفرس على اليونان ٤٩٢ ق . م يساعدون الفرس وهم فى مؤخرة الجيش لثلاثين عاماً ، ^(٤) ويذكر المسعودى أن ساسان بن بابك جد أردشير كان يحجج إلى الكعبة ويهدى إليها ^(٥) وكان ذلك قبل تأسيس إمارة الحيرة . وفى عهد سابور الأول بن أردشير (٢٤١ - ٢٧٢ م) كان بين دجلة والفرات مدينة يقال لها الحضر ، وكان بها رجل من الجرامقة يقال له السَّاطِرُون ، والعرب تسميه الضَّيْزَن ، ويرى ابن الكلبي أنه

(١) الخصائص ١١١/١

(٢) تاريخ آداب اللغة العربية . جرجى زيدان ٤١/١ (٣) المرجع السابق ٤٢/١

(٤) العرب قبل الإسلام . جرجى زيدان ١٠١ نقلاً عن هيرودوت

(٥) مروج الذهب ١١٦/١

من قضاة وأنه كان ملك أرض الجزيرة وكان معه من بني العبيد وقبائل قضاة
مالا يحصى ، وقد بلغ ملكه الشام ، ثم إنه أغار على بعض السواد ، وافتخر بهذه
الإغارة عمرو بن إله من قضاة :

لقيناهم بجمع من علاف وبالحيل الصلادمة الذكور
فلاقت فارس منا نكالا وقتلنا هرايذ شهر بور
دلّفنا للأعاجم من بعيد بجمع الجزيرة كالسعر^(١)
وقد شخص سابور إلى حصن الضيزن فحاصره حولين ، قال الأعشى :

ألم تر للحضر إذ أهله بنعمى وهل خالد من نعم ؟
أقام به شاهبور الجنو د حولين يضرب فيه القدم
فما زاده ربه قوة ومثل محاوره لم يقم
فلما رأى ربه فعله أتاه طروقا فلم ينتقم
وكان دعا قومه دعوة هلبوا إلى أمركم قد صرم
فموتوا كراما بأسيا فكم أرى الموت يحشمه من جشم^(٢)

ثم فتح سابور الحصن وقتل الضيزن ، وأباد الذين كانوا معه من قضاة ، فقال
عمرو بن إله وكان مع الضيزن :

ألم يحزنك والانباء تنمى بما لاقت سراة بني العبيد
ومصرع ضيزن وبني أبيه وأحلاس السكتائب من تزيد
أناهم بالفيل مجلات وبالأبطال سابور الجنود

(١) تاريخ الطبرى ٦٢/٢ والأغانى ١٤١/٢ الدار . الهرايذ : خدام نار المجوس الواحد هرايذ .
شهر بور : هو سابور الأول وكان من أسمائه شاه بور ومعناها ابن الملك كما فى الطبرى ٦٠/١
واسكنها وردت بحرفة فى الشعر هكذا شهر زور . والعرب يسمونه سابور الجنود
علاف : علاف بن حلوان بن عمران ابن الحاف بن قضاة وهو ريان أبو جرم من قضاة وإليه
تنسب الحيل العلافية . الصلادمة : القوة الشديدة
(٢) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٦١/٢ وابن هشام ٢٨/١

فهدم من أواسي الحصن صخرا • كأن ثقالة زبر الحديد (١)

ويفسح الرواة لخيالهم المجال فيزعمون أن ابنة الضيزن عشقت سابور وعشقها ،
وأنها دلته على حيلة ليقوض الحصن بها ، ثم غدر بها (٢)

وفي أيام سابور الثاني المسمى بذى الأكتاف (٣٠٩ - ٣٧٩ م) انتهز العرب
فرصة صغر سنه فأغاروا على أطراف مملكته ، كما طمع فيها الترك والروم . وكان
العرب أقرب إلى بلاد الفرس ، وكانوا من أحوج الأمم إلى تناول شيء من معاشهم
وبلادهم ، لسوء حالهم وشظف عيشهم . فسار جمع عظيم منهم في البحر من ناحية
بلاد عبد القيس والبحرين وكناظمة حتى تخوم الفرس وغلبوا أهلها على مواشيهم
وحروثهم ومعاشهم ، وأكثروا الفساد في تلك البلاد ، ومكثوا على ذلك مدة
لا يحلبهم أحد من الفرس . فلما كبر سابور انتخب ألف فارس من صناديد جنده
وأبطالهم وسار بهم فأوقع بمن اتجمع بلاد فارس من العرب ، وقتلهم تقتيلا ، وأسروهم
أسرا عنيفا ، ولم ينج منه إلا من هربوا . ولم يكتف بذلك ، بل اجتاز البحر إلى بلاد
العرب فورد الخط والبحرين وقتل أهلها ، ثم ورد هجر فأروى الأرض بدماء من
هنالك من تميم وبكر وعبد القيس ، حتى كان الهارب منهم يرى أنه لن ينجيه غار
في جبل ولا جزيرة في بحر ، ثم عطف إلى بلاد عبد القيس فأباد أهلها إلا من هرب
منهم ، ثم أتى اليمامة فأسرف في القتل ، ولم يمر بماء من مياه العرب إلا غوره ، ولا
بئر إلا طمسها ، ثم أتى قرب المدينة فقتل وأسروهم ، ثم عطف إلى بلاد بكر وتغلب فيما
بين مملكة فارس والروم بالشام فقتل وسبي وانتقم ، وأسكن الأسرى من العرب من
بكر بن وائل كرمان ، ومن بني حنظلة الأهواز .

وعاش سابور حياته ضاريا بقتل العرب ، ونزع أكتاف رؤسائهم ، وكان ذلك
سبب تسميتهم إياه ذا الأكتاف (٣) .

(١) الطبري ٦٢/٢ والأغانى ١٤٢/٢ ومعجم البلدان ٢٩١/٣ ونسب الشعر لجدي بن الدهات

(٢) الطبري ٦٣/٢ والمسعودي ٢٩٦/١

(٣) تاريخ الأمم والملوك الطبري ٦٦/٢ - ٦٩ ومروج الذهب ١٢٢/١ - ١٢٤

وقد انضم العرب بعد إيقاعه بهم إلى خصمه ليلانوس ملك الروم ، في الحرب التي قامت بينهما ، حتى قالوا إن العرب كانوا في جيش ليلانوس مائة وسبعين ألفاً^(١) وتحدد دائرة المعارف الإسلامية حملة سابور على العرب بأنها كانت حوالى ٣٥٠م وتذكر من نتائجها أنه أسكن العدد العظيم من الأسرى في الأهواز وتوَّج وكرمان^(٢) وكان هذا العداء المستحكم يأبى إلا أن يغزو البحرين أردشير الثاني (٣٧٩ - ٣٨٥م) وكان من جرائمها أن ألقى ملكها بنفسه في البحر^(٣).

— ٢ —

رأى الفرس أن خير وسيلة لاتقاء هذا الغزو أن يقيموا من القبائل العربية المجاورة للحدود درءاً يقيهم غزوات العرب ، ويحجز بين حدود الفرس والروم ، فأنشئوا إمارة الحيرة .

والحيرة مدينة كانت على ثلاثة أميال من السكوفة على بحيرة النجف وعلى حدود البادية ، وكان أهلها منذ القرن الثالث الميلادى ثلاثة أصناف تنوخ وهم العرب أصحاب المظال وبيوت الشعر ينزلون غربى الفرات ، والعباد وهم السكان الأصليون الذين سكنوا المدينة وبنوا فيها ، والأحلاف وهم النازلون بالحيرة من غير هؤلاء جميعاً ، وسموا بذلك لتحالفهم مع العباد .

وهؤلاء السكان جميعاً من العرب .

وأول من تأمر على هذه النواحي مالك بن فهم الأزدي ، وخلفه ابنه جذيمة الأبرش ، ثم خلفه ابن أخته عمرو بن عدى (٢٦٨ - ٢٨٨ م) ، وهو أول الأمراء اللخمين آل نصر ، وأول من اتخذ الحيرة منزلاً ، وأول من يعده أهل الحيرة من ملوك العرب بالعراق^(٤).

(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة بكر

(١) الطبرى ٦٨/٣

(٣) العبر . ابن خلدون ١٦٩/٢

(٤) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٣٧/٢

وكان تأسيسها في عهد سابور الأول بن أردشير ملك الفرس ، حوالي ٢٤٠ م إذ أسس الفرس إمارة الحيرة على نهر الفرات وأمروا عليها عمرو بن عدى ^(١) ، أو كان تأسيسها في عهد أبيه أردشير بن بابك مقيم الطبقة الرابعة من ملوك الفرس المعروفين بآل ساسان أو الأكاسرة (٢٢٦ - ٢٤١ م) ثم توالى الأمر من بعد عمرو ^(٢) . وكان ملوك الحيرة يخضعون للفرس خضوعاً اسمياً ، والفرس يعفونهم من الإتاوة كفاء حمايتهم للحدود ممن يغير عليها .

وبلغ من إعجاب الفرس بهم أن يزد جرد الأول (٣٩٩ - ٤٢٠ م) الملقب بالاثم دفع ابنه بهرام جور إلى النعمان بن امرئ القيس بن عمرو (النعمان الأعور ٤٠٣ - ٤٣١ م) ليربيه تربية عربية ، وأمره ببناء الخورنق مسكناً له ، وأن يخرج به إلى بوادي العرب ^(٣) ، وفي رواية أخرى أن الذي تعهد تربية بهرام المنذر بن النعمان ^(٤) (٤٣١ - ٤٧٣ م) ولكن هذه الرواية لا تتمشى مع سنوات حكم يزد جرد والمنذر ، فالأقرب إلى الصواب أن يكون الذي تعهد بهرام النعمان لا ابنه . ومهما يكن من شيء فقد رضع بهرام من امرأتين عربيتين وامرأة فارسية ، وتلمذ على أساتذة من الفرس ومن العرب ، وقد أعانه العرب في أن يخلف أباه على عرش فارس ^(٥) ، وتوسط عظماء الفرس وأهل بيوتاتهم بالعرب ليتجاوز بهرام عن مساءتهم إليه ^(٦) . وقالوا إن بهرام أجاد اللغة العربية ولغات أخرى ، وقرض الشعر العربي والفارسي ^(٧) ، وذكر شمس الدين الرازي في كتابه « المعجم في معايير أشعار العجم » أن بهرام جور أول من نظم شعراً فارسياً ، وأنه أخذ الشعر عن العرب في الحيرة ، وأن علماء الفرس استهجنوا منه قرض الشعر ، ونهوه عنه .

(١) فجر الإسلام ١٨

(٢) تاريخ الطبري ٣٧/٢ وتاريخ الإسلام السياسي . الدكتور حسن إبراهيم ٤٨

(٤) الطبري ٧٤/٢

(٣) الطبري ٧٢/٢

(٦) الطبري ٧٨/٢

(٥) الطبري ٧٤/٢ - ٧٦

(٧) مروج الذهب ١ / ١٢٦

وكان ملوك الحيرة أحيانا يصلون من القوة إلى حد يسوى بينهم وبين الفرس والروم ، فهم في قليل من الأحيان يحاربون الفرس ، وفي كثير منها يحاربون الروم منتصرين للفرس وموالين لهم ، وقد حدثوا أن النعمان الأعور كانت عنده كتيبتان يقال لإحدهما دوسر وهى عربية لتنوخ ، ويقال للآخرى الشهباء وهى فارسية ، فكان يغزو بهما بلاد الشام ومن لم يذن له من العرب ^(١) ، وعظمت مكانة الحيرة في عهد المنذر الثالث الملقب بابن ماء السماء (٥١٤ - ٥٦٣ م) حتى إنه لما عقد الصلح بين الفرس والروم في عهد الامبراطور جستنيان عام ٥٢٢ م كان من شروطه أن يدفع الرومان غرامة لملك القرس ، وللمنذر .

وقد تنصرت الحيرة في عهد النعمان بن المنذر أبى قابوس (٥٨٥ - ٦١٣ م) على يد الجاثليق صبر يشوع ^(٢) ، ويقول العرب إن النعمان تنصر على يد عدى بن زيد العبادى ، ومن السهل التوفيق بين الروايتين ، فربما حجب إليه عدى النصرانية ، وعمده الجاثليق .

على أن في تاريخ الكنيسة الشرقية ما يثبت أن الحيرة عرفت النصرانية قبل ذلك فقد كان عليها أسقف سنة ٤١٠ م وأن ملكها حمى النصرانية ٤٢٠ م ، وإذن فقد كانت النصرانية معلومة في الحيرة وديننا معتنقا قبل النعمان بن المنذر . ولسكن لا بورت Labourt يقرر أن ملوك الحيرة كانوا على الوثنية إلى أواسط القرن الخامس الميلادى ، وأن المنذر بن امرىء القيس بن ماء السماء (٥١٤ - ٥٦٣ م) كان يقدم ذبائح من البشر إلى العزى ^(٣) ، وكان من نسائه امرأة من غسان - اسمها هند الكبرى أم عمرو ابن هند مضط الحجارة - مسيحية . وقد بثت الميل إلى دينها في نفس ابنها فنشأ نصرانيا ، كما أنها بنت ديرا .

ويظهر أن النصرانية لم تعمر بعد عمرو بن هند ، لأن خليقته قابوس أو لأن

المنذر الرابع (المنذر بن المنذر بن ماء السماء) (٤٨٢ - ٥٨٥ م) صبا إلى الوثنية ، ونشأ ابنه النعمان وثنيا ثم تنصر .

وكان آخر ملوكهم الأقوياء النعمان الثالث بن المنذر (٥٨٥ - ٦١٣ م) أو (٥٨٠ - ٦٠٢) وهو أبو قابوس ، وصاحب النابغة ، وقاتل عميد بن الأبرص وعدي بن زيد في إحدى الروايات ، وقد مات في حبس كسرى ٦١٣ م .

ثم أقام كسرى إياس بن قبيصة خلفا للنعمان على الحيرة ، ولم يكن من أهل بيت النعمان ، وأشرك معه رجلا فارسيا في الحكم اسمه النخير جان . وكان من أثر ذلك ضعف الحكومة في الحيرة ، وقيام حرب ذى قار بين الفرس يؤيدها إياس بن قبيصة وبعض العرب ، وانتصر العرب . ثم انفرد بملك الحيرة آزاد بن يابان الهمداني سبعة عشر عاما ، ولم يمكث بعده المنذر بن النعمان بن المنذر الذي يسميه العرب المغرور إلا ثمانية أشهر إذ قدم خالد بن الوليد ففتح الحيرة ٦٣٣ م ^(١) .

— ٣ —

ولم يقتصر اتصال العرب بالفرس على تلك الغزوات المتبادلة ، ولا على الحيرة والصلات التجارية ، فقد تغلغل نفوذهم إلى اليمن وحكموها ، فالمؤرخون جميعاً على أن سيف بن ذى يزي استنجد بكسرى أنوشروان (٥٣١ - ٥٧٨ م) لطردهم من الأحباش من اليمن فأنجده ، وكان قد استنجد بقيصر فلم ينجده ، لاتفاق الدين المسيحي بين الروم والأحباش ، ولرغبة قيصر في بقاء اليمن في حكم أحلافه الأحباش لتكون طريقاً إلى تجارته وقضاء على تجارة الفرس منافسيه .

اتجه سيف بن ذى يزن إلى النعمان بن المنذر ليتوسط له لدى كسرى ، فقبل بعد لآى أن يمدّه بجيش ، وخلصت اليمن من حكم الحبشة ، وخضعت لحماية الفرس ^(٢) .

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبري ١٥٦/٢ - ١٥٧

(١) الطبري ١١٥/٢ - ١٢٤ وسيرة ابن هشام ٦٥/١ - ٧٣

وقد وفدت وفود العرب على سيف بن ذى يزن تهنئته بطرد الحبشة، وسجل أبو الصلت والد أمية بن أبي الصلت هذا بقوله :

لا يطلب الثأر إلا كابن ذى يزن فى البحر خيم للأعداء أحوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عشرة من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى بنى الأحرار يقدمهم تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
من مثل كسرى شهشاه الملوك له أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا ؟
لله درهم من فتية صبروا ما إن رأيت لهم فى الناس أمثالا
بيض مرابزة ، غلب ، أساوره أسد تربب فى الغيصات أشبالا
أرسلت أسدا على سود الكلاب فقد أضحى شريدهم فى الأرض فلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا فى رأس غمدان دار أمنك محلالا
وأطل بالمسك إذ شالت نعامتهم وأسبل اليوم فى برديك إسبالا (١)

وبنو الأحرار الذين عناهم أمية فى شعره هم الفرس الذين قدموا مع سيف ابن ذى يزن ، وهم إلى الآن يسمون بنى الأحرار بصنعاء ، ويسمون باليمن الأبناء ، وبالسكوفة الأحامرة ، وبالبصرة الأساوره ، وبالجزيرة الحضارمة ، وبالشام الجراحمة (٢) . وذكر ابن هشام قصيدة لسيف بن يزن ، وأخرى لعدى بن زيد فى الابتهاج بإجلاء الحبش عن اليمن .

(١) أخبار مكة للأزرقي ٩٣/١ والطبري ١٢٠/٢ وابن هشام ٦٩/١ مطبعة حجازى وابن قتيبة ١٧٧ وابن سلام ١٠٢ والأغانى ٧٣/١٦ ونسب الشعر إلى أمية لا إلى أبيه .

المفردات : سال : مخفف سأل . مرابزة : جمع مرزبان وأصل معنى الكلمة وزير الفرس والمراد أنهم ذوو رأى ومكانة . غلب جمع أغلب : قوى شديد . أساوره : جمع أسوار بضم الهزة وكسرها وهو قائد الفرس أو فارسهم أو مجيد الرمي بالسهم . تربب : تربى الغيصات : جمع غيضة وهى المسكان الملتف الشجر ويكون مأوى السباع . فلال : جمع فل وهو المهزوم . غمدان : قصر عجيب الصنعة بين صنعاء وطبوة . شالت نعامتهم : هلكوا . أسبل : أرخ ثوبك مختالا

(٢) الأغانى ٧٣/١٦

ولاشك أن اليمانيين والعرب عامة كانوا مورتورين من سوء حكومة الأحباش، ومحاولتهم استعمار الحجاز، وهدم البيت الحرام، ولذلك فرحوا بالخلاص منهم، ورجبوا بالفرس، ثم إنهم - وإن لم يستقلوا استقلالاً تاماً في عهد الحكم الفارسي - كان لهم النفوذ والسلطان، لأن سيف بن ذى يزن كان يحكم اليمن ويدفع الجزية كل عام لكسرى^(١). وما من شك في أن العرب كانوا يأنفون أن يحكمهم الأحباش، ونحن نثبت ذلك في قول سيف بن ذى يزن لكسرى: «أيتها الملك غلبتنا على بلادنا الأعرية، فجتتكت لتنصرني عليهم، وتخرجهم عنى، ويكون ملك بلادى لك، فأنت أحب إلينا منهم»،^(٢) فهو يعبر عنهم بالغربان، ويؤثر أن يحكمهم الفرس على أن يحكمهم هؤلاء الغربان.

وقد مر بنا قول أبي الصلت (أرسلت أسداً على سود الكلاب) وهو يعنى الفرس بالأسد، ويعنى الأحباش بالكلاب السود.

وقد أمعن سيف بن ذى يزن في الأحباش تفتيلاً حتى أفناهم إلا بقايا ذليلة قليلة، فاتخذهم عبيداً له وجمّازين يسعون بين يديه بحرابهم، ومكث على ذلك زمناً غير طويل، فاغتالوه، ووثب إلى الحكم رجل من الحبشة فأخذ يقتل ويفسد، فأرسل كسرى جيشاً يقوده وهرز، وأمره أن يقتل كل من باليمن من الأحباش، ففعل، وأمره كسرى على اليمن، فتولى حكومتها وكان يجي ماها إلى كسرى، ولما مات ولى كسرى ابنه المرزبان، ولما مات ولى كسرى ابنه البينجان، ولما مات ولى بعده ابنه خر خسره، ثم عزله وولى بعده باذان، ولم يزل عليها حتى بعث الله النبي عليه الصلاة والسلام^(٣).

ولقد كان اتصال العرب بالفرس ذا آثار في الشعر العربي، من حيث إنه فسح

(٢) الطبرى ١١٦/٢

(١) الطبرى ١١٧/٢

(٣) الطبرى ١٢٠/٢ - ١٢١

بجالات للقول ، تحميساً على الاستبسال ، أو إشادة بالانتصار ، فكثيراً ما كان يشتبك العرب والفرس في حرب ، إذ يغير العرب على حدود الفرس فيرد الفرس إغارتهم ، وقد يتعقبونهم إلى أعماق الصحراء ، وقد أسبقنا ما فعله سابور ذو الأكتاف .

وفي عهد كسرى حدث ما يشبه هذا ، إذ غزت إياد سواد العراق ، واعتدت على ملوك آل نصر ، وعلى امرأة من شريفات العجم ، فغزاهم كسرى ، ولكنهم انتصروا أول الأمر انتصاراً مبيناً ، حتى قالوا إن بهاجم الفرس وأجسادهم كانت كالتل العظيم ، وكان إلى جانبهم دير فسمى دير الجماجم . ولكن كسرى لم يلب هذه الهزيمة فبعث في آثارهم مالك بن حارثة ومعه أربعة آلاف من الأساورة ، فبغتهم ، واقتتلوا قتالاً شديداً حتى ظفر بهم ، وهزمهم ، واسترد منهم ما كانوا قد أصابوا من الأعاجم يوم الفرات .

وكان لقيط بن يعمر قد حذر إياد بعد النصر بقصيدة طويلة منها :

يا قوم لا تأمنوا إن كنتم غيراً
على نسائكم كسرى وما جمعاً
هو الخلاء الذي تبقى مذلتة
إن طار طائرهم يوماً وإن وقعا
هو العفاء الذي يجتث أصلهم
فمن رأى مثل ذا يوماً ومن سمعا؟
وقد بذلت لكم نصحي بلا دخل
فاسقيظوا إن خير العلم مانفعا^(١)
وحذرهم مرة أخرى بقوله :

سلام في الصحيفة من لقيط
على من بالجزيرة من إياد
فإن الليث آتيكم دليفاً
فلا يحسبكم سوق النقاد
أتاكم منهم ستون ألفاً
يزجون الكتائب كالجراد^(٢)

وهم قد تحاربوا أيضاً في يوم الصفة ، وسببه في رواية أن باذان عامل كسرى

(١) الأغاني ٢٠/٢٣ — ٢٤ ساسي

(٢) المؤلف والمختلف ١٧٥ والأغاني ٢٠/٢٤ النقاد : صغار الغنم أو الغنم القبيحة الشكل

بالين أرسل إلى كسرى عيراً تحمل ثياباً من اليمن ومسكاً وعنباً ومناطق محلاة ، وكان يخفها بنو الجعيد المراديون ، فلما كان بيلاد بنى حنظلة بن يربوع أغار عليها هؤلاء وغيرهم ، وقتلوا حماها ومن معهم من الفرس واقتسموها ، وعلم الفرس الذين بهجر فساروا إلى بنى حنظلة وقتلواهم قتلاً شديداً انهزم الفرس فيه ، واستشاط كسرى غضباً ، فانتقم من العرب بضرب أعناقهم غيلة في الحصن المسمى المشقر .

وفي رواية أخرى أن العير كانت تحمل رماحاً أرسلها كسرى إلى اليمن وكان العرب يخفونها بالتناوب كل في منطقته لقاء جعل ، ولكن هوزة بن علي الحنفي تعهد بخفارة العير في المناطق كلها على أن يأخذ وحده الجعل ، فغضب بنو سعد من تميم وهاجموا العير واقتسموها ، وقتلوا الأساورة وأسروا هوزة حتى فدى نفسه ، وفي ذلك يقول شاعر بنى سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدجوا بهوزة مقرون اليدين إلى النحر

وردنا به نخل اليمامة عانيا عليه وثاق القدِّ والحلق السمر

وسار هوزة إلى كسرى فأرسل معه جيشاً ، ونزلوا المشقر من أرض البحرين ، وبعث إلى العرب ليمتاروا بما معه ، وكان أعظم من أتاه بنو سعد من تميم ، وكانت الحيلة للقضاء عليهم أن يدخلوا من باب المشقر رجلاً رجلاً فتضرب أعناق الداخلين ، ولكن العرب كشفوا الخديعة وثاروا ، فاضطر هوزة والأساورة إلى الهرب ، وتبعهم بنو سعد والرباب يقتلون من يلحقون به ^(١)

ويروى صاحب العفو الفريد أن الذي كشف المكيدة ونه قومه إليه وضرب سلسلة باب المشقر بسيفه فقطعها اسمه خيرى بن عبادة ^(٢) ويروى الطبري أن اسمه عبيد بن وهب ، وقد افتخر بعمله في قوله :

(١) الأغاني ١٦/٧٥-٧٦ ساسي

(٢) العقد الفريد ٣/٣٥٤

ألا هل أتى قومي على النأى أننى حميت ذمارى يوم باب المشقر
ضربت رتاج الباب بالسيف ضربة تفرج منها كل باب مضبر^(١)
وقد مدح الأعشى هوزة بن على ، وأشار إلى مكرمة له يوم المشقر ، لأنه لما رأى
ثورة القوم وأنهم قد نذروا به كلم المسكعبر - قائد الفرس - فى أن يعفو عن مائة
من خيارهم ، فوهبهم له يوم الفصح :

سائل تميما به أيام صفقتهم لما رآهم أسرى كلهم ضرعا
فقال للملك أطلق منهم مائة رسلاً من القوم مخفوضا ومارفعا
ففك عن مائة منهم إسارهم وأصبحوا كلهم من غله خلعا
بهم تقرب يوم البصيح ضاحية يرجو الإله بما أسدى وما صنعا

وافتخر المجذام التميمي بأسر هوزة ، فقال :

وهن عصبن هوزة يوم حجر فظل ينزاع المسد المضارا^(٢)
وأشهر الوقائع بين الفرس والعرب يوم ذى قار ، فقد غضب كسرى على
النعمان انتقاما منه لأنه قتل عدى بن زيد ، وحبسه فى سجن بخانقين أو بساباط حتى
مات ، وقيل إنه ألقاه تحت الفيلة فداسته حتى مات ، فجعلت بكر بن وائل تغير على
السواد ، فوفد قيس بن مسعود بن قيس بن خالد على كسرى ، وسأله أن يجعل له
أجراً على أن يضمن له ألا يدخل البكريون السواد ، فأقطعه الأبله وما والاها ،
ولسكن البكرين أغاروا ، فحنق كسرى عليهم وغضب على قيس فحبسه بساباط ،
وعبأ كسرى جيوشه ، فقال قيس ينذر قومه :

ألا ليتنى أرشو سلاحى وبغلتى لمن يُخبر الأنبياء بكر بن وائل^(٣)
وعلم كسرى أن أسلحة النعمان وماله وولده عند هانى بن مسعود الشيباني

(١) تاريخ الطبرى ١٣٤/٢ مضبر : سمك متين (٢) معجم الشعراء ٤٧١ رسلا : فى لبن من القول

(٣) هذه رواية الأغاني للبيت الأول من القصيدة ورواية معجم الشعراء ٣٢٥ : لأن تعلم الأنبياء

والعلم وائل . وهى أصح لأنها لا إفواء فيها بالنسبة لبقية الأبيات

فبعث إليه يطلبها ، فرفض هاني ، ودعا كسرى إياس بن قبيصة الطائي وكان عامله على عين التمر وما والاها إلى الحيرة ، فأتاه بصنائه من العرب الذين كانوا بالحيرة ، واستشارهم في الإغارة على بكر بن وائل ، ثم جيش من العرب ثلاثة آلاف رجل ومن الفرس ألفين ، وجعل على الفرس قائدين هما الهامرز وخنابرين ، وبعث اللطيمة مع الجيوش - وهي غير كانت تخرج من العراق فيها البز والعطرو والألطف إلى عامله باليمن وقال إذا فرغتم من عدوكم فسيروا باليعرب إلى اليمن - وبلغ الخبر هاني بن مسعود وبكر بن وائل ، فانتهوا إلى ذي قار ، ولما التقى الزحفان قال هاني : يا قوم مهلك مقدور خير من نجاء معرور ، وإن الحذر لا يدفع القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر ، المنية ولا الدنية ، واستقبال الموت خير من استدباره ، والطعن في الثغر أكرم من الطعن في الدبر ، يا قوم جدوا فما من الموت بد ...

وحسبهم عمرو بن جبلة الإشكري بقوله :

يا قوم لا تغرركم هذه الخرق ولا وميض البيض في الشمس برق
من لم يقاتل منكم هذا العنق فجنبوه الراح واسقوه المرق

وقطع العرب وضمن رواحل نسائهم حتى يقتسروا نفوسهم على الثبات ، دفاعا عن الحرائر اللاتي لا يستطعن الفرار على رواحل قد تقطعت أحزمة رحالها ، وانجلت المعركة عن هزيمة الفرس ، واقتفى البكريون آثارهم إلى السواد ، وغنموا وقسموا لطيمة كسرى على نسائهم ، فذلك قول الدهان بن جندل :

إن كنت ساقية يوما على كرم فاسقي فوارس من ذهل بن شيبانا
واسقي فوارس حاموا عن ديارهم واعلى مفارقهم مسكا وريحانا

وكانت الواقعة لتنام أربعين سنة من مولد النبي وهو بمكة بعد أن بعث ، وقيل بعد أن هاجر ، وقيل كانت بعد غزوة بدر بأشهر ، ولما علم رسول الله صلى الله عليه

وسلم بانتصار العرب قال : هذا يوم انتصفت فيه العرب من العجم ونُصرت عليهم^(١)

وقد أشاد الشعراء بهذا النصر أيما إشادة ، من ذلك قول الأعشى :

فدى لبني ذهل بن شيان ناقتي وراكبها يوم اللقاء ، وقلت
هم ضربوا بالخنو خنو قراقرم مقدمة الهامرز حتى تولت^(٢)

— ٥ —

ولم تقتصر آثار هذا الاتصال على الأدب الذي أذكته الحروب ، بل إنها تجاوزت ذلك إلى ضروب أخرى من الأدب ، وإلى ضروب من التأثير في العقلية والعقيدة ونظام الحياة .

فقد كان ملوك الحيرة ينافسون أكاسرة الفرس وقيصرة الروم في الترف ومظاهر العظمة ، فقصور الحيرة مؤنثة بأثمن الأثاث ، وحدائقها مستورة بأعز الأزهار ، وقواربها الأنيقة الساطعة الأنوار تشق الفرات ليلاً حاملة أغنى الأمراء وأمر المومسيقيين ، وأطلق العرب لأنفسهم عنان الخيال ، فقصوا علينا أنباء القصور الساحرة العجيبة التي أضحت أجمل مساكن الشرق وأطيها^(٣) ،

وعاشت دولة الحيرة أربعمئة سنة ، أي مدة تعد طويلة لدولة ، ولا شك أن عرب الحيرة كانوا أرقى عقلاً ومدنية عن عرب الجزيرة ، لتأثرهم بالفرس ، وكان منهم من يعرف الفارسية ، فزيد والد عدى كان يقرأ العربية والفارسية ، وعدى بن زيد كان من تراجمة كسرى أبرويز (٥٩٠ — ٦٢٨ م) أو من تراجمة كسرى أنو شروان (٥٣١ — ٥٧٨ م) ، وابنه زيد كان من تراجمة كسرى بعد أبيه .

وقد تسربت إلى الفارسية كلمات عربية ، وتسربت إلى العربية كلمات فارسية ،

(١) و(٢) الأغاني ٢/٢٩ و ١٣٢/٢٠ — ١٤٠ ساسي ومروج الذهب ١/١٣٤

(٣) حضارة العرب جوستاف لوبون ١١٦

ورد بعضها في شعر الأعشى، وعدى بن زيد العبادي، فمن الكلمات الفارسية: الكوز والجرة والإبريق والسكرجة والخوان والسندس والكعك الخ من ذلك قول عدى بن زيد:

ثم ثاروا إلى الصبوح فقامت قينة في يمينها إبريق

وعرف العرب كثيراً من أخبار الفرس وقصصهم كقصّة رستم واسفندياذ، وقد ذكر ابن هشام أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش وعن يوذون النبي عليه الصلاة والسلام، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس وأحاديث رستم واسفندياذ، فكان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً فذكر فيه بالله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قال: أنا والله يامعشر قريش أحسن حديثاً منه، فلم إلى فأنا أحدثكم أحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفندياذ، وهو الذي قال سأنزل مثل ما أنزل الله، وفيه نزلت ثمان آيات من القرآن الكريم. منها قوله تعالى: إذا تلى عليه آياتنا قال: أساطير الأولين (١)،

وروى أن النضر اشترى كتب الأجم ليحدث منها، ويرى بعض المفسرين أنه هو الذي نزلت فيه الآية الكريمة: ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم، ويتخذها هزواً أولئك لهم عذاب مهين، وعرف بعض العرب المجوسية، ودان بها بعض تميم، وسموا أبناءهم بأسماء فارسية. فالنعمان سمي ابنه قابوس، ولقيط بن زرارَةَ التيمي سمي بنته (دختوس) وقيل أنه تزوجها كما يفعل الفرس، وعيرته العرب بذلك (٢)

وقد دون مؤرخو الفرس تاريخ العرب واستقى منه كثير ممن أرخوا

(١) سيرة ابن هشام ١/٣٢٠

(٢) المعارف لابن قتيبة، ٢٠، والأعلاق النفيسة لابن رسته ٧/٢١٧

للعرب ، فالطبرى مثلاً يقول : وكان أمر آل نصر بن ربيعة ومن كان من ولاية ملوك
الفرس وعماهم على ثغر العرب الذين هم ببادية العراق عند أهل الحيرة منبعاً لما
كان مثبتاً عندهم فى كنائسهم وأشعارهم ، وقد حدثت عن هشام بن محمد الكلبي أنه
قال : إني كنت أستخرج أخبار العرب وأنساب آل نصر بن ربيعة ومبالغ أعمار
من عمل منهم لآل كسرى وتاريخ سنيهم من بيع الحيرة ، وفيها ملكهم
وأموارهم كلها ،^(١)

وقد ذكروا أن الأعشى زار كسرى ومدحه ، وأن كسرى مر به وهو
يتغنى بقوله :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سقم وما بي تعشُّق
فسأل عن معناه فلما ترجم له لم يعجبه^(٢)

والأعشى يذكر أسفاره فى كثير من شعره ، ومن ذلك هذان البيتان اللذان
ذكرهما ياقوت فى معجم البلدان :

وَطَوَّفْتُ لِلشَّعْرِ آفَاقَهُ عُمَانَ وَحَصَّ وَأُورِشَلِمَ
أَتَيْتُ النِّجَاشِيَّ فى أَرْضِهِ وَأَرْضَ النَّيِّيطِ وَأَرْضَ الْعَجَمِ
ويقول :

قد سرتُ ما بين بانقيا إلى عدن وطال فى العجم تكرارى وتسيارى^(٣)
وقد أدخل الأعشى فى شعره كلمات فارسية ، وغير فارسية ، منها هذه الأسماء
الفارسية للأزهار التى وردت فى حديثه عن مجلس من مجالس لوه :

يُطَوِّفُ بِهَا سَاقَ عَلَيْنَا مُتَوِّمٌ خَفِيفٌ رَفِيقٌ مَا يَزَالُ مُقَدِّمًا
بكأس وإبريق كأن شرابه إذا صَبَّ فى المِصْحَاةِ خَالِطٌ بَقِيًّا

(٢) دراسة الشعراء للمرصفي ٩٢

(١) تاريخ الأمم والملوك . الطبرى ٣٧/٢

(٣) معجم البلدان ٥١/٢

لها جُلَسَانٌ عندها وبنفسجٌ وسيسنبرٌ والمرزجوشُ منمنما
وآسٌ وخيرىٌ ووردٌ وسوسنٌ يُصبحنا فى كلِّ دَجْنٍ تَغِيًّا^(١)
وقد أثر اتصال العرب بالفرس فى خيال الشعراء ، فالمرقش الأكبر يشبه البقر
الوحشى الذى يرعى فى الأطلال متمهلاً مطمئناً مختالاً برجال من الفرس يمشون
مزدھين فى قلائسهم .

أُمسِتْ خِلاءَ بعد سكانها مقفرةٌ ما إن بها من أرمٍ
إلا من العينِ ترعى بها كالفارسيين مشوا فى الكُمِّ^(٢)
والخنساء تقول فى رثاء أخيها صخر إنه كالرحم ، ويمشى مختالاً كأنه قائد من
قواد الفرس :

مثل الردينى لم تنفد شيبته كأنه تحت طى البرد أسوار^(٣)
وقد ذكر شارح الديوان أنها شُبَّهت أخاها بسوار من الذهب أو الفضة فى حسنه
وضمَّره ، ولكننى أرى أن التشبيه بقائد الفرس أولى .
والخبيل السعدى يشبه وجه حبيبته بالصحيفة ملاسة ولينا ، ويقول إنه ليس
ضامراً ولا مكتنزاً ، وإنه يشبه الدرة النادرة التى أضاء بها العجم صدر مجلس عزيزهم ،
وقد اشتراها العزيز بثمان غال ، لأنها نادرة جهد الغواص فى العثور عليها ، فقد جاء
بها من أعماق البحر الهائج المتماوج الواسع غواص دقيق العظام كأنه سهم فى سرعته
ونحو له ، وقد دهن جسمه بالزيت ليقويه من ملوحة البحر :

(١) المرصفي ١٠٠ متوم : مقرط أو لباس القلادة . المصحاة : إناء نحو الجمام يشرب فيه . البقم :
خشب شجر كبير ورقة كورق اللوز وساقه أحمر يصنع بطبيعته . الجلسان : معرب جلشان أو كلشان وهو
نوع من الریحان . البنفسج : معرب وهو زهر طيب الرائحة . السيسنبر : الریحان الذى يقال له
النمام ، وهو معرب . المرزجوش : الياسمين أو غيره ، معرب . وكذلك الآس والخيرى والسوسن أسماء
فارسية لأزهار .

(٢) المفضليات ٩/٢ : شاكر وهارون . أرم : أحد . الكُم : القلائس

(٣) ديوان الخنساء . الأب لویس شیخو ٨٢

وتريك وجهها كالصحيفة ، لا ظمآنٌ مختلجٌ ولا جهمٌ
كعقيلة الدرّ استضاء بها محرابٌ عرشٍ عزيزها العجم
أغلى بها ثمنا وجاء بها شختُ العظام كأنه سهم
بلبانه زيتٌ وأخرجها من ذى غواربٍ وسطه اللحم^(١)

وعرفوا الدروع الفارسية ، وافتخروا بها ، قال عمر بن امرئ القيس إن كتيبتهم لا يرعبها أسود تسكن في الغياض ، فهم شجعان لا يرهبون أعداءهم إذا ما مشوا في الدروع الفارسية كأنهم فحول في الإبل بطاء السير ، وهم يمشون إلى الموت سراعا :

والله لا يزدهى كتيبتنا أسدُ عرينٍ مقلها غُرفٌ
إذا مشينا في الفارسي كما تمشي جمالٌ مصاعبٌ قُطفٌ
نمشي إلى الموت من حفاظنا مشياً ذريعا وحكنا نصف^(٢)

وقال دريد بن الصمة إنه نصح أخاه عارضا وأصحابه وأنذرهم أن يأخذوا حذرهم من أعدائهم المهاجمين في دروع فارسية ، فعصوه ، ووقعت الواقعة فانضم إليهم :

نصحت لعارض وأصحاب عارض ورهط بنى السوداء والقوم شهدي
فقلت لهم ظنوا بأنني مدججٌ سراتهم في الفارسي المسرد
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى غوايتهم وأنني غير مهتد
أمرتهم أمرى بمنعرج اللوى فلم يستبينوا النصيح إلا ضحا الغد
وهل أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد^(٣)

(١) الفضليات ٤٣ السندوبي . مختلج : هزيل . جهم : كثير اللحم . أغلى بها ثمنا : اشتراها بثمان
غال . شخت : دبق . لبانه : صدره . غوارب : أمواج . اللحم : السمك الكبير

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٦٢ . يزدهى : يستخف . غرف : المراد بها الغابة . الفارسي : الدرع .
مصاعب : فحول . قطف : بطيئة المشي

(٣) الجهرة ٢٢٥ . بنو السوداء : أصحاب أخيه الآخر عبد الله الذي يرثيه . ظنوا : أيقنوا .
الفارسي المسرد : الدرع المتينة النسج الضيقة الحلق . غزية : قومه

وهذه صورة فسكهة في خطاب أعشى همدان لخالد بن عتاب بن ورقاء ، يذكر له ما أصابهم إذ غزوا أصبهان ، ويذكره ببيغله الحقير المشثوم الذي يتردى في الوحل فيركب رأسه ، والذي يعثر في الطريق السوى الممهد ، ثم يذكره برثائه ملابسه البالية :

أَتَيْنَا أَصْبَهَانَ فَهَزَلْتَنَا وَكُنَّا قَبْلَ ذَلِكَ فِي نَعِيمٍ
أَتَذْكُرُنَا وَمُرَّةً إِذْ غَزَوْنَا وَأَنْتَ عَلَى بَغْيِكَ ذِي الشُّثُومِ
وَيَرْكَبُ رَأْسَهُ فِي كُلِّ وَحْلٍ وَيَعْتَرُ فِي الطَّرِيقِ الْمُسْتَقِيمِ
وَلَيْسَ عَلَيْكَ إِلَّا طَيْلَسَانُ نَصِيدِي إِلَّا سَحَقَ نَيْمٌ^(١)

وكانت القيان في العصر الجاهلي فارسيات وروميات يغنين الشعر العربي بالحن فارسية أو رومية ، فيؤثر في النفوس تأثيراً عجيباً ، وفيهن يقول عمرو بن الإطنابة في مقدمة رثائه لخالد بن جعفر ، وقد دعا بشرابه وقيانه ، فغنين له بقصيدته التي أولها

عَلَلَانِي وَعَلَلَا صَاحِبِيَا وَاسْقِيَانِي مِنَ الْمَرُوقِ رِيَا
إِنْ فِينَا الْقِيَانَ يَعْرِفَنَّ بِالْدَفْنِ وَعَيْشَا رَجَا
يَتْبَارِينَ فِي النَّعِيمِ وَيَصْبِ بَنَ خِلَالَ الْقُرُونِ مَسْكَ ذَكَا
إِنَّمَا هَمَّهُنَّ أَنْ يَتَحْلِي نَ سُمُوطَا وَسُنْبُلًا فَارِسِيَا
مَنْ سُمُوطَ الْمَرْجَانِ فَصَلَ بِالْدَرِّ فَأَحْسِنُ بِحَلِيْنِ حُلِيَا^(٢)

(١) البيان والتبيين ٢٥١/٣ طيلسان : حزام . نصيدي : نسبة إلى نصيبين قاعدة ديار ربيعة . سحقي : فروع خلق بال .
(٢) الأغاني ١٦٤/٩ الحار

الاتصال السياسى والحربى بالروم واليونان

حملة رومانية إلى اليمن . دولة الأنباط . دولة تدمر . إمارة غسان . حضارة الغساسنة ومكانتهم . أثر اليونان والروم فى اللغة والأدب

١ - المحدث

عزم الإسكندر على فتح بلاد العرب التى كان الإغريق يعتقدون غنى سكانها ، وكانت الغزوة التى قام بها نيبارك حول بلاد العرب نذير تصميم الإسكندر على غزوها ، ولكن بلاد العرب نجت من تطلع الإسكندر بعد موته ، ثم بعث القيصر أغسطس إلى اليمن جيشا يقوده إليوس غالوس ، كانت الهزيمة مصيره سنة ١٨ ق . م .

٢ - الأنباط

كان مقر دولة الأنباط فى الجنوب الشرقى من فلسطين ، تمتد من حدود فلسطين إلى رأس خليج العقبة ، يحدها من الغرب وادى العرابة ، ومن الجنوب بادية الحجاز ، ومن الشرق بادية الشام ، ومن الشمال فلسطين .

نشأت هذه الدولة قبل القرن الرابع قبل الميلاد ، وظلت قائمة إلى أن دخلت فى حوزة الرومان ١٠٦ م ، وعاصمتها بطرا

ولما مات الإسكندر وقسمت دولته شايع الأنباط بطليموس صاحب الإسكندرية على أنتيغون خليفة الإسكندر ، وكان أحد قواده قد فتح بلاد الحجاز بغتة بعد أن أصبح سيد سورية وفينيقية ، وأباد الأنباط بعدئذ جيش أنتيغون المكون من ٤٦٠٠ جندي ، فساق إليهم جيشا آخر بقيادة ابنه ديمتريوس . وخاطب عرب بلاد الحجاز - كما روى ديودور الصقلي - الأمير ديمتريوس عند ما بلغ ديارهم بقولهم : « لماذا تحاربنا أيها الملك ؟ ونحن من سكان الصحارى التى لا تسد فيها خلة ، ترانا نقطن فى هذه البقاع القاحلة فرارا من العبودية ، فاقبل هديتنا وارجع إلى حيث

كنت ، فسنكون من أوفى الأصدقاء لك ، ولسكنك إذا رغبت حصراً حُرمت كل هناية ، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا ، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحداً من الأسرى يستطيع أن يألف حياة غير التي ألفناها ، فرأى ديمتريوس أن يقبل هدية الأنباط وأن يرضى بالمآب خاتماً بالسلم حرباً أبصرها مملوءة بالمصاعب ^(١)

واستفحل أمر الأنباط بعد ذلك — بعد انسحاب ديمتريوس — حتى أنشؤوا دولة منظمة وولوا عليهم ملوكاً ضربوا النقود واستوزروا الوزراء ، وكان ملوكهم يسمون في الغالب باسم (الحارث) أو (عبادة) أو (مالك) . وأقدم من وقف الباحثون على اسمه من ملوكهم الحارث الأول حكم نحو سنة ١٦٩ قبل الميلاد ، وكان آخرهم مالك الثالث ، وقد غلبه الرومان وذهبوا بدولته ١٠٦ م وفي أيام عبادة الثالث كانت حملة إليوس غالوس القائد الروماني على بلاد العرب ، سنة ١٨ قبل الميلاد ، وقد استعان فيها بالأنباط .

اتسعت مملكة الأنباط في عهد أولئك الملوك حتى شملت جزيرة سينا من الغرب ، وحواران إلى حدود العراق من الشرق ، وبلغت إلى وادي القرى في الجنوب . ولما استولى الرومان على مصر والشام طمعوا في مملكة الأنباط فحاربوهم في عهد أغسطس ولسكنهم ارتدوا عنهم .

وظلت مدينة بطرا مركزاً تجارياً بين الشرق والغرب والجنوب والشمال حتى أعادوا الطريق من القصير على البحر الأحمر إلى قفط على النيل فأخذت تنهقر . وكان الأنباط قد تحضروا ومالوا إلى الترف ، فلها أفضت الدولة الرومانية إلى الامبراطور تراجان عجزوا عن مقاومته فغلبهم سنة ١٠٦ م ، فاختلط الأنباط بأهل البلاد الأصليين من سريان وآراميين . وتحولت التجارة إلى تدمر ^(٢)

(١) حضارة العرب . لوبون ١١٤ والعرب قبل الاسلام . زيدان ٢٢

(٢) العرب قبل الاسلام ٦٨ — ٧٦ جرجي زيدان

والمؤرخون مختلفون في أصل الانباط ، ولكن الرأي الراجح أنهم عرب :

١ — ذكر مؤرخو اليونان أنهم عرب

٢ — أسماء ملوكهم عربية كالحارث وعبادة ورثبال ومالك وجميلة

٣ — كانوا يتكلمون بالعربية ، ولا عبرة بما وجدوه على آثارهم باللغة الآرامية فإنها لغة الكتابة في ذلك العهد مثل اللغة الفصحى في أيامنا . وذلك كان شأن الدول القديمة بالشرق ولا سيما فيما يتعلق بالآثار الدينية أو السياسية ^(١)

٣ — تدمير

والقول بأهمية هذه المدينة ووجودها منذ العصور المتغلغلة في القدم أمر لا يحتمل الشك ، ويؤيد هذا القول تلك النقوش المنسوبة إلى تَجَلَّتْ بِلَزَرِ الأول Tiglat - Bileser الملك الآشوري ، إذ أن هذه النقوش ذكرت هذه المدينة — في القرن الثاني عشر ق.م ^(٢)

وقد راجت تجارة تدمير رواجاً كبيراً بانضمامها إلى الامبراطورية الرومانية ، واستغل تجار تدمير العداوة التي كانت بين روما والبارثيين . ونلس أثر الإغريق في تقدم الذوق الفني لأهل تدمير عندما تشاهد آثار معبد الشمس الفخمة وما إليه من أبنية جميلة ^(٣)

وفي بداية القرن الثالث قامت أسرة آل ساسان الجديدة من الفرس فتجدد النزاع الشديد القديم مع الرومان ، وأتيحت لأهل تدمير فرصة لإظهار مقدرتهم السياسية . وقد أثر Odenathus (أذينة) أمير تدمير أن ينضم إلى الفرس بزعامة سابور (٢٤١ — ٢٧٢) فلما أعرض عنه انضم إلى القائد الروماني بالستا Ballista في آسية الصغرى ، وأوقع بالفرس المتقهقرين هزيمة منكرة ، وأصبح في عهد

(١) العرب قبل الإسلام ٦٨ — ٨٣ جرجى زيدان

(٢) المرجع السابق ١٣/٥ ، ١٤

(٣) دائرة المعارف الإسلامية ١٣/٥

جالينوس Gallienus الحاكم الفعلي للشرق كله ، ومنحه الامبراطور لقب أغسطس Augustus . وقد انتقلت السلطة إلى ابنه فيلاتوس Vabalathus بعد قتله عام ٢٦٦ — ٢٦٧ ولكن النفوذ الفعلي بقي لأرملة زينو بيا ، وقد وسعت رقعة ملكها وخاصة بفتح مصر ، ولكن سرعان ما شبت في تدمير ثورة ضد الرومان ، وهزمت زنوبيا ٣٧٠ م وسلمت تدمر وفرت زنوبيا (١)

ثم بعد موت زنوبيا أخذت المسيحية تنتشر بتدمر ، وعاش بها بعض الأساقفة وشيد بها جستانين كنيسة ، واستمرت تدمر تحت حكم الرومان زهاء ثلاثة قرون إلى أن أخذها العرب (٢)

وقد هلك الرومان بنصرهم على الزباء وانتشوا ، به لأنه نصر كان ميثوسا منه ، حتى إنهم زعموا أن ملكاً نزل من السماء وآزر الامبراطور وجيشه في معركة الزباء ، فانتصروا ، ثم انتهت حياة الزباء في شرقي مملكته على يد قصير بعد نزاع بينها وبين جذيمة الأبرش كما تقص الرواية العربية .

على أن الرومان يزعمون أنهم أسروها إلى روما ، ولكن اختلافهم في اسم الملكة الأسيرة ، وتنفجهم بالنصر والغنيمة ، وإجماع الروايات العربية على أنها ماتت في العراق كل ذلك يجعلنا لا نصدق مزعمهم

وكان العرب يهددون سلامة آسيا الصغرى ولم يقصوا عنها إلا بهدم تدمر في عهد أورليانس ٢٧٢ م ونحويل سورية إلى ولاية رومانية وتبعية بعض سكانها للغساسنة العرب الذين كانوا تحت حماية القياصرة .

٤ — إمارة غسان

نزل الغسانيون مشارف الشام ، وفيها الضجاعة من قضاة فغلبوهم على ما في أيديهم ، وأنشئوا لأنفسهم دولة في حماية الروم ، فيما هو الآن اللقاء وحوران ،

عرفت بدولة الغساسنة أو بني غسان ، وكانت عاصمتهم بصرى فى حوران (١) . وقد انتهوا فى هجرتهم من الجنوب إلى الشمال إلى ماء غسان فنسبوا إليه . وقد اختلف المؤرخون اختلافاً يَبِيناً فى عدد ملوكهم ، وسنى حكمهم ، والراجح أنهم حكموا نحو أربعائة سنة (٢)

منذ سقطت تدمر عام ٣٧٣ م انتهى عهد الدول العربية المستقلة فى الشمال ، وصار الرومان وخلفاؤهم البيزنطيون يستعينون بالعرب فى صد غارات البدو على التخوم المتحضرة ، ولذا اصطنعوا الغساسنة فى الشام ، وتحالف الامبراطور أنستاسيوس البيزنطى مع الحارث الرابع كى يدرأ عن الشام غارات القبائل العربية ، وانصرف هم الحارث وقبائله إلى الإغارة على المملكة اللخمية بالحيرة ، وهزم جيش النعمان الثالث ، واستولى على جل ممتلكاته ما عدا الحيرة نفسها عام ٥٠٣ م وعقد قباذ ملك فارس مع الحارث معاهدة نزل له بمقتضاها عن دخل ناحية من نواحي الحيرة فى نظير أن يصرف بنى بكر وأحلافهم عن الإغارة على فارس . ثم تمكن المنذر الثالث فى عهد كسرى الأول أنو شروان من هزيمة الحارث ، والقبض عليه ، وأطاح برأسه عام ٥٢٩ م ، (٣)

وأعظم أمراءهم الحارث بن جبلة المعروف بابن أبى شمر ، والملقب بالأعرج (حوالى ٥٢٩ — ٥٦٩ م) وقد عينه الامبراطور جوستينيان أميراً على جميع قبائل العرب فى سوريا ، ومنحه لقب فيلارك . أى أمير ، ورئيس قبيلة ، ثم لما حارب المنذر بن ماء السماء عام ٥٢٨ م وأعان الروم فى واقعة السامرة رقبه ٥٢٩ م

(١) العرب قبل الاسلام . جرجى زيدان ١٨٤ (٢) أبو الفداء ٧٦/١

(٣) دائرة المعارف الإسلامية العدد الأول من المجلد الرابع ٤٣

وسمّوه باسيلوس أى الملك أو الأمير (١)، ثم بعد ذلك منحوه لقب بطريق وهو لقب الأشراف، وأرفع لقب بعد الإمبراطور، وكان الحارث نصرانيا يعقوبيا وحاميا للكنيسة، وكان من أكبر أعوان بليزاريوس القائد الرومانى فى محاربة الفرس ٥٣١ م لرد هجّاتهم هم والمناذرة عن ملكة الروم

وفى سنة ٥٦٣ م شخص الحارث بن أبى شمر إلى القسطنطينية ليمهد الولاية من بعده لابنه المنذر، وليتفق على الوسيلة التى يعامل بها عمرو بن هند مضرط الحجارة صاحب الحيرة. وقد أدهشه مارأى فى القسطنطينية من عظمة وحضارة، كما دهش أهلها من منظره المهيّب، فطالما سمعوا به وخوفوا أبناءهم باسمه.

والحارث هذا هو الذى توسط لامرئ القيس الشاعر فى ذهابه إلى قيصر بعد أن أودع السمومل أذراعه.

وتوفى الحارث ٥٦٩ م وخلفه ابنه المنذر، وأعان الروم فى مواقع كثيرة، وشخص إلى القسطنطينية سنة ٥٨٠ م فاحتفى به الروم والقيصر طييارىوس، وألبسه التاج، ولم يلبس أبوه قبله غير الإكليل، وسمّاه بعض مؤرخى الروم لذلك (المنذر ملك العرب).

ثم انقسمت المملكة إلى إمارات صغيرة، ولما انتصر البيزنطيون على الفرس تركوا حكم غسان لأهلها، ولم يوفق ملك غسان آخر إلى إخضاع جميع السوريين لسلطته إلا قبيل الفتح الإسلامى. وآخر ملوكهم جبلة بن الأيهم صاحب القصة المشهورة مع عمر.

وكان الغساسنة مقصد كثير من شعراء العرب، يمدحونهم وينالون حباهم، كالنابغة، والأعشى، والمرقس، وعلقمة، وحسان، وكانت المنافسة الشديدة

والعداء المستحكم بينهم وبين اللخميين في الحـيرة باعثا على التنافس أيضا في تقريب الشعراء وإذاعة المديح ، يدل على ذلك أن قيس بن رفاعة كان من عادته أن يفد سنة على النعمان اللخمي بالعراق ، وسنة على الحارث ابن أبي شمر الغساني بالشام ، وقد سأله الحارث : بلغني أنك تفضل النعمان على ؟ فأجابه بالتعظيم من قدره والتهوين من قدر النعمان ^(١) ، ويدل على ذلك اعتذار النابغة للنعمان إذ غضب منه لمدحه الغساسنة :

ملوك وإخوان إذا ما أتيتهم أحكم في أموالهم وأقرب
كفعلك في قوم أراك اصطفتيتهم فلم ترهم في فعل ذلك أذنبوا

وقد توسط امرؤ القيس بن حنجر بالحارث بن أبي شمر الغساني المعروف بابن جبلة (٥٢٩ — ٥٦٩ م) إلى قيصر ، فأكرم وفادته ومده بالجنـد ، ولكن خصمه الطامح الأسدي تخوف على قومه ذلك الجنـد السكـيف ، فوشى بامرئ القيس عند قيصر فاسترد جنده ، وزعم الرواة أن قيصر أهدى إلى امرئ القيس حلة مسمومة فلبسها فتساقط جلده ^(٢)

وكانوا على قسطنطين عظيم من الحضارة ، فمثلا يروى الأصفهاني أن حسان بن ثابت تحدث عن بعض لياليه عند جبلة بن الأيهم في الجاهلية ، فقال : « إنه رأى عشر قيان ، منهن خمس روميات ، يغنين بالرومية بالبرابط ، وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد إليه من يغنين من العرب من مكة وغيرها ، وكان جبلة إذا جلس للشراب فرش تحته الآس والياسمين وأصناف الرياحين وضرب له العنبر والمسك في صحاف الفضة والذهب ، وأتى بالمسك الصحيح في صحاف الفضة وأوقد له العود المندى إن كان شاتيا ، وإن كان صائفا بطن بالثلج وأتى هو وأصحابه بأكسية صيفية يتفضلون بها في الصيف ، وفي الشتاء يلبسون فراء الفـنك وأشباهاه ، ^(٣)

(١) الأماي ٢٥٧/١

(٢) الأغاني ٩٩/١٩ ودراسة الشعراء للدرمفي ١٢ (٣) الأغاني ١٤/١٦ ساسي

١ - وكان اتصال العرب بالروم منفذا لكلمات يونانية ولاتينية ، دخلت اللغة العربية . كالفردوس ، والقسطاس ، والدرهم ، والدينار ، والأوقية ، والقيراط ، والقسطل ، والبطريق ، والترياق ، والصراط ، والخندريس معرب خندروس
ب - واستورد العرب السيوف أحيانا من بلاد الروم ، ونسبوها إليها . قال
عامر المحاربي :

نُراوِحُ بالصخر الأصم رءوسهم إذا القلْعُ الرومِيُّ عنها ثَلَمًا ^(١)

ح - وأثرت صلة العرب بالروم في خيالهم ، فمثلاعلقمة بن عبدة يشبه استدعاء
الظليم النعامة برطانة الروم :

يُوحى إليها بإنقاصٍ ونَقْنَقَةٍ كما تَراطُنُ في أفدائها الرومُ ^(٢)

وطرفة يشبه مرفق ناقته القويين بقنطرة الرومى قد دعمها وشادها :

كقنطرة الرومى أقسم ربها لُتُكْتَفَنَ حتى تشاد بِقِرْمِدٍ ^(٣)

ورأت امرأة الزبير فقالت : من هذا الذى كأنه أرقم يتلظ ؟ ورأت عليا فقالت :

من هذا الذى كأنه كُسر ثم جُبر ؟ ورأت طلحة فقالت : من هذا الذى كأن وجهه
دينار هرقلى ؟ ^(٤)

د - وهذه قصة عربية نسجت على غرار قصة يونانية سابقة لها :

زعموا أن المنذر بن امرئ القيس الملقب بابن ماء السماء (٥١٤ - ٥٦٣ م) الملك

اللخمى عرض له فى يوم يؤسه حنظلة الطائى ، فهمم بقتله ، فاستمهله ريثما يعود إلى أهله

(١) الفضليات . السندوبى ٦٥٣ القلع : السيف . المعنى : نضرب رؤوسهم بالحجارة الصلدة
إذا تسكرت السيوف الرومية .

(٢) الفضليات . شاكر وهارون ٢٠٠/٢ الإنقاص : التصويت . النقنقة : صوت الظليم . الأفدان :
ج فدن وهو القصر

(٣) ديوان طرفة ٢٤ (٤) عبون الأخبار ٢٥/٤ والحيوان للجاحظ ٢٥٢/٤

ويصلح شأنهم ، وكفله شريك بن عمرو ، ثم عاد آخر يوم من العام ، في قصة طويلة ، وكان بره بوعدة سبياً في إبطال يوم البؤس ^(١) . وهي تشبه شبيهاً قوياً قصة يونانية هي أن دامون كان له صديق اسمه فنطياس ، وكانا معاً على مذهب فيثاغورس ومن أصحابه ، وقد اتهم فنطياس بتهمة ، فحكم عليه الملك ديونيسيوس بالإعدام ، فرجا أن يسمح له بالعودة إلى أهله ، حتى يدبر شئونهم ، ثم يعود ، فطلب الملك من يضمّنه ، فضمّنه صديقه دامون ، ثم وفي فنطياس بوعدة ، وعاد قبل الموعد بيوم واحد ، فأعجب ديونيسيوس بأريحية دامون ووفاء فنطياس ، فعفا عنه ، وقرب الصديقين إليه ، وجعلهما من خاصته ^(٢) .

ويبدو لي أنهم عزّوا القصة إلى المنذر اللخمي لا إلى ملك غساني ، لأن المنذر هو الذي قتل نديميه في سكره ، فلما أفاق ندم ، وبني لهما الغريين ، وكان له يومان : يوم بؤس يقتل فيه أول من يراه ، ويطلق بدمه الغريين ، ويوم نعيم يحبو فيه ويكسو أول من يطالعه ، وكان عبيد بن الأبرص من قتلى يوم البؤس ^(٣) ، فنسبة القصة إليه لبيان السبب في إبطاله يوم البؤس ، ويزيد بعضهم عليها أن الحيرة تنصرت بسبب ذلك ، ناسباً القصة إلى النعمان بن المنذر ، كما في مجمع الأمثال للميداني . ولكن الحيرة كانت قد تنصرت من قبله ، على أن نسبة القصة إلى المنذر ملك الحيرة دليل على أن تأثير اليونان وصل إلى الحيرة أيضاً .

(١) الأغاني ٨٧/١٩ - ٨٨ سامي وجمع الأمثال للميداني ٦٣ وقد نسب القصة إلى النعمان بن المنذر

(٢) العرب قبل الإسلام . جرجي زيدان ٢٠٨

(٣) الأغاني ٨٨/١٩ وجمع البلدان ٤٢٦/٧ - ٤٣٨

اليهودية

وفد اليهود إلى يثرب قبائلهم القبائل العربية التي خالطتهم في يثرب والحجاز . اليهود في اليمن .
تأثير اليهود في العرب . تأثروا أكثر مما أثروا . السبب في ضعف تأثيرهم .

— ١ —

وفد اليهود على يثرب من قديم ، يروى أبو الفرج أن سيدنا موسى عليه السلام كان قد بعث جبشاً من بني إسرائيل إلى العماليق — سكان يثرب — فانتصر عليهم وأفناهم ، ثم أقام بنو إسرائيل يثرب بعد وفاة موسى واتخذوا بها الآطام والأموال والمزارع ، ولبثوا فيها زمناً طويلاً .

ثم لما ظهر الروم على بني إسرائيل في الشام ، فوطئوهم ، وقتلوهم ، واعتدوا على نساءهم خرج بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل هاربين منهم إلى إخوانهم بالحجاز ، وكان ذلك بعد ظهور النصرانية وانتصار القياصرة لها ، فتوافدوا على يثرب عشائر وأفراداً ، وتكاثروا بها .

ويظهر أنهم اتخذوها مهاجراً لهم ، لأن الأوس والخزرج نزلوا يثرب وفيها قبائل عدة من بني إسرائيل ، فيها بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زغوراء وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو الفصيصة ، وهم جميعاً من أهل الشرف والثروة والعز على سائر اليهود .

وكان يسكن اليهود بطون من العرب منهم بنو الحرمان من اليمن وبنو مرثد وبنو نيف من بلي وبنو معاوية من بني سليم ثم من بني الحارث بن بهثة ، وبنو الشظية من غسان .

وكان يقال لبني قريظة وبني النضير خاصة من اليهود السكاهنان نسبة إلى جدهم الذي يقال له الكاهن بن هارون بن عمران ، كما يقال العمران والحسنان والقممران . قال كعب ابن سعد القرظي :

بالكاهنين قررتن في دياركم جمًا ثواكم . ومن أجلاكم جدبا
فلما أرسل الله سيل العرم على أهل مأرب وهم الأزد تفرقوا في البلاد ، ونزل
الأوس والخزرج يثرب ، وعاشوا دهرًا في شظف حتى استنجد مالك ابن العجلان
بأبي جيلة الغساني فقضى على أشراف اليهود ، فصار الأوس والخزرج سادة يثرب^(١)
ويرى ياقوت أن سكان يثرب الأولين من اليهود عرب تهودوا^(٢) . وسواء
أكانوا عبرانيين استعربوا أم عربًا تهودوا فقد كانت لهم مستعمرات يهودية في
الجزيرة العربية : تيماء وفدك وخيبر ووادي القرى ويثرب .
وهم أهل مدنية وذكاء ، وبراعة في التجارة وتشمير المال ، سرعان ما اقتنوا
الضياع وزرعوا ، واحتكروا تجارة يثرب فاغتنوا ، واشتهروا بصناعتهم كالحدادة
والصياغة وصنع السلاح .
وقد انكشوا على أنفسهم في أحياء منعزلة ، ولكنهم استطاعوا من غير شك
أن يحملوا نفراً من العرب على اعتناق دينهم ، وكانوا يتكلمون باللغة نفسها التي
يتخاطب بها السكان ،^(٣)

— ٢ —

جد اليهود في نشر دينهم في جنوبي الجزيرة ، فتهود كثير من اليمن منهم ذونواس
صاحب الأخدود .
ونشروا في الجزيرة تعاليم التوراة وما يتصل بها من شروح وأساطير كالتى
أدخلها بعد من أسلم منهم مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه .
وكثيرا ما جاد لهم القرآن الكريم وسفه آراءهم ، مما يدل على انتشارها

(١) الأغاني ٩٤/١٩ — ٩٨ ساسي

(٢) معجم البلدان ٤٦١/٤

(٣) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٩

وأدخلوا في اللغة العربية كثيراً من الكلمات والمصطلحات الدينية مثل : جهنم والشيطان وإبليس والحج والكاهن وعاشوراء .

وقد تأقلم اليهود الساكنون في الحجاز ، واصطبغوا بالصبغة العربية ، واتخذوا اللغة العربية لغة أدبهم ، وكان منهم شعراء كالسموئل بن غريص بن عادياء ، وأوس ابن دنى من قريظة ، والربيع بن أبي الحقيق من أشرافها ، وكعب بن الأشرف من بني النضير

والسموئل صاحب الحصن المعروف بالآبلق بتياء ، وهو مضرب المثل في الوفاء وصون الأمانة ، لأنه آثر أن يقتل ابنه ولا يسلم أذراع امرئ القيس إلى الحارث ابن أبي شمر أو الحارث بن ظالم ^(١) ؛ ومن شعره في ذلك :

وفيت بأدرع الكندي إنى إذا ما ذم أقوامٌ وفيتُ
وأوصى عادياء يوماً بالآ تهم باسموئل ما بنيت
بنى لي عادياء حصناً حصينا وماء كلما شئت استقيت

وقد أشاد الأعشى بوفاء سموئل إذ استجار بشريح ابنه ومدحه ^(٢) .

ومن غزل أوس بن دنى القرظي :

أنى تذكر زينب القلبُ وطلابُ وصلِ عزيزةً صعبُ
ماروضةٌ جاد الربيع لها موشيةٌ ماحولها جذبُ
بالد منها إذ تقول لنا سيرا قليلا يلحق الركبُ ^(٣)

والربيع بن أبي الحقيق شاعر حاضر البديهة أجاز أبياتاً للنابغة الذبياني حين أقبل النابغة يريد سوق بني قينقاع ، فلحقه الربيع بن أبي الحقيق نازلاً من أطمه ، فلما أشرفا على السوق سمعا الضجة ، وكانت سوقاً عظيمة ، فخاصت (نفرت) بالنابغة ناقته ، فأنشأ يقول .

(١) الأغاني ٩٨/١٩ — ٩٩ ماضي
(٢) الأغاني ٩٩/١٩
(٣) الأغاني ٩٣/١٩

كادت تُهال من الأصوات راحلتى
ثم قال للربيع : أَجْزُ يَارَبِيعَ . فقال :
وَالنَّفَرُ مِنْهَا إِذَا مَا أَوْجَسَتْ خُلُقُ
فقال النابغة : مارأيت كاليوم قط . ثم قال :
لولا أنهمها بالسوط لاجتذبت
أجز ياربيع . فقال :
منى الزمام وإني راكب لَبِيقَ .
فقال النابغة :

قد ملت الحبس فى الآطام واشتَعَفْتُ
أجز ياربيع . فقال :
إلى مناهلها لو أنها طُلُقُ .

فقال النابغة : أنت ياربيع أشعر الناس ^(١)

وكعب بن الأشرف من طي^٢ وأمه من بنى النضير ، وقيل هو من بنى النضير ،
وكان شاعراً فارساً ، وله مناقضات مع حسان بن ثابت وغيره فى الحروب التى كانت
بين الأوس والخزرج ، وهو شاعر فحل فصيح كان عدواً للنبي صلى الله عليه
وسلم يهجوهم ويهجو أصحابه ، فبعث النبي صلى الله عليه وسلم نفرأ من أصحابه
فقتلوه فى داره ^(٢)

ولم تستطع اليهودية أن تكتسح الوثنية الجاهلية ، لأن كثيراً من أحكامها شاق
على العرب لايسلسون لها ، ولأنها لا تبيح الانتفاع بغنائم الأعداء بل توجب

(١) الأغاني ٦٢/٢١ اشتعفت : اشتاقت . طلق : مطلوقة

(٢) الأغاني ١٠٦/١٩ ساسى

لإحراقها ، والعربي يقاتل ليثار ويغنم وينتفع بالمال والأسرى .
على أن اليهود كانوا أهل صناعة وزراعة ، والعرب يحتقرون الصناعة ويزدرون
الزراعة ، فليس بغريب أن يُغضوا عن دين الصناع والزراع ، يدل على ذلك تعليل
الجاحظ لتعظيم العوام للنصارى وازدراؤهم لليهود في الإسلام ، وهو صالح أيضاً
لتعليل ضعف اليهودية عن النصرانية في الجاهلية ، وما عظم النصارى في قلوب العوام
وحبيبتهم إلى الطغّام أن منهم كُتّاب السلاطين وفرّاشى الملوّك وأطباء الأشراف
والعطارين والسيّارة ، ولا تجد اليهودى إلا صباغاً أو دباغاً أو جماعاً أو قصّاباً أو
شعّاباً ، فلما رأت العوام اليهود والنصارى كذلك توهمت أن دين اليهود في الأديان
كصناعاتهم في الصناعات ، . (١)

والذى يعلم تاريخ اليهود يشهد بأنهم لم يميلوا إلى إرغام الأمم على اعتناق دينهم ،
وأن نشر الدعوة الدينية من بعض الوجوه محظور عليهم .
ثم إن اليهودية هى خلاصة القانون التلمودى بعقائده وتقاليده ، وقد أدخلت
عليه تغييرات تلائم الأحوال الجديدة التى طرأت على اليهود . ونجم عن ذلك أن
الذين أرادوا أن يقبلوا جوهريات صحف التوراة دون أن يخضعوا للناموس
التلمودى وعقائده لم يؤذن لهم باعتناق اليهودية . وكان هذا من أهم الأسباب فى
اعتناق السريان واليونان للنصرانية ... كذلك تأثر كثير من العرب بتعاليم اليهودية
وخضعوا لبعض الأصول الجوهرية من التوراة دون أن ينقادوا للبعض الآخر ،
فلم ترض منهم اليهودية ذلك . وهناك أمر آخر أن التوراة والتلمود كلّفا الإنسان
تكاليف صعبة لم يألفها ، فلم يستطع العرب الذى لم يكن يعرف للنظم المعقّدة قيمة أن
يدركها بسهولة ، وعسر على نفسه أن تقبل التقيد بأغلال لا تحصى (٢)

(١) رسالة الرد على النصارى ١٧

(٢) تاريخ اليهود فى بلاد العرب ٧٢ لإسرائيل ولفنسون

النصرانية

انتشارها في بلاد العرب . آثارها . عجزها عن اكتساح الوثنية

- ١ -

انتشرت النصرانية في شمالي بلاد العرب حيث الغساسنة الخاضعون للروم وهم نصارى ، فكان أكثر ربيعة - وهم يقيمون في شمالي الجزيرة - يدينون بالمسيحية^(١) وكانت تغلب مسيحية ، وظلت على مسيحيتها إلى عهد عمر بن الخطاب ، فقد أبوا أن يدفعوا الجزية ، فضاغف عليهم الخراج . وكان بعض البدو مسيحيين إلى زمن عمر بن عبد العزيز .

وانتشرت المسيحية في شرقي بلاد العرب حيث المناذرة ، الذين تنصروا . وكان جميع البدو في الشمال على اتصال وثيق بالسكان الآراميين الذين استوطنوا تلك الديار . والذين لونت النصرانية حضارتهم منذ زمن طويل تلويها تاما . وليس من شك في أن بلاد العرب الداخلية وبخاصة مدن الحجاز التجارية لم تكن تجهل كل الجهل تعاليم المسيحية وتقاليدها بسبب اتصالها الدائم بقبائل الشمال . وليس من شك أيضاً في أن الرهبان الذين انتثرت صوامعهم من فلسطين وشبه جزيرة سيناء حتى قلب الصحراء كان لهم أثر كبير في تعريف العرب بالنصرانية ، أضف إلى ذلك أن الصحراء كانت ملجأ لبعض الفرق المضطهدة من الكنيسة الرسمية^(٢) ،

فمن الطبيعي أن يكون في قلب البلاد العربية نصارى وإن قلوا ، ففي السيرة أن من المحاربين ضد النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة شخصاً اسمه عبد عمرو بن صيفي وكان قد ترهب في الجاهلية ولبس المسوح^(٣)

(١) الأغاني ١٢٧/٢٠ ساسي والعقد الفريد ٢٢٩/٢

(٢) العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان ٢٩

(٣) ابن هشام ٢١٦/٢

ولسكن المسيحية كانت أكثر انتشاراً في شمال الجزيرة ، لأنها دين اللخمين والغساسنة ، والعرب يدينون لهم ويعظمونهم ، وكانت تهامة - وإن كانت لقاحا لاتدين لدين ولا تؤدى الإتاوة ولا تخضع للبلوك - لا تمتنع من تعظيم ما عظم الناس ، وتصغير ما صغروا . ونصرانية النعمان وملوك غسان مشهورة في العرب ، معروفة عند أهل النسب ... وكانت النصرانية فاشية في العرب إلا مضر ، فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفش فيها النصرانية ، إلا ما كان من قوم منهم نزلوا الحيرة يسمون العباد فإنهم كانوا نصارى ... ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها ، على لحم ، وغسان ، والحارث بن كعب بنجران ، وقضاة ، وطى ... ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على تغلب وعبد القيس ، وأفناء بكر ، ثم في آل ذى الجدين خاصة ،^(١) وانتشرت المسيحية في جنوب بلاد العرب حيث اليمن التي وفدت إليها بعثات تبشيرية .

ففي القرن الرابع الميلادي ذهبت إلى اليمن بعثة للتبشير بالمسيحية وكانت اليمن قد استردت استقلالها ، وكان رئيس البعثة ثيوفيلوس ، وقد أوفده قسطنطين إلى حمير مصحوباً بهدايا ، وربما كان من أغراض هذه البعثة ضمان حرية العبادة للمسيحيين من الرومان في بلاد اليمن ، ونشر المذهب الآريوسى (مذهب ينسب إلى آريوس العالم المسيحى الذى كان يرى أن المسيح مخلوق كسائر البشر وأنه لم يكن منذ البدء) كما انتشر في الحبشة المذهب الأرثوذكسى .

وربما كان من أغراضها أيضا الحصول على حماية أمراء اليمن للتجار الرومان الذين كانوا يعبرون اليمن ببضائعهم في وقت كانت الحرب فيه ناشبة بين الروم والفرس ، وقد استحوذ الفرس على الطرق التجارية البرية مع الهند^(٢)

(١) رسالة الرد على النصارى للجاحظ ص ١٥

(٢) Canti rossini, ja, juil - sept 1921 عن بين الحبشة والعرب ص ٣٩

وأشهر مدن النصرانية نجران ، معقلها وموئلها في بلاد العرب ، وقد بنيت بها كنيسة كبيرة سميت كعبة نجران تطاولاً إلى الكعبة الشريفة ذات المكانة السامية عند العرب ، وروى أن بناتها هم بنو عبد المسدان الحارثي ، وكانت قبة من آدم من ثلاثمائة جلد على نهر بنجران ^(١) ، إذا نزل بها المستجير أجير ، أو الخائف أمن ، أو طالب الحاجة قضيت ، أو المستر قد رقد ^(٢) وقد ذكرها الأعرشي في قوله :

وكعبة نجران حتم عليك حتى تُناخي بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيح وقيساً هم خير أربابها ^(٣)

ولما غلب الحبش على اليمن في القرن السادس الميلادي ٥٢٣م اعترض بهم النصارى وراجت الدعوة إلى النصرانية ، وأراد الحبش أن يجعلوا لدينهم السيادة في بلاد العرب ، فبنى أبرهة كنيسة صنعاء التي تسمى (القليس) وحاول أن يغزو مكة ؛ ليهدم الكعبة ، وييسط نفوذه على الشمال ، ويصرف العرب عن الوثنية وزيارة الكعبة إلى كعبة نجران وإلى كنيسة صنعاء ، ولكن أصحاب الفيل ارتدوا خائبين .

(١) وكان من أثر النصرانية في بلاد العرب أن مال بعضهم إلى الرهبنة ، وبناء الأديرة ، فمثلاً حنظلة الطائي فارق قومه ونسك وبنى ديراً بالقرب من شاطئ الفرات وترهب فيه حتى مات ٥٩٠ م
وقد ذكر ياقوت في معجمه دير حنظلة وفيه يقول عبد الله بن محمد الأمين وقد نزل به فاستطابه :

ألا يا دير حنظلة المفسدني لقد أورثني سقماً وكداً ^(٤)
كما ذكر كثيراً من الأديرة في الحيرة وغيرها

(١) الأغاني ١٣٧/١٠ سامي ومعجم البلدان . نجران

(٢) الأغاني ١٣٥/١٠ سامي (٣) الأغاني ١٣٥/١٠

(٤) معجم البلدان ١٣٤/٤ وشعراء النصرانية ٩٠/١

وقس بن ساعدة كان يسكن القفار ويتناول قليلا من الطعام وأمية بن أبي الصلت كان قد نظر في الكتب وقرأها ولبس المسوح تعبداً ، وعدى بن زيد حبيب النصرانية إلى النعمان .

(ب) وكان القسوس والرهبان يعظون الناس في المجتمعات والأسواق ، ويذكرونهم بالبعث والحساب والجنة والنار ، ومن ذلك خطبة قس التي سمعها النبي عليه الصلاة والسلام في عكاظ ، ورواها (١)

ومما يدل على انتشار آرائهم أن القرآن الكريم يحكى كثيراً من أقوالهم ويفندها (ح) وكان منهم شعراء تجلت مسيحيتهم في شعرهم

ومن الشعراء النصارى أمية بن أبي الصلت ، وعدى بن زيد ، وأبو قيس ابن الأسلت ، وقس بن ساعدة ، وسنعرض لآرائهم بالتفصيل في كلامنا على الحياة الدينية ، وكان أمية كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب (٢) وقال فيه الأصمعي : ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة ، (٣) ومن تعبير أمية الذي تتجلى فيه المسحة النصرانية قوله :

مجدوا الله وهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيراً (٤)
وقد أنشد النبي صلى الله عليه وسلم قوله :

الحمد لله ممسأنا ومصبحنا بالخير صبحنا رب ومسأنا

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن كاد أمية ليُسلم (٥)

ولذى الإصبع العدواني شهرة بالحلم والحكمة ، وله قصيدة جيدة في الشكوى

(١) فقد النثر لقدماء بن جعفر ٩٨

(٢) ابن سلام ١٠٣ (٣) الأغاني ١٢٥/٤ الدار

(٤) ديوان أمية ٤٣ (٥) الأغاني ١٢٩/٤ الدار

من ابن عمه يكل في بعض أبياتها علم السرائر والجزاء إلى الله تعالى :

إن الذي يقبض الدنيا ويدسطها إن كان أغناك عني سوف يغنيني
الله يعلمكم والله يعلمني والله يحجزكم عني ويجزيني
والله لو كرهت كفى مصاحبتي لقلت إذ كرهت قربى لها يذني^(١)

ومن استعطاف عدى بن زيد العبادي للنعمان وقد حبسه :

أجل نعمى ربها أولكم ودنوى كان منكم واصطهاري
أجل إن الله قد فضلكم فوق من أحكأ صلبا يازار^(٢)

وأبو قيس بن الأسلت الأوسى يقول إن الله هو المعين :

وأحرزنا المغانم واستبحنا حمى الأعداء ، والله المعين^(٣)

وقد سئل يحيى بن متى راوية الأعشى — وكان يحيى نصرانيا عباديا معمرأ وكان يرى أن الأعشى قدري — من أين أخذ الأعشى مذهبه الذى يتبين في قوله :

استأثر الله بالوفاء وبالعد ل وولى الملامة الرجلا

فقال : من قبل العباديين نصارى الحيرة ، كان يأتهم يشتري منهم الخمر فلقنوه ذلك (٤) .

(٥) وكثيراً ما شبه الشعراء بُدعى الكنائس ، وقناديلها ، ونواقيسها ، ورهبانها

الخ ... مما سنعرض له في الحياة الدينية .

فمثلاً يقول المرقش الأكبر إن زقاء اليوم في هدء من الليل كدقات الناقوس

بعد الهدوء :

وتسمع تزقاءً من اليوم حولنا كما ضربت بعد الهدوء النواقيس^(٥)

وجواس بن القعطل يشبه الشعري العبور بقنديل معلق في كنيسة :

(١) الأمل ٢٥٥/١ — ٢٥٦ والأغاني ١٠٥/٣ الفار

(٢) البيان والتبيين ٢٨٥/٢ أحكأ : شد (٣) البيان والتبيين ١٧/٣

(٤) الأغاني ٧٦/٨ ساسي (٥) الفضليات شاكر وهارون ٢٥/٢

وأعرضت الشعر العبور كأنها معلق قنديل علته السكناثس (١)
وبشر بن أبي خازم يهجو بني حذاء بأنهم عرج فأرجلهم كعصى الطلح، وعصى
الطلح معوجة، ويشبههم بالصلب المنصوبة في البيعة :

لله در بني حذاء من نفر وكل جار على جيرانه كلب
إذا عدوا وعصى الطلح أرجلهم كما تنصب وسط البيعة الصلب (٢)

وعدى بن زيد العبادي يشبه الحسان بدمي العاج في المحاريب :
كدمي العاج في المحاريب أو كالبيض في الروض زهره مستنير (٣)

(هـ) وأدخل النصارى ألفاظا وتراكيب لم تكن تعرفها العرب ، يذكرون أن
أمية بن أبي الصلت علم العرب : (باسمك اللهم) وأن قس بن ساعدة أول من
قال (أما بعد)

ويذكرون أن ورقة بن نوفل ابن عم السيدة خديجة كان قد تنصر في الجاهلية
وكان يكتب بالعبرانية من الإنجيل ما شاء أن يكتب (٤)

وبعد ، فإذا كانت اليهودية قد عجزت أن تصرع الوثنية الجاهلية ، فكذلك قد
عجزت المسيحية ، لأنها لا نوائم طباع العرب الميالين إلى الثأر والانتقام ، والآنفة
من الضيم ، وما من عربي يرضى أن يُدير لضاربه خده الأيسر إذا ضربه على
خده الأيمن .

بل إن النصارى في بلاد العرب تأقلبوا ، خالفوا تعاليم المسيحية ، وشنوا

(١) المؤلف والمختلف للآمدي ٧٤ (٢) البيان والتبيين ٥٤/٣
(٣) البيان والتبيين ٥٤/١ (٤) الأغاني ١٢٠/٣ الدار

الغارات ، وطلبوا الثارات ، ولذلك لما قدم عدى بن حاتم الطائي على رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له : أو لم تسكن تأخذ من قومك المربع ؟ فقال : بلى ! فقال له عليه الصلاة والسلام : إن ذلك لم يكن يحل لك في دينك . فقال : أجل والله ، وأعلن عدى إسلامه (١)

وطبيعي أن الدين الذي لا يحل القتال لا يحل الغنائم .

الاتصال السياسي والحربي بالحبيشة

غزوات الأحباش لليمن وكندة . تأثير الأحباش في اللغة والأدب عن طريق مباشر ، وعن طريق اليمن .

— ١ —

تعددت غزوات الأحباش لليمن ، فكانت الأولى في القرن الأول قبل الميلاد إذ نصرروا بني همدان على ملك سبأ الشرعي ، فلم يغادر الأحباش اليمن بل اتخذوا لهم قاعدة حربية هناك هي مدينة سحرت ، واستقرت جاليات حبشية باليمن منذ ذلك الحين (٢)

ثم حدثت غزوة حبشية لليمن في نهاية القرن الثالث للميلاد ، لتخليص أهل سحرت من يد شمرير عرش ملك سبأ وريدان وحضر موت ، لأنه وسع مملكته في الجنوب ، وحمل على سحرت . ونجحت الغزوة وساد الحبش بلاد اليمن منذ نهاية القرن الثالث الميلادي حتى القرن الرابع . ويؤيد ذلك أن النقوش العربية لم تذكر أي خبر عن حكام اليمن في هذه الفترة ، ولكن النقوش الحبشية تلقب أحد ملوك الحبشة في هذه الفترة (٣١٧ م) باللقاب منها ملك حمير وريدان وسبأ وسلاحين (مأرب) وصيامو (تهامة اليمن) (٣)

(١) سيرة ابن هشام ٢٤٨/٤

(٢) بين الحبشة والعرب . عبد المجيد عابدين ٢٣ — ٢٦ (٣) المرجع السابق ٣٢ — ٣٤

ثم كان تشكيل اليهود بالمسيحيين في الين سيباً في نشوب حربين:

أما الأولى فقد روى أن دميانوس أو دمنوس ملك حمير اليهودى أمر بقتل قافلة أو أكثر من قوافل التجار الرومان الذين كانوا يجتازون الين إلى الحبشة، فأوغر ذلك صدر ملك الحبشة إيدوج (حكم حوالى ٤٨٠م) وأوغر صدر امبراطور الروم، فجردا على الملك اليهودى حملة انتهت بانهزامه وقلته، وولى الأحباش والرومان أميراً نصرانياً على حمير، ولكنه لم يعيش طويلاً، فانتهاز اليهود الفرصة لإقامة يهودى عليهم، وكانوا قد استعادوا بعض قوتهم، فولوا ذا نواس ملكاً على حمير حوالى ٥٢٠م.

وأما الثانية فسببها أن ذا نواس اليهودى قد أغضب النصارى، وعدا عليهم، وتختلف الروايات في سبب عدوانه، بعضها يرى أنه كان متعصباً لدينه ويريد أن ينشره، فسار بجنوده إلى نجران ودعا أهلها النصارى إلى أن يتهودوا أو يقتلوا، فاختاروا القتل فخذلهم الأخدود وأحرقهم فيه^(١)، وبعضها يرى أنه فعل بهم ذلك تأديباً لهم، لأنهم قتلوا ابنين لرجل يهودى من نجران اسمه دوس، واستنصر به دوس هذا^(٢).

ومهما يكن السبب، فإن ذا نواس اليهودى نكل بنصارى نجران، فذهب أحدهم إلى ملك الحبشة، وأعلمه ما حل بهم، ولعله أراد أن يستفزه ويستدر عطفه فعرض عليه الإنجيل قد أحرق النار بعضه، فكتب الملك الحبشى إلى قيصر وبعث إليه بالإنجيل المحرق، فأمدّه بسفن كثيرة. وفي رواية أخرى أن المستنجد من أهل نجران اتجه إلى قيصر أول الأمر فأحاله إلى ملك الحبشة مع وصاة به وأمر بأن ينصره ويطلب ثأره ممن بغى عليه وعلى أهل دينه^(٣).

(١) سيرة ابن هشام ٣٥/١ وتاريخ الطبرى ١٠٥/٢

(٢) الطبرى ١٠٦/٢ وتاريخ ابن خلدون ٥٩/٢ — ٦٠

(٣) تاريخ الطبرى ١٠٦/٢

ولا يجمع المؤرخون ولا الباحثون على أن ذا نواس هو صاحب الأخدود ،
فالنيسابورى يذكر ثلاث روايات آخرها أنه ذو نواس ^(١)
والطبرى يذكر فى تفسيره روايات كثيرة : منها أن أصحاب الأخدود كانوا
أهل السكتاب من بقايا المجوس وأنهم خالفوا ملكهم فى أمر فأحرقهم فى النار ،
ومنها أنه ملك - لم يذكر اسمه - أضرم النار فى الأخدود لإحراق قومه
المؤمنين بالله .

وعما ذكره الطبرى أن أصحاب الأخدود هم الكفار الذين فتنوا المؤمنين ، ذلك
أن طائفة من المؤمنين بالله اعتزلوا الناس فى الفترة ، فأراد جبّار من عباد الأوثان
أن يدخلوا فى دينه فأبوا ، فخذّ لهم الأخدود ^(٢) . ولم يذكر الطبرى فى تفسيره
ذا نواس ولا أهل نجران .

وقد أردت بإيراد هذه الآراء أن أقوى الشك فى نسبة الأخدود إلى ذى نواس
اليهودى ، لأن القرآن الكريم يورد القصة ثم يعقب عليها بهذه الآية : « وما بقموا
منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد ، فكيف ينقم ذو نواس اليهودى من نصارى
نجران أنهم يؤمنون بالله ، وهو نفسه مؤمن بالله تعالى ؟

وقد اعترض ياقوت مثل هذا الاعتراض ، فعجب من أن ينسب الأخدود إلى
ذى نواس ، لأن ذلك يُفضى إلى أن « يكون القاتل والمقتول من أهل التوحيد ،
والله قد ذم المحرق والقاتل لأصحاب الأخدود ، وأما خبر الترمذى أن الملك كان
كافراً وأصحاب الأخدود مؤمنين فصح إذن ، ^(٣)

ويرجح الأستاذ لوث Loth أن السورة لا تشير إلى هذه القصة ^(٤) ، وأن ماجاء
فى تفسير الطبرى مسنداً إلى صهيب عن النبى صلى الله عليه وسلم (ملخص ذلك أن

(١) تفسير النيسابورى . على هامش الطبرى ٦١/٣٠ - ٦٢

(٢) تفسيرى الطبرى ٨٤/٣٠ - ٨٦ (٣) معجم البلدان ٢٦٢/٧

(٤) بين الحبشة والعرب ٥٢ عن ZDMG, vol. 35, 1881. PP. 619, 48, 63

ملكا كافرا انتقم من رعاياه المؤمنين بإحراقهم في الأخدود (إنما يعبر عن قصة استشاد جرجيس Saint George^(١)) ، والعرب يعرفون هذه القصة من قديم ، وقد ذكرها الطبري مفصلة في تاريخه^(٢) كما ذكرها مفصلة ابن الأثير^(٣)

وفي تفسير الطبري رواية عن ابن عباس أن أصحاب الأخدود ناس من بني إسرائيل خدوا أخدودا في الأرض ثم أوقدوا فيه نارا ثم أقاموا على ذلك الأخدود رجالا ونساء فعرضوا عليها ، وزعموا أنه دانيال وأصحابه^(٤) .

ويرى الأستاذ جيجر Geiger أن ثمة تشابها بين العبارات التي وردت في قصة تعذيب أصحاب دانيال في التوراة وبين ما ورد في سورة البروج . فكما نجد في السفر (في الإصحاح الثالث) عبارة (أتون نورا يا قذتا) أى أتون النار المتقدمة ، ولفظ قتل أى قتل مستعملا في معنى الإحراق (الآية ٢٢ الإصحاح الثالث) فكذلك نجد القرآن الكريم يعبر عن أتون النار المتقدمة بقوله (النار ذات الوقود) ويعبر عن الإحراق بقوله (قتل أصحاب الأخدود)^(٥) .

وأمام هذا الشك فليس لنا إلا أحد أمرين : إما أن نحكم بأن ذا نواس لم يكن يهوديا بل كان وثنيا ، وبذلك يكون قد انتقم من المؤمنين بالله وهو غير مؤمن ، وإما أن يكون حافر الأخدود غير ذى نواس ، وتكون حملة الحبشة الأخيرة قد نشأت عن انتقام ذى نواس للرجل الذى استنصر به على أهل نجران الذين قتلوا ولديه ، ونشأت أيضا لأن ذا نواس تولى بالرغم من إرادة الرومان والأحباش الذين كانوا قد ولوا أميران نصرانيا على حمير ، ولسكن اليهود انتهبوا موته وولوا ذا نواس اليهودى ، فأحس المسيحيون الذين ينقلون التجارة بالخطر المحقق بهم ، فانقطعت القوافل عن اليمن ، ثم ساءت العلاقة سوما أدى إلى الغزوة الرابعة .

(١) بين الحبشة والعرب ٥٤ (٢) تاريخ الطبري ٤٨/٢ — ٥٥

(٣) السكامل في التاريخ لابن الأثير ١٢٨/١

Was hat Mohammed. p.192 (٥)

(٤) تفسير الطبري ٨٥/٣٠

وبذلك تهيأت الأحوال لغزوة رابعة يغزوها الأحباش لليمن
وفد الجيش الحبشى بقيادة أرباط ، وفى جنوده أبرهة ، ولقيهم العرب فانتصر
الأحباش ، ولما رأى ذو نواس ما نزل بقومه وجه فرسه إلى البحر وخاض به إلى
أثباحه ففرق ، وانتقم أرباط من أهل اليمن شر انتقام ، ولم تسلم قصورها وحصونها
من حنقه فقد أخرج سُلَحين وَيَنْسُون وغمدان ، وقد تحسر الشعراء على تخریبها ،
من ذلك قول ذى جَدَن الحميرى :

هُوَكَ لَيْسَ يَرُدُّ الدَّمْعَ مَا فَاتَا لَا تَهْلِكِ أَسْفَا فِي ذِكْرٍ مِنْ مَا تَا
أَبْعَدُ يَنْنُونُ لَا عَيْنَ وَلَا أَثَرَ وَبَعْدُ سُلْحِينِ يَبْنِي النَّاسُ أَيْيَاتَا ^(١)
ويرى هشام بن محمد أن القائد كان أبرهة ، وأنه لما انتصر أراد أن يستقل
باليمن ، فبعث إليه ملك الحبشة جيشا بقيادة أرباط ليحاربه ، وتبارزا ، فقتل أرباط ،
ومُشِرِم أنف أبرهة فسمى الأشرم ، ثم استعطف أبرهة الملك واسترضاه فرضى
وأقره على عمله ^(٢) .

وتزوج أبرهة امرأة عربية ولدت له ابنا اسمه مسروق .
ثم إن أبرهة - وكان ورعا فى دينه النصرانى - بنى القُلَيْسَ بصنعاء ^(٣) ، وهى
كنيسة لم يكن لها مثل ، وأراد أن يصرف الحجيج من العرب إليها ، ولكن رجلا
من بنى فُقَيْمٍ أو من بنى مالك بن كنانة أحدث فيها حدثا أغضب أبرهة على أهل مكة ،
فسار إلى البيت الحرام ليهدمه . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح فإنه من
الطبيعى أن يحاول أبرهة أن يبسط نفوذه على الحجاز كما بسطه على اليمن ، وأن
يحاول تنصير أهل الشمال الوثنيين ، نصرة لدينه المسيحى ، وتوسيعا للأسواق
التجارية التى يتنافس الفرس والروم فى امتلاك نواصيها ، والحبشة كما نعلم
رومانية الميول .

(١) تاريخ الطبرى ١٠٧/٢ وسيرة ابن هشام ٣٦/١ ومعجم البلدان ٢٤٣/٢ والأغانى ١٦/١٠٧ - س ١٠٧

(٢) تاريخ الطبرى ١٠٨ - ١٠٩ (٣) تاريخ ابن خلدون ٦١/٢

كانت إذن غزوة الفيل ، وكان من أغراضها أن ينصرف العرب عن الكعبة إلى كعبة نجران أو كنيسة صنعاء . ويختلف المؤرخون في زمن هذه الغزوة ، فالذين يرون أن النبي عليه الصلاة والسلام ولد عام الفيل يحددون تاريخها بأنها كانت عام ٥٧٠ م ، ولكن في السيرة روايات أخرى عن مولده صلى الله عليه وسلم ، بعضها يذكر أنه ولد بعد عام الفيل بعشر سنين ، وبعضها يرى أنه ولد بعده ثلاث وعشرين سنة ، أو ثلاثين سنة ، أو بأربعين سنة ، وقيل بسبعين سنة ^(١) .

وكثير من الباحثين على أن غزوة الفيل كانت حوالى ٥٤٠ م ، وأن استيلاء الفرس على اليمن كان في سنة ٥٧٠ م ، وفي هذه السنوات الثلاثين حكم اليمن يكسوم ومسروق .

انتهى حكم أبرهة سنة ٥٤٤ م ، فحكم بعده ابنه يكسوم ، فذلت حمير وقبائل اليمن ، ووطنتهم الحبشة ، فنكحوا نساءهم ، وقتلوا رجالهم ، واتخذوا أبناءهم تراجمة بينهم وبين العرب ، ولما هلك يكسوم خلفه أخوه مسروق .

وكان ملك الحبشة باليمن منذ دخلوها إلى أن قتل الفرس مسروقا وأخرجوا الحبشة من اليمن ثنتين وسبعين سنة ^(٢) .

ثم استنجد سيف بن ذى يزن أو معد يكرب بن ذى يزن بامبراطور الروم فلم ينجده ، فاستنجد بكسرى فأنجده ، وفرض كسرى على سيف جزية وخرجا يؤديه إليه في كل عام ، وكتب إلى قائده وهرز أن يعود إلى فارس ^(٣) .

وانتقم سيف من الأحباش شر انتقام ، وأذلهم ، فاغتاله بعض حراسه من الأحباش الذين اتخذهم عبيداً وجمازين يسعون بين يديه بحرابهم ^(٤) ، فعاد وهرز إلى

(١) لسان الميون ٦٥/١ (٢) تاريخ الطبرى ١١٥/٢ وتاريخ ابن خلدون ٥٩/٢-٦٠

(٣) تاريخ الطبرى ١١٥/٢-١٢١ (٤) تاريخ الطبرى ١٢٠/٢

الين ، وقد أمره كسرى ألا يترك بالين أسود ولا ولد عربية من أسود إلا قتله صغيراً أو كبيراً ، ولا يدع رجلاً جعداً قد شرك فيه السودان إلا قتله ، ففعل وهرز ذلك ، ثم أمره كسرى على الين وحكمها الفرس حكماً مباشراً إلى أن جاء الإسلام .

- ٢ -

أما تأثير الأحباش في الأدب الجاهلي فما لاشك فيه ، ولعل ذلك يتجلى من بعض ما نسوق من شواهد .

١ - أسلفت أن نجران كانت مركز المسيحية الحبشية في الين ، وقد تخرج في هذه المدينة شعراء وخطباء ، فمثلاً قس بن ساعدة كان أسقف نجران وكان خطيباً مشهوراً ، وقد سمع النبي صلى الله عليه وسلم خطبته في سوق عكاظ وهو على جمل أورك ، وهي خطبة حافلة بالحكمة ، في جمل قصار مسجوعة ، ومذيلة بأبيات من الشعر ^(١)

ولم نعثر على خطبة سابقة لها مذيلة بشعر ، مما يرجح لدينا أن هذا من تأثير الأحباش ، لأن رجال الكنيسة من الحبشة كانوا يذيلون قصص حياة القديسين والشهداء بمقطوعات شعرية ينشدونها عقب الفراغ من سرد حياة القديس ، ويسمونها سلام ، لأنها تبدأ بلفظ سلام ، وتتناول الإشادة بأعمال القديس أو الشهيد ، وتجري في أواخر أبيات المقطوعة قافية واحدة ، ^(٢) .

ب - وكان الأعشى يزور كل سنة بني عبد المدان فيمدحهم ، ويقم عندهم يشرب الخمر معهم وينادهم ، ويسمع من أساقفة نجران قولهم ، وقد أخذ عنهم رأيه هذا :

(١) قد النثر لقدامة بن جعفر ٩٨

(٢) بين الحبشة والعرب ١٢١

استأثر الله بالبقاء وبالعدل وولى الملامة الرجل^(١)
 ح - ومن تأثير الحبشة في الأدب العربي الغزل الفاحش ، لأن الحبشى قد
 اشتهر بهذا النوع من الغزل الذى ينتهى به إلى المجون ، وهو إذا ما انفعل عبر عن
 انفعاله فى غير تحرج ، وكان العرب يعرفون فيهم هذا الطبع ، وقد قال النبي
 صلى الله عليه وسلم فى عبيد الحبشة : « إن جاعوا سرقوا وإن شبعوا زنوا »^(٢) ،
 وروى أن عبد الله بن أبى ربيعة المخزومى اشترى الشاعر الحبشى سحياً ، وكتب إلى
 عثمان بن عفان إني قد اشتريت لك غلاماً حبشياً شاعراً ، فكتب إليه : « لا حاجة
 لنا فيه ، إنما حظ أهل الشاعر منه إذا شبع أن يشبب بنسائهم وإذا جاع أن يهجوهم »^(٣) ،
 وفى رواية أخرى أنه قال : « لا حاجة لى به ، إن الشاعر لا حريم له »^(٤) .
 وفى بعض الأناشيد الدينية الحبشية نوع يسمونه ملكى . وهو شعر يصف
 القديس أو الشهيد وصفاً دقيقاً من رأسه حتى أظفار أصابع رجليه ، وهو لا يتخرج
 من ذكر القبيح ، وهو يذكرنا بشعر نشيد الإنشاد فى التوراة^(٥) .
 وإذا تقصينا شعراء الغزل الفاحش الأولين وجدناهم إما أحباشاً وإما عرباً تأثروا
 بالأحباش ، فامرؤ القيس أستاذ هذا الفن الأول من كندة ، وكانت مقصد الغزاة من
 الأحباش ، غزاها أفلاس فى القرن الثالث الميلادى ، ثم أخضعها أبرهة ، وولى عليها
 يزيد بن كبشة فى القرن السادس^(٦) ، وعمر بن أبى ربيعة أمه أم ولد من حضر موت
 أو من حمير أو من الحبشة ، وقيل إن الحبشية أم أخيه ، ويرى الأصفهاني أن الغزل
 إنما أتاه من اليمن ، فيقال غزل يمان ودل حجازى^(٧) ، وسحيم عبد بنى الحسحاس
 عبد حبشى اشتراه أبو سعيد فشبب بابنته عميرة وأفحش فى تشبيهه كقوله :

(١) الأغاني ١٠/١٣٦ ساسى
 (٢) الأغاني ١/٦٥ الدار
 (٣) الشعر والشعراء لابن قتيبة ١٥٢
 (٤) طبقات ابن سلام ٧١
 (٥) بين الحبشة والعرب ١٢٥
 (٦) بين الحبشة والعرب ١٢٣
 (٧) الأغاني ١/٦٦ الدار

وبقنا وسادنا إلى عُلجانة وحَقَفَ تهاداه الرياح تهاديا
وهبَّتْ شمالا آخر الليل قَرَّةً ولا ثوب إلا درعها وردائيا
توسَّدنى كفا وتثنَّى بمعصم على، وتحوى رَجَلَهَا من ورائيا
فما زال بُردى طيبا من رداها إلى الحول حتى أنهج البردُ باليا^(١)
وهو القائل :

ولقد تحدر من كريمة بعضهم عَرَّقَ على متن الفراش وطيب^(٢)
وقد قتل اتقاه شره ، وعقابا له على خشيه في تشيبيه ، ولم يفس هذا الفحش وهو
ذاهب إلى مقتله ، فقد رأته امرأة كان يذنه وبينها مودة ثم فسدت ، فضحكت شماتة به ،
فنظر إليها وقال :

فإن تضحكى منى فيارب ليلة تركتك فيها كالقَبَاءِ المُفَرَّجِ^(٣)
وكان العرب ميالين إلى الزواج من الحبشيات والسود عامة ، فقد روى الأصمعي
أن رجلا قيل له : أى الرجال أخف أرواحا؟ قال الذين أعرقت فيهم السودان .
وقال على بن أبى طالب : من تزوج سوداء فطلقها فعلى مهرها . وكان أبو حازم
المدنى ينشد :

ومن يك معجبا ببنات كسرى فإنى معجب ببنات حام^(٤)
و — وشيء آخر غير الغزل الفاحش هو التغالى فى الفروسية ، لأن الأحباش
صبر على القتال ، خفاف الحركة ، والعرب يسمون ثلاثة من شعرائهم الفرسان أغربة
العرب : عنتر بن شداد ، وخفاف بن نَدْبَة ، والسُّلَيْك بن السَّاكَة . أما عنتر فأمه زبيبة
أمة سوداء وطالما افتخر بشجاعته ودافع عن سواده

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٧١ والأغاني ٢٠/٥ ساسى وأخبار النساء لابن قيم الجوزية ٤٣ .
علجانة : شجره معروفة . الحَقَفَ : السكيب من الرمل . أنهج : أخلق وبلى
(٢) ابن سلام ٧١ (٣) الأغاني ٢٠/٥ ساسى وأخبار النساء ٤٣
(٤) عيون الأخبار ٤٠/٤ — ٤١

وأما خفاف فهو شاعر مخضرم، وأمه نَدْبَة حبشية سوداء، قال الأصمعي :
خفاف ودريد بن الصمة أشعر الفرسان . وقد رد على من عيروه سواد لونه بقوله :
كلانا يسودّه قومه على ذلك النسب المظلم
وأما السليك فهو من الصعاليك الفتاكين ، وأمه السلوك سوداء ، وقد أكثر من
الفخر بغزواته وسلبه ، واشتهر بالعدو حتى زعموا أنه كان يسبق الخيل .

وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم للأحباش بالشجاعة والكرم ، وإن فيهم لخلتين
حسنتين : إطعام الطعام والبأس يوم البأس ،^(١)

هـ - على أن الأحباش الذين هاجروا إلى بلاد العرب أحراراً وأرقاء وغزاة ،
والعرب الذين هاجروا إلى الحبشة تجاراً ومهاجرين ، هؤلاء وهؤلاء كانوا حلقة
اتصال بين اليمن والعرب وبين الحبشة ، فدخلت في اللغة العربية كلمات حبشية أورد
السيوطي منها في الإتيان نحو ستة وعشرين لفظاً في القرآن الكريم ، وأكثرها
راجع إلى أمور دينية كالحواريين ومنافق وفطر ومنبر ومحراب ومصحف وبرهان
والجبت والطاغوت وطوني^(٢)

وقد نطق النبي صلى الله عليه وسلم ببعض كلمات حبشية ، كقوله وهو يصف أشرار
الساعة : (إن بين يديها فتنة وهرجا) ولم يعرف الصحابة معنى الهرج ، فسألوه ، فقال :
هو القتل بلسان الحبش .

وكقوله لأم خالد بنت خالد بن سعيد عندما قدمت من أرض الحبشة وكساها
خميصة (كساء له أعلام) وجعل يمسح الأعلام . بيده ويقول : (سناء ، سناء) أو
(سنة سنة) أي حسن حسن بلغة الحبش^(٣) وفي الحبشية هرج بمعنى قتل ، وشناى
بمعنى جميل^(٤) .

(١) الأغاني ٦٥/١ الدار (٢) الإتيان ١٣٧/١

(٣) الطراز المنقوش ١٤ وفتح الباري ١٢٨/٦

(٤) بين الحبشة والعرب ٨٩

واستعار العرب منهم ألفاظا لأسلحة القتال منها : المعابل وهى آلات حربية تشبه السهام والنبال ، فهى فى الحبشية معبلة جمعها معابل ، ومنها الدروع ، والوضف بالوضاف أى الرمى بالقلاع ^(١) .

ومن الألفاظ التى استعارها العرب الدكر ، ففى لسان العرب : الدكر لعبة يلعب بها الزنج والحبش ^(٢)

والدركة والدركة ، جاء فى القاموس : الدركة كشرذمة لعبة للعجم أو ضرب من الرقص أو هى حبشيه ^(٣) ، وفى اللسان قال ابن دريد : أحسبها حبشية معربة ، وذكر الأزهري أنه قرأ بخط شمر قال : قرىء على أبى عبيد وأنا شاهد فى حديث النبى صلى الله عليه وسلم أنه مر على أصحاب الدركة فقال : جدوا يابنى أرفدة حتى يعلم اليهود والنصارى أن فى ديننا فسحة ^(٤) . وفى المخصص : الدركة لعبة يلعب بها الصبيان ، وقيل هى لعبة الحبش ^(٥)

و - ويذكر الدكتور بيرون فى كتابه عن النساء العربيات الذى نشر بالجزائر ١٨٤٨ م أن معظم المشهورين بالغناء كانوا عبيداً ، وأن العبيد قبل الإسلام كانوا على وجه الإجمال من الحبش أو الزنوج ، ولا يبعد أن تكون القينتان المشهورتان باسم جرادق عاد فتاتين حبشيتين ^(٦) .

ولم يكن من الحبشة قيان فحسب ، بل كان منهم من يرقصون ويلعبون بالحرايب فى المحافل والأعياد فى الجاهلية وصدر الإسلام .

روى أنهم لعبوا بحرايبهم فى المسجد ، وكان النبى يستعرضهم والسيدة عائشة

(١) Noldeke, 1,53,55 عن بين الحبشة والعرب ١١٢

(٢) اللسان مادة دكر (٣) القاموس المحيط مادة درقل

(٤) اللسان مادة درقل (٥) المخصص

(٦) بلال داهى السماء . المقاد ١٥٠

متكئة على منكبيه ، وأنهم زفوا (رقصوا رقصا فيه سرعة وحركة متوالية) بين يدي الرسول ، وأخذ المسلمون عنهم بعض أنواع الرقص وهو الحبل الذي صنعه جعفر ابن أبي طالب لما قدم على النبي من الحبشة ، وكان الحبشي إذا سما مركزه بأنف من الرقص ، فقد مر نصيب الشاعر - بعد أن علت مكانته باتصاله بالخليفة عبد العزيز ابن مروان وبعد أن أعتق أمه ثم جدته لأمه ثم ابن خالته سحيم - بابن خالته سحيم هذا وهو يزن ويضم مع السودان فأنكر عليه وزجره ، فقال له سحيم : إن كنت أعتقتني لا كون كما تريد فهذا والله ما لا يكون أبداً ، وإن كنت أعتقتني لتصل رحي وتقضي حقى فهذا والله الذي أفعله هو الذي أريده ، أرف وأزمر وأصنع ما شئت ^(١) .

وفي اللغة القنين من أدوات الموسيقى عند الحبشة ، وآلات الموسيقى وثيقة الاتصال بالرقص كما نعلم .

وقد ذكر الجاحظ في رسالته « فخر السودان » ^(٢) ، كثيراً من ضروب تفوقهم في الشجاعة والكرم والرقص والغناء ، ومن إقبال اليمانيين على الزواج من النساء الحبشيات ، واليمن أشهى النساء عندهم الحبشيات وبنات الحبشيات ، ^(٣) .

وبعد ، فقد رأينا أن العرب كانوا على صلوات بالأمم القديمة ، تقوى وتضعف ، ولكنهم لم يمتزجوا بأمة امتزاجاً يحدث آثاراً عظيمة عميقة في عقليتهم وأدبهم أو معارفهم كما امتزجوا بالأمم في العصر العباسي ، وكما نمتزج بالغرب الآن .

(١) الأغاني ٣٣٩/١ الدار

(٢) مجموعة رسائل للجاحظ طبعة ساسي ص ٥٤

(٣) الرسالة السابقة ٧٥

وسبب ذلك أن الصحراء والجبال والبحار والمسافات كادت تفصلهم عن العالم القديم ، وأن عاداتهم وحياتهم الاجتماعية كانت تغار ما كان عليه جيرانهم ، ولذا لم تتقارب العقليتان ، ولم يكن أثر الاتصال عميقاً ، ثم إن الأمية كانت فاشية فاكثفوا بالنقل الشفهي لبعض الحكم والقصص والأمثال والحوادث والسكلمات ، وهم إذ ذاك يتخيرون ما يسرع حفظه ويسهل فهمه ، وقد يعتور التحريف بعض ما ينقلون ، كالأمثال التي نقلوها ونسبوها إلى سليمان أو لقمان ، وبعض القصص المنقولة عن الفرس والروم .

شاعرية العرب

عوامل شاعريتهم . إعزازهم للشعر والشاعر . أمثلة على مكانة الشاعر وقيمة الشعر .
من الأدلة على شاعريتهم كثرة ما خلفوا من شعر ، وهذا الكثير ضاع أضعافه .

العرب أمة شاعرة ، ولا نقصد أن كل عربي شاعر ، وإنما نريد أن الشاعرية هبة شائعة فيهم على تفاوت في عظمتها وضآلتها .

وقد كانت البادية مذكية لهذه الشاعرية ، فهي — وإن خلت من الجمال المصنوع — غنية بالجمال المطبوع ، فهناك يبرز القمر وضاح الجبين بساما ، ويبعث أشعته الفضية للبدج والساھر والساھر فينقلب لبه ، وتلتهمع النجوم سافرات ، وتومض كأنها ماسات فتناغى وتناجى ، وهناك السكون الرهيب الباعث على التأمل ، والبراح الفسيح المتكشّف ، والحرية المطلقة ، وكل ذلك يولد في نفوس السكان الانطلاق في التعبير والبوح بما في الضمير .

هناك تجذب الأرض ، وينبسط الرمل ، ويصلد النجد والتل ، ولكن الطبيعة تجود على بعض البقاع بالمطر والخصب فتنبث الواح ، وينزل الغيث فتعشوشب الأرض ، فإذا مارأى البدوى الأرض اكتست بالخضرة بعد العرى ، وإذا ما أوى بعد جهد الرحلة إلى الظل والماء ملسكه الإعجاب والروعة ، وأحس بما لا يحس به من ألف رؤية الخضرة في الوادي الخصيب .

وبلاد العرب بلاد النور ، حيث تسفر الشمس من المشرق إلى المغرب ، ولللنور أثر في صفات الإنسان أكثر منه في جسمه ، وقد كان جوته يقول وهو يجود بروحه : أريد نوراً أريد نوراً .

ولزوم النور كلزوم الأوكسيجين في الهواء ، وفي البلاد المنيرة الكثيرة الضوء يتفتق الذهن ويستيقظ التصور ، ويخف العمل ، وفي البلاد المظلمة

ينحيم الأسى على القلوب ، ولا يجيء الشعراء فيها إلا بأحلام مضطربة متكلفة^(١) .
 (ثم إن اللغة العربية لغة شعرية غنائية ، لأنها حافلة بمتداداتها التي تسعف المعبر
 وتواتيه بالقافية ، وهي دقيقة في دلالاتها ، غنية بأساليبها ومجازاتها ، ثرية بمفرداتها
 ومشتقاتها ، وفي كلماتها رنين وجرس يلائم الشعر والموسيقى)

على أن العربي ذكي سريع البديهة متوفز الحس جياش العاطفة ، يحيا حياة قبلية ،
 ينافح عن شرف قبيلته ويذيع محامدها ، ويسلق خصومها بلسانه الحاد ، فهو كالمرصد
 يسجل مفاخر قبيلته ويحسمها ، ويقيد مخازي أعدائها ويضخمها ، وحياة القبائل في
 عراقك لا تخبو ناره إلا ريثما تشتعل .

ثم إنه حساس بأسره الجمال ، وليس له فن جميل يودعه أحلامه وآماله ، ويسلى
 به وحدته ، ويؤنس وحشته ، ويحلى عبقريته إلا الشعر ، فهو حذاء الركب ، وغناء
 الماتح على البئر ، وأهزوجة المنتصر ، وأغرودة العاشق ، وسلوى المسكروب
 والمحروب ، هو متنفس العواطف ومجتملى القرائح ، فلا عجب أن كان الفن الجميل الذي
 اشتهر به العرب ، واحتفلوا بقائليه ، فرفعوا الشعراء مكانا عليا ، وبخاصة أنهم كانوا
 لسن القبيلة يقومون منها مقام الصحف الحزبية من الأحزاب .

فإذا نبغ في القبيلة شاعر ، أتت القبائل فهنأتها ، وصنعت الأطعمة ، واجتمع
 النساء يلعبن بالمزاهر كما يصنعن في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ، لأنه حماية
 لأعراضهم ، وذب عن أحسابهم ، وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكورهم ، وكانوا لا يهنتون
 إلا بغلام يولد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تفتج^(٢) .

وكان أكثر الناطقين بالضاد يعتبرونه مثلاً أعلى في العظمة والسمو ، إذ كان
 شعراً امتدت جذوره إلى أعماق حياة الناس ، وشكل أفكارهم دون أن يحسوا ،
 وجدد أخلاقهم ، وصاغ منهم من الناحية الأخلاقية والروحية شعباً قبل أن يجدد

الرسول (صلى الله عليه وسلم) فيجمع قبائله المتنافرة في أمة واحدة يتجه بها إلى هدف واحد .

ولم يكن الشعر في ذلك العصر ترفا لا يتعاطاه إلا قلة من الناس ، بل كان الوسيلة الوحيدة للتعبير الأدبي ، وكانت قصائد الشعراء - وهي لم تدون بقلم - تطير عابرة الصحراء أسرع من الرياح ، وتحدث أثرها العظيم في قلوب من يسمعونها . وفي خضم النضال والتفكك كان الشعر يضفي حياة ونشاطا على مثل عالية قائمة على المروءة العربية ، وصارت هذه المثل العالية رباطا بين القبائل ، فصاغت - عن قصد أو غير قصد - وحدة أهلية قائمة على أساس عاطفي ،^(١).

والأمثلة كثيرة جداً لشعراء حموا أعراض قبائلهم ، وشعراء تشفعوا لقبائلهم أو لأفراد منها فشفعوا ، ولشعراء حط هجاؤهم من شأن أعدائهم ، وشعراء رفعوا الوضيع ووضعوا الرفيع ، وشعراء سماهم شعرهم حتى نادى الملوكة وكانوا من خواصهم الخ .

نعم كانت جودة شعر الحارث بن حلزة زأني إلى الملك ، فإنه أنشد عمرو بن هند قصيدته التي مطلعها :

أَذْنَنَّا بَيْنَهَا أَسْمَاءُ رَبِّ نَاوِيْمَلُّ مِنْهُ النَّوَاءُ

ويقال إنه ارتجلها بين يديه في شيء كان بين بكر وتغلب بعد الصلح ، وكان ينشده من وراء سبعة ستور ، فأمر برفع الستور عنه استجساناً لها^(٢) ثم أدناه وقربه^(٣) وكانت مدحة الأعشى للمحق تنويها به وتمجيذاً له - بعد فقر وخمول ذكر - ذلك أن الأعشى قدم مكة ، وتسامع الناس به ، فأشارت امرأة المحلق عليه أن يسبق الناس إلى ضيافته ، فنجر له وسقاه ، وبالع في إكرامه ومن معه ، فسأله الأعشى عن حاله وعياله فعرف البؤس في كلامه ، وذكر البنات ، فقال الأعشى كُفَيْتَ أمرهن ، وأصبح بمكاظ ينشد قصيدته :

Aliterary History of the Arabs. by Reynold Nicholson P.72 (١)

(٢) الشعر والشعراء لابن نقيبة ص ٥٣ (٣) العمدة ٢١/١

أرقت وما هذا السهاد المؤرق وما بي من سُقم وما بي معشوق
ورأى المحلق اجتماع الناس فوقف يستمع وهو لا يدري أين يريد الأعشى بقوله ،
إلى أن سمع :

نفي الذم عن آل المحلق جفنة كجاية السيخ العراقي تفهق
تري القوم فيها شارعين ، وبينهم مع القوم ولدان من النسل درّق
لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تُشبُّ لمقرورين يصطليانها وبات على النار الندى والمحلق
رضيعة لبان ثدى أم تحالفا بأسحم داج عَوْضُ لا تتفرق
تري الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهندواني رونق

فما أتم القصيدة إلا والناس ينسلون إلى المحلق يهنئونه ، والأشراف من كل قبيلة
يتسابقون إليه يخطبون بناته ، فلم تمس منهم واحدة إلا في عصمة رجل أفضل من
أيها ألف ضعف (١) .

وبلغ من تأثير الشعر أنه يستل الضغن من قلب القادر على العقوبة يشفي بها نفسه ،
فإن الحارث بن أبي شمر الغساني لما قتل المنذر الأكبر (ابن ماء السماء) في يوم أباغ
أسر جماعة من أصحابه ، فيهم شاس بن عبدة في تسعين رجلاً من بني تميم ، فقصده
علقمة بن عبدة ، ومدحه بقصيدته التي مطلعها :

طحا بك قلب بالحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب
وشفع في أخيه شاس بقوله :

فلا تحرمي نائلاً عن جناية فإني امرؤ وسط القباب غريب
وفي كل حي قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نذاك ذنوب

(١) القمعة ٢٥/١ والأغاني ٧٧/٨ ساسي . السيخ : الماء الجاري . الجاية : الحوض الضخم ورواية
السيخ خير من الشيخ . درّق : أطفال . أسحم داج . رماد النار أو الدم وكلاهما كان مما يقسم عليه

فقال الحارث : نعم وأذنبه ، وأطلق شاسا وأسرى بنى تميم ، ومن سأل فيه فيه الشاعر أو عرفه من غير بنى تميم^(١) .

ولما هجا قيس بن جروة الطائي — أحد الأحيين — عمرو بن هند لأنه أصاب نسوة وأزواداً من طيء ، وتمدده بقصيدة ، ثم استهان بوعيده بقصيدة أخرى غزا عمرو طيئاً فأسر من رهط حاتم بن عبدالله ، وكان في الأسرى رجل من الأحيين يقال له قيس بن جحدر ، وهو ابن خالة حاتم وجد الطرماح بن حكيم ، فوفد حاتم على عمرو ابن هند ليشفع في الأسرى — وكذلك كان يصنع — فسأله إياهم ، فوهبهم له ، إلا قيس بن جحدر لأنه من الأحيين من رهط قيس بن جروة الذي سُمي العارق ، فقال حاتم :

فكسكت عدياً كلها من إيسارها فأنعم وشفعني بقيس بن جحدر
أبوه أبي والأمهات أمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري
فأطلقه^(٢) .

ثم من تأثيره أيضاً أنه يصم بصفات أو أعمال قد تكون افتراء وادعاء ولكنها تلصق بالشخص كأنها حقيقة ، أو تعلق بالقبيلة كأنها صدق . من ذلك أن العبسيين والعامريين اجتمعوا عند النعمان بن المنذر ، وكانوا يتنافسون في الخطوة عنده ، ولكن العبسيين استأثروا بها ؛ لأن الربيع بن زياد العبسي كان يؤا كل النعمان ويناديه ويهون من شأن بني عامر ، وأحسوا أن النعمان قد استهان بهم وصده عنهم ، وعرفوا أن الربيع هو الموحى بذلك ، وكان معهم ليبد — وهو حدث — فدبروا مكيدة للانتقام من خصمهم الربيع . فدخلوا على النعمان والربيع يتغدى معه ، فهجاه ليبد هجاء مفحشاً نفّر النعمان منه ، فأمره بالانصراف إلى أهله^(٣) . وأخف ما في الهجاء قوله :
مهلا أبيت اللعن لا تأكل معه إن استه من برص ملعنه

وما زال إعز زهم للشعر والشعراء يتمشى مع العصور ، وحسبنا أن الشعر في صدر الإسلام - وقد انبهر المسلمون بالقرآن الكريم ، وشغلوا بتفهم الدين الجديد وبالجهاد في سبيل الله - كان على القدر ، وهل أدل على ذلك من أن النبي عليه الصلاة والسلام أذن لحسان بن ثابت أن يهجو كفار قريش ، وقال له : « اذهب إلى أبي بكر فليحدثك حديث القوم وأيامهم وأحسابهم ، ثم اجمعهم وجبريل معك » ^(١) وقال له مرة : « إن روح القدس لا يزال يؤيدك ما كلفت عن الله عز وجل وعن رسول الله » ^(٢) وبني له منبراً في المسجد ينشد عليه الشعر ^(٣) ، وروى عنه أنه قال : « أمرت عبد الله بن رواحة فقال وأحسن ، وأمرت كعب بن مالك فقال وأحسن ، وأمرت حسان بن ثابت فشقي واشتفى » ^(٤) .

وكذلك حرص عبدالله بن رواحة على هجاء المشركين ، ولما سمع منه قصيدته التي يقول فيها :

فُتِبَتَ اللهُ ما آتاك من حسنٍ تثبت موسى ونصرا كالذي نُصِرُوا
أقبل على الشاعر بوجهه مبتسماً ، وقال له وإياك فُتِبَتَ اللهُ ^(٥)

ولم يكن التفقه في الدين وتقوى الله لتحول بين ابن عباس وطربه لغزل عمر بن أبي ربيعة وإصغائه إليه ينشده إياه في المسجد الحرام ، فقد أقبل عليه عمر وعنده نافع ابن الأزرق وناس من الخوارج يسألونه ، وأنشده قصيدته التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غاد فبكر غداة غد أم رائح فمجر
فأنصت له حتى انتهى ، فقال له نافع . الله يا ابن عباس ، نضرب إليك أكباد الإبل من أقاصي البلاد نسألك عن الحلال والحرام فنتشاقل عنا ، ويأتيك غلام مترف من مترفي قريش فينشدك :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيخزي وأما بالعشي فيخسر

(٢) الأغاني ١٣٤/٤ الدار

(١) الأغاني ١٣٨/٤ الدار

(٤) الأغاني ١٤٣/٤ الدار

(٣) العمدة ٩/١ الدار

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٧

فقال ابن عباس : إنه قال :

رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت فيضحي وأما بالعشى فينصر
فقال نافع : ما أراك إلا وقد حفظت البيت ، قال : أجل وإن شئت أن
أنشدك القصيدة أنشدتك إياها ، قال : فيأني أشاء ، فأنشده القصيدة حتى أتى
على آخرها (١)

— وليس أدل على شاعرية العرب من هذا الفيض الغزير الذي وصل إلينا من
شعرهم في العصر الجاهلي ، على أن ما بقى سليماً من عوادي الدهر إنما هو بعض
ما قرضوا في زمن لا يبلغ قرنين من الزمان ، ومع هذا فإنه أكثر مما نظمت أية أمة
قديمة ، فالإلياذة والأوديسة هما معظم شعر اليونان في جاهليتهم ولا يزيد عدد
أبيتهما على ثلاثين ألفاً ، والمهابهاراته عند الهنود لا تعدو عشرين ألفاً ، والراما يانة
لا تزيد على ثمانية وأربعين ألفاً ، وأما العرب فيؤخذ مما بلغنا من أخبارهم عما نظموا
في نهضتهم الأخيرة قبل الإسلام أنه يربى على أضعاف ذلك ، وهم يعدون منظوماتهم
بالقصائد لا بالآيات ، (٢) وعلى هذا السبيل دعى "شعر ديوان العرب"

— والحق إن ما خلفوه كثير يبعث الدهشة ، ويبعث الإعجاب بالرواة الحفاظ
الذين وعت حوافظهم هذا الفيض الغزير ، فمثلاً حدثوا أن حمادا الراوية كان يحفظ
سبعة وعشرين أو ثمانية وعشرين ألف قصيدة ، قال له الوليد بن يزيد الأموي يوماً
وقد حضر مجلسه : بم استحققت هذا الاسم فقل لك الراوية ؟ فقال بأني أروى لكل
شاعر تعرفه يا أمير المؤمنين أو سمعت به ، ثم أروى لأكثر منهم ممن لا تعرفه ولا سمعت
به ، ثم لا ينشد أحد شعراً قديماً ولا محدثاً إلا ميزت القديم من المحدث . فقال له :

(١) الأغاني ٧٢/١ الدار . يرضي : يبرز للشمس . ينصر : يبتدر

(٢) تاريخ التمدن الإسلامي ٢٤/٣ بتصرف . في حضارة الهند لجستاف لوبون صفحة ٤٥٣ أن عدد

المهابهارته ٢١٥٠٠٠ بيت

فكم مقدار ما تحفظ من الشعر ؟ قال : كثير ، واسكني أنشدك على كل حرف من حروف المعجم مائة قصيدة كبيرة سوى المقطعات من شعر الجاهلية دون شعر الإسلام . قال : سأمتحنك في هذا ، ثم أمره بالإنشاد فأنشد حتى ضجر الوليد ، فوكل به من يسمع منه ويستوفى عليه ، فأنشده ألفين وتسعمائة قصيدة للجاهلية ، وأخبر الوليد بذلك فأمر له بمائة ألف درهم^(١) .

وقالوا إن أبا ضمضم كان يروى لمائة شاعر كلهم اسمهم عمرو ، وأن الأصمعي وخلفاء الأحمر لم يقدر أن يعدا أكثر من ثلاثين من هؤلاء^(٢) . وذكروا أن أبا تمام كان يحفظ من أشعار الجاهليين أربع عشرة ألف أرجوزة غير القصائد والمقطعات^(٣) .

وروا أن الأصمعي كان يحفظ ستة عشر ألف أرجوزة^(٤) وأنه قال : ما بلغت الحلم حتى رويت اثنتي عشرة ألف أرجوزة للأعراب^(٥) ، وما نشك في أن هذه الأخبار وأشباهها تزيد أو مبالغ ، ولكنها - على ما فيها - صورة تقريبية لكثرة ما خلف العرب الجاهليون من شعر .

على أن أكثر ما قالوا قد انطوى مع الزمن وتوارى في رمال الصحراء ، ولم يبق منه إلا ما أمسكته الحافظة ، ووعته الأجيال ، لقرب قائله ، أو لاتصاله بأحداث ذات خطر ، أو لشهرة الشاعر نفسه الخ . وقد سبق ابن سلام إلى هذا بقوله : « وما يدل على ذهاب العلم - يقصد الشعر - وسقوطه قلة ما بقي بأيدي الرواة والمصححين لطرفة وعبيد ، والذي صح لها قصائد بقدر عشر ، وإن لم يكن لها غيرهن فليس موضعهما حيث وضعنا من الشهرة والتقدمة^(٦) »

ويضرب أمثلة آخر ، منها أن الناس أجمعوا على أن الزبير بن عبد المطلب شاعر ،

(١) الأغاني ١٦٥/٥ ساسي ووفيات الأعيان ١٦٤/١

(٢) الشعر والشعراء لابن قتيبة ٦ والعقد الفريد ١٠٧/٣ المطبعة العامرية الشرقية

(٣) وفيات الأعيان ١٢١/١ (٤) الوفيات ٢٨٨/١

(٥) العقد الفريد ١٠٧/٣ (٦) طبقات الشعراء لابن سلام ١٨

والباقي من شعره قليل^(١) ، وأن أبا سفيان بن الحارث كان يقول الشعر في الجاهلية ولكنه سقط ولم يصل إلينا منه إلا القليل^(٢) ، ويروى عن عمر بن الخطاب أن الشعر كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلو بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يَسْلُوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فآلَفُوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، فحفظوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره^(٣)

وفي هذا يقول أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافرأ لجاءكم علم وشعر كثير^(٤)

* * *

وبعد ، فقد بلغ من إعجاب العرب بالشعر وتقديرهم للشعراء أن عزوا شعرهم إلى شياطين توحي إليهم به ؛ لأنه في رأيهم فوق قدرة البشر ، وسنتكلم عن هذا في (العادات والمعتقدات) .

(٢) الطبقات من ٩٦

(٤) الخصائص ١/٣٩٢

(١) الطبقات من ٩٥

(٣) الطبقات من ١٧

أولية الشعر العربي

أول شعر قبل مجهول . الشعر الذي وصل إلينا ليس هو أول الشعر . هو شعر ناضج ، ومنقح . تسمية بعض الشعراء بما يدل على مميزات شعرهم . تسمية القصائد بما يدل على مميزات . في الشعر الجاهلي نفسه ما يثبت أنه قد سبق بغيره . تنازع القبائل في أولية الشعر .

من العبث أن نحاول الكشف عن بداية هذا الشعر ، وأن ننقب عن أول طلائعه ، فقد توارت هذه الطلائع وراء طبقات من الأحقاب الطوال لا يعلمها إلا الله . ولكن ذلك لا يمنعنا من تقرير أن أقدم شعر مما وصل إلينا قد قيل قبل الإسلام بنحو مائتي سنة على الأكثر^(١) ، وهو شعر مقصد مطول ، فليس بمعقول أن يكون ممثلاً لطفولة الشعر وهو على ما نرى من نضج في الأسلوب والموسيقى والمعنى والتصوير ، بل المعقول أن يكون قد سبق بمحاولات اهتمت بها الأحقاب ، وتعهدها بالكمال جيل بعد جيل ، حتى وصل إلى هذا الكمال الذي نراه .

ونظرة إلى الشعر الجاهلي كفيلة بتوضيح الجهد الذي كان يبذله الشعراء في إنشاء قصائدهم من وزن واحد وقافية واحدة ، ويطبعونها بطابع أسلوب من خصائصه التركيز والإيجاز والموسيقى ، ويطابع معنوى من خصائصه الخيال والتصوير ، فالقصيدة موسومة بقيود ، ومصبوغة بصبغة ليست للنثر ، ولذلك يقول جويدي : « إن قصائد القرن السادس الميلادي الجديدة بالإعجاب تنبئ بأنها ثمرة صناعة طويلة »^(٢) وقد أشار الشعراء إلى أن الشعر فن يفتقر إلى تجويد وتنقيح ، وشبهوا القصائد ببرود العصب — ثياب جيدة محكمة النسج من linen — وبالحلل والمعاطف والديباغ والوشى وأشباهها^(٣) قال أبو قردودة يرثي عمار قتيل النعمان ويصف كلامه :

(١) الحيوان للجاحظ ٧٤/١ نشر هارون

(٢) عن الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف

Guidi, l'Arabie Anteislamique, P. 47

(٣) البيان والتبيين ١٨٩/١ طبعة السندوني

يا جفنة كإزاء الحوض قد هدموا ومنطقا مثل وشي الينة الحبرة^(١)
 وكانوا مولعين بتنقيح شعرهم ، ومعاودة النظر فيه حتى يبرأ من العيب ، وأفرط
 بعضهم في ذلك حتى إن الخطيئة قال : خير الشعر الحو لي المحكك ، وكان الأصمعي
 يقول : زهير بن أبي سلمى والخطيئة وأشباههما عبيد الشعر ، وكذلك كل من يوجد
 في جميع شعره ، ويقف عند كل بيت قاله ويعيد فيه النظر حتى يخرج أبيات القصيدة
 كلها مستوية في الجودة^(٢) .

وقد وصف امرؤ القيس بن حجر ما يعانيه في اختيار أجود ما تفيض به شاعريته ،
 فقال إن الأبيات تنال عليه ، ولكن يرد بعضها ويتمكن من نفسه فيكبجها كما يكبح
 جواده ، وقد تخير من شعره ست قصائد جيد - وفي رواية عشرأ - أو تخير من
 قصيدة كان يتعاطى نظمها ستة أبيات ، وكان ينحى رديتها ويصطفى جيدها .

أذود القوافي عني زياداً زياد غلام جريء جوادا
 فلما كثرت وعينني تخيرت منهن ستاً جيداً
 فأعزل مرجانها جانباً وأخذ من درها المستجادا^(٣)

وظل الشعراء بعد العصر الجاهلي يفخرون بتجويد شعرهم وتنقيحه ، ويعدون
 ذلك من ضروب التفوق والذوق والدراسة برائع القول ، قال سويد بن كراع العكلي
 إنه كان يبيت الليل يتخير شعره ويتصيد المعاني الجيدة والقوافي الرصينة كأنه يصيد
 قطعاً من الوحش المسرعة في فرارها ، وهو يعاني القريض إلى السحر ثم ينام ، ووصف
 الشعر بأنه عصي لم يستحوذ عليه إلا بأن يحجزه كما تحجز العصا الإبل في حظيرتها
 بضربها على نحورها وقوائمها ، وقد دعا إليه القوافي الغر فاستجابت سالكة إليه طريقاً

(١) البيان والتبيين ١/ ١٩٠

(٢) البيان والتبيين ١/ ١١٢

(٣) ديوان امرئ القيس ٦٣ ورواها الآمدي في المؤلف

والمختلف لامرئ القيس بن الحارث بن معاوية الكندي ، ورواها المرزباني في معجم الشعراء لامرئ
 القيس بن بكر بن امرئ القيس بن الحارث ، ورواها بعضهم لامرئ القيس بن عابس الكندي ،
 وكلهم جاهلي .

مهدا قد سلسكته أخوات لها من قبل ، وهى بعيدة المنال على غيره ، أو عميقة المعنى بعيدة الخيال والتصوير ، يظل ينشئها حتى يجهد ، وإذا ما خاف أن تجيئه أبيات سقيمة حبسها في صدره حتى لا تبرز للناس ، وقد جهد في تنقيحها حتى لا يعيبها بمدوحه سعيد بن عثمان بن عفان ، وقال إنه مكث يعاودها بالثقيف عاما كاملا وريبعاً من العام التالى :

أبيت بأبواب القوافى كأنما	أصا دى بها سرباً من الوحش نزعاً
أكلتها حتى أعرّس بعدما	يكون سحير أو بعيد فأجمعا
عواصى إلا ما جعلت أمامها	عصا مربد تفتش نحورا وأذرعاً
أهبت بغر الآبدات وراجعت	طريقاً أقلت له القصائد أجمعا
بعيدة شأوى لا يكاد يردها	لها طالب حتى يكل ويظلمعا
إذا خفت أن تردى على رددتها	وراء التراقى خشية أن تظلمعا
وجشمه خوف ابن عفان ردها	فتقفها حولا جريدا ومربعا
وقد كان فى نفسى عليها زيادة	فلم أر إلا أن أطيع وأسمعا ^(١)

✓ هذا الجهد الفنى الذى يبذله الشاعر يدل على أن الشعر كان قد صار فناً ذا قواعد وأصول وقيود ووسائل تجويد ، ولا ريب أنه لم ينشأ كذلك .

✓ وما يدل على أن الشعر الذى وصل إلينا قد نضج وصار فناً رفيعاً أنهم أطلقوا على الشعراء أحيانا أسماء تدل على خصائصهم وميزاتهم ، فمثلاً سُمى طفيل الخيل (الحبّر) لأنه يزين شعره^(٢) ، وسُمى زياد بن معاوية (النابعة) لنبوغه فى شعره لالقوله : فقد نبغت لنا منهم شئون^(٣) ، وسُمى عدى أو امرؤ القيس بن ربيعة (المهلل) لطيب شعره ورقته^(٤) أو لأن شعره مهلل مثل لهلة الثوب^(٥) ، وهو اضطرابه

(١) البيان والتبيين ١١/٢

(٢) الفضليات طبعة ١٩١٠/١ ٤١٠/١ (٣) العمدة ١٣٧/١

(٤) الأغاني ٧٥/٥ الدار (٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٢ ولسان العرب ٢٣١/١٣

واختلافه ، أو لأنه أول من أرق المراتي^(١) ، وسمى علقمة (الفحل) لجودة أشعاره .

وأطلقوا على القصائد نفسها أسماء تدل على امتيازها ، فسموها اليتيمات^(٢) والشموط^(٣) ، وسموها الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكمات^(٤) .

والقصيدة من الشعر ما تم شطر أبياته ، وفي التهذيب ما تم شطر أبيته .

سمى بذلك (١) لسكّاله وصحة وزنه

(٢) وقال ابن جني لأنه قصد واعتمد .

(٣) وقيل لأن قائله احتفل له فنقحه باللفظ الجيد والمعنى المختار .

(٤) وقيل لأن قائله جعله من باله فقصد له قصدا ، ولم يحقّسه

حسبا على ما خطر بباله وجرى على لسانه ، بل روى فيه

خاطره ، واجتهد في تجويده ، ولم يقتضبه اقتضابا . فهو فعيل

من القصد^(٥) .

ثم إننا نجد في الشعر القديم نفسه ما يدل على محاكاته لأقدم منه ، فامرؤ القيس

يقف على الأطلال ليكي كما وقف من قبله وبكى ابن خدام أو خدام أو حمام :

عوجا على الطلل المحيّل لعلنا نبكى الديار كما بكى ابن خدام^(٦)

وابن خدام هذا شاعر مجهول الزمن والشخصية يقول فيه ابن سلام : هو رجل

من طيء لم يسمع شعره الذي بكى فيه ، ولا شعر غير هذا البيت الذي ذكره امرؤ

(١) الأماي ١٢٩/٢

(٢) الأغاني ١٦٨/١١ ساسي

(٣) الأغاني ١١٢/١١

(٤) البيان والتبيين ٧/٢

(٥) لسان العرب ٣٥٤/٣

(٦) العمدة ٥٤/١ طبعة هندية والمؤلف والمختلف ١٠٩

القيس^(١) ونسب إليه أبو عبيدة هذا البيت من معلقة امرئ القيس :

كأنى غداة البين يوم تحملوا لدى سمرات الحى ناقف حنظل^(٢)

✓ وزهير يتوهم أن ما يقوله هو ومعاصروه قد سبقهم إليه أسلافهم ، فهم يكررون ما قد سبقوا إليه :

ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من لفظنا مكروراً^(٣)

وعنزة يعلن فى مطلع معلقته أن الشعراء السابقين قد استنفدوا المعانى ولم يدعوا ما يمكن ابتداعه أو الزيادة عليه ، فهو إذن يحدث ، قد أدرك الشعر بعد أن فرغ الناس منه ، ولم يغادروا له شيئاً^(٤) ، وذلك إذا فسرنا التردم بأنه الإصلاح ، وإذا فسرناه بأنه الترنم وهو ترجيع الصوت كان المعنى أنهم لم يدعوا غرضاً من أغراض الشعر إلا تغنوا بشعرهم فيه :

هل غادر الشعراء من متردّم أم هل عرفت الدار بعد توهم ؟

وليد يقول إن الشعراء يحاكون المرقش والمهلل :

والشاعرون الناطقون إذا هم سلكوا طريق مرقش ومهلل^(٥)

ثم إن القبائل تنازعت أولية الشعر الذى وصل إلينا ، فادعت كل قبيلة لشاعرها أنه الأول ، ادعت اليمانية أن امرأ القيس أول من أطل القصائد ، وقال بنو أسد بل عبيد بن الأبرص ، ونسب التغليبيون الأولية إلى مهمل ، وعزاها البكريون لعمر بن قيس المرقش الأكبر ، وادعاه الإياديون لأبي دؤاد ، وزعم بعضهم أن الأوفه الأودى أقدم من هؤلاء ، وأنه أول من قصد القصيدة ، وهؤلاء النفر المدعى لهم التقدم فى الشعر متقاربون ، لعل أقدمهم لا يسبق الهجرة بمائة سنة أو نحوها^(٦)

(٢) المؤلف والمختلف ١٠٩

(٤) العمدة ٥٧/١

(١) طبقات الشعراء لابن سلام ٢١

(٣) الديوان ص

(٥) البيان والتبيين ١٤٨/٢

(٦) المزهر ٢٩٦/٢ طبعة صبيح

وهم لم يتنازعوا في أول من قال الشعر ، ولا في قائل البيتين والثلاثة ، لأنهم لا يسمون ذلك شعرا ، وإنما تنازعوا في أول من نضج الشعر على لسانه ، وصار فناً جميلاً واضح الدعائم ثابت الرسوم .

وإذا فإن لنا أن نشك في قول ابن سلام إن الشعر قد جعل يكتمل وتطول قصائده في عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، ولم يكن لأوائل العرب من الشعراء إلا الأبيات يقولها الرجل في حادثة ، وإنما قصدت القصائد وطول الشعر على عهد عبد المطلب وهاشم وعبد مناف ، ومن قديم الشعر الصحيح قول العنبر ابن عمرو بن تميم — وكان مجاوراً في بهراء ، فراه ريب — :

قد رابني من دلوى اضطرابها والنأي في بهراء واغترابها
إلا تجمي ملأى يجمي قرابها^(١)

ويذهب إلى أن المهمل أول من قصد القصائد ، وذكر الوقائع في قتل أخيه كليب وائل الذي قتلته بنو شيبان ، وكان اسم المهمل عديا ، وإنما سمي مهملًا لهلهة شعره كهلهة الثوب وهو اضطرابه واختلافه^(٢) .

(١) طبقات الشعراء ١٨ قراب : ما قرب أن يملأها والسبب في هذا القول أن العنبر بن عمرو بن بهراء انتقل مع أمه أم خارجة صغيراً لما تزوجها عمرو بن تميم ، فولدت ثلاثة أولاد ، فخرجوا جميعاً يستقون فأترلوا ماتحاً من تميم فسكان يملأ الدلاء للثلاثة ويترك دلو العنبر تضطرب (تهذيب الكامل ١١٧/٢)
(٢) طبقات الشعراء ٢٢

نشأة الوزن والقافية

في الشعر العربي

عربيتها الخالصة . رأى ابن رشيق في نشأة الوزن والرد عليه . رأيي في نشأتها . مراحل هذه
النشأة : السجع ، التنقي بالكلام المسجوع . علاقة الشعر بالغناء . مظاهر هذه العلاقة . نشوء الوزن
والقافية .

- ١ -

نشأت الموسيقى الشعرية - الوزن والقافية - نشأة عربية خالصة خالية من تأثير
أمة أخرى ، لأن الأوزان العربية ليست لأمة من الأمم القديمة ، ولأن السريان
القدماء كانوا ينظمون بغير أن يلتزموا قافية واحدة ، والعبرانيون لم يلتزموا الوزن
ولا القافية ، وقد يشترطون القافية دون الوزن^(١) فيصير شعر العبرانيين في صورته
الآخيرة شبيهاً بالسجع العربي ، ولهذا لما سمعوا القرآن الكريم - وهو ذو فواصل
وتصوير شعري - زعموا أنه شعر بالقياس إلى تصورهم للشعر .

ولا سبيل إلى احتمال أن الوزن العربي متأثر بالفارسي ، لأن الشعر الفارسي
القديم كان مجهولاً للفرس أنفسهم حين خالطوا العرب ، بل لا يزال تاريخ الأدب
الفارسي إلى اليوم يجهل ما كان عليه الشعر الفهلوي ، ولذا نشأ الشعر الفارسي الجديد
في القرن الثالث للهجرة على غرار الشعر العربي في موضوعاته وأوزانه وقوافيه مع
تحويل يسير ، حتى إن الفرس نقلوا الأوزان العربية وسموها بأسمائها ، ونقلوا
مصطلحات العروض كلها . وليس بصحيح ما مال إليه جرجي زيدان من أنه نشأ
متأثراً بشعر اليونان أو الرومان إذ قال : « امرؤ القيس أول من أطل القصائد ،

وافتن في نظمها ، وفتح الشعر ، وبكى ووصف ولعله تنبه لهذا الافتنان في أثناء أسفاره في بلاد الروم ، فسمع أشعارهم أو أشعار اليونان ، والنبهه تتفق قريحته بالاختلاط ، فزاد اختباره ، فأدخل في الشعر ما أدخله ، وكان الشعراء في الجاهلية قلما يدخلون بلاد الروم ، وإنما كانوا يقفون على الحدود في اللقاء عند بني غسان ، أو في الحيرة عند بني لحم المناذرة إلا قليلا ، (١) .

وهذا رأى مردود ، لأن امرأ القيس قد افتن قبل أن يرحل إلى بلاد الروم افتتانه كله ، ولأنه قضى نحبه وهو عائد فضاع معه ما اقتبسه إن صح أنه اقتبس شيئا ، ولأن القصيدة العربية كانت قد نضجت وكمل وزنها واستوت قافيتها قبل أن يرحل امرؤ القيس إلى قيصر بل قيل أن يولد ، فالمهلل مثلا خال امرؤ القيس وأسْن منه وله قصائد جياد طوال (توفي امرؤ القيس ٥٤٨م وتوفي المهملل ٥٣١م) (٢) . على أن شعر اليونان والرومان خال من القافية ، والأوزان العربية غير أوزان اليونان والرومان ، والموضوعات نفسها متغايرة فليس في الشعر الجاهلي ملاحم ولا مسرحيات كالتي عند اليونان والرومان .

— ٢ —

وقد قال ابن رشيق في نشأة الوزن العربي : إن العرب احتاجوا إلى الغناء بمكارم أخلاقهم وطيب أعرافهم ، وذكر أيامهم الصالحة وأوطانهم النازحة ، وفرسانهم الأنجاد وسمائحهم الأجواد ، فترهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعرا لأنهم شعروا به أي فطنوا (٣) .

ولكن هذا الرأي يُفَضَى إلى أن العرب اهتموا إلى الأوزان عن تعمد وقصد ومواضع ، وليس هذا بشيء ؛ لأن نتاج الإلهام — والشعر إلهام — لا يخضع إلى

(٢) شعراء النصرانية ١٦٠، ١

(١) تاريخ المدن الإسلامي ٢٤/١

(٣) العمدة ٥/١

المواضعة والموافقة ، ثم لماذا توهموا هذه الأوزان عينها ولم يتوهموا غيرها ؟ ولماذا لم يقتصرُوا على بعضها دون بعض ؟ وكيف تواضعوا عليها واتفقوا مع اختلاف ديارهم وتباعد أوطانهم وتحضر بعضهم وتبدى بعضهم ؟ نحن لا نقبل هذا الرأي ، فهل نستطيع أن نبدي غيره ؟ سنحاول ذلك راجين أن نهتدى إلى صواب .

— ٣ —

١ — ما من شك في أن الناس تكلموا أولاً بالنثر وسيلة للتفاهم وتحقيق المنافع ، ثم تألق بعضهم في تعبيره ، تساميا بالقول أو تصويراً لعاطفة جياشة فآزن كلامه آزاناً نشأ منه السجع ، فأعجبه وقعه ، فأكثر هو وأمثاله من هذا الطراز ، وجببه إليهم ماله من تأثير في النفوس ورنين في الآذان ، ولهذا كان من خصائص الممتازين بالقول الرائع ، والمعبرين عن عاطفة ، والراغبين في التأثير والاستمالة كالرؤساء والسكهان والسحرة ، ليجتذبوا بموسيقاه قلوب الناس ويموهوا عليهم ويمتلكوا عواطفهم ويخدروا وعيهم ، وليحدثوهم بما يزعمون أنهم العليمون به ، فيسمع الناس عنهم مصدقين لما يقولون ، غير متبصرين في نقد ما يسمعون وتقصى معانيه ، ولذلك قد يلجأ السجاعون إلى نوع من الغموض فيحملون الكلمة أو الجملة عدة معان ، ليذهب السامعون في فهمها كل مذهب ، وقد يقحمون كلمات لا معنى لها ، وإنما جاءوا بها لوزن الكلام وترسيم الوقفة .

وقد اتهم العرب النبي عليه الصلاة والسلام بأنه ساحر ، قال الكافرون إن هذا لساحر مبين ، ^(١) وبأنه كاهن وشاعر ، وما ذو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ، ^(٢) لأنه يتحدثهم بالقرآن الكريم فيسحرهم ببلاغته ، ويبيهرهم بموسيقاه ، وفواصله ، فهو في نظرهم صادر عن قدرة في النبي فوق قدرهم .

وقد تغنى الناس بهذا الكلام المسجوع ، لأنه أكثر ملاءمة للغناء والتلحين من غير المسجوع ، فنشأت الأوزان والقافية . وقبل أن نكشف عن طريقة هذه النشأة نهد بكلمة في علاقة الشعر بالغناء عند العرب وغير العرب .

ب — ارتبط الشعر والغناء في النشأة الأولى ارتباطاً وثيقاً ، ولا غرابة في ذلك ، لأنهما معاً يصدران عن العاطفة ويعبران عنها ، فبواعث الغناء هي بواعث الشعر ، ثم إن الموسيقى خصّصية فيهما معاً ، ففي الغناء موسيقى النغمات والألحان وفي الشعر موسيقى الألفاظ والأوزان ، ولذلك لا نعرف شعباً تغنى بالنثر ، لأن الناس إن تغنوا به أول الأمر لا يلبثون أن يحسوا أن الغناء بالكلام الموزون أولى وأكثر طواعية للتغنيم والترنيم .

وظواهر هذا الارتباط كثيرة في الأدب العربي القديم وفي غيره من الآداب ، فقد كان شعراء العصر الجاهلي يغنون شعرهم وينشدونه وهم يلقونه ، كما روى أن المهمل شرب خمرًا وتغنى بقصيدته التي مطلعها :

طَفْلَةٌ مَا ابْنَةُ الْمُحَلَّلِ بَيْضًا مَ لَعُوبٌ لَذِيذَةٌ فِي الْعُنَاقِ (١)

والسليك بن السليكة غنى بقرله :

يَا صَاحِبِي أَلَا لَاحِيٌ بِالْوَادِي سَوِي عَمِيدٌ وَآمٍ بَيْنَ أَذْوَادِ

أَتَنْتَظِرَانِ قَرِيبًا رَيْثَ غَفْلَتِهِمْ أَمْ تَغْدَوَانِ فَإِنَّ الرِّجَّ لِلْغَادِي (٢)

وكان الأعشى يغنى في شعره ، فكانت العرب تسميه صناجة العرب ، (٣) ، وكان يتردد على اليمن ويستمتع الغناء ويشرب الخمر يقول لناقته :

وَكَعْبَةُ نَجْرَانِ حَتَمَ عَلَيْهِ كَ حَتَّى تَنَاسَخِي أَبْوَابَهَا

نَزُورُ يَزِيدَ وَعَبْدُ الْمَسِيحِ وَقَيْسًا هُمَ خَيْرُ أَرْبَابِهَا

وَشَاهِدُنَا الْجَلَّ وَالْيَاسِمِي نَ وَالْمُسَمِّعَاتِ بِقَصَابِهَا

وَبَرِيطُنَا دَائِمٌ مَعْمَلٌ فَأَيُّ الثَّلَاثَةِ أَزْرَى بِهَا؟

(٢) الأغاني ١٨/١٣٤ ساسي

(١) الأغاني ٥١/٥ دار الكتب

(٣) الأغاني ١٠٩/٩ الدار

وهؤلاء الذين ذكرهم أساقفة نجران ، وكان يزورهم ويمدحهم ، ويمدح العاقب والسيد وهما ملكا نجران ، ويقيم عندهما ما شاء ، يسقونه الخمر ويسمعونه الغناء الرومى فإذا انصرف أجزلوا صلته^(١) .

ومزرد بن ضرار الذيباني أو أخوه جزء يقول في تهديده أعداءه بالهجوم الممض :
إنه يقتحم الخصومة لا يبالى ، لأنه يتعرض فى كل شيء ، أو لأنه ذو فنون وذو حذق ، وهو كفيل بأن يرميهم بأهاج مرة يتغنى بها السارى ويحدو بها الأبل :
فقد علموا فى سالف الدهر أننى معن إذا جد الجراء ونابل
زعيم لمن قاذفته بأوابد يغنى بها السارى وتحدى الرواحل^(٢)
وأبو النجم — فى العصر الإسلامى — يطلب من قينة أن تغنيه ببعض ما كان يتغنى به امرؤ القيس أو عمرو :

تغنى فإن اليوم يوم من الصبا يبعث الذى غنى امرؤ القيس أو عمرو^(٣)
وظلت اللغة العربية محتفظة بلفظ الإنشاد للدلالة على إلقاء الشعر وإن لم يصاحبه غناء ، مما يدل على صلة عريقة بين هذين الفنين ، قال حسان بن ثابت :
تغن بالشعر إما كنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار^(٤)
وقال ذو الرمة إنه يتغنى باسم حبيبته أى ينشد الشعر فيها :
أحب المكان القفر من أجل أننى به أتغنى باسمها غير معجم^(٥)
وقال المتنبي فى مدح سيف الدولة : إنه طائر غرد ، وإن الدهر يتغنى بشعره ،
وإن شعره يغنى به من ليس من شأنه الغناء :

(١) الأغاني ٦/٦٩ — ٧٠ ساسى . بربط : عود ومعجم البلدان ٤/١٢٩

(٢) المفضليات ١/٩٨ معن : متعرض فى كل نية أو ذو فنون . الجراء : النابل : الحاذق أو الرامى بالنبال . أوابد : غرائب القول يريد بها الأهاجى المرة .

(٣) الشعر والشعراء ٤٢

(٤) العمدة ٢/٢٤١ والملاهي للضبي مخطوط بدار الكتب . يقول الضبي « المضمار هاهنا مثل لأن المضمار للخيال لإصلاحها وتعريفها ورياضتها حتى تستوى ، فشبّه إصلاح الغناء لوزن الشعر بذلك »

(٥) العمدة ٢/٢٤١

أجزنى إذا أنشدت شعراً فإنما أتاك بشعري المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فإنني أنا الصائح المحكي والآخر الصدى
وما الدهر إلا من رواة قصائدي إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً وغنى به من لا يغنى مضرداً^(١)
وما زال الناس يطلقون على الرجل الذي ينشد في المحافل قصصاً شعرية كعنترة
وأبي زيد اسم للشاعر ، وهو لا يلقي شعراً فحسب ، بل يتغنى به على الربابة .
قال عمر بن الخطاب للناطقة الجعدى : أسمعني بعض ما عفا الله لك عنه من غنائك
فأسمعه كلمة له . قال له : وإنك لقائلها ؟ قال : نعم . قال عمر : لعلما غنيت بها خلف
جمال الخطاب^(٢) .

وكان الغناء في الصدر الأول من أجزاء هذا الفن ، لما هو تابع للشعر ، إذ الغناء
إنما هو تلحينه ، وكان السكتاب والفضلاء من الخواص في الدولة العباسية يأخذون
أنفسهم به حرصاً على تحصيل أساليب الشعر وفنونه^(٣)

يقول المرزبانى : كانت العرب تغنى النصب ، وتمد أصواتها بالنشيد ، وتزين
الشعر بالغناء : قال حسان :

تغن بالشعر إما أنت قائله إن الغناء لهذا الشعر مضمار^(٤)
ونحن نعلم أن الأوزان قواعد الألحان ، والأشعار معايير الأوتار ،^(٥)

على أن شعراء العصر الجاهلى أكثروا من التحدث بالمغنيات ، ولا سيما بعد أن
قوى اتصال العرب بالفرس والروم والأحباش وكثرت القيان في بلاد العرب ،

(١) الديوان ١٩٣/١ شرح البرقوقى

(٢) العقد الفريد ٩٠/٤ الأزهري

(٣) مقدمة ابن خلدون ٤٨٨

(٤) العمدة ٩/١

(٥) الموشع للمرزبانى ٢٩

قال طرفة في معلقته إنه شرب الخمر هو وندماؤه وأطربتهم قينة حسناء رخيمة الصوت :

ندامى بيض كالنجوم وقينه تروح إلينا بين برد ومجد

رحيب قطاب الجيب منها رفيقة بحس الندامى بضعة المتجرد

إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا على رسلها مطروفة لم تشدد

إذا رجعت في صوتها خلت صوتها تجاوب أظآر على رُبع ردى^(١)

وقال امرؤ القيس إنه إن صار مكروباً فقد طالما فرج همه بسماع مغنية تعزف

على عود :

وإن أمس مكروباً فيارب قينة منعمة أعملتها بكران

لها مزهر يعلو الخنيس بصوته أجش إذا ما حركته يدان^(٢)

وهو صاحب أخبار في اللهو والخمر والغناء ، فقد روى أنه لما طرده أبوه كان

يسير مع جماعة من شذاذ العرب ، فاذا صادف غديراً أو روضة أو موضع صيد

أقام فذبح لمن معه في كل يوم ، وخرج إلى الصيد فتصيد ، ثم عاد فأكل وأكلوا معه ،

وشرب الخمر وسقاهم ، وغنته قيانة ،^(٣)

وقد افتخر سلامة بن جندل بغنيتهم البيضاء الحسناء الفلجاء العفيفة :

وعندنا قينة بيضاء ناعمة مثل المهابة ، من الحور الخرايعب

تجرى السواك على غر مفلجة لم يغرها دَسُّ تحت الجلايب^(٤)

ويظهر أن الخمر كانت تصحب بالغناء في الأعم الأكثر ، فهذا عمرو بن الإطنابة

يفخر باحتساء الخمر المصفاة وبسماع القيان العازفات على الدفوف لفتيان القبيلة ، حدث

أبو الفرج أنه دعا بشرابه وقيانة فغنين له قوله في رثاء خالد بن جعفر لما قتله

الحارث بن ظالم :

(٢) ديوان امرئ القيس ١٨٧ السندوبى

(٤) الفضليات ١١٨/١ لم يغرها : لم يلصق بها

(١) ديوان طرفة ٢٨ — ٢٩

(٣) الأغاني ٨٧/٩ الدار

عللاني وعللا صاحبيـا واسقياني من المروِّق ربا

إن فينا القيان يعزفن بالدف (م) لفتياننا وعيشاً رخياً^(١)

وهذا علقمة يفخر بأنه ينادم على الخمر ويستمتع إلى المزهر :

قد أشهد الشرب فيهم مزهر رنم والقوم تصرعهم صهباء خرطوم^(٢)

وعدد عبد يغوث من مفاخره في ماضيه الذي يتحسر على حرمانه منه وهو في الأسر أنه كان يطرب فيشق رداءه بين القينتين وينحر للندامى مطيته :

وأنحر للشرب السكرام مطيتي وأصدع بين القينتين ردائيا^(٣)

وكان مجلس الشراب والغناء يمتد إلى الهزيع الأخير من الليل ، قال كعب بن الأشرف في فخره :

ولنا بئر رواء جمّة من يردّها ياناء يغترف

ونخيل في قلاع جمّة تخرج التمر كأمثال الأكف

رصرير في مجالى خلة آخر الليل أهازيج بدف^(٤)

وارتبطت نشوة الخمر ولذة الغناء بالمتعة بالنساء ، فهذا برج بن مسهر الطائي يفتخر بالخمر وسماع القيان ، فتداعى في ذهنه خواطر اللذات ، فيفتخر بالاستمتاع بالنساء الحسان المنعمات اللاتي يغتسلن بالماء الحار :

وفينا مسمعات عند شرب وغزلان يعد لها الحميم^(٥)

ولقد يقال إن القيان كن يغنين حقيقة ، ولكن هل غنين بالشعر ؟ نعم ، فقد

فصل عبدة بن الطيب ما أجمله غيره ، فقال إن القينة كانت تطربهم بغناء الشعر الرائع الذائع ، فهم في نشوة من تطربها ، وفي طرب من الشعر ، وهم لذلك يمنحونها ويخلعون عليها :

(١) الأغاني ١٦٤/٩ الدار (٢) المفضليات ٢/٢٠٢ الخرطوم : أول ما ينزل منها وهي صافية .

(٣) المفضليات ١/١٥٦ (٤) طبقات الشعراء لابن سلام . صرير : صياح . خلة : فخر

(٥) الحماسة ٢/٨٣

ثم اصطبحت كميثا قرققا أنفاً من طيب الراح ، واللذات تعليل
 صرفا ، مزاجا ، وأحيانا يعللنا شعر كَمُذْهَبَةِ السَّمانِ محمول
 تُذرى حواشيه جيداء آنسة في صوتها لسماع الشَّرب ترتيل
 تغدو علينا فتلهينا ونصفدها تلقى البرود عليها والسرايل^(١)

وكان بمكة قينتان فارسيتان لعبد الله بن جدعان تغنيان الناس^(٢) ، وكان بالمدينة
 قينة أوحى إليها أهل المدينة أن تغني النابغة بقصيدة من شعره فيها إقواء فتبقيظ له
 وأصلحه^(٣) ، وكانت هريرة — معشوقة الأعشى — وأختها خليدة قينتين لبشر بن عمرو
 ابن مرثد ، وكانتا تغنيانه بالنصب ، وقدم بهما اليمامة لما هرب من النعمان^(٤) .
 وقد تحدث حسان عن بعض لياليه عند جيلة بن الأيهم في الجاهلية ، فقال إنه سمع
 عشر قيان : خمس روميات يغنين بالبرابط وخمس يغنين غناء أهل الحيرة ، وكان يفد
 إليه من يغنيه من العرب من مكة وغيرها^(٥) .

وكانت الأمهات يغنين بالشعر وهن يرقصن أطفالهن ، من ذلك قول منفوسة
 بنت زيد الخيل وهي ترقص ولدها :

أشبه أخى أو أشبهن أبابا أما أبى فلن تنال ذاكا
 تقصُرُ عن مناله يداكا^(٦)

وهن يبكين على موتاهن بغناء حزين هو النواح ، وكان نواح كثيرات منهن
 شعراً كما ناحت الخنساء على أخويها ، وكما ناحت هند بنت عتبة على أبيها وعمها
 وأخيها^(٧) .

وكن يغنين في المعارك ليشجعن الرجال على الاستبسال ، كما غنت إحداهن في
 يوم ذي قار .

(١) المفضليات ١٤٣/١ قرقف : ترعد شاربها وتهزه . أنف : لم يشر بها أحد قبله . السمان :
 وشى مقارب محكم . محمول : مروى . تدرى : ترفع أو تسقط حواشى أغانيها تطربيا وترجيعا . نصفدها :
 نصفها (٢) الأغاني ٣٢٧/٨ الدار (٣) الأغاني ١٥٧/٩ ساسى
 (٤) الأغاني ٧٧/٨ ساسى (٥) الأغاني ١٤/١٦ ساسى
 (٦) الأغاني ٣٨/٣ الدار (٧) الأغاني ١٢٩/١٣ ساسى

إِنْ تَهْزَمُوا نَعَانِقُ وَنَفْرَشُ النَّمَارِقِ
أَوْ تَهْرَبُوا نَفَارِقُ فِرَاقِ غَيْرِ وَامِقِ^(١)

وطالما غنى الرجال بشعر حماسي وهم يحاربون ، كما فعل عمير بن الحُمام إذ سمع
النبي صلى الله عليه وسلم يحرض المسلمين على قتال المشركين في بدر ، ويعدهم الجنة ،
فقاتل القوم حتى قُتل ، وهو يقول :

رَكُضًا إِلَى اللَّهِ بِغَيْرِ زَادٍ إِلَّا التَّقَى وَعَمَلُ الْمَعَادِ
وَالصَّبْرُ فِي اللَّهِ عَلَى الْجِهَادِ وَكُلُّ زَادٍ عَرَضَةُ النِّفَادِ
غَيْرِ التَّقَى وَالْبِرِّ وَالرِّشَادِ^(٢)

وكما قال أبو البختري حين نازله المجذّر في الغزوة نفسها - وكان المجذّر أخبره
أن الرسول صلى الله عليه وسلم نهى عن قتله ، ولكنه قاتل دفاعاً عن زميله الذي
أبى المسلمون إلا قتله - :

لَنْ يُسْلِمَ ابْنُ حَرَّةٍ أَكِيلُهُ حَتَّى يَمُوتَ أَوْ يَرَى سَبِيلَهُ^(٣)

وفي سيرة ابن هشام في غزوة خيبر أن مَرَحَبَا اليهودي خرج من حصنهم قد
جمع سلاحه يرتجز بقوله :

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرَ أَنِّي مَرَحَبُ شَاكِي السِّلَاحِ بَطْلُ مَجْرَبُ
أَطْعَنَ أَحْيَانًا وَحِينًا أَضْرَبُ وَإِذَا اللَّيْثُ أَقْبَلَتْ تُحَرَّبُ
إِنْ حَمَى لِلْحَمَى لَا يُقَرَّبُ يُحْجَمُ عَنْ صَوْلَتِي الْمَجْرَبُ
وهو يقول : من يبارز ؟ فأجابه كعب بن مالك بقوله :

قَدْ عَلِمْتُ خَيْرَ أَنِّي كَعْبُ وَأَنْتَ مَتَى تُشَبُّ الْحَرْبُ
مَاضٍ عَلَى الْهَوْلِ جَرَى صَلْبُ مَعِيَ حَسَامُ كَالْعَقِيقِ عَضْبُ

(١) سيرة ابن هشام ١٣/٣ بحج الدين والأغاني ٣٤/٤ ساسي

(٢) تاريخ الطبري ٢٨١/٢ - ٢٨٢ (٣) الطبري ٢٨١/٢ - ٢٨٢

بكف ماض ليس فيه عتب ندكم حتى يذل الصعب ^(١)
 وفي غزوة أحد أعلم أبو دجانه نفسه فعصب رأسه بعصا بته الحرام، وخرج
 وهو يقول :

أنا الذي عاهدني خليلي ونحن بالسفح لدى النخيل
 ألا أقوم الدهر في السكّول أضرب بسيف الله والرسول ^(٢)
 وحدثت السيدة عائشة أن سعد بن معاذ مر عليها - وهي في حصن بني حارثة
 يوم الخندق وأم سعد معها - وعليه درع مقلّصة قد خرجت منها ذراعه كلها، وفي
 يده حربة يسرع بها ويقول :

لبث قليلا يشهد الهيجا جمل لا بأس بالموت إذا حان الأجل
 فقالت أمه : الحق يا بني فقد والله أخرت ^(٣) .
 ومما يدل على غنائمهم أمام الجيش قول درهم بن يزيد في قصيدة يهدد بها
 مالك بن العجلان :

لأصبحن داركم بذي لب جؤن له من أمامه عزف ^(٤)

وكانوا يتغنون بالشعر فرادى ويتغنون به جماعات ، فقد روى عن أنس
 ابن مالك وعن السيدة عائشة أنه لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة جعل
 النساء والصبيان وذوات الخدور يغنين بقولهن :

✓ طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
 ✓ وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
 أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع ^(٥)

(١) سيرة ابن هشام ٣/٣٨٣ والمغازي للواقدي ٣٩٠

(٢) ابن هشام ٣/١١٣ يشير إلى أن الرسول أعطاه سيفاً ليحارب به العدو حتى ينتجى

(٥) السيرة الحلبية ٥٨/٢

(٤) الأغاني ٢٢/٣

(٣) الطبري ٤٩/٣

وبنو النضير لما أجلاهم النبي عن المدينة خرجوا يريدون خير وهم يضربون بدفوف ويزمرون بالمزامير^(١).

وفي حفر الخندق رأى النبي عليه الصلاة والسلام ما بالصحابة من تعب وجوع ، لأن الزمن كان عسرة والعام عام مجاعة فقال متمثلاً بقول ابن رواحة :
اللهم لا عيش إلا عيش الآخرة فارحم الأنصار والمهاجرة
وأجابه الصحابة بقولهم :

نحن الذين بايعنا محمداً على الجهاد ما بقينا أبداً
وقال صلى الله عليه وسلم متمثلاً أيضاً بقول ابن رواحة ، وهو ينقل التراب -
وقد وارى الغبار جلد بطنه الشريف :

اللهم لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إذ لا قينا
والمشركون قد بغوا علينا وإن أرادوا فتنة أبينا
وكان يمد صوته ويكرر أبينا ، أبينا

وروى أنه صلى الله عليه وسلم لما بدأ الحفر في الخندق قال :

بسم الإله وبه بدينا ولو عبدنا غيره شقيننا

يا حبذا رباً وحب ديننا^(٢)

ويروى ابن هشام أن المسلمين كانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جعيل
سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عمرأ فقالوا :

سماه من بعد جعيل عمرا وكان للبائس يوم ما ظهرأ

فإذا مروا بعمر و قال رسول الله (عمرا) وإذا مروا بظهر قال (ظهرأ)^(٣).

(١) الأغاني ٣٨/٣ الدار

(٢) السيرة الحلبية ٣٣٢/٢

(٣) سيرة ابن هشام ٢٣٢/٣

ولم يكن الشعر العربى وحده هو المتصل بالغناء هذا الاتصال الوثيق فقد كان الشعر اليونانى كذلك ، ولهذا أطلق اليونان على الشاعر كلمة Aede أى المغنى فى القرن الثانى عشر والحادى عشر قبل الميلاد ، وكان هوميررس يتغنى بالإلياذة على آلة موسيقية خاصة ، ولم يكن التغنى بالشعر عند اليونان وفقا على نوع معين منه ، فقد تغنوا فى مناجاة الآلهة ، وفى مدح الملوك ، وفى إلقاء القصص ، وكان الشعر التمثيلى يوضع حواراً وأنشيد غنائية . « على أن الشعر الغنائى اكتسب هذه التسمية من نسبته إلى كلمة Lyre وهى آلة موسيقية قديمة ، فسمى Lyric poetry أى الشعر الغنائى ^(١) وكان أرسطو يرى أن الشعر الغنائى مرتبط أشد الارتباط بالموسيقى ^(٢) .

ثم نشأت بأوروبا فى العصور الوسطى جماعات من الشعراء الجوالين يطوفون بالبلاد ويتغنون بشعرهم ، وقد أطلق عليهم فى غربى أوروبا ووسطها التروبادور Troubadour وسموا فى شرقها المنسجر Minnisinger ، وفى اللغة الإنجليزية كلمة Bard معناها الشاعر المنشد الذى يؤلف الشعر ويغنيه ، وهو يحمل معه أداة موسيقية يعزف عليها حين يلقى شعره ويغنيه .

ح - وما من شك فى أن الغناء يقتضى أن يكون الكلام الذى يغنى موزوناً ، لأن الغناء منبعث عن عاطفة ، والمنفعل يتغنى بعاطفته غناء ملائماً لها ، ولذا فإن الموسيقى الشعرية لا بد أن تلائم الحالة النفسية للقائل . يقول الناقد الإنجليزى جريننج لامبورن Greening Lamborn : « إن الموسيقى خارجية وداخلية ، والعروض يتكفل بالخارجية ، أما الداخلية فتتكفل بها مقاييس صوتية فى داخل النفس أكثر مرونة وشمولاً من العروض ^(٣) .

فالوزن ظاهرة طبيعية للعبارة ما دامت تؤدى معنى انفعالياً ، وعلم النفس يقرر أن الإنسان المنفعل تبدو عليه ظاهرات جثمانية عملية كاضطراب النبض

وضعف الحركة أو قوتها وسرعة التنفس أو بطئه وحركة الأيدي قبضاً وبسطاً ،
وهذه نفسها دليل على ما في النفس من قوة طارئة ، فاللغة التي تصور هذا الانفعال
لا بد أن تكون موزونة ، ذات مظاهر لفظية متباينة لتلائم معناها وتكون
صداه الصحيح ، ^(١)

والغناء كان من دأب العربي وهو يقطع المسافات الطوال على ظهر راحلته ،
تمشي به متسدة أو مرقلة ، وهو على ظهرها يهتز هزات تبطيء وتسرع وتطول
وتقصر ، وكان الغناء من دأبه وهو يهجم في الحرب فيجري أو يثب ، ومن دأبه
وهو يمتح الماء من البئر فيرتفع وينخفض ، ومن دأبه وهو يرقص ، ومن دأبه وهو
يزاول عملاً تصحبه العاطفة وتعوزه التسلية ، تنزل به النازلة فينفس عن نفسه بالغناء
وتبسم له الحياة فيصور حواره في غناء ، وهو إذ يغني يتقطع صوته وفقاً لحركات
جسمه وهزات نفسه ، وتتقطع كلماته ومقاطعته إلى أجزاء متزنة منسجمة ، لأن صلة
الغناء بالشعر من شأنها أن تحدث ذلك .

فهذه اللحمة التي وصلت الغناء بالشعر تخولنا أن نقول إن التغنى بالكلام المنشور
عسير ؛ لأنه لا يطاوع الترجيع ، ولا يلين للترنيم ، وبذلك لا تستحليه الأذن ولا
يستسيغه اللسان . فمن الطبيعي أن يتغنى الناس بكلام موزون يسير ألحان الغناء ،
وتطرب له الآذان ، وهم لذلك قد تغنوا بالسجع لما فيه من موسيقى الوقفات ، ثم
حاولوا أن يخضعوا هذه اللغة المسجوعة إلى النغمات التي تطابق العاطفة ، وتطاول
التغنى ، فتخيروا الكلمات المنسقة مع النغم الذي في النفس . وتصرفوا في بعض
الكلمات بتحريك الساكن وتسكين المتحرك ، وقصر الممدود ومد المقصور ، وترخيم
بعض الأسماء ، وتنوين ما لا ينون ، إلى غير ذلك مما يعد ضرورات شعرية ،

وتصرفوا أيضاً في الأوزان نفسها بحذف وزيادة وتحريك وتسكين ، مما يعد من الزخافات والعلل العروضية . فصارت اللغة التي يتغنّى بها الناس لغة موزونة تلائم حركاتها وسكناتها ومداتها ووقعاتها الأنغام التي يتغنّون بها ، والألحان التي يرجعونها ، والنفس وهو تطول أو يقصر ، ويسرع أو يبطئ ، فنشأ الوزن منوعا كتشوع التلحين القطري ، واستراحت النفس لهذا التقطيع ، وجعل المغنى به يوليه من عنايته وتجويده ، وجرت به الألسنة محتفية ملتذة ، وغبر على ذلك ردحا من الدهر كان كفيلا بنقلته من الطفولة إلى الصبا .

وهنا وفي هذه النقلة نشأ الوزن من الغناء بالكلام المسجوع .

و — ونشأت القافية أيضاً هذه النشأة ، فهي في أول أمرها كانت سبعة ، ثم التزمت في آخر الأبيات كلها تمشياً مع الغناء ، لأنها قوية الشبه بوقوفات المغنين ، ونهايات العازفين ، وسكنات الناقرين على الدف ، والمصفقين بالأكف ، والموقعين بأرجلهم في الرقص ، فهي نهاية النفس في البيت ، واستراحة من البيت إلى البيت ، ولأنها مضافة إلى الوزن تكسب الشعر رنيناً وتزيده موسيقى .

وقد أسهلت القافية للشاعر العربي ؛ لغنى اللغة بالمفردات الكثيرة ذات النهايات الواحدة ، ففيها من القوافي المناسبة ما يتعذر وجود نظيره في سائر اللغات ، فلا يسوغ لها أن تبرز عاطلاً مع توفر ذلك الحلي الشائق ، فإذا اقتصر الإفرنجي على صوغ شعره كالجز العربي ، لكل شطرين قافيتان متناسبتان ينتقل منهما إلى غيرهما واضطر إلى تكرارهما بعد حين ، أو إذا اختار أن يعرى شعره من القوافي بتاتا فعذره أن لغته هكذا خلقت . بل لو أجهد نفسه في مواضع كثيرة لتعذر عليه تعزيز قافيتين بثالثة ، والشاعر العربي بخلاف ذلك ، فإن كثيراً من ضروب القوافي تنهال عليه انهيار الغيث ، وإذا انحبست فلا تنحبس إلا لقصر باع ، أو لقرع باب ضيق ، أو لتجاوزه الحد في إطالة القصيدة المنظومة على قافية واحدة ^(١) .

هـ - ثم تنوعت البحور وفق الموضوع ووفق الحالة النفسية للقائل ، لأن الموسيقى الشعرية المعبرة هي التي تسير موضوع القصيدة ، وتوائم التجربة الشعرية ، يقول سببسر : « إن خير الموسيقى ما تتمشى مع الأفكار وتتساق مع المعاني ، وتتجاوب نغماتها ونبراتها مع حالات النفس ، فالشاعر في احتياجه وغضبه وغيظه يكون تعبيره الموسيقي على النغمة ، وفي حزنه يكون منخفضها ، وفي تعجبه وفرحه وهدوئه واطمئنانه تكون مسافات الصوتية قصيرة ، وأما في بثه وألمه فتكون مسافات الصوتية طويلة ، وهكذا تسير النغمات حالات النفس كما تسير موضوع القصيدة وفكرته ، (١) » .

وهذه النشأة الغنائية أو النشأة الموسيقية للوزن هي التي مكنت الخليل بن أحمد أن يتهدى إلى علم العروض ، ولولا علمه بالموسيقى والتوقيع ما تهدى إلى الكشف عن قواعد هذا العلم ، وحسبنا أنه ألف كتابا في النغم كما ذكر ابن خلكان (٢) ، وكان إخوان الصفا على حق إذ رأوا أن الموسيقى بمثابة لقوانين العروض (٣) .

ومما يعزز هذا الرأي أن الأوزان التي استحدثت بعد العصر الجاهلي كانت أيضا وليدة الموسيقى ، فالموشحات الأندلسية نشأت متأثرة بالغناء والموسيقى لتلائم الأوزان الشعرية الألحان الموسيقية .

ولذلك لم يتصور نقاد العرب الشعر إلا موزونا مقفى ، فشلا ابن رشيق جعل أركانه أربعة : اللفظ والمعنى والوزن والقافية (٤) ، وأبو هلال العسكري جعل من مراتب الشعر العالية التي لا يلحقه فيها غيره من الكلام أنه منظوم (٥) .

و - ولا يقدح في هذا أن شعر بعض الأمم لا يلتزم الوزن والقافية كالشعر القبطي ، فإنه - على ما وصفه هرمن بونسكر - يجرى على غرار الشعر الفرعوني ،

(١) الشعر المعاصر . مصطفى السحرقي ١١٥ (٢) وفیات الأعيان ١٧٢/١
(٣) الرسائل ١٤٤/١ طبعة مصر (٤) العمدة ٧٧/١ (٥) الصنائع ١٣١

فلا يراعى الوزن والقافية ، لأنه يستعيز عن هذا النقص بقيم موسيقية يراعيها في كل بيت ، تسكفل انسجام الكلمات وتوقعها ، وذلك بالتوافق في جرسها وتتابعها في ترتيب يحدث نغمة موسيقية ، شأنه في ذلك شأن الشعر في اللغة المصرية القديمة^(١) ومع ذلك فإن خلو الشعر من الوزن يحرمه خاصية من خواص جماله وتأثيره ، وإذا كان الكاتب الأمريكي والت وتمان walt witman قد هجر الوزن في معظم شعره واحتذاه كثير من جذبتهم الدعوة إلى التحرر من الأوزان ، وإذا كان أيضا لم يأبه للقافية ، فإنه قد اهتم بالإيقاع ، وقد بلغ شعره درجة إيقاعية عالية ،^(٢) فهو إذا يريد أن يعوض ما عمد إلى حذفه ، يريد أن يضمن على شعره المجرد من الوزن والقافية جمالا أسلوبيا آخر ، ولكن هذه الدعوة لم تصادف قبولا .

وكيف تصادف قبولا والوزن من أهم الخصائص التي تميز الشعر من النثر ؟ ولذا قال لاسل إبركرومبي Lascelles Abercrombie في كتابه (الشعر : موسيقاه ومعناه) : « يلزم أن تصبغ الموسيقى كل القصيد في الشعر الغنائي »^(٣) .

بعد الطبعة الأولى عثرت على نص قديم يعزز ما ذهبت إليه من حيث الصلة الوثيقة بين الشعر والغناء .

روى أبو حيان التوحيدي عن مسكويه : « ربما سمعنا للشعراء الجاهليين المتقدمين أوزانا لا تقبلها طباعنا ، ولا تحسن في ذوقنا ، وهي عندهم مقبولة موزونة ، كقول المرقش :

لابنة عجلان بالطف رسوم لم بتعفين والعهد قديم
وكذلك قد يستعملون من الزحاف في الأوزان التي تستطيعها ما يكون عند المطبوعين منا مكسورا وهي صحيحة .

(١) مجلة الرسالة المجلد الأول من ٧١٨ سنة ١٩٣٦ (٢) الشعر المعاصر من ١١٨ السحرقى

(٣) Poetry, Its Music & Meaning عن الشعر المعاصر . السحرقى ١١٨

والسبب في جميع ذلك أن القوم كانوا يجبرون بنغمات يستعملونها مواضع من الشعر يستوى بها الوزن ، ولأننا نحن لا نعرف تلك النغمات إذا أنشدنا الشعر على السلامة لم يحسن في طباعنا .

والدليل على ذلك أنا إذا عرفنا في بعض الشعر تلك النغمة حسن عندنا وطاب في ذوقنا كقول الشاعر :

إن بالشعب الذي دون سَلْعٍ لقتيلاً دمه ما يَطْلُ

فإن هذا الوزن إذا أنشد مفكك الأجزاء بالنغمة التي تخصه طاب في الذوق ، وإذا أنشد كما ينشد سائر الشعر لم يطب في كل ذوق

وهذا سبيل الزحاف الذي يقع في الشعر مما يطيب في ذوق العرب وينكسر في ذوقنا . ولولا أن الموسيقى مركوزة في الطباع ، ووزن النغم ومقابلة بعضه بعضاً مجبولة عليه النفس لما تساعدت النفوس كلها على قبول حركات آخر بعينها . وتلك الحركات المقبولة هي النسب التي يطلبها الموسيقى ويبنى عليها رأيها ،^(١) .

إن الفزيولوجيا تقرر أن لغة الشعر الموزنة التي تعبر عن الانفعال راجعة إلى الانفعال . فمن المشاهد أن حركاتنا تنزن حين نعاني انفعالا قويا . فقانون (الانتشار العصبي) يجعل التنبيه أو التأثير الذي ينشأ في الدماغ يفتقل قليلا أو كثيراً إلى الأعضاء كما ينتقل الاضطراب على صفحة الماء الذي كان ساكناً .

وقانون (الوزن والإيقاع) الذي يرى تئذال وسبنسر أنه يسيطر على جميع الحركات يقلب هذا الاضطراب إلى تموج منتظم .

فإذا كنت في حالة قلق صغير رأيت ساقك تتحرك وتهتز ، وإذا كنت تعاني ألماً مادياً أو نفسياً رأيت الجسم كله يضطرب ، فإذا لم يكن هذا الألم شديداً جداً رأيت الجسم يهتز إلى الأمام وإلى الوراء ، ورأيت اضطرابه يصير منتظماً . وإذا كنت في فرح عظيم رأيتك تقفز وترقص

وهذه القوانين والظواهر تلاحظ كذلك في أعضاء الصوت ، وهما نحن أولاء
نصل إلى الحادثة الأساسية ، إن الكلام يكتسب بتأثير التنبيه العصبي قوة وإيقاعاً
واضحين ، فالخطيب إذا تحمس أدخل في كلامه من الوزن والإيقاع ما لم يكن من قبل ،
وكلمها ازداد فكره قوة وغنى ازداد كلامه وقعاً وموسيقى .

وما فن الشعر القديم والمعاصر إلا تثبيت موسيقى الانفعال هذه وتحسينها ، فإذا
البيت الشعري يصعد بنا ثانية إلى يفاع الانفعال ، ولعلنا نصيب في تعريفنا الشعر بأنه
هو الصورة التي تميل إلى اتخاذها كل فكرة يتمور بالانفعال .

فليس الشعر إذاً (في مبدئه الأول على الأقل ، أعني الوزن والإيقاع) شيئاً
مصطنعاً ، فالإنسان لم يصبح شاعراً ، ولا ناظماً بدافع نزوة فكرية عابرة ، بل بجهد
طبيعته ووفقاً لقانون علمي .

وإذا كان الإيقاع إشارة طبيعية إلى عمق الانفعال فإن هذا الإيقاع يميل وفقاً
لقانون علمي آخر هو قانون العدوى العاطفية - إلى أن ينقل الانفعال إلى قلب
السامع ، وهكذا متى تكلم المرء شعراً فكأنه بذلك يقول : إن ألى أوفرحي من
القوة بحيث لا يمكن أن أعبر عنه باللغة العادية . وكأنني بإيقاع الشعر ضربات القلب
تسمعها الأذن وتنظم الصوت ، فإذا سمعها الآخرون أخذت قلوبهم تخفق على هذا
الإيقاع نفسه .^(١)

المعلقات

ما هي ؟ السبب في تسميتها . مناقشة القائلين بتعلقها على الكعبة . الرأي الذي نرتضيه

ما هي ؟ المعلقات

يكاد رواة الشعر يطبقون على أن المعلقات سبع ، وهي قصائد طوال جياذ تتميز بتنوع فنونها ، وجزالة أسلوبها ، وابتكار كثير من معانيها ، وتصويرها شخصية قائلها ، وأصحاب المعلقات هم :

امرؤ القيس ، وطرفة ، زهير ، وعنترة ، وعمر بن كلثوم ، وليد ، والخارث ابن حلزة وروى أبو زيد القرشي عن المفضل الضبي أنه لم يعد عنتره والخرث من أصحاب المعلقات ووضع في مكانهما النابغة والاعشى : « والقول عندنا ما قال أبو عبيدة امرؤ القيس ثم زهير والنابغة والاعشى وليد وطرفة وعمر ، وقال المفضل هؤلاء أصحاب السبع الطوال التي تسميها العرب السبعون فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة » ، وقصيدة النابغة مطلعها : « يا دارمية بالعلياء فالسند ، وقصيدة الاعشى في مدح النبي صلى الله عليه وسلم مطلعها : « ألم تغتمض عينك ليلة أرمدا ، وبعضهم يعد هذه التسع ويزيد عليها بأية عبيد بن الأبرص « أقفر من أهله ملحوب ، فتصير المعلقات عشرة .

لم سميت بذلك ؟

١ - ذهب أكثر العلماء إلى أنها استمدت تسميتها من تعليقها على الكعبة وأقدم من روى عنه ذلك ابن الكلبي المتوفى سنة ٢٠٤ أو سنة ٢٠٦ هـ فقد روى عنه :

« إن أول شعر علق في الجاهلية شعر امرئ القيس ، فقد علق على ركن من أركان السكبة أيام الموسم حتى نظر إليه ثم أحدير ، فعلقت الشعراء كذلك بعده . وكان ذلك فخراً للعرب في الجاهلية وعدوا من علق شعره سبعة نفر ^(١) . »

ومن مشايخي هذا الرأي ومشيعيه ابن عبد ربه المتوفى سنة ٣٢٧ هـ مؤلف العقد الفريد يقول : « وقد بلغ من كلف العرب بالشعر وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم ، فكتبتها بماء الذهب في القباطي المدرجة وعلقتها بأستار السكبة . فمنه يقال مذهب امرئ القيس ومذهب زهير والمذاهب سبع يقال لها المعلقات ^(٢) . »

وهو في رأيه هذا يزيد على رأى ابن الكلبي أنها كتبت بماء الذهب ، وكتبت في القباطي ، وكتبت جملة وعلقت جملة . وتبعه ابن رشيق المتوفى سنة ٤٦٣ هـ مؤلف العمدة : يقول : « وكانت المعلقات تسمى المذاهب وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر فكتبت في القباطي بماء الذهب وعلقت على السكبة فلذلك يقال مذهب فلان إذا كانت أجود شعره ^(٣) . »

ثم جاء ابن خلدون المتوفى سنة ٨٠٨ هـ وكان معجباً بكتاب ابن رشيق وقد أثني عليه مرتين في الفصل السابع والأربعين من المقدمة ، فدان برأيه وقال : « إن العرب انتهوا إلى المباهاة بتعليق أشعارهم بأركان البيت الحرام موضع حجهم وبيت إبراهيم ، كما فعل امرؤ القيس بن حنجر والناطقة الديواني وزهير بن أبي سلمى وعنترة بن شداد وطرفة بن العبد وعلقمة بن عبدة والأعشى وغيرهم من أصحاب المعلقات السبع فإنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر من كان له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه في مضر على ما قيل في سبب تسميتها بالمعلقات ^(٤) ، وهو يزيد هنا على سابقه أن

(١) تاريخ آداب العرب للرافعي ١٨٧/٣ (٢) العقد الفريد ١١٦/٣ القاهرة

(٤) المقدمة ص ١١

(٣) العمدة ١٦١/١

التعليق كان عن قدرة بالعصية والمساكنة . فسكانه لم يكن عن ابتداء وجدارة ، وذكر البغدادي المتوفى سنة ١٠٩٣ هـ أن العرب كانوا في الجاهلية ، يقول الرجل منهم الشعر في أقصى الأرض فلا يعبا به ولا ينشده احد حتى يأتى مكة في موسم الحج فيعرضه على أندية قريش فإن استحسنوه روى وكان نغراً لقائله وعلق على ركن من أركان السكبة حتى ينظر إليه ، وإن لم يستحسنوه طرح ولم يعبا به ، . وأول من علق شعره في السكبة امرؤ القيس^(١) .

والمؤرخ الفرنسى سيديو يوافق هؤلاء فيما ذهبوا إليه ، ويقول : ، وأنشوا في عكاظ وذى المجاز ومجنة للفاخرة بالشعر يجالس حافلة خالية من التحكم على النفوس ، يقوم أمامها شجاع يمشى مشية المتكبر والأبصار شاخصة إليه حتى يقف على مرتفع من الأرض فينشدهم مع إنصاتهم قصيدة بصوت رنان يستعين فيها بحافظته وكان المقبول من قصائدهم يكتب بالذهب على نفيس القماش ثم يعلق على السكبة ليحفظ حتى تطلع عليه الذرية . فوصلت إلينا المعلقة السبع لامرئ القيس (٥٤٠م) والحارث ابن حلزة (٥٤٠م) وطرفة (٥٦٤م) وعنترة (٦٢٢) وزهير (٦٢٧) ولييد (٦٦٢)^(٢) وهو هنا يزيد أن التعليق كان لحفظ القصائد حتى يطلع الأبناء عليها ولم يكن لتشریفها .

٢ — وقد جال المستشرقون في تعليل هذا الاسم جولات ، فمثلا قال نيكلسون : ، وكلية المعلقة مشتقة في الغالب من كلمة علق أى التمين النفيس ، وقد يكون المقصود أن الإنسان يعلق بها ، أو أنها تعلق في مكان الشرف أو في مكان أمين ، وقد وردت تفسيرات أخرى عدة منها أنها الأشعار التى دونت (فون كرامر) ومنها أنها القصائد الجواهر أو السموط (مولر) .

(٢) خزانة الأدب ٨٧/١ دار العصور

(٣) خلاصة تاريخ العرب لسيديو

« وبمرور الزمن نسي الناس المعنى الحقيقي للمعلقات وأصبح من الضروري إيجاد تفسير معقول للكلمة ، ومن هنا نشأت الرواية التي كررت حتى ألفت وهي أن المعلقات استمدت تسميتها من تعليقها على السكبة لأنها ممتازة . . . ولو كان هذا صحيحا لوجدنا في النصوص القديمة ما يؤيده ، ولكننا لم نجد شيئا يؤيده في القرآن (الكریم) أو الحديث (الشریف) أو في تاريخ مكة القديم أو في المؤلفات مثل كتاب الأغاني وهي المؤلفات التي تستمد أخبارها من مصادر قديمة موثوق بها .

« وعلى الرغم من أن بعض العلماء أمثال رابشك وسيديو ، ودي ساسي ... قد قبلوا هذا التفسير فإنه تفسير غير مقبول^(١) .

٣ — ونحن نرفض رأى القائلين بتعليقها على السكبة جملة وتفصيلا .

(١) فلو أن التعليق حدث لكان أحق من يقول به وبذيعه حماد الراوية المتوفى سنة ١٥٥ هـ فهو الذي جمع هذه القصائد كما ذكر ابن خلكان في الترجمة له^(٢) وكما قال ابن سلام : كان أول من جمع أشعار العرب وساق أحاديثها حماد الراوية^(٣) ، وقد سماها حماد المشهورات لا المعلقات .

(ب) لم يسم أحد من الثقة القدماء هذه القصائد بالمعلقات ، ولم يشر أحد إلى هذا التعليق ، كابن زيد القرشي صاحب جمهرة أشعار العرب المتوفى ١٧٠ هـ وابن سلام صاحب طبقات الشعراء المتوفى سنة ٢٣٢ هـ والجاحظ صاحب البيان والتبيين المتوفى ٢٥٥ هـ والزوزني شارح القصائد السبع المتوفى ٢٧٥ هـ وابن قتيبة مؤلف الشعر والشعراء المتوفى ٢٧٦ هـ والمبرد مؤلف الكامل المتوفى ٢٨٥ هـ وابن الأنباري ٣٠٥ هـ وأبو جعفر النحاس ٣٣٧ أو ٣٣٨ هـ والأصفهاني المتوفى ٣٥٦ هـ والباقلاني مؤلف إعجاز القرآن المتوفى ٤٠٣ هـ .

(٢) وفيات الأعيان لابن خلكان ١٦٤/١

(١) Nicholson. P. 101—102

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٢٤

وهؤلاء جميعاً قد استشهدوا بأبيات من المعلقة ، وذكروا أصحابها ، فمثلاً ذكر ابن سلام امرأ القيس والنابعة وزهيراً والأعشى وليدا وطرفة وعمراً والحارث وعنترة ولم يذكر كلمة معلقة بل ذكر كلمة قصيدة أو واحدة ، فمثلاً قال : إن الطبقة السادسة أربعة رهط لكل واحد منهم واحدة ، أولهم عمرو بن كلثوم ، وله قصيدته التي أولها : ألا هي بصحنك فاصبحينا ،^(١) وقال في طرفه : فأما طرفه فأشعر الناس واحدة وهي :

لخولة أطلال بركة شمد وقفت بها أبكى وأبكى إلى الغد^(٢)

وذكر قصيدة عنترة التي يقول فيها : يا دار عبلة بالجواء تكلمي ، وقال . وله شعر كثير إلا أن هذه نادرة فألقوها مع أصحاب الواحدة^(٣) وذكر الأصفهاني أن عمرو بن كلثوم قام بقصيدته خطيباً في سوق عكاظ ، وقام بها في موسم مكة ، فلو كان خبر التعليق صحيحاً لذكر أن العرب كتبها ، وعلقتها على السكبة .

وذكر الجاحظ أن الشعراء كانوا مولعين بتنقيح شعرهم ، وكانوا يسمون تلك القصائد الحوليات والمقلدات والمنقحات والمحكات ليصير قائلها خلا خنذيذا وشاعراً مفلحاً^(٤) ، ولم يذكر في أسماء القصائد المعلقة .

وقال ابن قتيبة في ترجمة طرفة إنه أجودهم طويلاً ، وفي ترجمة عنترة إن العرب كانت تسمى قصيدته الذهبية ، ولم ترد كلمة معلقة في كتابه إلا مرة واحدة في ترجمته للحارث بن حلزة ، ولما سكن البغدادى نقل في الخزانة كلمة ابن قتيبة وأسقط منها لفظ المعلقة ، فهي إذن من زيادة النساخ في هذا الموضع الوحيد من الشعر والشعراء لابن قتيبة .

وقال القرشي صاحب الجمهرة رواية عن المفضل : « هؤلاء هم أصحاب السبع

(٢) الطبقات ٥٠

(٤) البيان والتبيين ٧/٢

(١) الطبقات ٥٦

(٣) الطبقات ٥٧

الطوال التي تسميها العرب السموط ، فمن قال إن السبع لغيرهم فقد خالف ما أجمع عليه أهل العلم والمعرفة^(١) ، وقال : ، إن النابغة أجودهم واحدة وروى عن عيسى بن عمر أن عمرو بن كلثوم واحدة أجود سبعهم ، وروى عن عمرو بن العلاء أن عمرو بن كلثوم لم يقل غير واحدة ولولا أنه افتخر في واحدة وذكر ما أثر قومه ما قالها^(٢) . وقال الباقلاني في حديثه عن امرئ القيس إنه لولا جودة شعره ما اختار الأدباء قصيدته في السبعيات .

وابن الأنباري يسميها السبع الجاهليات^(٣) ، في شرحه لها ، ويذكر في نهاية كتابه : تمت قصيدة لبید ، وتم بتمامها السبع الجاهليات^(٤) ، ويقول : تمت قصيدة امرئ القيس^(٥) و (تمت قصيدة طرفة)^(٦) وهكذا في كل واحدة .

وأبو جعفر النحاس سماها السبع الطوال وأنكر تعليقها على الكعبة ، وقال في شرحه لهذه القصائد — وهو مخطوط بدار السكتب — واختلقوا في جمع القصائد السبع . وقيل إن العرب كانوا يجتمعون بعكاظ فيتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها في خزائني . وأما قول من قال أنها عُلقت بالكعبة فلا يعرفه أحد من الرواة . ويقول إن حمادا الراوية لما رأى زهد الناس في الشعر جمع هذه القصائد وسماها المشهورات .

والزوزني ذكر في مقدمة شرحه أن هذا شرح القصائد السبع . وإذا كان الغلاف مكتوبا عليه المعلقات فإنه من عمل النساخ .
(ح) على أن المذاهبات التي يطلقونها على المعلقات بدعوى أنها كتبت بماء الذهب في القباطي وعلقت على أستار الكعبة قد أطلقها أبو زيد القرشي على قصائد الأوس والخزرج خاصة وهن لحسان وعبد الله بن رواحة وغيرهما^(٧) .

(١) الجمهرة ٤٥ (٢) الجمهرة ص ٤٠

(٣) ص ٢ مخطوط بدار السكتب ز ١٩٩٠٧

(٤) ص ١١٩ (٥) ص ١٨ (٦) ص ٣٩

(٧) الجمهرة ص ٤٥

(٥) ثم بعد هذا نتساءل : كيف نصدق أن العرب كتبوا هذه القصائد بماء الذهب على القباطى وهم كانوا أمة أمية لم يكثر فيها من يقرأ ويكتب ؟ وهل من المعقول أن ينبغ فيهم من يجيد الكتابة حتى يكتب بماء الذهب على القباطى ؟ وماذا يدعوهم لكتابة هذه القصائد وتعليقها على الكعبة ما دامت الأمية فاشية فيهم ؟ وقد هدمت الكعبة وجدد بناؤها واشترك النبي صلى الله عليه وسلم في وضع الحجر الأسود في مكانه ، ثم جاء الإسلام وفتح النبي مكة ودخل البيت الحرام وحطم الأصنام ، ولم يرد للمعلقات ذكر في هذه المرة أو تلك .

وقد ذكرت أنواع كسوة البيت الحرام في الجاهلية وهى الانطاع وحبرات اليمن والبرود وغيرها^(١) ، ولم تذكر القباطى إلا فى كسوة البيت فى صدر الإسلام فى عهد عمر وعثمان رضى الله عنهما^(٢) .

ثم من هؤلاء الذين كانوا يقضون بأن القصيدة جديدة بأن تعلق ؟ وهل أقفر الشعر القديم كله فلم تكن فيه قصائد جياذ تستحق التعليق غير هذه السبع ؟ وقد تسامل نيكلسون هذا التساؤل : هل من المعقول أن يقبل أبناء الصحراء الأبيون أن يقدموا ثمرات قرائحهم التى تشيد بشرف قبائلهم — وهم جد حريصين عليه — ليحكم فيها محكمون من قبائل أخرى ؟ أو يقبلوا عن طيب خاطر حكم طائفة من الرجال من القبائل المجاورة لمكة من الصعب أن يحكموا حكما عادلا فى مصاحبة منافسيهم من قبائل أخرى ،^(٣) .

٤ — ورأينا الذى نظمئنا إليه بعد هذا أن التعليق على الكعبة لم يحدث ، وإنما هو رأى عن ابن السكيت المتوفى سنة ٢٠٤ أو ٢٠٦ هـ وقد صنعه ليحجب الشعر الجاهلى إلى الناس حين انصرفوا عنه إلى الشعر الإسلامى ، وقد أخذ هذا من تعليق قريش للصحيفة

(١) أخبار مكة للأزرقي ١/١٦٥ — ١٦٧ وصبح الأعشى ٤/٢٧٨ وسيرة ابن هشام ١/٢٠

(٢) صبح الأعشى ٤/٢٧٨ وأخبار مكة للأزرقي ١/١٦٨ والقرى لقاصد أم القرى ٤٧٣ —

٤٧٤ لمجد الدين الطبرى (٣) Nicholson. P. 102

لما اعتز الإسلام بحمزة وعمر ، وتعاهدت قریش على أن يكتبوا بينهم كتابا يتعاقدون فيه على مقاطعة بنى هاشم فكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها فى جوف الكعبة توكيدا وتوثيقا من أنفسهم .

وحتى على فرض أن هذه القصائد سميت بالمعلقات لأنها علقت فإنها لم تعلق على الكعبة ، فيصح أنها علقت فى سقف أو على جدار مطوية على عود أو ما يشبهه ؛ لأن العرب لم يكتبوا قبل القرآن كتابا مدففا ، وإنما كانوا يكتبون فى رقاع مستطيلة من الحرير أو الجلد أو الكاغد يوصل بعضها ببعض ثم تطوى على عود أو خشبة وتعلق فى جدار الرواق أو الخيمة أو سقف الدار حرصاً عليها من العثة أو الفأرة كما يفعل سكان الريف الآن فى صيانة ما يهتمون به من الأوراق .

ويصح أن التسمية نشأت من تسمية العرب للقصيدة الجيدة سمطا — كما سمت قریش قصائد علقمة — والسمط العقد النفيس الذى يحلى به الجيد وقد سبق قول المفضل الضبي : « هؤلاء أصحاب السبع الطوال التى تسميها العرب السموط »^(١) ثم أطلقوا على هذه القصائد المعلقات السبع بدل السموط لأن السمط يعلق ، وكانت خفة هذا اللفظ سببا فى شيوعه وغلبته للفظ السموط .

وأرجح أنها نشأت من أن الملك أمر بتدوين هذه القصائد وغيرها فأخذت تسميتها من هذا ؛ لأن تدوينها تسجيل لها وتعليق بالورق وبالقلوب . وقد أسلفت فى كلمة أب جعفر النحاس أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال : علقوا لنا هذه وأثبتوها فى خزائى . وابن رشيق يكرر هذا رأى : (وقيل بل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر يقول : عثقوا لنا هذه لتكون فى خزائنه^(٢)) ولكنهما لم يذكرأ هذا الملك الكلف بالشعر فهل نستطيع أن نقف على اسمه ؟ نرجح أنه النعمان بن المنذر لأن ابن سلام يقول : (وقد كان عند النعمان بن المنذر ديوان فيه أشعار الفحول وما مدح

فيه هو وأهل بيته . فصار ذلك إلى بني مروان . أو ما صار منه ^(١) وابن جنى يقول
« أمر النعمان فنسخت له أشعار العرب في الطنوج - وهي السكراريس - ثم دفنها في
قصره الأبيض ، فلما كان المختار بن أبي عبيد قيل له إن تحت القصر كنزاً فاحتفـ^ر
فأخرج تلك الأشعار ، ^(٢)

ويخطيء من يظن أن الشعر لم يدون إلا في أواخر العصر الأموي وأوائل العصر
العباسي ، فقد دون بعضه في العصر الجاهلي كما رأينا ، ودون بعضه في عصر عمر
ابن الخطاب نفسه ، ذلك أن عبد الله بن الزبير السهمي وضرار بن الخطاب القهري
أنشدا حسان بن ثابت شعرا حتى فار وصار كالمرجل غضبا ، فشكاهما حسان إلى عمر
وقال عمر لمن حضره : إن قد كنت نهيتكم أن تذكروا بما كان بين المسلمين والمشركين
شيئا ، دفعاً للتضاغن عنكم وبث القبيح فيما بينكم . فأما إذ أبوا فاكتبوه واحتفظوا به ،
فدونوا ذلك عندهم ، قال خلاد بن محمد : فأدر كتمه والله وإن الأنصار لتجدده عندها
إذا خافت بلاه ^(٣)

الباب الثاني

الحياة الاجتماعية
من الشعر

(أولاً) الصلوات الأسرية

المرأة ومكانتها في الأسرة والمجتمع . الزواج . الطلاق . تعدد الزوجات . الأولاد

مكانة المرأة في الأسرة والمجتمع

لإعزاز الرجل لها . لإشهادها على مفاخره . الانتساب إليها : مشاركتها في الحرب وفي السلم . استشارتها في الزواج

أعز الرجل العربي المرأة ، وأحبها وقدم القصيد بذكرها ، وجزع على هجرها أو ظعنها ، ووقف على أطلالها يندب شجوه ويذكر ماضيه السعيد ، ولا حاجة لنا إلى الاستشهاد على ذلك فهو من الشيوع بحيث لا يفتقر إلى استشهاد .

وخاطب الرجل العربي المرأة فخوراً بشجاعته وكرمه وعالي مقامه ، وأشهدا على حسن بلائه ومحامده .

قال عبد يغوث :

وقد علمت عرسي مليكة أننى أنا الليث معدواً على وعاديا
وقد كنت نحار الجزور ومعمل الـ مطى وأمضى حيث لا حى ماضيا
وأنحر للأرب الكرام مطيتي وأصدع بين القينتين ردائيا
وكنت إذا ما الخيل شمسها القنا ليقاً بتصرف القناة بنانيا^(١)

فأشهد زوجه على شجاعته مهاجماً ومهاجماً ، وعلى كرمه ، وعلى جده في الرحلة والغارة وقطع القفار التي لم تطأها قدم ، وعلى أنه ينادم السكرام على الشراب وينحر

(١) الفضليات . السندوبى ٦٨ عرسي : زوجي . معمل المطى : أجهد الركائب في السفر والرحلة . أصدع . أشق . شمسها : نقرها وأفزعها . سنعرض عرضاً سريعاً موجزاً ما يتصل بالمرأة . رجئنا التفصيل إلى بحث آخر نرجو أن يمين الله على إنجازه .

لهم مطيته إذا لم يجد غيرها ، وعلى أنه يتخذ مجلسه بين المغنيتين فإذا تملسه الطرب شق رداءه ، أو هو يشقه لتأكيد الحب كما سنعرف في عاداتهم ، وعلى أنه حاذق بفن الحرب والطعان حتى في وقت الحرج والضيق وفرار الخيل من رماح الأعداء .
ولقد بشرهما معه في كرمه ، كما قال حاتم لزوجته :

إذا ما صنعت الزاد فالتسي له أكىلا فإن لست آكله وحدي
أخا طارقا ، أو جار بيت ، فإنني أخاف مذمات الأحاديث من بعدى
وإن لعبد الضيف ما دام ثاوياً وما في إلا تلك من شيمة العبد^(١)
وإذا ما لامته على كرمه أو سرفه رد عليها في غير تحقير أو تجريح ، قال حاتم :
وقائلة أهلكت بالجود مالنا ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقلت : دعيني إنما تلك عادتي لكل كريم عادة يستعيدها^(٢)

والرجال يستبسلون في القتال حتى لا ينكسروا فسي نساؤهم ، قال عمرو بن كلثوم في معلقته :
إنهم يستبسلون مخافة أن تسبي نساؤهم الحسان ، وإن النساء أنفسهن يحرضن الرجال على الاستبسال ، وأى تحريض أعمق في نفس الرجل أثراً وأبعد مدى من أن تقول لزوجته له : لست زوجي إن لم تحمني !

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقن جيانا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعنونا
وقال الحصين بن الحُمام المُرِّي يفخر بانتصاره في الحرب ، ويهزأ ببني محارب الذين أرادوا أن ينتصروا عليهم ليسبوا نساءهم :

ولا غرو إلا حين جاءت محارب إلينا بألف حاردي قد تسكتباً
موالى موالينا ليسبوا نساءنا أثعلب قد جثم بنكراء ثعلبا^(٣)

(١) الديوان ٩ وشعراء النصرانية ١٣٣/١ والجماسة ٢٩٢/٢ وفي الأغاني ١٤٤/١٢ أنها لقيس ابن عاصم وفي تهذيب الكامل ١٠٢/٢ أنها لقيس بن عاصم

(٢) شعراء النصرانية ١٢٦/١

(٣) الفضليات ١١٧/٢ حاردي : غاضب . تسكتب : تجمع . نكراء : ثعلبة شنيعة

وإذا ما عاد الفارس من الحرب تشوّف إلى إعجاب النساء به ، وسؤالهن الصناديد عن إقدامه ، قال عامر بن الطفيل في يوم فيف الريح يخاطب زوجته :

طُلّقتِ إن لم تسألِي : أيُّ فارس حليكَ إذ لاقِي صُدَاءَ وخَشَعًا
أَكْر عليهم دَعْلَجًا ولَبَّانُهُ إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمحمًا^(١)

وهم يخاطبون الزوجة بخير الألقاب وكنى التعظيم ، قال حاتم لزوجه معددا حسبها :
أيا بنة عبد الله وابنة مالك ويا بنة ذى البردين والفرس الورد
إذا ما صنعت الزاد فالتمسى له أكيلا فإنى لست آكله وحدى^(٢)

فذكرها بجدها عامر بن أحيمر الذى أعطاه المنذر بن ماء السماء بردين إعجابا بشرفه وشجاعته .

وكنى عروة بن الورد عن زوجته بأنها أم حسان في سياق رده على لومها له ومخالفتها إياه ، وهو مقام قد يثير الغضب ، ولكنه في هذا المقام نفسه كرم زوجته :

أرى أم حسان الغداة تلومنى تخوفنى الأعداء والنفسُ أخوف^(٣)
وكنى عنها في موضع آخر بأبيها وابنها ، وهو يرد عليها في لومها أيضا قال :
أقل على اللوم يا بنة منذر ونامى فإن لم تَشْتَبِى النوم فاسهرى
ذرى ونفسى أم حسان إننى بها قبل ألا أملك البيع مشتر
أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامةً فوق صير^(٤)

وقد انتسب بعض الشعراء إلى أمهاتهم مثل شبيب بن البرصاء ، وأبن ميادة ومنظور بن حبة ، وابن زيابة التيمى ، والسليك بن السلكة ، وغيرهم كثير .

(٣) شعراء النصرانية ١٣٣ والخماسة ٢/٢٩٢ وفي الأغاني

(٤) شعراء النصرانية ٨٩٧ صير : قبر

(٢) ديوان عامر Lyall

١٤٤/١٢ أنها لقيس بن عاصم

(١) الديوان ١٣ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ وشعراء النصرانية ٩١١

بل انتسبت بعض القبائل إلى الأم مثل بجيلة وخندف وطهية (نسبة إلى طهية بنت عبد شمس ، ومنها أبو الغول الطهوي من شعراء الحماسة)

ومما يؤكد أن المرأة كانت ذات خطر في الجاهلية أن التاريخ يحدثنا بنساء اشتهرن بالشجاعة حتى كن يشاركن في الحرب مشاركة فعلية ، فرقاس قادت قبيلة طيء في غزواتها^(١) ، وفي معركة أحد سقط لواء قريش في ساحة القتال ولم يزل صريعا حتى رفعته عمرة بنت علقمة الحارثية فلاذوا بها وقاتلوا ، وفيها يقول حسان بن ثابت :

فلولا لواء الحارثية أصبحوا يباعون في الأسواق بيع الجلائب^(٢)
وقاتلت أم عمارة - نسيبة بنت كعب المازنية - قتالا شديدا ، وضربت عمرو ابن قميئة بالسيف ضربات ، فوقته درعان كاتتا عليه ، وضربها عمرو بالسيف فجرحها جرحا شديدا على عاتقها^(٣) ، وقصة هند بنت عتبة وتحميسها الرجال يوم أحد بالغناء والضرب على الدفوف ، ومضغها كبدة حمزة مشهورة^(٤) -

وكانت لمن مشاركة في الحرب أخف من هذه ، إذ كن يصحبن الرجال إلى ميادين القتال فيداوين الجرحى ، ويحمان قرب الماء ، ويحمنن المقاتلين ، ومن هؤلاء أم عمارة بنت كعب الأنصارية وأم حكيم بنت الحارث والخنساء^(٥)

وقد كانت هند بنت عتبة تعرض مشركي قريش يوم أحد بقولها :

نحن بنات طارق نمشي على النمارق
الدر في المخانق والمسك في المفارق
إن تقبلوا نعانق أو تدبروا نفارق

فراق غير وامق^(٦)

(١) جمهرة الأمثال لأبي هلال

(٢) سيرة ابن هشام ٢٥/٣ - ٢٦

(٣) زاد المعاد ٣١١/٢

(٤) الأغاني ١٤/٢٠ ساسي وسيرة ابن هشام ٤١، ١٢/٣

(٥) ألف باء ٢١٠/٢

(٦) الأغاني ١١/١٢١ ساسي وليس الشعر لها وإنما هي تتمثل به

فقد قيل يوم ذي قار وطارق اسم رجل من بني مالك بن كنانة أو اسم للنجم الأغاني ١١/٢٢٠ - ١٢١

وهذه المرأة التي كانت لا تفتأ تحرض على الاستبسال ، وعلى الأخذ بالثأر كما سيجيء
قد أسهمت أيضا في نشر لواء السلام . من ذلك أن بهيسة بنت أوس الطائي رفضت
أن يدخل بها زوجها الحارث بن عوف قبل أن يصلح بين عبس وذبيان ، فتحمل هو
وهرم بن سنان من ديات القتلى ما يزيد على ثلاثة آلاف بعير^(١)

ولقد يكون في القصة مبالغة وتزيد ، ولكنها على أى حال تشير إلى مكانة
عالية للزوجة .

ويروون حكايات كثيرة عن مقدرة المرأة على إشعال الحرب ، وعن استشارتها
قبل أن يقضى أبوها في زواجها ، فقد استشيرت الخنساء في الزواج من أمية بن أبي
الصلت فرفضت^(٢) ، وقد استشيرت بهيسة بنت أوس الطائي في الزواج من الحارث
ابن عوف ، وكانت أمها هي التي زينت لأبيها الرضا بهذا الزوج^(٣) .

ولسنا نزعم أن هذا كان عرفا عاما يلتزمه سائر العرب ، فإننا نعلم أن الناس طبقات
وذوو منازع شتى ، ولكننا نرجح أن إشادة الشعراء بالمرأة — وهم لسن الأمة —
برهان على أن جمهرة الأمة لا تنسك عليهم ذلك ، ولا تخالفهم فيه . وما من شك في
أن بعض العرب كان يتهن المرأة ويراهما من سقط المتاع ، وهذا حال بعض الناس
في عصرنا ، فبينما نرى المرأة رفيعة المسكينة في بعض الطبقات ، إذا بها في درك مخز
في طبقات أخرى .

(١) الأغاني ٩/١٤٣

(٢) مقدمة ديوان الخنساء للآب لويس شيخو والأمالى ١٦١/٢

(٣) الأغاني ٩/١٤٢

الزواج

وكان الرجل يتزوج المرأة برضا آ لها ، ولم يكن لها أن تنفرد بالأمر دونهم ، وهذا هو النظام الذى شاع عندهم ، وكانت الفتيات يستشرن كما مر .

أما اتصال الرجل بالمرأة بطرق أخرى كالدعارة فقد كان مقصوراً على الساقطات وذوى المجانة من الشبان ، وقد سموهن أصحاب الرايات ، لأنهن كن ينصبن على أبوابهن رايات لتمدل عليهن ، وسموهن أيضاً المظلمات ؛ لأن الفتيان كانوا يتسللون إليهن فى جنح الظلام .

وكانوا يستولدون السبايا ، ولكن لا يلحق نسب الولد بأبيه إلا إذا ادعاه ، ولذا كان من مفاخر الرجل أن أمه حرة نسبية لا سبية جلية . فإذا كانت أمه أمة افتخر بما يعوض نقصه ، فمثلاً كانت أم عنتره حبشية سوداء فأكثر من الفخار بشجاعته بدلاً من فخاره بأمه وأخواله فى مجال الفخر بأبيه :

إني امرؤ من خير عبس منصبا شطرى ، وأحمى سائرى بالمنصل^(١) وقال :

إن كنت فى عدد العبيد فهمتى فوق الثريا والسماك الأعزل
أو أنكرت فرسان عبس نسبى فسنان رحى والحسام يقر لى
وبذا بلى ومهذى نلت العـلا لا بالقرابة والعديد الأجزل^(٢)

وقد أكثر الشعراء السود من الدفاع عن سواد لونهم ، ولكن لم يجرؤ أحدهم على أن يفضل نفسه على العرب ، قال عنتره :

لله در بنى عبس لقد نسلوا من الأكارم ما قد تنسل العرب
لئن يعيوا سوادى فهو لى نسب يوم النزال إذا ما فاتنى النسب^(٣)

(١) ديوان عنتره ١١٩ . المنصب : الأصل . المنصل : السيف

(٢) الديوان ١٢٤ . السماك الأعزل : نجم نير (٣) ديوان عنتره ١٠

وقال :

وإن يعيبوا سواداً قد كُسيت به فالدر يستره ثوب من الصدف^(١)

وقال :

سوادى بياض حين تبدو شمائلى وفعلى على الأنساب يزهو ويفخر^(٢)
وما زالوا بحاجة إلى دفاعهم عن سواد لونهم إلى ما بعد العصر الجاهلى ، ومن
طريف ذلك أن نصيباً خطب جارية حرام فرفضته قائلة : إليك عنى فوالله لكأنك
من طوارق الليل . فقال لها : فأنت والله لكأنك من طوارق النهار . فقالت :
ما أظرفك يا أسود ! فعاظه قولها ، فقال لها : هل تدرين ما الظرف ؟ إنما الظرف
العقل ! فقالت له : انصرف حتى أنظر فى أمرك . فأرسل إليها هذه الآيات :
فإن أك حالكا فالمسك أحوى وما لسواد جلدى من دواء
ولى كرم عن الفحشاء ناء كبعد الأرض من جو السماء
ومثلى فى رجالكم قليل ومثلك ليس يُعدم فى النساء
فإن ترضى فردى قول راض وإن تأبى فنحن على السواء^(٣)
فلما قرأت الشعر قالت : المال والشعر يأتیان على غيرهما فتزوجته .

وعرفوا بتجارهم أن زواج الأقارب يضعف النسل وهذا ما قرره العلم الحديث
إذا كان فى الأسرة مرض وراثى . قال الشاعر :
تجاوزت بنت العم وهى حبيبة مخافة أن يضوى على سليلى
وقال آخر :

فتى لم تلده بنت عم قرية فيضوى وقديضوى رديد القرائب^(٤)
وافتنخر الكسنانى بابنه لأنه كريم مسود ، أمه غريبة ، فلا معابة فيه :

(٢) الديوان ٨٢

(٤) الميدانى ٧٠/٢

(١) الديوان ١٠٨

(٣) الأغانى ٣٥٣/١ الدار

تَنْخَبِثُهَا لِلنَّسْلِ وَهِيَ غَرِيبَةٌ فُجَّاتٌ بِهِ كَالْبَدْرِ خِرْقًا مَعْمًا
فَلَوْ شِئْتُمْ الْفَتَيَانَ فِي الْحَيِّ ظَالِمًا لَمَا وَجَدُوا غَيْرَ التَّكْذِبِ مَشْتَمًا^(١)
ثُمَّ جَاءَ الْحَدِيثُ الشَّرِيفُ مُؤَيِّدًا لِهَذِهِ الْعَقِيدَةِ : « اغْتَرَبُوا لَا تَضُورُوا »^(٢) .

الطلاق

وكانوا يطلقون ، يطلق الرجال النساء ، فقد طلق الأعشى زوجه إما لأنها لم تعجبه
وإما لأن قومها هددوه بالضرب إن لم يطلقها ، وقال .

فَبَيْنِي حِصَانُ الْفَرْجِ غَيْرُ ذَمِيمَةٍ وَمَوْمُوقَةٌ فِينَا كَذَاكُ وَوَامِقَةٌ
وَذَوْقِي فَتَى قَوْمٍ فَإِنِّي ذَائِقٌ فَتَاةٌ أَنَاسٌ مِثْلُ مَا أَنْتِ ذَائِقَةٌ
لَقَدْ كَانَ فِي فَتَيَانَ قَوْمِكَ مِنْكَحٌ وَشَبَّانٌ هَزَانُ الطَّوَالِ الْغُرَانِقَةُ
فَبَيْنِي فَإِنَّ الْبَيْنَ خَيْرٌ مِنَ الْعَصَا وَأَلَا تَرَى لِي فَوْقَ رَأْسِكَ بَارِقَةٌ
وَمَا ذَاكَ عِنْدِي أَنْ تَكُونِي دَنِيئَةً وَلَا أَنْ تَكُونِي جَثَّتْ عِنْدِي بِيَانِقَةٌ
وَيَا جَارَتَا بَيْنِي فَإِنَّكَ طَالِقَةٌ كَذَاكَ أُمُورُ النَّاسِ غَادٌ وَطَارِقَةٌ^(٣)

وكان الطلاق نظاماً عاماً عند العرب ، واليهود ، واليونان ، والرومان ، وقد أباحه
الإسلام وإن ضيق من دائرته ، وبرره ملن الشاعر الإنجليزى^(٤) .

وارتقت مكانة بعض النساء فى الجاهلية إلى أن بعضهن كن يطلقن أزواجهن ،
« وكان طلاقهن أنهن إن كن فى بيت من شعر حولن الحباء : إن كان بابه قبل المشرق
حولنه قبل المغرب ، وإن كان بابه قبل اليمن حولنه قبل الشام ، فإذا رأى ذلك الرجل
علم أنها قد طلقتة فلم يأتها »^(٥) .

(١) البيان والتبيين ٦٨/٣ خرق : كريم حسن الخليفة . معمم : مسود

(٢) البيان والتبيين ١٦٢/١

(٣) الأغاني ٨٠/٨ ساسى هزان : قبيلة الزوجة

(٤) المرأة فى مختلف العصور . أحمد خاكي ٨٥ — ٨٦

(٥) الأغاني ١٠٢/١٦ ساسى

ويرى المرحوم الأستاذ محمود جمعة أن مرجع ذلك إلى أن الخباء عند الساميين كان ملكاً للمرأة ، والخباء عند أهل المدر كالبيت عند أهل الحضر ، ومعنى ذلك أن ملكيته مقصورة عليها ، وأن الرجل هو الذى يدخل عليها ، فإذا دخل ووجدتها قد حولت باب الخباء عرف أنها قد أعرضت عنه وطلقته^(١) .

ورَوَوْا أن ماوية بنت عفزر طلقت زوجها حاتماً حين تخرق في كرمه^(٢) . أما المرأة الحضرية فكانت أحياناً تزوج وتشتري أن يكون الأمر بيدها ، وتكون علامة ارتضاها للزوج أن تعالج له طعاماً إذا أصبح ، ومن هؤلاء عمرة بنت سعد وعاتكة بنت مرة السُلَيْمِيَّةَ وفاطمة بنت الخُرْشُب وسلى أم عبد المطلب بن هاشم^(٣) .

تعدد الزوجات

أما تعدد الزوجات فقد كان شائعاً ، ولم يكن لهم عدد ينتهون إليه ، فقد ورد في الصحيح أن غيلان الثقفي أسلم وتحتته عشر نساء .

وقد غاظ جندة الطهوى زوجه بأنه يخشى أن يموت ولم يوجعها بضرة ذات شراسة وخصومة وصخب تباكرها بالسباب إذا سرحت الطير تبتغي طعامها ، وتسمعها الفاحش من القول ليسمع الحى كله :

لقد خشيت أن يقوم قارى ولم تمارسك من الضرائر
ذاتُ شذاة جمّة الصراصر حتى إذا جرس كل طائر
قامت تُعْظِي بك سَمْعَ الحاضر قَصْرَ إصرار العقاب الكاسر^(٤)

والتعدد نظام شاع عند العرب والرومان حتى عصر جستنيان ، وعجز عن محوه

(١) النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والأمم السامية ٨٧

(٢) الأغاني ١٠٢/١٦ ساسى (٣) ذيل الأمالي ١٥٣ وجمع الأمثال للميداني ٣١٨/١

(٤) طهارة العرب ، الشنقيطى ٣٢

بالقوانين الصارمة التي سنّها ، وكان نظاما اجتماعياً في القبائل الجرمانية ، وبعض أباطرتهم تزوجوا غير واحدة وأقرتهم الكنيسة^(١) ، وكان مباحا الى حد ما عند المصريين كما يحدثنا ديودورس^(٢) ، وكان نبلاؤهم يمارسونه في نظام الإمام وما ملكت اليمين^(٣) ، ويطن رولفسن أنه كان مباحا عند الآشوريين ، وقد مارسه الإغريق والرومان والتيوتون الغربيون وخاصة في الشمال . وقد نصت عليه شريعة مانو ولم تقيد ، وأباحته التوراة ، وكان اليهود يمارسونه في أوربا في القرون الوسطى ، وما زالوا يمارسونه في البلاد الإسلامية^(٤) .

الأولاد

تربيتهم . تسميتهم . الوأد وبواعثه . حب بعضهم للبنات . إحياء الموءودات .

وكانوا يربون أبنائهم على البطولة والحماد ، وأرادوا أن يوحوا إليهم بالقوة والشدة ، أو هم تفاؤلوا أن يكون بنوهم أقوياء أشدة ، فتخيروا لهم أسماء فيها قوة ورهبة مثل أسد وثور وفهد وصخر .

ولقد يكون الغرض من الأسماء القوية المرعبة أن يخيفوا بها أعداءهم ، فقد سئل أبو العريش الأعرابي : لم تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسنها نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إننا نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا^(٥) ويرى الجاحظ أنهم كانوا يتفاؤلون بأسماء كلب وحجر وحنظلة الخ^(٦)

وكانوا يعزون الذكور أكثر من الإناث ، وهذا طبيعي في بيئة قائمة على الصيد والغزو والحروب ، لأن الذكر يغني حيث لا تغني الأنثى .

(١) المرأة في مختلف العصور . أحمد خاكي ٨٢ - ٨٥

(٢) Diodorus, Bk, I, ch, 80

(٣) Wilkinson, The manners and Customs of the Ancient Egyptians

عن النظم الاجتماعية والسياسية

(٤) النظم الاجتماعية والسياسية . جمعة ٦٨

(٥) حياة الحيوان للدميري ٢/٢٤٢ بولاق

(٦) الحيوان

وقد وأد بعضهم البنات ، وأسباب الوأد شتى :

١ — قالوا إن من أسبابه الغيرة على المرأة ومخافة العار إذا تسي ، ورووا أن بني تميم كانوا قد منعوا الإتاوة عن النعمان ، فخاربهم وانتصر عليهم ، واستاق نعمهم ، وسبي ذرارهم ، وفي ذلك يقول أبو المشرج اليشكري ،

لما رأوا راية النعمان مقبلة قالوا : ألا ليت دارنا عدن
يا ليت أم تميم لم تكن عرفت مُراً وكانت كمن أودى به الزمن

ووفدت على النعمان وفودهم ، وكلبوه في الذراري ، فحكم بأن تخيير النساء ، فمن اختارت زوجها ردت إليه ، وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم اختارت سابيها على زوجها ، فنذر قيس أن يدس في التراب كل بنت تولد له ، فوَأد بضعة عشرة بنتاً^(١) . ولهم في منشأ الوأد رواية أخرى ملخصها أن المشرج اليشكري سبي من نساء بني سعد وفيهن بنت أخت قيس بن عاصم ، فرحل قيس وسأل القوم إياها فخيروها فاختارت عمرو بن المشرج ، فانصرف قيس فوَأد كل بنت ، وجعل ذلك سنة كل بنت تولد له واقتدى به العرب^(٢)

٢ — ومنهم من كان يثد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء (بها علامة قبيحة) أو برشاء (بها نقط بيض) أو كسحاء (قعيدة) تشاؤما وكان يفعل ذلك قليل منهم^(٣)

٣ — ومنهم من كان يثد خشية الإنفاق وخوف الفقر ، وفيهم نزل قوله تعالى : ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطئاً كبيراً^(٤) ، وهذا نوع ألجأت إليه البيئة المجذبة ، والمراد بالأولاد هنا البنات .

٤ — ومنهم من زعم أن الملائكة بنات الله — سبحانه وتعالى عما يقولون — فألحقوا الإناث به لأنه أولى بهن ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ، ويرى نيكلسون Nicholson أن الوأد يعود إلى سبيين اثنين هما : المجاعات التي كانت كثيرة الحدوث في بلاد العرب القليلة الأمطار ، والتغالي الشاذ في المحافظة على

(٢) الأغاني ١٤٤/١٢ ساجي

(٤) سورة لإسراء الآية ٣١

(١) بلوغ الأرب ٤١/٣ — ٦٦

(٣) بلوغ الأرب ٤١/٣ — ٥٦

الشرف ، فقد كان الآباء يخشون أن يضطروا لإطعام أفواه لا ترتجى من أصحابها فائدة أو أن يصيبهم العار إذا وقعت بناتهم أسيرات^(١)

(٥) ومنهم من كان ينذر أن يذبح واحداً من بنيه إذا بلغوا عشرة كما فعل عبد المطلب في قصته المشهورة^(٢) .

وقد أبطل الإسلام هذه العادة ، وسفه الذين يحزنون إذا رزقوا بنتاً ، كما بين للوائدین مخشاة الفقر أنه هو الرزاق ، ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون ، ، وقال تعالى : « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم »^(٣) .

ويرى الدكتور على عبد الواحد أن الوأد الناشئ عن الخوف من الفقر لم يكن فيه تمييز بين ذكور وإناث ، ولذلك عبر القرآن الكريم بكلمة الأولاد « ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، ، وأن وأد البنات كان أمراً دينياً لأنهم اعتقدوا أن البنت رجس من خلق الشيطان أو من خلق إله غير آلهتهم فيجب التخلص منها^(٤) »

ولم يكن قتل الأولاد بدعة عربية ، فقد فعلت بعض الأمم القديمة ما هو أشنع منه ، فإسبرطة كانت تقضى بإعدام الأولاد الضعاف أو المشوهين عقب ولادتهم ، أو تركهم في القفار طعاماً للوحوش والطيور ، وكانت الأم تغمس الوليد في دن من النبيذ مدة ، فإن عاش دل هذا على قوته وصلاحيته للحياة ، وإن مات تخلص المجتمع من عضو ضعيف ، وهذا النظام نفسه أو ما يقرب منه كان منتشراً في أثينا وروما ، وقد أقره فلاسفة اليونان وفي مقدمتهم أفلاطون وأرسطو .

(٢) سيرة ابن هشام ١/١٦٤—١٦٧

(٤) الأسرة والمجتمع ١٢٠—١٢٣

(١) Nicholson.P.90-91

(٣) الأنعام الآية ١٥١

وكان يجب على الآباء في كثير من الشعوب البدائية وغيرها قتل أولادهم أو بعضهم لاعتبارات دينية أو اقتصادية ، فيستحيا البنات ويقتل البنون ، أو يستحيا البنون وتقتل البنات ، أو يقتل الأولاد بدون نظر إلى ذكورة وأنوثة^(١) . وفي المنطقة المتجمدة الشمالية حياة شظف قائمة على الصيد ، ولذا فإن بعض جماعات الإسكيمو يثدّون بناتهم بعد الولادة بزمن قصير^(٢) .

وكان الفينيقيون يقدمون النساء قرابين للإلهة عشتروت (الزهرة) ، وفي عبادة مولوخ (إله النار) يضحون بالأولاد إحراقاً في النار الملتهبه^(٣) .

وما من شك في أن القبائل التي أودت كانت تسكره البنات ، سواء أكان ذلك لأنهن لا يساهمن في كسب الرزق ولا في الدفاع أم لعقيدة دينية . وقد هجر أبو حمزة الضبي امرأته لأنها ولدت بنتاً ، فر بنجبائها يوماً وإذا هي ترقصها وتقول:

ما لأبي حمزة لا يأتينا يظل في البيت الذي يلينا
غضبان ألا نلد البنينا تالله ما ذلك في أيدينا
وانما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزارعينا
ننبت ما قد زرعه فينا

فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وبنتها^(٤)
على أن الوأد لم يكن عاما ، قال قتادة : كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدّهم في هذا تميم ، زعموا أنه خوف الفقر عليهن وطمع غير الأكفاء فيهن . وقد خطب إلى عقيل بن علفة ابنته الجرباء فقال :

إني وإب سيق إلى المهر ألف وعبدان وخور عشر

أحب أصهارى إلى القبر^(١)

ورويت الأبيات منسوبة إلى عمرو بن أبي علقمة المري مع وضع كلمة ذود بدلا من خور^(٢).

وقيل إن القبائل التي كانت تند ربيعة وكندة وتميم وأفراد مغمورون^(٣).

لكن الكثرة السكثيرة لم تند ، بدليل بقاء النسم يلدن ، وبدليل حب الشعراء والرجال للمرأة وفخارهم بها . قال حسان بن الغدير :

رأيت رجالا يكرهون بناتهم وهن البواكى والجيوب والنواصح^(٤)
وروى أبو الفرج أن معن بن أوس كان مثناا وكان يحسن صحة بناته وتربيتهن ،
فولد لبعض عشيرته بنت فكرها أبوها وأظهر جزعا ، فقال معن :

رأيت أناسا يكرهون بناتهم وفيهن لا تكذب نساء صوالح
وفيهن والأيام تعثر بالفتى نوادب لا يمللنه ونوايح^(٥)

على أن بعض سادات بني تميم كانوا يعيبون وأد البنات ، وينقذونهن من هذا
الظلم الوحشى ، واشتهر بذلك صعصعة بن ناجية جد الفرزدق ، حتى لقد سمي محبي
المومودات ، وكان السبب الذى حفزه إلى ذلك أنه مر يوما برجل يحفر ليئد ابنته
وامراته تبكى ، فسأل الرجل عن سبب عمله فأجابه بأنه الفقر ، فعرض عليه أن يستبقى
ابنته ويمنحه ناقتين عشراوين يتبعهما أولادهما ، ليعيشوا من ألبانهما ، فقبل الرجل

(١) تفسير القرطبي ١١٧/١٠ الحور : الغزيرات اللبن

(٢) طهارة العرب الشنقيطى ٢٦ (٣) بلوغ الأرب ٤٢/٣

(٤) المؤلف والمختلف . الأمدى ١٦٤ الجيوب النواصح : القلوب المخلصة

(٥) الأغاني ١٥٦/١٠ ساسى

فأعطاه صعصعة ناقتين وجملا ، ثم قال في نفسه : إن هذه لمكرمة ما سبقني إليها أحد من العرب ، فجعل على نفسه ألا يسمع بموودة إلا فداها ، فجاء الإسلام وقد فدى ستاً وتسعين موودة ، وقيل ثلاثمائة ، وقيل ثلاثمائة وستين ، وقيل أربعمائة ، وقد نثر الفرزدق بذلك كثيراً كقوله :

أبي أحد الغيثين صعصعة الذي متى تُخلف الجوزاء والدلو يُمطر
أجار بنات الوائدين ومن يُجير على الفقر يعلم أنه غير مُحفّر
على حين لا تحيا البنات ، وإذ هم عكوا على الأصنام حول المدور^(١)
وقال :

ومنا الذي أحيا الوئيد وغالب وعمرو ومنا حاجب والأقارع
أولئك آبائي فجنني بملهم إذا جمعتنا يا جرير المجمع
وقد شركه في هذه المأثرة زيد بن عمرو بن نفيل ، ففي صحيح البخاري أنه كان يحيي الموودة بأن يكفي أباهامثونتها إذا كان فقيراً^(٢) .

(١) الأغاني ٢/١٩ --- ٤ سامي مخفر : ناقض للعهد غادر

(٢) تيسير الوصول ١١٣/٣

(ثانيا) الصلات القبلية

الحرب . الثأر . الحلف والجوار . الغنى والفقر

الحرب

بواعث الحروب . طريقة المقاتلة . زمن القتال . أدوات الحرب . الأسرى والسبائيا . الصلح

١ - بواعث الحروب

أما الصلات القبلية فقد أسست على العداء والحروب المتوالية ، أو على المخالفة والنصرة .

١ ويثبتهم الطبيعيه والاجتماعية مؤرثة لهذه الحروب ، فهم يتنازعون على المرعى يسمون فيه أنعامهم ، وعلى المنهل يطفقون به ظمأهم في بلاد شحيحة بالكأا ضئيلة بالماء ، لا ملكية فيها لأحد وكثيراً ما كانت الحرب تبدأ بنزاع بين الرعاة على الماء أو المرعى فيشترك معهم ساداتهم وأقرباؤهم . وهذا شبيه بما يحدث في ريف مصر ولا سيما في أيام الري بنظام (المناوبات) الآن .

٢ وقد تشتعل الحرب لتنازعهم على شرف أو رياسة ، وهم قوم كلفون بالشرف وبالرياسة كما حدث بين هاشم وأميه بمكة ، وبين عبس وذبيان من قيس ، وبين بكر من ربيعة ، وبين دارم ويربوع من تميم .

٣ على أن بعض الحروب كان رغبة في السلب والغارة ، لأن أرزاقهم في رماحهم ، ومعاشهم في أيدي غيرهم ، ونجد تصوير ذلك في أبيات للقطامي - شاعر مخضرم - إذ يتحدث عن الخيل والخيالة وديدنهم في السلب والغارة :

وكن إذا أغرن على جناب وأعوزهن نهب حيث كانا

أغرّن من الضّباب على حُلُولِ وَضْبَةٍ إِنَّهُ مِنْ حَانَ حَانَا
وَأَحْيَانَا عَلَى بَكَرِ أَخِينَا إِذَا لَمْ نَجِدْ إِلَّا أَخَانَا^(١)

(٣) على أن الحرب قد تثور لأسباب أخر ربما كانت أقل تهيجاً ، من ذلك أن يتنافر
خصمان إلى حَكَمٍ ليقضى بينهما فإذا حكم لأحدهما زاد العداء اشتعالاً ، وإذا كان الحكم
عدلاً خبيراً بما يحجره حكمه من تصدع وتشتيت شمل سوى بين المتنافرين ، كما فعل
هرم بن قطبة حينما سوى بين عامر بن الطفيل وعلقمة بن علاثة العامريين ابني العم
بقوله : أنتما كركبتي البعير^(٢) . وعاش هرم حتى أدرك عمر بن الخطاب رضي الله عنه ،
وسأله عمر : أي الرجلين كنت مفضلاً لو فعلت ؟ فقال : لو قلت ذلك اليوم عادت
جدعة ، فأعجب عمر بحكمته وبعد نظره ، وقال : لمثل هذا العقل تحاكت إليه العرب .
على أن السنة الشعراء كانت سلاحاً ماضياً في قطع الأواصر ، كل منهم يعدد
مفاخر قبيلته ، ويبالغ في تصيد مثالب خصومها .

ولقد تهيج الحرب نصرة لقريب وإن كان ظالماً ؛ لأن شعارهم : انصر أخاك ظالماً
أو مظلوماً . ومن يتخلى منهم عن نصرة قريبه يعير ويعاب . وربما عير الشاعر قبيلته
كلها من جراء تخليها عن نصرته ، قال قُرَيْطُ بْنُ أَيْفٍ - وكان بعض بني شيبان
أغاروا على إبله فاستنجد قومه فلم يجدوه فلجأ إلى بني مازن فأنجدوه ، والمراد هنا
مازن تميم - :

لو كنت من مازن لم تستبح إيلي	بنو الشقيقة من ذهل بن شيبانا
إذا لقام بنصري معشر خشن	عند الحفيظة إن ذلوثه لانا
قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم	طاروا إليه زرافات ووحدانا

(١) شرح الحماسة للبريزي ١٨١/١

(٢) راجع تفصيل المنافرة في بلوغ الأرب ٣١١/١ - ٣٢٤

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا
 لسنن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
 كأن ربك لم يخلق لحشيتته سواهم من جميع الناس إنسانا
 يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
 فليت لي بهم قوما إذا ركبوا شدوا الإغارة فرسانا وركبانا^(١)
 - ١ - وكثير من الحروب كانت تنشأ لأسباب توافه في ظاهرها ولكنها وليدة ضغن
 قديم وقرته الصدور ، كحرب الفجار أو حرب عبس وذبيان ، والعربي لا ينسى هزيمة
 ذاق مرارتها ولا إساءة نزلت به ، قال زفر بن الحارث الكلبي مصورا هذا الشعور :
 لعمرى لقد أبقت وقيعة راهط لمروان صدعا بيننا متناثيا
 وقد ينبت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا^(٢)
 ب - طريقة المقاتلة

١ - كان قتالهم في الجاهلية بالسكر والفرأحيانا ، يهجمون ويرتدون ، وقد
 يتخذون وواهم مصاف ثابتة يلجئون إليها في كرم وفرم ، كأن يضربوا وراهم
 حواجز من الظعائن أو الإبل وهذا هو النظام الغالب في معارك البادية القائمة على
 الاشتجار بالسيوف والرماح والقسي وغيرها ، لأن معاركهم لا تستمد من نظام
 معلوم مدروس ، أو فن يتلقاه جيل عن جيل ، وهي أشبه بأن تكون حرب عصابات.
 على أن هذه العصابات المتغاورة كانت تعتمد على التجارب ، وعلى المفاجأة
 والاستطلاع والخديعة والتبصير ، وعلى الفرار أحيانا لتعاود الهجوم .

٢ - ولكنهم في جاهليتهم عرفوا أيضا الحروب المنظمة والجيش المعدة .
 والطرق الفنية المرسومة ، فقد كان جيش الحارث الأعرج الغساني الذي حارب المنذر

(١) شرح الحماسة للبربري ١/هـ والرواية الصحيحة البيت الأول بنو الشقيقة لا بنو اللقيطة كما في الديوان
 والشقيقة م بنت عباد بن يزيد بن عوف بن ذهل بن شيبان . لونه : ضعف
 (٢) حماسة البحري ١٧

بن ماء السماء مؤلفا من نحو أربعين ألف مقاتل ، فيهم الفرسان وراكبو الإبل ، والمحاربون بالسيوف ، والطاعنون بالرماح ، والضاربون بالسهام والنبال وبالحراب والحجارة . ولم يكن هذا عن مقدرة الملك وغنى الدولة فحسب ، لأن بعض القبائل البدوية كانت تفعل مثله ، فقد روى أن مذحج جمعت لقتال تميم يوم الكلاب الثاني ثمانية آلاف ، وسبقت المعركة بالاستطلاع والمخاطلة ، ثم قامت على المهاجمة والمطاردة وفي غزوة أحد جاءت قريش في ثلاثة آلاف رجل وماتى فارس .

وجدير بنا ألا ننسى أن صلة المنادرة بالفرس علمتهم تعبئة الجيوش ، فقد كانت عندهم كتيبتان هما الشهباء والدوسر وهذه فارسية ، وكذلك الغساسنة على صلة بالروم يساعدهونهم في حروبهم ، ويقبسون من نظمهم

لذلك لم يكن غريبا من العرب في يوم ذى قار أن هزموا الفرس ، لأنهم كانوا أبرع قيادة وأشد حماسة ، وأحكم خطة ، فقد بشوا طلائعهم ، وقسموا جموعهم إلى ميمنة تولاها بنو عجل ، وميسرة تولاها بنو شيدان ، وقلب تولته بطون من بكر ، وبعثوا إلى العرب الذين في الجيش الفارسي من يصرفهم عن مساعدة الفرس حين يلتحم الجيشان ، فلما التحم تخلت إباد عن الفرس ، وخذلتهم حيث يُنتظر العون والنصر .

وفي غزوات النبي صلى الله عليه وسلم تجلت خطط العرب في القتال من مباغمة ، ومبادرة ، واستطلاع واختيار المكان المناسب ، وحفز للهمم ، وتحذيل للعدو .

فثلا في غزوة أحد صف المشركون صفوفهم ، واستعملوا على الميمنة خالد بن الوليد ، وعلى الميسرة عكرمة بن أبي جهل ، وكانت لهم مجنبتان مائتا فارس ، وجعلوا على الخيل صفوان بن أمية وقيل عمرو بن العاص ، وعلى الرماة عبدالله بن أبي ربيعة وكانوا مائة رام ، وودفعا اللواء إلى طلحة بن أبي طلحة ، وصاح أبو سفيان : « يا بني عبد الدار نحن لا نعرف أنكم أحق باللواء منا ، وإنما أتينا يوم بدر من اللواء ، وإنما يؤتى القوم من قبل لوائهم ، فالزموا لواءكم ، وحافظوا عليه ، وخلوا بيننا وبينه ، فانا قوم مستميتون موتورون نطلب ثارا حديث العهد » . فغضبت بنو عبد الدار

وقالوا : لا نسلم لواءنا ، وأما المحافظة عليه فسترى ، ثم أسندوا اللواء إليه ، وأحدثت به بنو عبد الدار ، وأغلظوا لأبي سفيان ، فقال : نجعل لواء آخر . قالوا : نعم ، ولا يحمله إلا رجل من بني عبد الدار^(١)

وجعل رسول الله يصف أصحابه ، وجعل الرماة خمسين رجلا ، عليهم عبد الله بن جبير وقيل سعد بن أبي وقاص ، وجعل جبل أحد خلف ظهره ، واستقبل المدينة ، ونهاهم أن يقاتلوا حتى يأمرهم ، وصار يمشى بين الصفوف ويبوي أصحابه مقاعد للقتال ، ويقول : تقدم يا فلان ، تأخر يا فلان ، حتى أنه يرى منكب الرجل الخارجا فيؤخره ، فهو يقومهم كأنما يقوم القداح .

وتقدم رسول الله إلى الرماة فقال : احموا لنا ظهورنا ، فإننا نخاف أن نؤتى من ورائنا ، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه ، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم ، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا ، وارشقوا خيلهم بالنبل فإنها لا تقدم على النبل .

وعمل لنفسه ميمنة وميسرة ، ودفع اللواء الأعظم إلى مصعب بن عمير ، ودفع لواء الأوس إلى أسيد بن حضير ، ولواء الخزرج إلى سعد بن عباد^(٢)

٣ — كان نظامهم في الجاهلية أن يلتقي كل محارب بأخر أو بأخرين ، وكانت المبارزة تسبق الحرب أحيانا . قال عنتره :

سأخرج للبراز خلى بال بقلب قد من زبر الحديد^(٣)

وربما أغنت هذه المبارزة عن التحام الجيشين ، فقد تحرك المنذر بن ماء السماء بجنده لملاقاة جيش الحارث الأعرج بن جبلة ملك الشام ، فأرسل إليه الحارث أن انظر

(١) سيرة ابن هشام ١٢/٣ وشرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٣٦٥/٣

(٢) شرح نهج البلاغة ٣٦٦/٣ وسيرة ابن هشام ١٠/٣

(٣) ديوان عنتره ٥٤

ننظر في أمرنا ، وخرج بجيشه ، وأرسل إليه يقول . إنا شيخان كبيران فلا تهلك جنودك وجنودى ، ولكن يخرج رجل من ولدى ورجل من ولدك ، فمن قتل خرج عوضه آخر ، وإذا فنى أولادنا خرجت أنا إليك فمن قتل صاحبه ذهب بالملك وتعاهدا على ذلك ^(١) .

وفي غزوة أحد تقدم على بن أبى طالب بالراية متحدياً المشركين . وخرج إليه أبو سعد بن أبى طلحة ليبارزه ، فضربه على فصرعه ^(٢) .

وكانوا يسبقون المعركة برمى معسكر الأعداء بالنبل ، وقد يقصدون قائد الجيش وسيد القوم ليقتلوه فيثبطوا من معه ، وكثيراً ما افتخروا سائرهم بذلك . قال عنتره :
وإنا أبدنا جمعهم برماحنا وإنا ضربنا كبشهم فتحطأ ^(٣)

وكانوا يقلون من الصياح حتى لا يدلوا العدو على مكانهم ، فقد استشار قوم أكرم ابن صيفى فى حرب أعدائهم وسأله أن يوصيهم ، فقال : وأقلوا الخلاف على أمرائكم واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل . . . ^(٤) .

وقال عتبة بن ربيعة يوم بدر يصف للمشركين أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم :
ألا ترونهم جُشِيًّا على الركب كأنهم خرس ، يتلمظون تلمظ الحيات ؟ ^(٥)
وقد يتصرفون فى نظام الهجوم كما فعل خالد بن الوليد بالمسلمين فى أحد ، فقد استدار من حولهم وطوّقهم بخيله من خلفهم بعد أن ازدهاهم النصر الأول ومالوا إلى العسكر وقد انكشفوا وولت النساء هوارب ^(٦) .

وفى شعرهم ما يدل على التنظيم والتعبئة والهجوم ، فمثلاً عمرو بن كلثوم فى معلقته يشير إلى تقسيم المحاربين إلى ميمنة وميسرة :

(١) أيام العرب ٥١
(٢) سيرة ابن هشام ١٩/٣
(٣) الديوان ١٦٨
(٤) عيون الأخبار مجلد ١/١٠٨
(٥) عيون الأخبار مجلد ١/١٠٨
(٦) سيرة ابن هشام ٢٤/٣

وَكُنَّا الْيَمِينِ إِذَا التَّقِينَا وَكَانَ الْإِسْرِينَ بَنُو أَيْنَا

٤ - وكانوا يستوحون فطرم وتجاربيهم في تدبير هزيمة العدو ، قال الأحوص ابن جعفر في يوم جيلة لقيس بن زهير : ما ترى ؟ فإنك تزعم أنه لم يعرض لك رأيان إلا وجدت الفرج في أحدهما . فقال قيس : « الرأي عندي أن نرتحل بالعيال والأموال حتى ندخل شعب جيلة فنقاتل القوم دونها من جهة واحدة ، فإنهم داخلون علينا الشعب ، وإن لقيطاً رجل فيه طيش فسيقتحم عليك الشعب ، فأرى لك أن تأمر بالإبل فلا ترعى ولا تُسقى وتُعقل ، ثم نجعل الذراري وراء ظهورنا ، ونأمر الرجال فتأخذ بأذنان الإبل ، فإذا دخلوا علينا الشعب حلت الرجال عُنُقَهَا ثم لُزِمَتْ أذُنَاهَا فإنها تنحدر عليهم وتحن إلى مرعاهها ووردها ولا يردُّ وجوهها شيء ، وتخرج الفرسان إثر الرِّجَالَةِ الذين خلف الإبل فإنها تحطم ما لقيت ، ^(١) . فهذه خطة موفقة مبنية على استغلال طيش قائد الأعداء ، وعلى استغلال حنين الإبل الجياح العطاش إلى مرعاهها وموردها ، ولا شك أن انفلاتها من عقلها وتخليتها وهي جائعة ظمأى سوف يحدث دوياء وجلبة ورعباً في قلوب الأعداء فيتفرقون مذعورين .

وقد تحقق هذا لأن الأعداء ظنوا أن الشعب قد تهدم عليهم فولوا منهزمين بين قتيل وجريح وأسير ، وقتل لقيط بن زرارة وأسر أخوه حاجب ، ^(٢) ومن خططهم المحكمة أنهم كمنوا للفرس في يوم ذي قار ، وحملت ميمنة بكر على ميسرة الفرس ، وخرج عليهم السكينة فحملوا على قلب الجيش الفارسي فهزموه ^(٣)

٥ - وما دامت الحرب مبنية على الخيلة والخدعة والمكيدة ، فلا مندوحة من الاعتماد على العيون يستطلع بها المحاربون حال أعدائهم ليعرفوا عددهم وعددهم وخططهم الخ . . فيقدموا على بصيرة أو يرجعوا إن لم يكن لهم بملاقاة خصومهم طاقة .

وقد كان العرب يثنون العيون ، من ذلك أن قبيلة خزاعة من جُشم بن بكر أغاروا على إبل لبني كعب بن أبي بكر بن كلاب فانطلقوا بها ، وخرج بنو أبي بكر في طلبها حتى إذا دنوا منهم قال عمرو بن أبي سفيان السكلابي — وكان حازماً عاقلاً — : امكثوا . . . ومضى هو متسكراً حتى لقي رجلاً من بني خزاعة فسلم عليه واستسقاءه فسقاه ، وانتسب له هلالياً ، فسأله عن قومه وأين مرعى إبلهم ، وأعلمه أنه رائد لقومه يريد مجاورتهم ، فخبّره الرجل بكل ما أراد ، فرجع إلى قومه وقد نال ما يبتغي ، فصَبَح القوم ، فظفرت بهم بنو كلاب ، وقتلوا قيس بن الصمة ، وذهبوا بإبل خزاعة وارتجعوا إبلهم^(١) .

وفي يوم الفلج بعث بكر بن وائل عيناً على بني كعب بن ربيعة حتى جاء الفلج — وهو ماء — فوجد النعم بعضه قريباً من بعض ووجد الناس قد احتملوا ، فليس في النعم إلا من لا طبّاخ به — القوة والسمن — من راع أو ضعيف ، فجاءهم عينهم بذلك ، فركبت بكر بن وائل يريدونهم ، حتى إذا كانوا منهم بحيث يسمعون أصواتهم سمعوا الصهيل وأصوات الرجال ، فقالوا لعينهم : ما هذا ويلك ؟ قال : والله ما أدرى وإن هذا لما لم أعهد . فأرسلوا من يعلم عليهم ، فرجع فأخبرهم أن الرجال قد رجعوا ، وأنه رأى جمعاً عظيماً وخيولاً كثيرة ، فسكروا راجعين من ليلتهم^(٢) .

٦ — وكانوا يستصحبون نسائهم في الحروب لسقي الماء ، وتضميد الجراح وبعث الحمية ، قال عمرو بن كلثوم في معلقته :

على آثارنا بيض حسان	نحاذر أن تقسم أو تهونا
ظعائن من بني جُشم بن بكر	خلطن بميسم حسباً وديننا
يقتن جيادنا ويقلن لستم	بعولتنا إذا لم تمنعونا
أخذن على بعولتهن عهداً	إذا لاقوا كتائب معلينا

ليستلبن أفراساً وييضاً وأسرى في الحديد مقرنين
إذا لم نحمهن فلا بقينا لشيء بعدهن ولا حيننا (١)

وفي غزوة أحد خرجت قريش بجدها وحديدها . . . وخرجوا معهم بالظعن
التماس الحفيظة وألا يفروا ، فخرج أبو سفيان بن حرب - وهو قائد الناس - بهند
ابنة عتبة ، وخرج عكرمة بن أبي جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة ،
وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة ، وخرج صفوان
ابن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو بن عمير الثقفية ، وخرج عمرو بن العاص بربطة
بنت منبه بن الحجاج ، وخرج طلحة بن أبي طلحة - وأبو طلحة عبد الله بن عبد العزى
ابن عثمان بن عبد الدار - بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية ، وخرجت خناس
بنت مالك بن المضرب مع ابنها أبي عزيز بن عمير ، وخرجت عمرة بنت علقمة الحارثية ،
وكانت هند بنت عتبة كلها مرت بوحشي أو مر بها قالت : ويها أبادسمة ، اشف
واشتف (٢).

ولم يكن استنصحاب الظعائن عرفاً عاماً عند العرب ، يدل على ذلك ما دار من
حوار بين دريد بن الصمة ومالك بن عوف النصرى قائد هوازن يوم حنين ، قال
دريد : يا مالك ، إنك قد أصبحت رئيس قومك ، وإن هذا يوم له ما بعده من الأيام ،
مالى أسمع رغاء البعير ، ونهاق الحمير ، وبكاء الصغير ، ويغار - صوت - الشاه ؟ قال :
سقت مع الناس أبناءهم ونساءهم وأموالهم . قال : ولم ذاك ؟ قال : أردت أن أجعل
مع كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم ، فزجره ، وقال : راعى ضأن والله ، وهل يرد
المنهزم شيء ؟ إنها إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه ، وإن كانت عليك
فُضِّحت في أهلك ومالك ! ويحك . إنك لم تصنع بتقديم بيضة هوازن - جماعتهم -

(١) شرح القصائد العشر للتبريزي ٢٤٧

(٢) سيرة ابن هشام ٥/٣ - ٦

إلى نخور الخيل شيئا ، ارفعهم إلى مُتَمَنِّع بلادهم ، وعليا قومهم ، ثم الق الصباء — جمع صابئ ، يريد المسلمين وقد كانوا يسمونهم بهذا الاسم لأنهم في نظرهم صبتوا عن دينهم — على متون الخيل ، فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك كنت قد أحرزت أهلك ومالك . قال : لا والله لا أفعل ذلك ، إنك قد كبرت وذهل عقلك . قال دريد : هذا يوم لم أشهده ولم يفتني^(١) .

فلو أن اصطحاب الطعائن كان نظاما عاما مطردا ما عابه دريد بن الصمة وما قال لمالك إنك راعي ضأن ، أى لا خبرة لك بالحرب ، وإنما أنت حريص على المال .

٧ — ولحكاهم المجربين للحرب وصايا مستمدة من طول ممارستهم لها وخبرتهم بها ، فقد استشار قوم أكرم بن صيفي في حرب قوم أرادوهم وسألوه أن يوصيهم ، فقال : أقلوا الخلاف على أمرائكم ، واعلموا أن كثرة الصياح من الفشل ، والمرء يعجز لا محالة ، تثبتوا فإن أحزم الفريقين الركين ، ورب عجلة تهب ريثا ، وأنزروا للحرب ، وأدرعوا لليل ، فإنه أخفى للويل ، ولا جماعة لمن اختلف عليه^(٢) .

ح - زمن المقاتلة

١ — تقاتلوا بالليل ، وتقاتلوا بالنهار ، ويظهر أن أكثر الإغارات كان ليلا والقوم رقاد ، فهي مفاجأة فيها غنائم بأقل الخسائر ، قال سعد بن مالك في قتل كعب بن مزقيسيا الملك الغساني يتحدث بالهجوم ليلا .

وليلة تَبَعٍ وخميس سعد أتونا بعد ما نمنا ديبا
فلم نهدا لبأسهم ، ولكن ركبنا حد كوكبهم ركوبا
بضرب تَفَلَّقُ الهامات منه وطعن يفصل الحلق الصليبا^(٣)

(١) العقد الفريد ١٥٦/١ - ١٥٧ وسيرة ابن هشام ٦٦/٤

(٢) عيون الأخبار مجلد ١٠٨/١ والعقد الفريد ١١٣/١

(٣) البيان والتبيين ١٥/٣

وتحدث أيضا عياض الأسدى بهجوم الليل :

ومناحمة الجيش ليلة أقبلت إِيَادُ يَزْجِيهَا الهُمَامُ مُحَرَّقُ (١)

وافتنخر عنتره بكتيبة من أصحابه الأباة الشجعان جمعهم للإغارة وقد تمايلت أعناقهم من النوم ، وقادهم في ظلام الليل حتى انقضت الضحوة وأقبل الهجير فطعن عدوه :

وصحابة شم الأنوف بعثتهم ليلا وقد مال السكرى بطلاها

وسريت في غلس الظلام أقودهم حتى رأيت الشمس زال ضحاها

ورأيت في كبد الهجير فوارسا فطعنت أول فارس أولاه (٢)

وأيات عنتره هذه صالحة أيضا للدلالة على حرب النهار لأنه سار بصحبه ليلا وقاتل أعداءه نهارا .

١ - وأحيانا كانوا يغيرون نهارا أو صباحا ، قال عامر بن الطفيل إنهم هجموا على أعدائهم صباحا بكل حصان ضامر عال ، ومعهم رماح قصار تقد الحديد ، وما لبثوا أن لقوا أعداءهم فتنفرقوا أمامهم كأنهم شاء بَغْتَهَا ذئب :

صبحناهم بكل أقبَّ نَهْدٍ ومطرَد له يَقْدُ الحديد

لقينا جمعهم صباحا فكانوا كمثل الضأن عاداهن سييد (٣)

وقال عروة بن الورد :

ونحن صَبَحْنَا عَاسِرَا إِذْ تَمَرَّسَتْ

بكل رُقَاقٍ الشفرتين مَهْنَدٍ وَلَدْنِ مِنَ الْخَطِيّ قَد طَرَّ أَسْمَرَا (٤)

وقال البراق :

صَبَحْنَا عَلَى جُرْدٍ عَتَاقٍ بِأَسْيَافٍ مَهْنَدَةٍ قَوَارِي

وقد زَرْنَا الضُّحَاةَ بَنِي هُيَمٍ فَأَحْدَرْنَا هُمْ فِي كُلِّ عَارٍ (٥)

(١) البيان والتبيين ١٥/٣ (٢) ديوان عنتره ١٨٤ أولاه : أول طعنة

(٣) ديوان عامر وعبيد . lyall . ١١ أقب : دقيق الحصر ضامر البطن . مطرد : رمح نصير

(٤) شعراء النصرانية ٩٠٩ تمرست : تعرضت . علالة : طعننا بعد طعن . رقاق : رقيق

(٥) شعراء النصرانية ١٤٣ قواري : قار الشيء : قطعه من وسطه خرقا مستديرا

وفي لسان العرب : « يا صباحاه كلمة تقولها العرب إذا صاحوا للغارة ، لأنهم أكثر ما يغيرون وقت الصباح ، فكان القائل يا صباحاه يقول : قد غشيننا القوم صباحاً » (١) ويقول الفخر الرازي : كانت الخيل تغير على العدو وقت الصبح ، وكانوا يغيرون صباحاً لأنهم في الليل لا يبصرون ، ولأن الأعداء في النهار مستعدون للدفاع والحرب ، أما الصباح فهو وقت الغفلة (٢) ، وكانوا لا يستطيعون أن يغزوا في القيظ ، لأنه لا يستطيع أحد أن يقطع تلك الصحارى لبعدها مسافتها وشدة حرها (٣) .

٣ - وكانوا إذا اجتمعوا للحرب دخنوا بالنهار وأوقدوا بالليل ، ليعلموا العشائر والأحلاف ويجمعوهم ، قال عمرو بن كلثوم في معلقته :

ونحن غداة أوقد في خزازي رفدنا فوق رفد الرافدين
وقال خنخام السدوسي :

ندخنُ بالنهار لبصرونا ولا نخفي على أحد أئانا (٤)

٤ - هدنة إجبارية :

وكانوا لا يقاتلون في الأشهر الحرم ، ويحرمون فيها القتال والعدوان الفردي والجماعي ، حتى لو لقي الرجل قاتل أبيه لم يتعرض له . وهذه الأشهر الحرم هي ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب .

وقد كان هذا النوع من المهادنة ذا حكمة بالغة في أمة دأبها شن الغارات والثورات واعتياد السطو والسلب ، لأن الهدنة تهيء مجالا للعقلاء والحكماء أن يصلحوا ذات البين ، ولأنها تخفف من وقدة العداء بين الأفراد والجماعات فلا يسترسلون في التفاني والانقياد لنوازع الشر ، ولأنها تكفل لكل إنسان وقتاً يأمن فيه على نفسه وماله ، فيتنقل هاهنا أو هاهنا راعياً أو تاجراً أو حاجاً .

(١) لسان العرب مادة صبح

(٢) الفخر الرازي ٦٥٩/٨

(٣) أيام العرب ١٢٦

(٤) البيان والتبيين ١٦/٣

وكان الفرسان إذا أتوا عكاظ في الأشهر الحرم تقنعوا حتى لا يعرفوا ، ولعل هذا لئلا يهيجوا في النفوس ذكرى الإحن ، أو مخافة أن يغتالهم مغتال تغلب شهوته للانتقام على رعاية الشهر الحرام ، إلا ما كان من أبي سليط طريف بن تميم فإنه كان يرد سوق عكاظ غير متقنع ، كما سيجيء .

٥ - أدوات القتال

كانوا يحرصون على أدوات القتال ، لأنهم بها يحمون حياتهم ، ويغيرون على أعدائهم ، ويكسبو أرزاقهم ، ويثأرون ويغتمون . وكل منهم يحمل سلاحه لا يفارقه ، ليكون أقرب إليه إذا حزب الأمر ، قال أبو دلف العجلي :

إني امرؤ عودني مَهْرِي رَكُوبَ الْغُلَسِ
يَحْمَدُنِي سَيْفِي كَمَا يَحْمَدُ كَرِي فَرَسِي
سَيْفِي بَلِيلُ قَبَسِي وَفِي نَهَارِي أَنْسِي^(١)

وأدوات الحرب عندهم كثيرة :

١ (السيف) :

السيف أحسن آلاتهم ؛ وأشهرها ذكرأ وأكثرها أسماء وصفات ، وكانت أحياناً تصنع بالمدينة ، صنعها بعض القيون ، وقد اشتهر بصناعتها اليهود ، وقالو إن أول من صنعها من العرب الهالك بن عمرو بن أسد بن خزيمة ، ولذا قيل لبني أسد (القيون) وقيل لكل حداد (هالكي)^(٢) .

على أنهم استوردوها من بلاد آخر كالهند ، فعنزة يقول :

أكر على الفوارس يوم حرب ولا أخشى المهنّدة الرقاقا
وتطربني سيوف الهند حتى أهيّم إلى مضاربها اشتياقا^(٣)

(١) العقد الفريد ١٢٠/١ لجنة التأليف

(٢) ديوان عنزة ١١٤

(٣) الفاموس المحيط مادة هلك

وأحيانا نسبوها إلى الروم ، قال عامر المحاربي :

✓ نراوح بالصخر الأصم رءوسهم إذا القلَع الرومي عنها تثلما^(١)

وإلى مشارف الشام وهي قراها :

✓ نجيد الطعن بالسُّمَر العوالى ونضرب بالسيوف المشرفية

وإلى اليمن ، قال عنتره في رثاء صديقه مالك بن زهير العبسي :

✓ كنت أسطو حينما جدت العدا غداة اللقائحوى بكل يمان^(٢)

وقال :

بأسمر من رماح الخط لَدُنْ وأيض صارم ذكر يمان^(٣)

والمشرفية أجود سيوفهم ، وقد اختلفوا في هذه النسبة ، قال البكري في معجم ما استعجم : إن المشارف قرى من قرى العرب تدنو من الريف ، واحدها مشرف وقال في موضع آخر : وهي مثل خيبر ودومة الجندل وذى المروة والرحبة . وقال في (مؤتة) وكان لقاء المسلمين بالروم في قرية يقال لها مشارف من تخوم اللقاء . فالسيف المشرفي إن كان منسوباً إلى الأول فالنسب قياسي لأن الجمع يرد إلى الواحد فينسب إليه ، وإن كان منسوباً إلى الثاني فالنسب على خلاف القياس .

وقال أبو عبيدة . هي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، يقال سيف مشرفي ولا يقال مشارفي ، لأن الجمع لا ينسب إليه إذا كان على هذا الوزن . وقال صاحب المصباح — وقد نقل هذا — : وقيل هذا خطأ بل هي نسبة إلى موضع من اليمن .

وقال ابن الأنباري : المشرفي منسوب إلى المشارف ، وهي قرى للعرب تدنو من الريف ، ويقال بل هي منسوبة إلى مشرف وهو رجل من ثقيف .

وفي القاموس المحيط : ومشارف الشام قرى من أرض العرب تدنو من الريف منها السيوف المشرفية .

وفي العمدة : سيف مشرف منسوب إلى مشرف وهي قرية باليمن كانت السيوف تعمل بها ، وليس قول من قال إنها منسوبة إلى مشارف الشام أو مشارف الريف بشيء عند العلماء وإن قاله بعضهم^(١)

وقد برعوا في وصف السيوف والفخار بها ، فهذا أوس بن حجر يصف سيفه بأنه هندي يتلأأ حده كما يتلأأ البرق في سحاب كثيف ، وإذا ماسله من غمده خيل للرائي أن فرنده يتساقط كأنه سُحالة الفضة تتساقط على المبرد ، وفرنده يشبه طرائق النحل في الربا ، أو طرائق صغار النمل اللاجيء إلى السهل :

وأبيض هنديا كأن غراره	تلاؤ برق في حبي تها
إذا سل من غمد تأكل أثره	على مثل مسحاة اللجين تأكلا
كأن مدب النحل يتبع الربا	ومدرج ذر خاف برداً فأسهلا
على صفحته بعد حين جلانه	كفى بالذي أبل وأنت منصلا ^(٢)

(٢) الرماح :

كانوا يستوردونها من الهند إلى الحط على ساحل البحرين ، فقالوا خطى وخطية ، قال الأصمعي : ليست تنبت الرماح ولكن سفن الرماح ترفأ إلى هذا الموضع فقليل للرماح خطية^(٣)

✓ ويعطى القنا الخطى في الحرب حقه ويبدى بحد السيف عرض المناكب واشتهرت من العرب ردينة بتقويم الرماح وإصلاحها قال عنتره :

إذا خصمي تقاضاني بدني قضيت الدين بالرحم الرديني^(٤)

(١) العمدة ١٧٩/٢

(٢) الديوان ٢٠ وشعراء النصرانية ٤٩٥ الفرار : الحد . الحبي : السحاب . الأثر بالفتح والكسر : الفرند . المسحاة : المبرد . الثر : صغار النمل . المنصل : السيف

(٤) ديوان عنتره ١٧٢

(٣) العمدة ١٨١/٢

ونسبوها أيضا إلى سمهر ، زوج ردينة ، وهو رجل يبيع الرماح بالخط قال عنتره :
وأطعن في الهيجا إذا الخيل صدها غداة الصباح السمهرى المقصد^(١)
ونسبوها أيضا إلى ذى يزن الملك فقالوا : اليزنية ، والأزانية ، واليزانية^(٢) .
ومن أنواعها القعصية وهي ضرب منها ينسب إلى قعصب رجل قشيري كان
يعملها ، وكذلك الشرعية أيضا قال الأعشى :

ولدن من الخطى فيها أسنة ذخائر مما سن أبزى وشرع

وفي رأى أبي عبيدة أن أجود السهام سهام بلام وسهام يثرب ، وهما بلدان قريبان
من حجر اليمامة ، وأنشد للأعشى :

بسهام يثرب أو سهام بلام^(٣)

ولكن البيت فى ديوان الأعشى :

منعت قياس الماسخية رأسه بسهام يثرب أو سهام بلاد^(٤)

وقد أجاد أوس بن حجر وصف رعه ، قال إن كعوبه ضامرة صلبة كنبوى التمر
اليابس ، وإنه لدن مهتز ، وفى طرفه نصل لامع كمصباح النصرانى الذى أوقده فى عيد
الفصح وملاه زيتا :

وإن امرؤ أعددت للحرب بعدما رأيت لها نابا من الشر أعصلا

أصم ردينيا كأن كعوبه نوى القسب عراصا مزجى منصلا

عليه كمصباح العزيز يشبه لفصح ، ويحشوه الذبال المفتلا^(٥)

ووصف راشد بن شهاب اليشكرى رعه بأنه لدن يضطرب كله إذا هزه ، على

أنه صلب :

(١) الديوان ٤٧ المقصد : المكسر ، أى حين يشتد القتال وتتسكسر الرماح فى صدور الخيل

(٤) الديوان ٩٨

(٣) العمدة ١٨٠/٢

(٢) العمدة ١٧٩/٢

(٥) ديوان أوس ٢١ وشعراء النصرانية ٣٨٠ أعصل : معوج صلب . أصم : رمح منبى .

كعوبه : عقد أنابيبه . القسب : التمر اليابس . العراص : المهتز . الفصح : عيد للنصارى .

وَمُطَرَّدُ السَّكَبِينِ أَسْمَرُ عَاتِرٌ وَذَاتُ قَتِيرٍ فِي مَوَاصِلِهَا دَرَمٌ^(١)

وهذا المزرد بن ضرار يبدع في وصف عدده الحربية ، ومنها الرمح فهو لين مهتز كأنما سقاه زيت سائل لا ينقطع عن سقيه ، وهو مصمت إذا ماهزه من مقبضه اهتز أعلاه كأنه ثعبان خدر ، وله سنان حاد مشرق كأنه هلال يتلألأ في ظلام الليل :

وَمُطَرَّدُ لَدْنُ السَّكُوبِ كَأَنَّمَا تَغَشَّاهُ مُنْبَاعٌ مِنَ الزَّيْتِ سَائِلٌ

أَصَمٌ إِذَا مَاهَزَ مَارَتِ سَرَاتُهُ كَمَا مَارَ ثَعْبَانُ الرَّمَالِ الْمُوَاتِلِ

له فارطٌ ماضى الغرار كأنه هلال بدا في ظلمة الليل ناحل^(٢)

(٣) القسي :

أعواد من خشب لين مثن قوى تقوس كالهلال ، ويثبت فيها وتر من جلد الإبل ترمى به السهام ، وكانت السهام تراش لتكون أسرع مضيا ، وأعدل اتجاها إلى الهدف .

وأجود القسي العصفورية منسوبة إلى رجل يسمى عصفورا والسكنائن ، محافظ النبال ، والسكنائن الزغرية منسوبة إلى زُغَر موضع بالشام كانت تصنع به كنانن حمر مذهبة ، أو إلى زُغَر وهي قبيلة كانت تصنع هذه السهام^(٣) .

قال الشنفرى : في وصف قوس :

وَإِنِّي كَفَانِي فَقَدْ مِنْ لَيْسَ جَازِيًا بِحُسْنِي وَلَا فِي قُرْبَةٍ مُتَعَلِّلٌ

ثَلَاثَةُ أَصْحَابٍ : فَوَادٌ مُشِيعٌ وَأَبْيَضٌ إِصْلِيْتُ ، وَصَفْرَاءُ عَيْطَلٌ

هَتُوفٌ مِنَ الْمَلْسِ الْمُتَوْنِ يَزِينُهَا رَصَائِعُ قَدْ نَيْطَتْ إِلَيْهَا وَمَحْمَلٌ

(١) الفضليات ١٠٨/٢ السكبين : أراد بهما أعلاه وأسفله . عاتر : صلب . ذات قتير : درع

والقتير رهوس مسامير الدرع . الدم الاستواء

(٢) الفضليات ٩٧/١ مطرد : ابن مهتز . منباع : سائل . أصم : ليس بأجوف . سراته : أعلاه .

موائل : محاذر . فارط : سنان . غرار : حد

(٣) القاموس المحيط مادة زغر

إذا زل عنها السهم حنّت كأنها مرزاةٌ تُكلى ترابٌ وتُعول^(١) .
وقد تناول أوس بن حجر وصف القوس مذ كانت غصنا في شجرة ، فقال إن
الشجرة التي أخذت منها القوس كانت نابتة على جبل أشم يجلله السحاب ، وهذا
الجبل أملس كأن صخوره أرويت بدهن تزلج منه قدم من يصعد إلى الجبل ، يريد
بذلك أن الشجرة بعيدة المنال ، وأن القوس المأخوذة منها نادرة المثال ، فهي أحسن
الاقواس المعروضة للبيع أو المعدة للحرب . وقد أبصرها من أبصرها ورأى في جانب
الجبل صدعا ورأى لقدمه في كل مكان مرتفع موضعاً ومنزلاً ، فجشم نفسه أن يصعد
إليها ، فصعد متحملاً التدوب التي يحدتها الصخر بأصابعه ، ومتحملاً أن يأكل الصخر
أظفاره ، وما زال كذلك حتى وصل ، وقطع الغصن وصقله ، وقد اعتاد أن يصقل
القسي ويبري أعوادها ، وأخرجها صفراء وسطاً بين الطول والقصر ، ملء السكف ،
إذا ما استعملت سمعت لها صوتاً هو النسيم والأزمل ، وإذا شد وترها تقارب قاباها حتى
يتصل السهم بمقبضها ، ثم ينطلق إلى غايته البعيدة :

ومبضوعة من رأس فرع شظية بطود تراه بالسحاب مجللاً^(٢)
على ظهر صفوان كأن متونه عللين بدهن يزلق المتزلاً
يطيف بها راع يجشم نفسه ليكلاً فيها طرفه متاملاً^(٣)
على خير ما أبصرتها من بضاعة للتمس بيعاً بها أو تبكلاً^(٤)
فويق جليل شامخ لن تناله بقننه حتى تكل وتعملاً
فأبصر ألهاباً من الطود دونه يرى بين رأسي كل نيقين مهلاً^(٥)
فأشرط فيها نفسه وهو معصم وألقى بأسباب له وتوكلاً
وقد أكلت أظفاره الصخر كلها تعياً عليه طول مرقى تسهلاً

(١) أعجب العجب في شرح لامية العرب . الزمخشري ص ١٥ . شجاع . أبيض أصليت :
سيف صقيل . صفراء عيطل : قوس طويلة . حنت : صوتت . مرزاة : مصابة
(٢) مبضوعة : مقطوعة (٣) التبكل : الغنيمه
(٤) الألهاب : جمع لهب : الصدع في الجبل النيق : المسكان المرتفع . المهبل : المنزل

فما زال حتى نالها وهو مُشْفِقٌ على موطن لو زلَّ عنه تَفَصَّلا
فلما قضى بما يريد قضاءه وحل بها حرصا عليها فأطولا
أمرٌ عليها ذات حدٍّ ، غرابها رقيقٌ بأخذ بالمداوس ، صَيْقلا^(١)
على نخديه من برأية عودها شبيه سَفَا البُهْمى إذا ما تَقَتَّلا^(٢)
فجردها صفراء لا الطولُ عابها ولا قِصرٌ أزرى بها فتعظَّلا
كُتُومٌ طلاع الكف لا دون ملئها ولا عَجَسها من موضع الكف أفضلا^(٣)
إذا ما تعاطوها سمعت لصوتها إذا أنبضوا عنها نثما وأزَمَلا^(٤)
وإن شدَّ فيها النزعُ أدبر سَهْمها إلى منتهى من عَجَسها ثم أقبلا^(٥)
ووصف راشد بن شهاب الشكري نباله بأنها متشابهة ، وطوال ، ووصف قوسه
بأنها فرع من أعلى شجرة مصونة ، وليست هذه الشجرة نابتة على سيف نهر فتكون
رياً دائماً فتضعف أغصانها ، وليست شجرة ضعيفة كالجميز مثلاً :
ونبلٌ قرانٌ كالسيور سَلَاجِمٌ وفرعٌ هَتُوفٌ لا سَقَى ولا نَشَمٌ^(٦)
(٤) الدروع :

الدروع أردية من الحديد المنسوج حلقات متصلة ، تلبس لتغطي الظهر والصدر
ونصف الذراعين تقريبا ، فترد الطعنات وتقي لابسها السهام .
ولم يكن لبسها والاتقاء بها جبنا وتهربا من الموت ، بل كان حافزا على الصبر في
المواقع والثبات في المقاتلة . وكان بعض الشجعان يلبس درعين لأنه هدف الأعداء .
يقول علقمة بن عبدة في مدح الحارث بن جبلة :

- (١) غرابها : حدها . صيقل : صقال (٢) البهْمى : نبات ، وأسفت البهْمى سقط سفاها
(٣) كُتُوم : لا صدع في نبعها . طلاع الكف : ملء الكف . العجس : مقبض القوس
(٤) أنبضوا عنها : حركوا وترها : النثيم والأزمل : صوت القوس
(٥) الديوان ٢١ وشعراء النصرانية ٤٩٥ النزع : شد القوس
(٦) المفضليات ١٠٨/٢ . قران : متشابهة . سلاجِم : طوال . السقى : ما نبت على النهر . النشم :

مظاهر سربالى حديد عليهما عقيلا سيوف مخذم ورسوب^(١)
وفى يوم أحد كان على النبي صلى الله عليه وسلم درعان^(٢)، وكانت درع على
رضى الله عنه صدرأ لا ظهر لها؛ وقيل له فى ذلك فقال : إذا استمكن عدوى من
ظهرى فلا يُبق^(٣)

وقد نسبوها إلى فرعون وداود وسليمان وتبع وُحرق يريدون أنها قديمة جيدة
الصنعة^(٤)، فقد كان الناس وما زالوا يتخيّلون أن القديم أجود صناعة وأشدّ إحكاما
من الجديد . قال بشامة بن الغدير :

وحشوا الحرب إذا أوقدت رماحا طوالا وخيلا فحولا
ومن نسج داود موضونة ترى للقواضب فيها صليلا^(٥)
وقال طرفة :

وهُم ما هُم إذا ما لبسوا نسج داود لبأس محتضر^(٦)
وقال سلامة بن جندل :

لبسوا من الماذى كل مُفاضة كالنهي يوم رياحه الرقراق
من نسج داود وآل محرق غال غرائبهن فى الآفاق^(٧)

ونسبوها أيضا إلى سلوق - قرية الين - قال النابغة فى وصف سيوف الغساسنة :
تقد السلوقى المضاعف نسيجه وتوقد فى الصفاح نار الجباحب^(٨)
ونسبوها أيضا إلى الفرس ، قال عمر بن امرئ القيس إنهم يمشون فى الدروع
الفارسية كأنهم فحول الإبل :

(١) الفضليات ١٩٤/٢ مخذم . قاطم . رسوب : غائس فى الضريبة وكان الحارث يحمل سيفين أيضا

(٢) عبون الأخبار ١٢٨/١

(٣) العمدة ١٧٩/٢

(٤) المرجع نفسه ١٣١/١

(٥) الفضليات ٥٧/١ (٦) ديوان طرفة ٥٨ (٧) ديوان سلامة بن جندل ١٤

(٨) العقد الفريد ٢١٥/١ الصفاح : حجارة رقاق عراض . نار الجباحب : ما اقتدح من شرر النار
من اصطكاك الحجارة ، أو نار ذباب يطير بالليل له شرر كالسراج

إذا مشينا في الفارسي كما تمشي جمال مصاعب قُطِف

نمشي إلى الموت من حفاظنا مشيا ذريعا وحكمة نصف (١)

وقال دريد بن الصَّمة في رثاء أخيه :

نصحتُ لعارض وأصحاب عارض ورهط بني السوداء والقوم شهدي

فقلت لهم ظنوا بالني مدجج سراتهم في الفارسي المسرد (٢)

ونسبوها إلى عاد ، قال راشد بن شهاب اليشكري بعد أن افتخر بسيفه ونبله

وقوسه ورمحه ودرعه :

لعادية من السلاح استعرتها وكان بكم فقر إلى الغدر أو عدم (٣)

ونسبوها إلى تبع . قال المزرد بن ضرار الدياني في وصف سلاحه ، إن له درعا

ضافية واسعة منسوبة إلى تبع ملك اليمن ، وقد شدت المسامير حلقاتها وأحكمت اتصاها ،

ولذا تهيبها السهام الطوال ذات النصل العريض ، وهي درع لينة ماساء تشبه ظهر السمكة

لينا وملاسة ولذا تعجز عن قطعها الرماح والسهام ، وفيها طرائق كالوشاح ، سابغة

ضافية تزيد على أنامله ، ذات صيت يدوي ، فإذا اجتمعت القبائل للزيادة عن المحارم

أشارت الأيدي إليها .

ومسفوحة فضفاضة تبعية وآها القثير تجتويها المعابل

دِلاص كظهر النون لا يستطيعها سنان ولا تلك الحِظام الدواخل

وموشحة بيضاء دان حبيكها لها حلق بعد الأنامل فاضل

مشهرة نحى الأصابع نحوها إذا جمعت يوم الحِماظ القبائل (٤)

وقد أعجبوا بسبوغ الدرع وافتخروا به ، قال امرؤ القيس في قصيدة يهدد بها

بني أسد بقوته وعدده الحرية .

(٢) جمهرة أشعار العرب ٢٢٥

(١) جمهرة أشعار العرب ٢٦٢

(٣) المفضليات ١٠٩/٢

(٤) المفضليات ٩٦/١

وَمَسْدُودَةُ السَّكِّ مَوْضُونَةٌ تَضَامُلُ فِي الطِّي كَالْمَبْرَدِ

تَقْفِيزُ عَلَى الْمَرْءِ أُرْدَانُهَا كَقَفِيزِ الْآتِي عَلَى الْجَدِّجَدِ (١)

ووصف راشد بن شهاب اليشكري درعه بأنها ذات رموس من المسامير تصل الحلقات وأنها مستوية المواصل ، ومنسوجة حلقتين حلقتين نسجا محكما ، وأنها قديمة منسوبة إلى حطمة بن محارب بن عبد القيس وكان صانع درع ، ثم هي ضافية سابغة تغطي الكف والأصابع والقدم :

وَمُطَرَّدُ السَّكْبِينِ أَسْمَرُ عَاتِرٌ وَذَاتُ قَتِيرٍ فِي مَوَاصِلِهَا دَرَمٌ

مُضَاعَفَةٌ جَدَلَاءُ أَوْ حُطْمِيَّةٌ تُغَشَّى بِنَانِ الْمَرْءِ وَالسَّكْفِ وَالْقَدَمِ (٢)

وقد افتخر عمرو بن كلثوم في معلقته بعددهم الحربية ومنها الدروع السوابغ ، قال ان دروعهم كاسية ضيقة الحلق محكمة النسيج خفيفة حتى إنها تنغضن ، وإنهم قد ألفوا لبسها حتى إنها سَوَدَتْ جلودهم ، وعاد إلى تغضنها فشبهها بسطح الغدير إذا مرت به الريح :

عَلَيْنَا كُلُّ سَابِغَةٍ دِلَاصٍ تَرَى فَوْقَ النَّطَاقِ لَهَا غَضُونَا

إِذَا وُضِعَتْ عَنِ الْأَبْطَالِ يَوْمَا رَأَيْتَ لَهَا جُلُودَ الْقَوْمِ جُونَا

كَانَ غَضُونُهُنَّ مُتُونٌ غُدْرٌ تُصَفِّقُهَا الرِّيحُ إِذَا جَرَيْنَا

وكانوا معجبين بالدروع الخفيفة التي تبدو غضونها ، وكلفين بتشيده غضونها بتجعدات الماء إذا ما صفقه النسيم ، فهذا أوس بن حجر يصف درعه بهذا كما وصف عمرو بن كلثوم ، ويزيد عليه أن درعه وضاعة كأن أشعة الشمس تنبعث منها ، وهو معجب بها ، يقي بها نفسه ، ويتحصن ، ويتزين :

وَأَمْلَسَ حَوْلِيَا كِنِيسِي قَرَارُهُ أَحْسَ بَقَاعٍ نَفَحَ رِيحٌ فَأَجْفَلَا

كَأَنَّ قُرُونَ الشَّمْسِ عِنْدَ ارْتِفَاعِهَا وَقَدْ صَادَفَتْ طَلْعًا مِنَ النُّجْمِ أَعَزَلَا

(١) شعراء النصرانية ٤١ الآتي : السيل . الجدجد : الأرض الصلبة المستوية

(٢) المفضليات ١٠٨/٢ درم : استواء

تردد فيه ضوؤها وشعاعها فَأَحْصَيْنَ وَأَزَيْنَ لَا مَرَىءَ أَنْ تَسْرِبَلا^(١)
وافتحخر عنتره بأن وسادة درعه وسيفه ، وبأن مقيله ظهر حصانه :

أيا عبلُ ما كنت لولا هـواك قليل الصديق كثير الأعداى
وحقك لا زال ظهر الجواد مقبلي ، وسيفي ودرعي وسادى^(٢)
وافتحخر بأن سنان رجه كثيراً ما اخترق الدروع فوصل القلوب بالدروع :
ولو أن السنان له لسان حكي كم شكَّ درعا بالفؤاد^(٣)

٥ (البیضة :

القونس أو المنخر أو البيضة غطاء الرأس في الحرب ، كانوا يقون بها رموسهم
من السيوف ، قال عباس بن مرداس :

فلم أر مثل الحى حيا مُصَبَّحًا ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أكرَّ وأحمى للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا^(٤)
وقال الأخنس بن شهاب بن شريق إنهم يضربون رئيس القوم وحاميه وهو
يلبس البيضة ضربا تسيل منه الدماء طرائق على وجهه :

هم يضربون الكبش يبرق بيضه على وجهه من الدماء سبائب^(٥)
وقال المهلهل في رثاء كليب ووعيده بالانتقام من بكر :

وترى سباع الطير تنقر أعينا وتجر أعضاء لهم وضلوعا
والمشرفية لا تعرج عنهم ضربا يقدُّ مغافرا ودروعا^(٦)
٦ (الترس :

المجن والترس والدَّرَقَة بمعنى واحد ، وهو ما يعمل من بعض الجلود للوقاية من
وقعات السيوف على الأبدان .

(١) الديوان ٢١ وشعراء النصرانية ٤٩٤ النهي : الفدير . الطلم : المسكان المرتفع . النجم :

النبات . أعزل : متجرد . تسربل : لبس

(٢) ديوان عنتره ٥٣ (٣) الديوان ٥١ (٤) الحماسة ١٧٥/١

(٥) المفضليات ٧/٢ سبائب : طرائق (٦) شعراء النصرانية ١٧٢/٢

وقد عدد المزرد بن ضرار عدده الحرية ومنها الترس اللامع كأنه الشمس في طبقات الغمام :

وَجَوَّبُ يَرَى كَالشَّمْسِ فِي طَخِيَةِ الدَّجَى وَأَبْيَضَ مَاضٍ فِي الضَّرِيَةِ قَاصِلٍ ^(١)
وعدد أيضا أبو قيس بن الأسلت عدده التي يخوض بها الحروب ومنها الترس :

أَحْفَزَهَا عَنِ بَذَى رَوْنَقٍ مَهْنَدٍ كَالْمَلْحِ قِطَّاعٍ
صَدَقَ حَسَامٌ وَادَقَ حَدُّهُ وَجَنَّا أَسْمَرَ قَرَّاعٍ ^(٢)
(٧) اللواء :

علم يمسكه رئيس المحاربين ، ثم صار يحمله على رأسه . وقال أبو بكر بن العربي :
اللواء غير الراية لأن اللواء ما يعقد في طرف الرمح ويلوى عليه ، والراية ما يعقد
فيه ويترك حتى تصفعه الرياح ، وقيل اللواء دون الراية ، وقيل اللواء العلم الضخم .
والعلم علامة على محل الأمير يدور معه حيث دار . والراية يتولاها صاحب الحرب .
وكانت عاداتهم اتخاذ اللواء في حروبهم ، ومن عاداتهم جعل الرايات في أطراف
الرمح ، ومن هنا نعرف الحكمة في إضافة الظل إلى الرمح في قوله صلى الله عليه وسلم :
« جعل رزقي تحت ظل رمحي » .

وبعض الغويين لم يفرق بين العلم والراية واللواء ، قال الفيروز آبادي : العلم :
الراية وما يعقد على الرمح ، وقال : اللواء : العلم ^(٣)

ولقد تعدد الألوية في الجيش الواحد ، ففي غزوة أحد خرجت قريش وحلفاؤها
ومعهم ثلاثة ألوية عقدوها في دار الندوة ، لواء يحمله سفيان بن عوف لبني كنانة ،
ولواء الأحابيش يحمله رجل منهم ، ولواء قريش يحمله طلحة بن أبي طلحة . ويقال
خرجوا جميعا بلواء واحد يحمله طلحة ^(٤)

(١) المفضليات ٩٧/١ جوب : قوس

(٢) المفضليات ٨٤/٢ مجناً : معطوف منعن أراد به الترس وجعله أسمر لأنهم كانوا يتخذون الترس

من جلود الإبل . القراع الصلب (٣) القاموس المحيط مادة علم ولوى

(٤) شرح نهج البلاغة ١٥٩/٣

وكان لواء المسلمين مع مصعب بن عمير، ولما قتل أعطاه رسول الله على بن أبي طالب^(١)

وكان حامل اللواء يختار صنديداً شجاعاً، روى ابن هشام أن عثمان بن أبي طلحة كان يحمل لواء المشركين يوم أحد ويقول:

إِن عَلَى أَهْلِ اللِّوَاءِ حَقًّا أَنْ يَخْضِبُوا الصَّعْدَةَ أَوْ تَمْدَقًا^(٢)

(٨) الخيل:

أعزوها، وحذبوا عليها. وافتخروا بها، لأنهم كانوا يمتطونها في كرم وفرم، وكانوا في طريقهم إلى المعركة يركبون الإبل، ويقودون الخيل ليريحوها، فإذا قربوا من عدوهم نزلوا عن الإبل وامتطوا الخيل، لأنها أكثر عونا وأسرع حركة، وكذلك فعلت قريش في غزوة أحد، فقد تعبأت في ثلاثة آلاف رجل، ومعهم مائتا فارس قد جنبوها، وجعلوا على ميمنة الخيل خالد بن الوليد، وعلى ميسرتها عكرمة بن أبي جهل^(٣).

وكثيراً ما كانوا ينزلون عن الخيل ويقاثلون على أقدامهم، ويتداعون: نَزَالٍ، كما قال ربيعة بن مقروم الضبي:

ولقد شهدت الخيل يوم طرادها بسليم أَوْظَفَةَ القوائم هيسكل

فدعوا نَزَالٍ فسكنت أول نازل وعلام أركبه إذا لم أنزل^(٤)

وقال مهلهل:

لم بطيقوا أن ينزلوا فنزلنا وأخو الحرب من يطيق النزولا^(٥)

وكان الرجل منهم يبيت طاوياً ويشبع فرسه ويؤثره على نفسه وولده، من ذلك

قول ربيعة بن مقروم الضبي:

(٢) سيرة ابن هشام ٢٠/٣

(٤) بلوغ الأرب ٨٥/٢

(١) سيرة ابن هشام ١٠/٣

(٣) سيرة ابن هشام ١١/١

(٥) بلوغ الأرب ٨٥/٢

وَتَغْرَ نَحُوفٍ أَقْنَا بِهِ يَهَابُ بِهِ غَيْرَنَا أَنْ يُقَيَّا
 جَعَلْنَا السُّيُوفَ بِهِ وَالرِّمَاحَ مَعَاقِلَنَا وَالْحَدِيدَ النَّظِيمَا
 وَجُرْدًا يُقَرِّبَنَّ دُونَ الْعِيَالِ خِلَالَ الْبُيُوتِ يُلْسِكُنَ الشُّكْمَا
 تَعَوَّدُ فِي الْحَرْبِ أَنْ لَا بَرَّاحَ إِذَا كَلَّمَتْ لَا تَشْكِي الْكَلُومَا^(١)

وكانوا يخصوصونها بلبن الإبل ، تقوية لها وإعزازاً . قال المتلمس في تهديده عمرو

ابن هند :

أَبَقْتُ لَنَا الْيَّامَ وَاللَّـ زَبَاتُ وَالْعَانُ الْمَرْهُقُ
 جُرْدًا بِأَطْنَابِ الْيُومِ تَ تَعْلُ مِنْ حَلَبٍ وَتُغْبِقُ^(٢)
 وَقَالَ الْأَعْرَجُ الْمَعْنِيُّ :

أَرَى أَمْ سَهْلٌ مَا تَزَالُ تَفْجَعُ تَلُومُ وَمَا أَدْرَى عِلَامُ تَوَجَّعُ
 تَلُومُ عَلَى أَنْ أُعْطِيَ الْوَرْدَ لِقُحَّةٍ وَمَا تَسْتَوِي وَالْوَرْدُ سَاعَةُ تَفْزَعُ
 إِذَا هِيَ قَامَتْ حَاسِرًا مَشْمَعِيَّةً نَخِيبَ الْفُؤَادِ رَأْسَهَا مَا تُقْنَعُ
 وَقَمْتُ إِلَيْهِ بِاللِّجَامِ مَيْسِرًا هِنَالِكَ يَجْزِينِي الَّذِي كُنْتُ أَصْنَعُ^(٣)

وقال عنتره لامرأته ، وكانت لا تفتأ تلومه في فرس يؤثره على خيله :

لَا تَذَكِّرِي مَهْرِي وَمَا أَطْعَمْتَهُ فَيَسْكُونُ جِلْدُكَ مِثْلَ جِلْدِ الْأَجْرَبِ
 إِنْ الْغُبُوقُ لَهُ وَأَنْتِ مَسُوءَةٌ فَتَأُوْهِ مَا شَتَّتْ نَمَّ نَحْوِي^(٤)

فأنذرهما أن يهجرها كأنها جرباء ، وأصر أن يكون اللبن شراب فرسه في كل مساء ، وإن حزنتم زوجته وتألمت .

(١) المفضليات ١/١٨٣

(٢) ديوان المتلمس ص ٩ مخطوط بدار السكتب الزببات : السنون الشداد . العاني : الأسير .
 المرهق : الذي أعجلته الخيل فرهقته

(٣) معجم الشعراء للربزباني ٢٥١ وشرح ديوان الحماسة المرزوقي ١/٣٤٩ الورد : اسم فرسه .
 لقحة : لبن الناقة . مشعله : مسرعة . نخيب الفؤاد : طائفة اللب . ميسرا : مهيئاً

(٤) ديوان عنتره ١٩

وقد صور حاجب بن حبيب الأسدي حواراً دار بينه وبين زوجته في شأن
فرسه ، تريد الزوجة أن يبيعه لينتفعوا بثمره وقد راجت سوق الخيل ، ويأبى الزوج
ويزداد إعزازاً لفرسه واعتزازاً به ، ويحدثها بميزاته والحاجة إليه في الحرب والسلام :

باتت تلوم على نادق ليُشْرِى فقد جدَّ عصيانها
ألا إن نجاوك في نادق سواءً على وإعلانها
وقالت : أغشنا به إننى أرى الخيل قد تاب أثمانها
فقلت : ألم تعلمى أنه كريم المَكْبَةِ مبدانها
كُنِيتُ أُمِّراً على زَفْرَةٍ طويلُ القوائم عريانها
تراه على الخيل ذا جرأة إذا تقطع أقرانها
وهن يَرِدْنَ ورود القَطَا عُمَانٍ وقد سدَّ مرانها
طويل العنان قليل العنا ر خاظي الطريقة ريانها
وقلت ألم تعلمى أنه جميل الطَّلالة حُسانها
يَجْمُ على الساق بعد المِتان جموماً ويبلغ إمكانها

وأكثرُوا من الحديث عنها ، وعن الجراح التي تصيبها من رماح الأعداء وسيوفهم
وافتحروا بثباتهم بها في اللقاء وهجومهم بها على الأعداء ، ومن أبدع ما قيل في ذلك
قول عنتره في معلقته :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم يتذاكرون كررتُ غير مذمَّم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبان الأدهم
ما زلت أرميهم بُبُغرة نحره ولبانه حتى تسربل بالدم

(١) المفضليات ١٦٨/٢ نادق اسم فرسه . يشرى : يباع ثاب أثمانها : زادت . كريم المسكبة
نافع في كسب الأعداء والحمل عليهم ، مبدان : سمين . كُنِيتُ : شديداً الحرة أو يخالط حمرة سواد . أمر
قتل كماله الخيل ، الزفرة : واحدة الزفير أى كأنه زفر وصار على حاله وهو زافر ، عريان القوائم : معروق
لا ترهل في قوائمه ، المران : الرماح ، سد مرانها : المراد سد أو سد الأفق : خاظي الطريقة : مكثرت
الظهر ، الطلالة : ما برز منه ، حسانها : كامل الحسن ، يجم يكثر جريه ، المتان : البعد في الغاية ، يبلغ
إمكانها : تنال ساقى منه ما تريد من الجرى أى أحرَكَ بساقى فيزداد جريه

فأزور من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمحم
لو كان يدري ما المحاورة اشتكى ولو كان لو علم الكلام مكلمى

وقال إن حبيته عبله تسمى وتصبح على فراش وثير ، ولكنه يبيت فوق ظهر فرس
أدهم ملجم ، وهو يستلين السرج كأنه حشية ، ووصف فرسه بأنه غليظ القوائم
منتفخ الجنين سمينهما ، وهو فرس ضخم مشرف ، عظيم موضع الحزام :
تسمى وتصبح فوق ظهر حشية وأيت فوق سراق أدهم ملجم
وحشيتي سرج على عبل الشوى نهيد مراكله ، نبيل المعزم

وقد اشتهر وصف امرئ القيس لحصانه ، وهو فى وصفه قد عزا إلى حصانه
كل المزايا الجسدية التى تصوره قويا سريعا خفيفا ، فهو قصير الشعر ضخم الهيكل ،
بارع فى الجرى إلى الأمام وإلى الوراء ، سريع كأنه صخرة تنحدر من أعلى الجبل
يدفعها السيل . لونه بين السواد والحمرة ، وظهره أملس حتى لينزل عنه اللبد ، وينزل
عنه الغلام الخفيف والرجل الثقيل المجرب للخيل ، وهو ضامر مندفع جياش كأن
ضباحه إذا اشتد جريه غليان مرجل ، سبوح لا يكاد يبطأ الأرض إذا ما أثارت
الخيل البطء الغبار لأنها تتلبث على الأرض . ويخيل لمن يراه يعدو أنه خذروف يدور
فى عجلة وسرعة ، وشبهه فى بيت واحد بعدة تشبيهات : فخاصرتاه خاصرتا ظي
لضمورهما ، وساقاه ساقا نعامة لحقتهما وقلة لحمهما ، وجريه كجى الذئب وإسراع
الثعلب ، وهو عظيم الأضلاع طويل الذيل ، لامع الظهر ، كأن عليه طيب عروس
أو دهن حنظل ، وقد اصطبغ صدره بدماء الصيد فكأنه شيب مصبوغ :

وقد أغتدى والطير فى وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معا كجلود صخر حطه السيل من عل
كمت يزل اللبد عن حال متنه كما زلت الصفواء بالمتنزل
يزل الغلام الخف عن صهواته ويلوى بأثواب الغنيف المثقل
على الذبل جياش كأن اهترامه إذا جاش فيه حميه غلى مرجل

مَسَحَ إِذَا مَا السَّابِحَاتِ عَلَى الْوَتَى
 دَرِيرٍ كَخَذَرُوفِ الْوَلِيدِ أَمْرُهُ
 لَهُ أَیْطَلَا ظَلِي وَسَاقَا نِعَامَةٍ
 ضَلِيعٍ إِذَا اسْتَدْبَرْتَهُ سَدَّ فَرْجَهُ
 كَأَنَّ عَلَى الْمُتَيْنِ مِنْهُ إِذَا انْتَحَى
 كَانَ دِمَاءُ الْهَادِيَاتِ بَنَحَرِهِ
 وَبَلَغَ مِنْ إِعْزَازِهِمْ لِلْخَيْلِ أَنْ رَفُضَ أَحَدٌ فَرَسَانَهُمْ عَبِيدُ بْنُ رَيْبَعَةَ التَّمِيمِيُّ أَنْ يُعْطَى
 أَحَدٌ مَلُوكَهُمْ فَرَسَهُ الَّتِي تَسْمَى سَكَابَ حِينَ طَلَبَهَا مِنْهُ ، وَتَوَعَّدَ الْمَلِكُ أَنْ يُجَارِبَهُ
 إِذَا مَا حَاوَلَ أَنْ يَأْخُذَهَا عَنْوَةً :

أَبَيْتُ اللَّعْنَ إِنْ سَكَابَ عُلِقَ
 مُغْدَاةٌ مَكْرَمَةٌ عَلَيْنَا
 سَلِيلَةٌ سَابِقَيْنِ تَنَاجَلَاهَا
 فَفِيهَا عِزَّةٌ مِنْ غَيْرِ نَفَرٍ
 فَلَا تَطْمَعُ - أَبَيْتُ اللَّعْنَ - فِيهَا
 وَكُنِّي تَسْتَقِلُّ بِحِمْلِ سِنِي
 وَحَوْلِي مِنْ بَنِي كَحْفَانَ شَيْبٍ
 إِذَا فَزَعُوا فَأَمْرَهُمْ جَمِيعُ
 وَهُمْ عَلَى حَقٍّ فِي حَرْصِهِمْ عَلَى الْخَيْلِ وَفِي إِعْزَازِهَا وَالْفَخَارِ بِهَا ، لِأَنَّهَا تَعِينُهُمْ عَلَى
 النَّصْرِ وَتَحْمِيهِمْ مِنَ الْأَعْدَاءِ . قَالَ عَمْرُو بْنُ كَلْثُومٍ فِي مَعْلَقَتِهِ :

وَتَحْمِينَا غَدَاةَ الرُّوعِ جَرْدٌ
 وَوَرْدَنُ دَوَارِعَا وَخَرَجْنُ شُعْنًا
 عُرْفُنَا لَنَا نَقَائِدُ وَافْتُلِينَا
 كَأَمْثَالِ الرِّصَائِعِ قَدْ بَلِينَا

(١) شرح القصائد العشر ٤٠

(٢) بلوغ الأرب ٩٠/٢ السكران : مستدق الساق . القراع : الحرب . شعاع : متفرقة سريعة

ورثناهن عن آباء صدق ونورثها إذا متنا^(١) بنينا

ومن إعزازهم للخيل واعتزازهم بها أنهم سمّوها ونسبوها كما يسمون أبناءهم وينسبون رجالهم .

وقد مر بنا بعض أسمائها على السنة الشعراء ، ومن ذلك ما يذكره ابن هشام في غزوة ذي قرد أن اسم فرس سعد بن زيد (لاحق) وفرس المقداد (بعزجة) أو (سبعة) وفرس عكاشة بن محصن (ذو اللمة) وفرس أبي قتادة (حزرة) وفرس عباد بن بشر (للماع) وفرس أسيد بن ظهير (مسنون) وفرس أبي عيَّاش (جلوة)^(٢) وكان لزيد الخيل — الذي سماه النبي زيد الخير — خيل كثيرة منها ستة ذكر أسمائها في شعره ، فمثلا يقول في الهطال :

أقربُ مربوط الهطالُ إني أرى حربا ستَلْقَحُ عن حيال

ويقول في الورد :

أبت عادة للورد أن يكره القنا وحاجة نفسي في نَمِيرٍ وعامر

ويقول في دوول :

فأقسم لا يفارقني دوول أجول به إذا كثر الضراب^(٣)

وأحيانا كانوا يضطرون إلى التقاتل بالحجارة إذا فقدت الأسلحة أو لم توجد . وكثيراً ما كانت النساء يساعدن رجالهن برمي الأعداء بالحجارة قال عامر المحاربي :

نزأوح بالصخر الأصم رهوسهم إذا القلع الرومي عنها ثلماً^(٤)
وقال بعضهم :

(١) المعلقات الشنقيطي ١٠٦ النقايد : جم تقيذة : الفرس التي أقتنتها من العدو والدرع أيضا ،
افتلين : اخترناهن ، دوارع : عليهن الدروع ، شعث : مغبرة ، الرصائع : عقد اللجام

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢٦/٣ (٣) الأغاني ٤٦/١٦

(٤) الفضليات ١١٩/٢

جلاميدُ أملاءُ الأكف كأنها رموس رجال حلقت في المواسم^(١)
وقال الأعشى :

ولا نقاتل بالعـ صى ولا نرامى بالحجارة
إلا عُلالة أو بدا هة ساجج نهد الجزارة^(٢)
وفي غزوة أحد قاتل أبو عامر والأحايش الأوس بالحجارة قبل الموقعة^(٣)

(ه) الأسرى والسبايا

١ - الأسير من وقع في قبضة الأعداء من الرجال المحاربين ، والسبية من وقع في يدهم من النساء والأطفال ، والأسير والسبي أيضا بمعنى واحد .
وطالما نخر الشعراء بأخذ الأسرى ، لأنه برهان عملي محسوس على النصر المبين ،
ولذلك يقول أكتف بن صيفي في إحدى خطبه : « وأهنا الظفر كثرة الأسرى »^(٤) .
ومن المفاخر التي شاد بها المهلهل أنهم أسروا أعداءهم :
فجاءوا يهرعون وهم أسارى نقودهم على رغم الأنوف^(٥)
وافتخر عمرو بن كلثوم بعودتهم من الحرب ظافرين ، معهم الأسلاب والسبايا
والأسارى وبعض الأسارى ملوك :

وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أيدنا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفديننا^(٦)

(١) شرح الحماسة للمرزوقي ١١٨/١ (٢) ديوان الأعشى ١١٤ العلالة : بقية السير .
بداهة : مفاجأة (٣) سيرة ابن هشام ١٢/٣ وشرح نهج البلاغة ٣٦٦/٣
(٤) أيام العرب ١٢٦ (٥) شعراء النصرانية ١٨٠/٢
(٦) المعلقات العشر الشنقيطي ١٠٥

(٢) معاملتهم :

وكان الأسرى يساقون سوقاً فيه امتهان ، وهذا شأن الغالب والمغلوب ، وكان الأسير يُصَفَّدُ بغلٍ يمنعُه من الحركة ويقيده في تنقله :

أبلغ سَرَاةَ بني شيبانَ مَالَكَةَ أنى أَبَاتُ بعبد الله بَسْطَامَا
قاظ الشَّرْبَةِ في قيد وسلسلة صَوْتُ الحديد يُغْنِيهِ إذا قاما ^(١)

وقال عمرو بن كلثوم :

فآبوا بالنَّهابِ وبالسَّبايا وأبنا بالملوك مصفِّدنا

وفي بعض الأحيان كانوا يستخرونهم عبيداً ، فيستخدمونهم في الخدمة ، قال المنخل اليشكري :

ولقد شربت الخمر بال عبد الصحيح وبالأسير

وفي بعض الأحيان كانوا يوردونهم حتفهم ، فقد أغار المنذر بن النعمان بن امرئ القيس على امرئ القيس بن حجر وإخوته وهم في صيد ، فأصاب منهم اثني عشر رجلاً من بني حجر بن عمرو لثأر كان له عند أبيهم ، ثم أمر بضرب أعناقهم ^(٢) .
وفي يوم أواره الأول أسر المنذر بن ماء السماء من بكر أسرى كثيرة فأمر بهم فذبحوا على جبل أواره وأمر بالنساء أن يحرقن ^(٣) .

وكان بنو سهم — بطن من هذيل — أسروا عمرو بن عاصية السلمي في حرب كانت بينهم ولم يعرفوه ، فلما عرفوه قتلوه ، وكان قد عطش فاستسقاهاهم فنعموه وقتلوه على عطشه . فقالت أخته تربيته وتذكر ما صنعوا به :

هلا سقيتم بني سهم أسيركم نفسى فداؤك من ذى غُلَّةٍ صاد

الطاعن الطعنة النجلاء مضرج بعد ما جادت بإزباد ^(٤)

ولما أسر بنو تيم عبد يغوث بن سلامة قال قبل مقتله قصيدة منها .

(١) قاظ : أقام وقت القبط . الشربة : موضع ، أى أقام بهذا المكان

(٢) مهذب الأغاني ٧٥/١ (٣) أيام العرب ٩٩ (٤) الأغاني ١٣/١١ ساسي

أمعشر تيم قد ملكتم فأسججوا فإن أخاكم لم يكن من بوائيا
فإن تقتلوني تقتلوا بي سيدا وإن تطلقوني تحرُّبوني بماليا
ولكن قتل الأسير كان في أحوال شاذة ، لأن العرب كانوا يستقبحون قتل
الأسرى ، يدل على ذلك قول ابن جفنة لعامر بن مالك : ما قتلنا أسيرا قط ^(١) .

(٣) إطلاق الأسير .

وبعضهم كان يمن على الأسرى فيطلقونهم .
وأحيانا يجزون نواصيتهم ، تشهيرا بهم ، وتوكيدا للمذلة ، لذلك كان الأسير يخير
أسيره بين جز الناصية والتخلية ، وبين الأسر ، فإن اختار جز الناصية جزها وخلي
سبيله وجعل شعره في كنانته ، وأخرجه في المفاخرة ^(٢) .
ولما أسر زيد الخيل الحطيئة الشاعر جز ناصيته وأطلقه ^(٣) ، وكذلك فعل بعامر
ابن الطفيل ^(٤) .

وكانوا يفاخرون بذلك ، كقول الخنساء :

جززنا نواصي فرسانهم وكانوا يظنون أن لن تجزا ^(٥)

وكانوا يحرصون على جز ناصية الأسير الشريف ، ذلة له ، واعتزازا بالعفو
عنه بعد المقدرة ، فمثلا بعد هزيمة الفرس وحلفائهم في يوم ذي قار جاء أسود
ابن بجير بن عائد بن شريك العجلي إلى النعمان بن زرعة يستنجد به فجز ناصيته وخلي
سبيله ^(٦)

وكان إطلاق الأسير نعمة جسيمة بأن يفخر بها صاحبها ، وأن يمدح وقد
أكثر الخنساء في رثاء أخيها ضخر من مدحه بإطلاق الأسرى :

(١) المفضليات ١٥٥/١ (٢) مذهب الأغاني ٧٥/١
(٣) نهاية الأرب للنويري (٤) الأغاني ٥١/١٦ (٥) ديوان الخنساء ١٤٥
(٦) الأغاني ١٣٧/٢٠ (٧) الأغاني ١٣٧/٢٧ ساسي

إننى قد علمت وجَدك بالحمى د وإطلاقك العنَّاة الجناحا^(١)
وقالت أيضاً :

رَدَّادُ عادية فَكَّاك عانِية كضيقم باسل ، للقرن هَصار^(٢)
وقالت :

ورب نُعمى منك أنعمتها على عَناءٍ غُلُق في الإِسار^(٣)
وافترخ لبيد باطلاقهم الأسرى بغير فداء :

وعان فكسكناه بغير سوامه فأصبح يمشى في المحلة جاذلا^(٤)
ولقد يطلقون الأسير مكرماً إذا شفع فيه شاعر ذو مكانة أو عظيم في قومه ،
كما حدث لبنى تميم حين أسره الحارث بن أبي شمر الغساني وفيهم شاس بن عبدة ،
فقصده علقمة بن عبدة ومدحه وتشفع في أخيه بقوله :

فلا تحرمنى نائلا عن جناية فإنى امرؤ وسط القِباب غريب
وفى كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نذاك ذنوب

فقال الحارث : نعم وأذنبه ! وأطلق شاساً وأسرى بنى تميم ، ومن سأل فيه
الشاعر أو عرفه من غيرهم^(٥) .

ولما غزا عمرو بن هند طينا وأسرها منها ، وكان في الأسرى قيس بن جحدر
— جد الطرماح بن حكيم ، وابن خالة حاتم — وفد حاتم إلى عمرو — وكذلك كان
يصنع — وسأله أن يطلقهم فوهبهم له إلا قيس بن جحدر ، فقال حاتم :

فَكَكَّتْ عدياً كلها من إسارها فأنعم وشفعنى بقیس بن جحدر
أبوه أبى والامهات امهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسى ومعشرى
فأطلقه^(٦) .

(١) ديوان الحنساء ٣٥ العنَّاة : الأسرى . الجناح الذين ينجحون إلى الإطلاق

(٢) الديوان ١٣٦ (٣) الديوان ١٢٩ (٤) ديوان لبيد ٢٦

(٥) العمدة ٣١/١ خبطت : أعطيت . ذنوب : نصيب

(٦) الديوان ١٥ والأغانى ١٢٨/١٩ ساسى

وفي حديث بين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومتمم بن نيرة عن أخيه مالك :
«واقعد أسرنى بنو تغلب فى الجاهلية ، فبلغ ذلك مالكا فجاء ليفتدبنى ، فلما رآه القوم
أعجبهم جماله ، وحدثهم فأعجبهم حديثه ، فأطلقونى له بغير فداء ، (١)» .

وفى أخبار الأعشى أنه هجار جلا من كلب وغيره الناس بهجائه ، فتغيظ منه ، ثم
أغار على قوم قد بات عندهم الأعشى فأسر نفراً وأسّر الأعشى وهو لا يعرفه ، فجاء
حتى نزل بأسراه عند شريح بن السموءل ، فمر شريح بالأعشى فنادى به الأعشى
مستغيثا :

شريح لا تتركنى بعد ما علقت حبالك اليوم - بعد الأقد - أظفارى
قد جلت بين بانقيا إلى عدن و طال فى العجم تردادى وتسيارى
فكان أكرمهم عهداً وأوثقهم عقداً أبوك يعرف غير إنكار
فطلب شريح من الكلبي أن يهب له هذا الأسير ، فقال : هو لك ، فأطلقه شريح ،
وحباه وأكرمه (٢)

ولقد يطلق الأسير أسيره أيضاً جزاء مدحة يسمعها ، ويؤثرها على الفداء ، فقد
أسر صعصعة بن محمود أحمز بن جندل ، فبعث إليه سلامة بن جندل أبيتاً منها :
فإن شئت أهدينا ثناء ومدحة وإن شئت عدينا لكم مائة معا
فأطلقه وقال : المدحة والثناء أحب إلينا (٣)

وقد ذكر كثيراً أنهم كانوا يشدون لسان الأسير إذا كان شاعراً حتى لا يهجوهم
لأن عبد يغوث يقول :

أقول وقد شدوا لسانى بنسعة أمعشر تيم أطلقوا من لسانى

(١) عبون الأخبار ٣٢/٤

(٢) ديوان سلامة بن جندل ٢٢

(٣) الأغاني ٧٩/٨ ساسى

ولست أعقل هذا، لأن الأسير لا يستطيع أن يهجو، وإن هجا فمن يروى هجاءه ؟

على أن القالي فسر بيت عبد يغوث بما يدز هذا الاستبعاد، فقال : هذا مثل ، لأن اللسان لا يشد بنسعة ، وإنما أراد افعلوا بي خيرا ينطلق لسانى بشكركم ، فإن لم تفعلوا فلسانى مشدود لا يقدر على مدحك^(١).

٤ (فداء الأسرى :

وأحيانا كانوا يفدون الأسرى فقد أسر رجل من هوازن فذهب أخوه مستشفعا له ، فلم يفلح ، فذهب إلى عكاظ ينشد شعرا لعله يطلقه فأخفق ، ثم ذهب إلى أحد وجوه القوم فقال له : اشتر أخاك وعلى الثمن ولا يمنعك غلاؤه ، ثم أحاله على آخر .. فقال له : فإن وهب لى أخاك شكرته ، وإلا أغرت عليه حتى يتقننى بأخيك فإن نلتها وإلا دفعت إليه كل أسير من بنى تميم فاشتريت أخاك ،^(٢) وهذا الشراء هو المفاداة ، من ذلك أن بنى عامر لما أسرهم زيد الخيل وطال عليهم الأسر قالوا : يا زيد فادنا^(٣).

وقد أسرت بنو شيبان الشنفرى الأزدي ولم يزل فيهم حتى أسرت بنو سلامان رجلا منهم فقده بنو شيبان بالشنفرى^(٤).

وأكبر قيمة دفعت فى فداء أسير ثلاثمائة بعير ، فقد دفعها أم بسطام بن عبد الله فداء لابنها^(٥).

وقيل إن الأشعث بن قيس السكندى غزا مذحجا فأسر ففداى نفسه بألفى بعير وألف من الهدايا والطرف قاله الشاعر :

فكان فداؤه ألفتى بعير وألفا من طريقات وتلد^(٦)

(١) ذيل الأمالى ١٣٣

(٢) الأغاني ٤/١٦

(٣) مذهب الأغاني ٤٩/١

(٤) أيام العرب ٢٠٠

(٥) الأغاني ٨٧/٢١

(٦) البديانى ١١/٢

ودفع هودة الحنفى ثلاثمائة بعير فداء لنفسه لما أسره بنو سعد ، وفي ذلك يقول
شاعر بني سعد :

ومنا رئيس القوم ليلة أدلجوا بهودة مقرون البدين إلى النحر
وردنا به نخل اليمامة عانيا عليه وثاق القيد والحلق السمر^(١)

٥ - الزواج بالسبايا :

وأحيانا كانوا يستولدون السبايا ، وبعضهم كان يعتقهن ويتخذهن زوجات لهم ،
ولسكن السبايا ما كن لينسين قومهن ، فهن وإن طال العهد بهن يحتلن للرجوع ، لأن
العربية حرة أبية لا تتحمل السباء ولا طاقة لها بتغيير النساء لها ، فقد أصاب عروة
ابن الورد امرأة من بني هلال اسمها ليلى بنت شعواء ، فحكشت عنده زمانا تظهر له
إعجابا به وحباً له . ثم استزارته أهلها فحملها حتى أتاهم بها ، فلما أراد الرجوع أبت أن
ترجع ، وتوعده قومها بالقتل ، وندم على أنه سكر وأجابهم إلى ما طلبوا وتحسر على
زوجته في قصيدة طويلة^(٢) .

ولقد تبخع السبية الحرة نفسها حتى لا يستذلها الإيسار ، كما فعلت فاطمة بنت
الخرشب أم الربيع بن زياد وإخوته ، ذلك أن حمل بن بدر أغار على بني عبس فظفر
بفاطمة راكبة على جمل لها ، فقادها بحملها ، فقالت : أى رجل ضل حملك . والله
لئن أخذتني فصارت هذه الأكمة بي وبك ورامنا لا يكون بينك وبين بني زياد صلح
أبدا ، لأن الناس يقولون في هذه الحالة ما شاءوه ، وحسبك من شر سماعه . قال :
إني ذاهب بك حتى ترعى على إبل . فلما أيقنت أنه ذاهب بها رمت بنفسها على رأسها
من البعير ، فماتت ، خوفا من أن يلحق بنبها عار^(٣) . وقد أسرت امرأة من طسم
يقال لها عنز ، وحملها أسروها في هودج وأطفوها بالقول والفعل ، فقالت : شر

(١) الأغاني ٧٦/١٦ ساسي

(٣) الأغاني ٢١/١٦

(٢) الأغاني ٧٦/٣ الدار ، والشعر والشعراء ٢٦٠

يَوْمِيهَا وَأَغْوَاهَا ، أَيْ شَرَّ أَيَّامِي حِينَ صُرْتُ أَكْرَمَ وَأَنَاسِيَّةً ^(١) .

على أن أنفة المرأة من السبي ليست دليلاً على سوء معاملة العرب للسبايا ، فقد كانوا يكرمونهن ويخلطونهن بنسائهم إلا في حالات قليلة يتملك فيها الحقد والتشفي .

وكانوا يتزوجونهن كما قدمنا . وكثير من ساداتهم أبناء سبايا ، مثل دريد ابن الصمة ، فأمه ريحانة بنت معد يكرم ، أسرها الصمة بن عبدالله ثم تزوجها فأنجبت دريداً وإخوته ، وهي التي يقول أخوها عمرو في حديث إسمارها :

أمن ريحانة الداعي السميع	يؤرقني وأصحابي هجوع
سباها الصمة الجشعي غصبا	كأن بياض غرثها صديع
وحالت دونها فرسان قيس	تكشف عن سواعدها الدروع
إذا لم تستطع شيئاً فدعه	وجاوزه إلى ما تستطيع ^(٢)

(و) الصلح

تشتعل الحرب ، فيزهق الأرواح وتوتم الأطفال ، وترمل النساء ، وتشكل الأمهات ، وتخرّب وتدمر ، فتستيقظ في نفوس المتحاربين أحياناً نوازع الخير والسلام والأمن ، ويأسى بعض عقلائهم وأشرفهم بما يرى من دماء تراق ، وصلات تنقطع ، وذعر يقض المضاجع ، فتنازعهم نفوسهم إلى الصلح ، على أن تقدر ديات للقتلى من الفريقين ، أو تسلم القبيلة القاتل للقصاص .

رووا أن سيار بن عمرو بن جابر الفزاري احتفل دية شر حبيل بن الأسود ابن المنذر ألف بعير — وهي دية الملوك — فانفض النزاع الذي كان بين القبيلتين ^(٣) .

(١) مجمع الأمثال للميداني ٣٢٨/٢

(٢) الأغاني ٢/٩ ساسي الصديع : الصبح

(٣) العقد الفريد ١٥/٦

دوساطة الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرى بين عبس وذبيان واحتمالها
ديات القتلى - مشهورة ، وقد أشاد بها زهير في معلقته :

سعى ساعيا غيظ بن مرة بعد ما تبزل ما بين العشيرة بالدم
فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله رجال بنوه من قریش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وُجدتما على كل حال من سحيل ومبرم
تداركتما عبساً وذبيان بعدما تفانوا ، ودقوا بينهم عطر منشم

ولخلحلة بن قيس السكناني قصيدة جيدة تحدث فيها أنه نهى أبا عمرو عن الحرب ،
وبين له جناياتها حتى على المنتصرين ، فلما يفته وتمادى فى شره قابل شره بمثله ، فشكب
الجميع بجرحى وموتى وبكاء .

نهيت أبا عمرو عن الحرب لو يرى برأى رشيد أو يؤول إلى عزم
وقلت له دع عنك بكرأ وحر بها ولا تركب منها على مركب وخم
ومهلا عن الحرب التى لا أديمها صحيح ولا تنفك تأتى على سقم
فإن يظفر الحزب الذى أنت فيهم وآبوا بدهم من سباء ومن غنم
فلا بد من قتلى ، وعلك فيهم وإلا فجرح ليس يكتنى عن العظم
دعانى يشب الحرب بينى وبينه فقلت له : لا ، بل هلم إلى السلم
فلما أبى أرسلت فضلة ثوبه إليه فلم يرجع بعزم ولا حزم
وأمهلت حتى رمانى بحرّها تغلغل من غى غوى ومن إثم
فلما رمانها رميت سواده ولا بدان ترمى سواد الذى يرمى
فبتنا على لحم من القوم غودرت أسنقنا فيه ، وباتوا على لحم
وأصبح يبكى من بنين وإخوة حسان الوجوه طيبى الجسم والنسم
ونحن نبكى إخوة وبنينهم وليس سواء قتل حق على ظلم^(١)

وكذلك كان يتوسط الأشراف في الصلح فيحتسبون دماء القتلى من الفريقين ،
ومن زاد قتلهم أخذوا ديتهم : للصريح ديته وللحليف ديته ، كما حدث يوم سمير ،
فقد أرسل الأوس إلى ثابت بن المنذر بن حرام فقالوا له : إنا حكمناك . فقال :
أخاف أن تنقضوا حكمي كما رددم حكم عمرو بن قيس . فقالوا : إنا لا نردلك حكماً
فاحكم بيننا . قال : لا أحكم حتى تعطوني موثقاً وعهداً أن ترضوا بحكمي وما قضيت ،
فأعطوه عهدهم وموآثيقهم ، فحكم بأن يودي حليف مالك دية الصريح ، ثم تكون
السنة بينهم على ما كانت عليه : الصريح على ديته والحليف على ديته ، وأن تعد القتلى
الذين أصاب بعضهم من بعض في حربهم ، ثم يكون بعضهم ببعض ، ثم يعطوا الدية
لمن كان له فضل في القتلى من الفريقين ^(١) .

وفي المفاخرة التي كانت بين طريف بن العاص والحارث بن ذبيان عند بعض
مقاول حمير قال الحارث إن سبب خروجهم عن قومهم ولحاقهم بالفر بن عثمان أن
هجيناً لقوم طريف قتل هجيناً لنا وعرضوا علينا أن نأخذ ديته نصف دية الصريح
فأبينا إلا دية الصريح ، وأبوا إلا دية الهجين ، فتظاهروا علينا حسداً فلحقنا بأمنع
بطن من الأزد وثأرنا لصاحبنا ^(٢) .

ولم تكن شهوة الانتقام والثأر والكلف بالحروب لتحجب عنهم شرورها ، ففي
كلامهم ما يدل على معرفتهم بويلاتها ، قال عمرو بن الخطاب لعمر بن معد يكرب :
صف لنا الحرب ، قال : مرة المذاق ، إذا كشفت عن ساق ، من صبر فيها عرف ،
ومن نكل عنها تلف ، ثم أنشأ يقول :

الحرب أول ما تكون فتية	تسعى بزينتها لبكل جھول
حتى إذا حميت وشب ضرامها	عادت عجوزاً غير ذات خليل
شمطاء جزت رأسها وتنكرت	مكروهة للشم والتقييل

وقيل لعنزة الفوارس : صف لنا الحرب ، فقال : أولها شكوى ، وأوسطها نجوى ، وآخرها بلوى ^(١) .

وقد أجاد زهير في التنفير من الحرب إذ يقول : لقد جربتم الحرب وذقتم ويلاتها ، وما أحدثكم عنها حديثاً مكذوباً ، وإنكم لتعلمون أنكم إذا أشعلتموها احترقتم بآثارها وذمتم عواقبها ، وإذا أهجتموها استشرت وافتست ، وأهلكتم وحطمت قواكم كما تحطم الرحي ما تطحنه . ثم إن الحرب تلد الحرب لأن العداة يورث جيلاً عن جيل ، والحرب تلد تومين ، يقصد أن شرورها تتضاعف ، ولن يكون المولدون والناشئون في بيئة تضطغن بالعداء والبغضاء إلا موتورين ناقين مشائيم يحدون في النار وتأريث الشر ، كأن كلا منهم أحمر عاد الذي عقر الناقة فأهلك القوم ، وسخر زهير وتهمك إذ قال لقومه إن شرور الحرب ستفوق في كثرتها خيرات العراق ، أو أن الديات التي تمقاضونها ستنافس في الكثرة هذه الخيرات :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتم	وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة	وتضر إذا ضريتموها فتضرم
فتعركم عرك الرحي بثقالها	وتلقح كشافاً ثم تنتج فتنتم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم	كأحمر عاد ثم ترضع فتفطم
فتغلل لكم ما لا تغل لأهلها	قري بالعراق من قفيز ودرهم ^(٢)

ويقول النابغة الجعدي :

ألم تعلموا ما تورث الحرب أهلها	وعند ذوى الأحلام منها التجارب
لها السادة الأشراف تأت عليهم	فتهلكهم والسابحات النجائب
وتستلب المال الذي كان ربه	ضنيناً به والحرب فيها الحرايب

ويقول معن بن أوس :

(١) العقد الفريد ١٠٩/١ ورواه جامع شعراء النصرانية لامرئ القيس ٦٢/١

(٢) المعلقات العشر . الشنيطي ٨٣

دعاني أشب الحرب بيني وبينه
ولإياك والحرب التي لا أديمها
فلما أبي خليتُ فضل عنانه
فكان صريع الخيل أول وهلة
فقلت له لا بل هلم إلى السلم
صحيح ولا تنفك تأتي على رغم
إليه فلم يرجع بحزم ولا عزم
فبعداً له مختار جهل على علم^(١)

(٢) الثأر

١ - ولا بد أن تنجلي الحرب عن جرحى وقتلى وأسرى ، وعن تخريب
وتدمير ، ولا بد أن يُعقب هذا في نفس المهزوم والموتور حفيظة وموجدة لا يطفئها
إلا أن يثار لقتلاه .

وبلغ من كلفهم بالثأر أنهم كانوا يتجافون النساء والخمر والطيب ، لأنها ضرب
من التمتع والبهجة لا يليق بحزين موتور ، أو لأنها قد تلهي وتشغل عن الجد في الثأر .
قال المهلهل :

خذ العهد الأكيد على عمري
وهجرى الغانيات وشرب كأس
ولست بخالغ درعى وسيفي
وإلا أن تبيد سراة بكر
بتركي كل ما حوت الديار
ولبسي جبة لا تستعار
إلى أن يخلع الليل النهار
فلا يبقى لها أبدأ أثار^(٢)

وقال قيس بن الخطيم :

ومنا الذي آلى ثلاثين ليلة
ولما هبطنا الحرث قال أميرنا
فسامحه منا رجال أعزة
عن الخمر حتى زاركم بالسكتائب
حرام علينا الخمر ما لم نحارب
فما برحوا حتى أحلت لشارب

(١) جمرة الأمثال لأبي هلال ٩٣

(٢) شعراء النصرانية ١٦٤ وأخبار الراقصة وأشعارهم ٤٩

ويظهر أن الخمر كانت أهم ما يصدون عنه ، ولذا فقد أكثروا من التحدث بتركها حتى يثأروا ، قال دريد بن الصمة :

شُلتَ يميني ولم أشرب مُعْتَقَةً إن أخطأ الموتُ أسماءَ بن زنباع
وحدثوا أن امرأ القيس حلف ألا يغسل رأسه ولا يشرب خمرًا حتى يدرك
نار أبيه ، فلما أدرك بعض ما يشفيه قال :

حلت لي الخمر وكنت امرأ عن شربها في شغل شاغل
فاليوم أسقى غير مستحقب إثمًا من الله ولا من واغل^(١)
وقال تأبط شراً :

حلت الخمر وكانت حراما وبلائي ما أملت تحل
فاسقنيها يا سوادُ بن عمرو إن جسمي بعد خالي لخل^(٢)

وقد فصل المثلث بن عمرو التنوخى آلامه إن لم يثأر : في صدره هم راسخ كالجبل لا يحس للخمر ولا لأي شراب لذة وإن كان العسل ، ولن يزول همه إلا إذا ثأر :

إني أرى الله أن أموت وفي صدرى هم كأنه جبل
يمنعني لذة الشراب وإن كان قطابا كأنه العسل
حتى أرى فارس الصموت على أكساء خيل كأنها الإبل
لا تحسبني مُحَجَّلًا سَبَطَ السَّيْفُ قين أبكى أن يظلعَ الجمل
إن امرؤ من تنوخ ناصرُهُ محتملٌ في الحروب ما احتملوا^(٣)

(١) الديوان ١٥٢

(٢) شرح الحماسة للتبريزي ١٦٠/٢ خل : ضعيف هزيل

(٣) المؤلفات والمختلف ١٨١ وشرح الحماسة ١٨/٢ قطاب : ممزوج بغيره . فارس الصموت :

يريد به نفسه والصموت اسم فرسه أو حيه . أكساء خيل : على ما خيها المفرد كساء وشبهها بالإبل لعظمها وطولها . محجل : مقيد أو ذو حجلة كالنساء والمعنى أنه لا يبكي إذا مس الظلم جملة خوفاً من أن يمشی أو لا يجزع من النازلة الصغيرة كما يجزع الرجل من ظلم جملة . سبط : رخوا

وكان عصمه بن حذرة اليربوعي قد نذر ألا يطعم لحماً ، ولا يشرب خمرأ ، ولا يقرب امرأة ، ولا يغتسل ، حتى يقتل من بني عبس سبعين رجلاً بابن عم له ، فلما قتلهم قال :

الله قد أمكنني من عبس ساع شرابي وشفيت نفسي
وكنت لا أقرب طهر عرس وكنت لا أشرب فضل الكأس
ولا أشد بالوخاف رأسي^(١)

٢ - الثأر من الأقارب :

ولم تكن القرابة الأصرة لتحول بين الأكثرين وبين الاشتفاء بالثأر من أقاربهم ، قال قيس بن زهير بن جذيمة العبسي في قتله حمل بن بدر يوم جفر الهباءة ثأراً لأخيه مالك الذي قتل في أول الحرب :

شفيت النفس من حمل بن بدر وسيفي من حذيفة قد شفاني
فإن أك قد بردت بهم غليلي فلم أقطع بهم إلا بناني
فهو يصور عاطفة راحته بالانتقام مشوبة بعاطفة الآسى والندم ، لأنه ثأر من قريبه وهما منه كالإصبع من كفه ، ضروريان لا غنى عنهما وبتربهما موجه .
فالقرابة ما كانت لتكفكف من حفيظة غير الحكماء ، ولم يكن يشفيهم إلا أن تنهل رماحهم من دماء أقاربهم الذين قتلوا من هو أقرب منهم ، وإذا ما ذكرهم بعض العقلاء بحق القرابة اتهموا مذكرهم بأنهم لا يحسون إحساسهم ، ولو أحسوه ما حاولوا أن يثنوهم ، قال زيادة الحارثي :

أبعد الذي بالنعف نَعْف كويكب رهينة رمس ذى تراب وجندل
أذكر بالبقيا على من أصابني وبقياى أنى جاهد غير مؤتلى
فإن لم أنل ثأرى من اليوم أو غد بنى عمنا فالدهر ذو متطوّل

(١) معجم الشعراء ٢٧٤ الوخاف : الخطمي يفسل به الرأس

فلا يدعنى قومي ليوم كريمة
لئن لم أعجل ضربة أو أعجل
أنختم علينا كل كل الحرب مرة
فنحن منيخوها عليكم بكل كل
يقول رجال ما أصيب لهم أب
ولا من أخ: أقبل على المال تعقل
ذكرت أبا أروى فأسبلت عبرة
من الدمع ما كانت عن العين تنجلي^(١)
وقال أبو سفيان في غزوة أحد:

ولو أننى لم أشف نفسي منهم
لكانت شجاً في القلب ذات ندوب^(٢)
ولقد تصطرع في نفس ولى الدم عاطفة الثار للعزیز القليل، وعاطفة الحب للقريب
القاتل، فتغلب الثانية، ويقنع بالأسى والحسرة، ويبقى على واره، قال أعرابي قتل
أخوه ابناً له:

أقول للنفس تأساء وتعزية
إحدى يدي أصابني و لم ترد
كلاهما خلف من فقد صاحبه
هذا أخى حين أدعوه وذا ولدى^(٣)
وقال الحارث بن وعله الجرمي، وقد فجعه قومه في أخيه، إنه إذا ثار منهم
أصاب نفسه وأوهن عظمه، ولكنه سيعفو عنهم، والعفو إذا عظيم:

قومي هم قتلوا أميم أخى
فإذا رميت يصيني سهمي
فلئن عفوت لأعفون جلا
ولئن سطوت لأوهن عظمي^(٤)
ولقد يجد الرجل ليثار لقريب له، وهو على ثقة أنه إن قتل فسيثار له قريبه.
فتلا تأبط شراً كان يثار لحاله، وتوقع أن يثار له ابن أخيه إذا ما هلك:

إن بالشعب الذى دون سلع
لقتيلاً دمه ما يُطل
خلف العباء على وولى
أنا بالعباء له مستقل
ووراء الثار منى ابن أخت
مصع عقده ما تحل

(١) شرح الحماسة للتبريزي ١٣٠/١ النصف: مقدم الجبل. كويكب: جبل. البقاء: الإبقاء. مؤتلى: مقصر. متطول: طول. تعقل: تقدم لك الدية. أبو أروى: كنية أبيه زياد الحارثي
(٢) سيرة ابن هشام ٢٢/٣ (٣) الحماسة ٧٣/١ (٤) الحماسة ٧٢/١

مطرق يرشح سماء كما أطرق أفهى ينفث السم صل^(١)
٣ - النساء والثأر:

وكانت النساء يؤججن الصدور حفيظة ويلهن النفوس حية للأخذ بثأر القتل ،
قالت الخنساء في رثاء صخر :

ولن أسأل قوما كنت حرهم^٢ حتى تعود بياضاً جؤنة القار^(٣)
وقالت تحرض قومها :

لا نوم حتى تعود الخيل عابسة ينبدن طرحا بمهرات وأمهار
أو تحفروا حفرة والموت مكنتع عند البيوت حصينا وابن سيار
فتغسلوا عنكم عاراً تجلسكم غسل العوارك حيصاً بعد أطهار^(٤)

فى لا تقر ولا تريد أن يقر قومها حتى يهجموا على الأعداء هجمة قاسية صارمة
تعبس منها الخيل وترمى ما فى بطونها ، وتنجل الغزوة عن قتل واثريها ، وعن غسل
العار الذى لصق بقومها .

ومن التحريض العجيب للأخذ بالثأر ما يروى أنه كانت لبني رثام عجوز تسمى خويلة ،
وكان يدخل عليها أربعون رجلاً كلهم محرم ، بنو إخوة وبنو أخوات ، وكانت خويلة
عقيماً ، وكان بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بني رثام - وهم جميعاً من قضاة
جيران بين الشحر وحضر موت - فقتلوا من بني رثام ثلاثين رجلاً ، وأقبلت خويلة
مع الصباح فوقفت على مصارعهم ، ثم عمدت إلى خناصرهم فقطعتها ونظمت منها
قلادة وألقتها فى عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمرضاوى بن سعوة المهرى وهو
ابن أختها ، فأناخت بفنائه وأنشأت تقول :

(٥) الحماسة ١/ ٣٤٨ الشعب : الطريق فى الجبل . سلع : مكان . يطل : يهدر . مصم : ثابت
شديد فى القتال . مطرق : ناظر بعينه إلى الأرض . صل : خبيث من الأفاعى
(١) ديوان الخنساء ١١٢ . جؤنة : سواد
(٢) الديوان ١١٧ تحفروا : تطفنوا . مكنتم : دان . حصين بن ضمضم ومنصور بن سيار المريان
قاتلا صخر .

يا خيرَ مُعْتَمِدٍ وأمنعَ ملجأ
جاءتك وافدة الشكلى تغتلى
هذى خناصر أسرى مسرودة
وأعزَّ منتقمٍ وأدركَ طالب
بسوادها فوق الفضاء الناضب
فى الجيد منى مثل سمط الكاعب
.....

فأبردُ غليلِ حُوَيْلَةَ الشكلى التى
وتلاف قبل الفوت ثأرى إنه
رُميت بأثقل من صخور الصاقب
علِقَ بثوبى داهن أو ناعب

نخرج فى مَنْسِرٍ من قومه ، فطرق ناعبا وداهنا فأوجع فيهم^(١)

ولم تتحرز المرأة من تشبيه قومها - إذا لم يثأروا لأخيها - بالنساء العواهر ،
فلم يكفها أن يكونوا نساء فزادت هذا الوصف المنفر ، قالت هند بنت حذيفة
فى رثائها لأخيها حصن :

فإن أتم لم توطئوا القوم غارةً
وترموا عقيلًا بالى ليس بعدها
يحدث عنها واردة بعد صادر
بقاء فسكوتوا كالنساء العواهر^(٢)
٤ - أنر البيئة فى أهمية الثأر :

والثأر نظام بدوى حيث لا حكومة ولا محاكم ولا سلطة تحول بين الموتور
والواتر ، وقد كان هناك شيوخ القبائل ، ولكنهم لم يكونوا يملكون القوة التنفيذية
التي بها يقتصون من الجاني ، لأن القبيلة لم يكن لها قانون جنائى ، فليس أمام الموتور
إلا أن ينتقم من واطره .

وكان الثأر واجبا على أقرب الناس للقتيل ، وكانت عشيرة الجاني لا تتخذله أو
تسلمه إلى الموتور بل كانت تحميه وتؤازره ، فإذا ما قُتل جدت عشيرته لثأر له أيضا
وبذلك تجددت الحروب والمنازعات وسفك الدماء وتطاوالت .

• صحيح أن من واجب الزعماء فى القبيلة أن يعملوا على إيجاد تسوية بين المتخاصمين

(١) الأمالى ١/٢٢٧ - ١٢٨ السمط : العقد

(٢) بلاغات النساء ١٧٤ الصاقب : جبل معروف

من دون أن يملكوا حق فرضها عليهم ، ولكن العشائر كثيرا ما كانت لا تنتهى إلى الأخذ بهذه التسويات إلا بعد أن تكون قد تفانت ودقت بينها عطر منشم . أما إذا أسلم القاتل طوعا لا كرها إلى الفريق الآخر لينتقم منه فعندئذ لا يبقى مجال للنار ، ولكن مثل هذا الصنيع يعتبر وصمة للعشيرة ، فهي تفضل أن تقتل الجاني على أن تسلمه طوعا ويلحق بها العار . إن حاسة الشرف السامية هذه التي تسم جميع أعمال البدوى هي الأساس الذي ينهض عليه صرح الأخلاق عنده^(١)

وكان للنار بعض النفع لأنه يكبح من جماح بعض الحمقى الذين تسيرهم شهوات القتل والقسوة ، ولولاها لانغمسوا في إجابة غرائزهم وخروجهم على القانون دون خوف أورهة من عقاب^(٢) .

هـ - وكما كان تسليم القاتل عارا كان قبول الدية عارا أيضا ، لأنه سمة الضعف والعجز والهوان ، قال مرة بن عداء الفقعسي :

فلا تأخذوا عقلا من القوم إنني أرى العار يبق والمعاقل تذهب^(٣)

وقالت امرأة من ضبة لقومها : لا تأخذوا نوقا ولكن رووا سيوفكم من دماء أعدائكم ، فإن لم تتأروا فلا درت نياقكم لبنا :

ألا لا تأخذوا لبنا ولكن أذيقوا قومكم حد السلاح

فإن لم تتأروا عمرا يزيد فلا درت لبون بني رباح^(٤)

ومن ذلك أن العباس بن مرداس حرص رجلا من خزاعة اسمه عامر على أن يطلب بثأر جاره هريم بن مرداس قتله رجل من خزاعة :

إذا كان باع منك نال ظلامة فإن شفاء البغي سيفك فافصل

ونبت أن قد عوضوك أباعرا وذلك للجيران غزل بمغزل

(١) العرب والامبراطورية العربية . بروكان ١٧ - ١٨ (٢) P. 94 Nicholson

(٣) الحماسة ٧٧/١ . المعاقل : الديات (٤) حماسة البحري ٧٣

نخذها فليست للعزیز بنصرة وفيها متاع لامرئ متدال
فلها بلغته الايات الى ألا يصيب رأسه ولا جسده ماء بغسل حتى يثار بهريم^(١)
وكانوا يؤخرون البكاء على القتل حتى يثاروا له . فإذا ما ثاروا بكت النساء
قتيلهن وندبته . قال الشاعر :

من كان مسرورا بمقتل مالك فليات نسوتنا بوجه نهار
يجد النساء حواسرا يندبته يلطمن حرَّ الوجه بالأسحار^(٢)
ومن أعظم الديات ما فدى به حاجب زرارة وهو خمسمائة من الإبل ، وفي الوقت
نفسه فدى عمرو بن عمرو بمائتين^(٣)

(٣) الحلف والجوار

١ - في هذه البيئة الحربية لم يكن بد من محالفات بين الفرد والفرد ، وبين الفرد
والقبيلة ، وبين القبيلة والقبيلة ، لتعزيز القوة وتقوية الحماية ، وذلك لكثرة الحروب
وتوجس الإغارات ، واعتمادهم على أنفسهم في حماية العرض والمال والروح ، فلا
جيش يحمي ، ولا شرطة تحفظ ، ولا قانون يعصم .
ولقد تخلع العشيرة أحد أفرادها فيلحق بعشيرة أخرى ويستجير بأحد رجالها
فيجيره ، ومن أمثلة ذلك أن البراءص بن قيس بن رافع أحد بني ضمرة بن بكر بن
عبد مناة بن كنانة كان سكيراً فاسقاً خلعه قومه وتبرءوا منه ، فشرب في بني الديل
نخلعوه ، فأتى مكة وأتى قريشاً فنزل على حرب بن أمية فخالفه فأحسن حرب جواره ،
وشرب بمكة حتى هم حرب أن يخلعه ، فقال لحرب : إنه لم يبق أحد ممن يعرفني إلا
خلعني سواك ، وإنك إن خلعتني لم ينظر إلى أحد بعدك ، فدعني على حلفك وأنا
خارج عنك . فتركه وخرج فلحق بالنعمان بن المنذر بالحيرة^(٤)

(١) الأغاني ٦٦/١٣ ساسي

(٢) السكامل في التاريخ لابن الأثير ٢١٣/١

(٣) صبح الأعشى ٤٠٥/١

(٤) الأغاني ٧٥/١٩ ساسي

وكانت العشيرة إذا خلعت رجلا منها أشهدت على ذلك في المواسم والأسواق لتسكون في حل من جنائياته كما فعلت خزاعة بقيس بن الحداية إذ خلعت بسوق عكاظ وأشهدت الناس على أنها خلعت فلا تحمل عنه جريرة ولا تثار له^(١).

وكذلك كانت تفعل إذا أجارت، وكانت أحيانا تعطى حليفها برامة بأنه جارها فتدفع إليه سهمًا مكتوبا عليه فلان جار فلان، كما كان يفعل بنو غنم بن عوف من الحزرج بالمدينة، وهم كانوا يدفعون إلى حليفهم المستجير بهم سهمًا ويقولون له: قوِ قل به يثرب حيث شئت^(٢). والقوقلة ضرب من المشي، ولذا سموا بالقواقل، والقاموس يسميهم القواقلة.

وكثيرا ما كان يعقد الحلف بين القبائل لجلب نفع اقتصادي، من غارة على أعداء أو لدفع عدوان مترقب، لأنهم كانوا ينتسبون إلى الأعز، لحماية الحمية وإباء الدنية، وسكون النفوس إلى نفيس الكثرة والعصية^(٣).

٢ - توثيق الحلف :

ورغبة في توثيق الحلف كانوا يحتالون على ربط النسب بين القبيلتين المتحالفتين إن لم تسكونا من أصل واحد، فيعقدون الحلف على دم الذبائح التي تنحر للآلهة، وهذا الدم يرمز إلى أن العلاقة بين الحليفين هي كعلاقة الدم الذي هو أساس القرابة الدموية، فقد كانوا يعبدون الأنصاب ويعترون عندها - يذبحون - ويقطعون العهود ويحلفون، وفي ذلك يقول عمرو بن جابر الحارثي ثم السكبي :

حلفت غُطَيْفٌ لَا تُتْنِهْ سِرْبَهَا وحلفت بالأنصاب ألا يُرْعَدُوا

ويقول رشيد بن رميض من عنزه :

حلفت بمائرَاتِ حَوْلَ عَوْضٍ وأنصابٍ تُرْكَنَ لَدَى السَّعِيرِ^(٤)

(١) الأغاني ٢/١٣ ساسي

(٢) نهاية الأرب ٢/٢٦٧

(٣) سيرة ابن هشام ٤٠/٢

(٤) الأصنام ٤٢ . عوض : صنم كان يعبد حلفاء عنزة من بكر بن وائل . سعير : صنم لعنزة

ومن تقاليد الحلف لعق الدم ، يغمس كل فريق يده في جفنة ملاء بالدم ثم يلحق كل رجل ما علق بيده ، وكانوا يسمون هؤلاء لعقة الدم^(١)
ومن شأنهم إذا تحالفوا أن يلبسوا أيديهم في الدم وما زالوا على ذلك إلى أن كان الحلف الذي شاهده رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حلف المطيبين^(٢)
وأطلقوا على دم الحلف (الأسحم) قال الفيروز ابادي : «الأسحم : الدم تغمس فيه أيدي المتحالفين ، وقال بن منظور في قول الأعشى :

رضيحي لبان ثدى أم تحالفا بأسحم داج عَوْض لا تنفرق

الأسحم في قول الأعشى : الدم تغمس فيه اليد عند التحالف^(٣)

وكان الغرض الذي يهدفون إليه من ذلك توثيق الحلف ، وكما وثقوه بلحق الدم في حياتهم الأولى وثقوه فيما بعد بسوائل أخرى مثل الرب — عصارة بعض الثمار — ومن ذلك حلف الرباب الذي عقد بين أحياء من ضبة ، وسمى بذلك لأنهم غمسوا أيديهم في الرب وتعاقدوا عليه^(٤) ، ولعلمهم اختاروا الرب لأنه أحمر كالدم الذي كانوا يتعاقدون عليه ، ومن ذلك دلت كلمة الربيب على المعاهد ، ودلت كلمة الرباب والربابة على العهد^(٥)

وقد وثقوا العهد بالماء في حلف الفضول ، وسببه أن رجلا من اليمن قدم مكة ببضاعة فاشتراها رجل من بني سهم ولم يعطه الثمن . فقام في الحجر قائلا .

يا لَقْصَى لَمْظِ لوم بضاعته بيطن مكة نائى الدار والنفر

وأشعث محرم لم يقض حرمة بين المقام وبين الركن والحجر^(٦)

فقام العباس وأبو سفيان حتى ردا عليه ، واجتمعت بطون قريش فتحالفوا على رد الظلم بمكة وألا يظلم رجل بمكة إلا منعوه وأخذوا له بحقه ، وكان حلفهم في دار

(١) الأغاني ٧/٢٦ (٢) أيمان العرب لتنجيزى مخطوط وسيرة ابن هشام ١/٢١٣

(٣) القاموس المحيط ولسان العرب مادة سحم (٤) العقد الفريد ٢/٣٩ — ٤١ بولاق

(٥) القاموس المحيط مادة رب (٦) الأغاني ١٦/٦٣ — ٦٥ ساسى

ابن جدعان ، وحضره رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول : لقد شهدت حلفاً في دار ابن جدعان ما أحب أن لي به حمر النعم ولو دعيت به لأجبت . . . ثم عمدوا إلى ماء من ماء زمزم فجعلوه في جفنة ثم بعثوا به إلى البيت فغسلت به أركانه ثم أتوا به فشر به . ولم يتعاقدوا على ماء معتاد بل تعاقدوا على ماء من زمزم ، وقد غسلت به الكعبة ، ثم شربوه ، كأنما يريدون أن يسرى العهد في كيانه .

وهذا نوع آخر من تأكيد الحلف ، لا تغمس فيه الأيدي في دم ولا رب ولا ماء ، وإنما تغمس في الطيب ثم تمسح بها الكعبة ، ذلك كان في حلف المطيبين .

فقد اختلف بنو عبد مناف بن قصي وبنو عبد الدار بن قصي في الحجابة واللواء والسقاية والرفادة — وكانت بأيدي بني عبد الدار — فعقد كل قوم على أمرهم حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ما بلّ بحر صوفة ، فأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها فتعاقدوا وتعاهدوا هم وحلفاؤهم ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم تأكيداً على أنفسهم ، فسموا المطيبين ^(١) .

وتعاقد بنو عبد الدار وتعاهدوا هم وحلفاؤهم عند الكعبة حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً ، فسموا الأحلاف ^(٢) .

وأحياناً كانوا يتحالفون على النار ، ولعل ذلك سرى إليهم من المجوسية الفارسية ، فقد كان من العرب من يعبد النار ، وعبادها يفضلونها على التراب ، وبصوبون رأى إبليس في امتناعه عن السجود لآدم ، ولا شك أن عبادة بعضهم للنار ذات صلة وثيقة بالتحالف عليها ، وقد كانوا يضعون فيها الملح والكبريت للتحويل ، ولذا سموها المهولة ، وسموا القيم عليها المهول ، وسنفصل القول في ذلك في الحياة الدينية . قال أوس بن حجر في وصف ثور وحشي :

(١) سيرة ابن هشام ١/١٤٢ — ١٤٣

(٢) المرجع السابق ١٤٣

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف^(١)
وقال الكميث :

كهولة ما أوقد المخلفون لدى الحالفين وما هولوا
وقال :

وما ضرب الأمثال في الجور قبلنا لأجور من حكامنا المتمثل
هم خوفونا بالعمى هوة الردى كما شب نار الحالفين المهول^(٢)

وهم إنما يريدون من مصاحبة الدم والرب والماء والطيب للحلف والتمسح بالكعبة
توكيده والإشهاد المادى على عزيمة الوفاء ، والنص على الدوام والاستمرار ، قال
الحارث بن حلزة في معلقته :

واذكروا حلف ذى المجاز وما قُدم فيه العهود والكفلاء
حذر الجور والتعدى وهل ينقض ما في المهارق الأهواء؟^(٣)

ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يوثقون العهد بالتماسح بالأكف والتحالف على النار ،
والتعاقد على الملح ، وباليمين الغموس مثل قولهم : ماسرى نجم ، وهبت ريح ، وبلى بحر
صوفة ، وخالفت جرة درة^(٤) .

ويذكر الميداني أنهم كانوا يقولون الدم الدم ، والهدم الهدم يعنى أبايعك على أن
دمى فى دمك وهدمى فى هدمك^(٥)

٣ — إعرازهم للحليف والجار وحمايتهم له :

وقد أعزوا الحليف حتى إن قریشا كانت تترفع عن تزويج بناتها من غيرها إلا
إذا كان من حلفائها .

(٢) البيان والتبيين ٦/٣ — ٧

(٤) البيان والتبيين ٦/٣

(١) البيان والتبيين ٦/٣

(٣) المعلقات العشر الشنقيطى ١٢٨

(٥) مجمع أمثال الميداني ٢٤٣/١

وقد كانت السنة الشائعة بينهم أن للحليف نصف دية الصريح ، وإن كان مالك ابن العجلان قد رفض أن يأخذ من بني عوف في جاره إلا الدية كاملة فرفضوا ، فنشبت حرب بين الأوس والخزرج ، إلى أن احتكموا إلى ثابت بن المنذر - والد حسان - فحكم بأن يودى حليف مالك دية الصريح ثم تكون السنة فيهم على ما كانت عليه : للصريح دية وللحليف نصفها . وفي ذلك يقول حسان بن ثابت مفتخراً بقضاء أبيه :

وأبي في سميحة القائل الفا صل حين التفت عليه الخصوم^(١)

وبلغ من مكانة الحليف أنه كان يُعدُّ من العشيرة ، ولذا كان المجير يرثه في ماله^(٢) وتمادوا في حماية الجار إلى حد أن حموه من الموت ، وذلك أنه إذا مات دفع حاميه ومجيره دية إلى أهله ، فقد رووا أن الأعشى خاف بني عامر على ما معه من عطايا الأسود العنسي فأتى علقمة بن علاثة فقال له : أجرني ! فقال : أجرتك ، قال : من الجن والإنس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : لا . فأتى عامر بن الطفيل فقال : أجرني ، قال : قد أجرتك ، قال : من الجن والإنس ، قال : نعم ، قال : ومن الموت ، قال : نعم ، قال : وكيف تجبرني من الموت ؟ قال : إن مت وأنت في جوارى بعثت إلى أهلك الدية . فقال : الآن علمت أنك قد أجرتنى من الموت ، فمدح عامرا وهجا علقمة^(٣) :

بل بولغ في التنويه بحمايتهم للجار واللاجيء ، حتى قالوا إن مدلج بن سويد الطائي خلا يوماً في خيمته فإذا هو بقوم من طيء ومعهم أوعيتهم ، فقال : ما خطبكم ؟ قالوا : جراد وقع بفنائك فجئنا لنأخذه ، فركب فرسه وأخذ رمحه وقال : والله لا يعرضن له أحد منكم إلا قتلته ، إنكم رأيتموه في جوارى ثم تريدون أخذه ،

فلم يزل يحرسه حتى حميت عليه الشمس وطار ، فقال : شأنكم الآن ، فقد تحول عن جوارى ، وضربوا به المثل فقالوا : أحسى من مجير الجراد ، ويقال إن المجير كان حارثة ابن مر الطائي أبا حنبل وفيه يقول شاعر طيء :

ومنا ابن مرّ أبو حنبل أجار من الناس رجلاً الجراد
وزيد لنا ولنا حاتم غياث الورى في السنين الشداد^(١)

ولقد كان الحليف ينصر حليفه على بنى عمه ، يقول أحد شعراء الحماسة وقد اعتدى بنو عمه على حليفه حوشب :

سأخذ منكم آل حزن لحوشب وإن كان مولى لى وكنتم بنى أبى
فقل لبنى عمى فقد — وأبيهم — منوا بهريت الشدق أشوس أغلب
أفيقوا بنى حزن وأهواؤنا معا وأرحامنا موصولة لم تقضب^(٢)
لكنهم لم يجيروا على الملوك ، فقد أوصى حصين بن حذيفة بن بدر أولاده وهو يحتضر ، وجاء فى نصحه لهم : « ولا تجيروا على الملوك فإن أيديهم أطول من أيديكم »^(٣).

٤ — واقتروا بحايته ، قال عبيد بن الأبرص :

إنا لعمرك لا يضام حليفنا أبدأ لدينا^(٤)

وقال :

تحمى حقيقتنا ونمنع جارنا ونلف بين أرامل الأيتام^(٥)
ومن مفاخرهم أن جيرانهم محتمون بهم ، وأنهم لا يهابون شيئاً ، قال عون بن عطية التيمي :

(٢) شرح الحماسة للمرزوقى ٣١٢/١ هربت الشدق : واسعه ،

(١) الميداني ٢٠٢/١

ومى من صفات الأسد

(٤) ديوان عبيد قصيدة ٧ Lyall

(٣) أمالى المرتضى ١٦٨/٢

(٥) الديوان ٤

وتحل أحياء وراء بيوتنا حذر الصباح ونحن بالمستمطر^(١)

وكان الاعتماد على الجار مثيراً لحفيظتهم كأنه اعتداء عليهم ، فيمتشقون الحسام للذب عن الشرف الممتن والانتقام من المتجرى على الجار المحمي ، ولذا مدحوا بالذب عن الجار ، فقالوا : فلان منيع الجار حامى الذمار . . . حتى كان فيهم من بحمي الجراد إذا نزل في جواره فسمى بجير الجراد^(٢) كما سبق

اعتدى قوم من سحمة في الجاهلية على جار لأمس بن كرز فأوقع بهم وافتخر بحماية جاره .

وما جار بيتي بالذليل فترتجى ظلامته يوماً ولا المتهمم^(٣)

وافتخر حسان بن نشبة العدوى أو جساس بن نشبة التيمي بأنهم حاربوا حمير وقد أتت برماحها لتحارب كلباً ، وقد انتصروا على حمير نصر أموزرا فارتدت مكلومة مهزومة تسوق مطاياها الذليلة :

نحن أجربنا الحى كلباً وقد أتت لها حمير تزجى الوشيج المقوماً
تركنا لهم شق الشمال فأصبحوا جميعاً يزجون المطى المخزماً^(٤)

وكانت حماية الجار دليلاً على القوة والرهبة وإرب قل عدد أفراد القبيلة ، قال السمومل أو ابنه شريح أو غيرهما :

وما ضرنا أنا قليل وجارنا عزيز وجار الأكثرين ذليل^(٥)

ولم يقتصر نخرهم على حمايتهم للجار ، بل تعدى ذلك إلى تنعمه بخيراتهم ، قال لبيد بن ربيعة العامري في مجال الفخر :

وهم ربيع للمجاور فيهم والمرملات إذا تطاول عامها^(٦)

(٢) العقد الفريد ١٥٩/١

(٤) الحماسة ١٣١/١

(١) الفضليات ١٢٨/٢

(٣) البيان والتبيين ٢١٧/٢

(٥) البيان ١٢١/٣

(٦) المعلقات العشر ٩٦ الشنقيطى . المرملات : القبائل الفقيرة

ومدح عدى بن يزيد السكونى بنى شيبان فى حديثه عن يوم ذى قار ، بأنهم
يخلطون جارهم بأنفسهم . ويكرمونه ويحمونه :

إنى حمدت بنى شيبان إذ خمدت نيران قومى وفيهمُ شبت النار
ومن تكرمهم فى المحل أنهم لا يعلم الجار فيهم أنه الجار
حتى يكون عزيزا من نفوسهم أو أن يبين جميعاً وهو مختار
كأنه صدع فى رأس شاهقة من دونه لعناق الطير أوكار^(١)

ولم يكن من السهل المحتمل أن يخيس حليف بعده ، أو ينقض حام ذمة عقدھا
لجار ، فإنهم كانوا إذا غدر منهم أحد رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليظهروا به ، وفى
ذلك يقول قطبة بن أوس بن محصن بن جرول (الحادرة) :

أُسِّى ويحك هل سمِعتِ بغدرة رفع اللواء لنا بها فى بجمع ؟^(٢)

(٤) الغنى والفقر

مظاهر الغنى مظاهر الفقر سخط بعض الفقراء نشوء الصعلكة والصعاليك حياة الصعاليك وأدبهم ومذهبهم

١ - عاش العرب كما عاش غيرهم متفاوتى الغنى والفقر ، لكن الفقر كان أكثر
شمولاً وأوسع دائرة ؛ لأن بيئتهم - ولا سيما الصحراء - غير ذات زرع يؤمنهم ،
ولا صناعة ينشرونها فى الآفاق فتكسبهم مالا .

على أن أطراف الصحراء - الحيرة والشام واليمن - كانت أكثر خيرات لأنها
أخصب وأعظم حضارة وأشد بالأمم اتصالاً ، وقد وضعنا هذا فى الحديث عن هذه
الإمارات . وبحسبنا هذه الصورة التى يصورها النابغة ترف بنى غسان ، يصورهم
لابسين نعلاً رقاقاً لا هى مخصوفة ولا هى غليظة كنعال البدو ، تحييم الوصيفات

بالرياحين في يوم الشعانين ، وملابسهم من الخبز الأحمر شعار الملوك ، وإذا ما نضوها
علقوها على المشاجب ، وهم منعمون من عهد بعيد :

رَقَاقُ النِّعَالِ طَيْبٌ حُجْزَاتُهُمْ يُحْيُونَ بِالرِّيحَانِ يَوْمَ السَّبَاسِبِ
تَحْيِيهِمْ بِيضُ الْوَلَائِدِ بَيْنَهُمْ وَأَكْسِيَةُ الْإِضْرِيحِ فَوْقَ الْمَشَاجِبِ
يَصُونُونَ أَجْسَادًا قَدِيمًا نَعِيمًا بِخَالِصَةِ الْأُرْدَانِ خَضِرِ الْمَنَاقِبِ^(١)

ولم يكن الغنى والترف مقصوراً على اليمن والحيرة والشام ، بل كان في الصحراء
نفسها غنى وترف ، وهل أدل على الغنى والرفاهية من إفاضة المسك على الأجسام بعد
الاستحمام؟ يقول ابن عنقاء الجهني في مدح بني غطفان :

إِذَا جَاوَرَتْ فِي غُطْفَانَ طَرَا فَعِنْدَ الْأَكْرَمِينَ بَنِي رِيَا
هَمَا جَارَا الْمُلُوكِ فَبَوَّاهَا بِأَرْضِ سَهْلَةِ رُدْحِ الْمَرَا
إِذَا غَسَلَا جُلُودَهُمَا أَفَاضَا فَتَيْتَ الْمَسْكَ عَنْ أَدَمِ صَحَا^(٢)

وطرفة بن العبد يتحدث بأن الإمام شوين لهم ولد الناقة في النار ، وبأن الخدم
سعوا عليهم بقطع السنام السمين :

فَظَلَّ الْإِمَامُ يَمْتَلِنَ حِوَارَهَا وَيُسْعَى عَلَيْنَا بِالسَّدِيفِ الْمُسْرَهَدِ^(٣)
وَقَالَ :

تَبَيْتَ إِمَامَ الْحَيِّ تَطْهَى قَدُورُنَا وَيَأْوِي إِلَيْنَا الْأَشْعَثَ الْمُتَحَرِّفَ^(٤)
ولست بحاجة إلى الإفاضة في علاقة الخمر والغناء بغنى المدمنين على الشراب
والسباع في الصحراء نفسها وفي الأطراف ، فقد سبق هذا في مواطن آخر ، ولكني
أدلل على غنى بعض الناس بشيء آخر هو وصف الشعراء لحلى بعض النساء ، فالمرقس
يقول إنهن تحلين بالياقوت وباللؤلؤ أو حبات الذهب ، وبالخرز اليماني منظوما
في عقود :

(١) الديوان ص ٨

(٢) المؤلف والمختلف ١٥٩ . ردح المراح : واسعة المجال والرعى (٣) ديوان طرفة ٣٥

(٤) الديوان ٤٤ الأشعث : المغبر الرأس . المتحرف : الذي أكل الدهر ماله .

تحلين يا قوتا وشذراً وصيغة وجزعا ظفاريها ودرأ توائماً^(١)
ويقول إنهن يلبسن أقراطاً مذهبة لها عذبات مدلاة :

يهدلن في الآذان من كل مذهب له ربذ يعيا به كل واصف^(٢)

والمشقب العبدى يقول إنهن حلين بالذهب ترائبهن التي تشبه العاج لونا وملاسه :

أرين محاسناً وكنن أخرى من الأجياد والبشر المصون

ومن ذهب يلوح على تريب كلون العاج ليس بذى غصون^(٣)

وفي الإسلام كانت حبيبة المزارين منقذ تجرر في تبخترها ثوبا سابغا يلامس
البلاط ، وتمشى على طنافس من الحرير غير مبالية بنفاستها ، وتلبس نفيس الثياب
حتى في تبذلها ، فلا تصونها بل تبدلها ثوبا بعد ثوب :

لا تمس الأرض إلا دونها عن بلاط الأرض ثوب منعفر

تطأ الخز ولا تكرمه وتطيل الذيل منه وتجر

وترى الریط مواديع لها شعراً تلبسها بعد شعر^(٤)

ثم هي تمطيب بالعنبر والمسك حتى ليكاد ينعصر من أكامها :

عبق العنبر والمسك بها فهي صفراء كعرجون العمر

وهي لو يعصر من أردانها عبق المسك لكادت تنعصر^(٥)

وامرؤ القيس يتحدث بأن المسك كان يوضع من صاحبتيه كأنه النسيم المعطر
برائحة القرنفل :

إذا قامت توضع المسك منهما نسيم الصبا جاءت بريا القرنفل

(١) المفضليات ٤٥/٢ (٢) المفضليات ٣١/٢

(٣) المفضليات ٨٩/٢

(٤) المفضليات ٨٩/١ الریط : الملاة . مواديع : جمع مبدع : الثوب الذى يصون غيره . شعر :

جمع شعار : ما يلى الجسد

(٥) المفضليات ٩٠/١ العمر : نخلة السكر وهو تمر جيد

وبأن صاحبة أخرى كانت تنهض من نومها ضحا فإذا فتيت المسك على فراشها .

وتُضحى فتيت المسك فوق فراشها تؤوم الضحا لم تلتطق عن تفضل^(١)

ما من شك إذن في غنى بعض القاطنين في الصحراء ، وفي ترف بعضهم ، وما من شك في أنه لولا هذا الغنى لما استطاع بعض ساداتهم أن يجزلوا العطاء للشعراء ، وأن يتحملوا ديات القتلى إذا ما سعوا أن تضع الحرب أوزارها .

٢ - ومهما يكن من شيء فقد كان الفقراء أكثر عدد ، وكان بعض الفقراء أدق حسا وأبعد أملا من بعضهم الآخر ، فتهرموا بالشظف والحرمان ، فهذا أعرابي افتقر وفقد في الحرب يداً ورجلا فتسكر له قومه ، فعز عليه أن يتسكروا ، فصور شعوره هذا التصوير الحزين :

الله يعلم أنى من رجا لهم وإن تحدد عن متنى أطمارى

وإن رزئت يدا كانت تجملنى وإن مشيت على زج ومسمار^(٢)

وإذا كان هذا الأعرابي قد أقام مع من أنكروه ساخطا عليهم فإن غيره لم يطق أن يقيم بين من يزدرونه لفقره ، فيزهون بقوله إن تكلم ، ويصمون به بالعى إن صمت ، وهو لهذا سیر تحل حتى يغتنى أو يموت :

سأعمل نص العيس حتى يكفنى غنى المال يوما أو غنى الحدثن

فللموت خير من حياة يرى لها على الحر بالإقلال وسم هوان

متى يتكلم يلغ حكم كلامه وإن لم يقل قالوا عديم بيان

كان الغنى فى أهله - بورك الغنى - بغير لسان ناطق بلسان^(٣)

ويضجر عروة بن الورد من تسكر الناس للفقيل ، ويزيده ضجرا أن تجتوى الروح زوجها الفقير ، لأن هذا أشد مرارة :

ذرينى للغنى أسعى فإنى رأيت الناس شرهم الفقير

(١) المعلقات للشنقيطي ٥٩ ، ٦٤

(٢) البيان والتبيين ٤٨/٣ (٣) البيان والتبيين ١٨٩/١

وأهونهم وأحقرهم لديهم وإن أمسى له نسب وخير
ويُقَصَّى في الندى وتزدرية حليته ، وينهره الصغير
ويُلَفِّي ذو الغنى وله جلال يكاد فؤاد صاحبه يطير
قليل ذنبه والذنب جم ولكن للغني رب غفور^(١)
ويشدد البرم بعبيد بن الأبرص فلا يحفل بفراق زوجته التي قلته لفقره وأساءت
معاشرته له :

تلك عرسي غصبي تريد زياي ألبين تريد أم لدلال ؟
إن يكن طُبُّك الفراق فلا أحفل أن تعطف صدور الجمال
كنت بيضاء كالمهاة وإذ آتيك نشوان مرخيا أذياي
فاتركي مطَّ حاجيك وعيشي معنا بالرجاء والتأمال
زعمت أنني كبرت وأني قل مالي وضمن عني الموالى^(٢)

ومنى سعيد بن عمرو بن نفيل زوجته - وقد سألتاه الطلاق لما افتقر - بأن ماله
قد يكثر ، فيقتى العبيد والإماء والخدم ويمتعهما ويكسوهما معارض ذوات ذبول :
تلك عرسي تنطقان على عمي إلى اليوم قول زور وهتر
سالتاني الطلاق أن رأنا ما لي قليلا ، قد جئنا بنسكر
فلعل أن يكثر المال عندي ويعري من المغارم ظهري
وترى أعبد لنا وإمام ومناصيف من خوادم عشر
وتجرا الأذياي في نعمة زول ، تقولان : ضع عصاك لدهر
وي كأن من يكن له نشب يحسب ومن يفتقر يعش عيش ضر
ويجنب سر النجى ولو كن أخا المال محضر كل سر^(٣)

(١) البيان والتبيين ١/١٩٨ وشعراء النصرانية ٨٨٨ والديوان ٢٠

(٢) البيان والتبيين ١/١٩٩ وديوان عبيد القصيدة ١١ lyall

(٣) البيان والتبيين ١/٩٩ ورواها الأغاني لنبية بن الحجاج السهمي ٦٠/١٦ ، ونسبها الزمخشري
عن ابن الأعرابي إلى زيد بن عمرو بن نفيل . مناصيف : جمع منصف وناصف وهو الخادم . زول : ظريف

وَنُيِّهَ بَنَ الْحِجَاجِ بَنَ عَامِرٍ يَتَحَسَّرُ لِأَنَّهُ مَعْدُمٌ فَلَيْسَ مِنْ حَوْلِهِ أَشْيَاعٌ وَخِلَانٌ ،
وَلَيْسَ مِنْ حَوْلِهِ مَنْ يَمْدَحُهُ وَيَتَمَلَّقُهُ وَيُحِبُّهُ ، وَلِأَنَّهُ عَاجِزٌ عَنِ بَذْلِ الْمَعْرُوفِ لِلنَّاسِ .
وَلَوْ أَنَّهُ كَانَ غَنِيًّا لَفَاقَهُمْ فِي عَطَائِهِمْ .

قَصَّرَ الْعَدَمُ بِي وَلَوْ كُنْتُ ذَا مَا لِكَثِيرٍ لِأَجْلِ النَّاسِ حَوْلِي
وَلَقَالُوا أَنْتَ الْكَرِيمُ عَلَيْنَا وَلَخَطُّوا إِلَى هَوَايَ وَمِيلِي
وَلِكَلْتُ الْمَعْرُوفَ كَيْلًا هُنَا يُعْجِزُ النَّاسَ أَنْ يَكِيلُوا كَكَيْلِي (١)
وَقَدْ تَنَوَّعَ تَصْوِيرُ الْأَلَمِ مِنَ الْفَقْرِ حَسَبَ ظُرُوفِ الْفَقِيرِ ، فَهَذَا شَاعِرٌ يَتَحَسَّرُ
عَلَى أَنْ أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ وَلَيْسَ عِنْدَهُ نَاقَةٌ تَرعى الْبَقْلَ :

نَمُ مُطَرَّنَا مَطَرَةً رَوِيَّةً فَنبِتُ الْبَقْلَ وَلَا رَعِيَّةً
وَقَالَ آخَرُ :

أَمْرَعْتُ الْأَرْضَ لَوْ أَنَّ مَالًا لَوْ أَنَّ نَوْقًا لَكَ أَوْ جَمَالًا
أَوْ ثَلَّةً مِنْ غَنَمٍ إِمَّا لَا (٢)

الصعلكة والصعاليك

فِي هَذِهِ الْبَيْئَةِ الَّتِي يَنْعَمُ فِيهَا بَعْضُ النَّاسِ وَيَشْقَى الْآكْثَرُونَ وَيَحْسُ بَعْضُ الْفُقَرَاءِ
أَنَّهُمْ مَهِينُونَ مَبْعُدُونَ عَنِ الْمِشَارَكَةِ فِي الْحَيَاةِ الْاجْتِمَاعِيَةِ الرَّاقِيَةِ لَيْسَ بِعَجِيبٍ أَنْ يَنْقِمَ
بَعْضُ الْفُقَرَاءِ ذَوِي الطَّاحِيَةِ وَالْحَسِ الْمَرْهَفِ وَالشَّجَاعَةِ عَلَى تَحْقِيقِ مَا يَبْتَغُونَ - عَلَى
نِظَامِ الْمَجْتَمَعِ الْمَالِيِّ ، وَكَانَ هَذَا سَبِيًّا فِي نَشْأَةِ الصَّعْلَكَةِ وَالصَّعَالِيكِ فِي مَجْتَمَعٍ لَا تَحْمِيهِ
شَرْطَةٌ وَلَا يَخْضَعُ لِقَانُونٍ وَلَا يُلْجَأُ إِلَى مُحَاكَمَةٍ ، مَجْتَمَعٍ يَدِينُ لِلْقُوَّةِ وَيَمْجِدُ الْأَقْوِيَاءَ .
وَهَلْ كَانَ الصَّعَالِيكُ فَقَرَاءَ ؟ نَعَمْ كَانُوا مِنَ الْفُقَرَاءِ ، فَلِسَانُ الْعَرَبِ يَقُولُ
لَهُمْ الْفُقَرَاءُ (٣)

(١) الْأَغَانِي ١٦/٦١

(٣) الْلسَانُ مَادَّةُ صَعْلَكِ

(٢) الْبَيَانُ وَالتَّبْيِينُ ١٣١/٢ - ١٣٢

والقاموس المحيط يقول : صعلكة : أفقره ، والصعلوك : الفقير ، وتصعلك : افتقر ، وعروة الصعاليك هو ابن الورد . لأنه كان يجمع الفقراء في حظيرة فيرزقهم مما يغنمهم ^(١) . ويقول : ذو بان العرب : لصوصهم وصعاليكهم ^(٢) .

وحاتم بن عبد الله يقول .

غنينا زمانا بالتصعلك والغنى فسكلا سقانا بكأسيهما الدهر
بغنى بالفقر والغنى ^(٣) ، وقد جعل التصعلك مقابلا للغنى .

وقال أوس بن حجر :

يا عين جودى على عمرو بن مسعود أهل العفاف وأهل الحزم والجود
أودى ربيع الصعاليك الأولى انتجعوا وكل ما فوقها من صالح مود ^(٤)
وكذلك يقول الأعشى :

على كل أحوال الفتى قد شربتها غنيا وصعلوكا وما إن أقاتها ^(٥)
ويروى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يستفتح بصعاليك المهاجرين أى يستنصر
بفقرائهم ^(٦) .

والصعلوك الذى لا مال له . قال الشاعر (جابر بن ثعلبة الطائي) :

كأن الفتى لم يعر يوما إذا اكتسى ولم يك صعلوكا إذا ما تمولا ^(٧)
وهذه النصوص لا تدع مجالا للشك فى أن الصعلكة هى الفقر ، وإن كان قد
تطور مدلول الكلمة فيما بعد .

ولكن الصعاليك ليسوا الفقراء فحسب ، فهم فقراء يدركون ما بينهم وبين الأغنياء
من فوارق فى النعمى والبؤس ، فيمضهم هذا الإدراك ، ويمضهم خلاء أيديهم ومعجزتهم

(١) . القاموس مادة صعلك (٢) القاموس مادة ذئب

(٣) ديوان حاتم ١٢ والأمالى ٢/٢٨٢ (٤) مرات وأشعار الليزى مخطوط (٥) ديوان الأعشى ٦١

(٦) الأمالى ٢/٢٨٢ (٧) تهذيب السكامل ٩٨/٢ وشرح ديوان الحامسة للعرزوقى ٣٠٥/١

وسوء حظهم ، ثم هم تواقون إلى أن يحيا حياة أرقى مما يحبون ، فماذا يعملون ؟ إن في قلوبهم شجاعة وفي أجسامهم قوة وفتوة ، وهم لهذا كله يثورون على النظام المالى ، ويغنمون عنوة ما قد حُرّموه ، ويجدون سعادة أن يثأروا لأنفسهم من ذوى الجدة . وقد وحد بينهم الحرمان والألم فعطف بعضهم على بعض وتقاسموا ما غنموا ، ولقد تهز بعضهم الأريحية والإشفاق فيؤوى الصعاليك العاجزين عن السلب ويكفل لهم أسباب الحياة . كهذا كان يفعل عروة بن الورد ، فقد لقب بعروة الصعاليك لجمعه إليهم وقيامه بأمرهم إذا أخفقوا في غزواتهم ، ولم يكن لهم معاش ولا مغزى ،^(١) وكان هذا كرمًا من عروة حبه إلى الصعاليك حتى لقب بأبى الصعاليك ، وبعروة الصعاليك .

وخير ما يمثل منهج عروة قوله إن المرء إن لم يكن ذا مال ومحبو بامن أقاربه فموته خير من حياته ، ولقد تسأله زوجه عن وجهته ومسلكه فلا يستطيع أن يجيبها ، لأن الصعلوك لا يعرف لنفسه وجهة ولا مسلكا ، فالأرض كلها مسالكه . وهو شفيق بإخوانه الصعاليك يحب لهم فلا يدعهم للجوع ، وإنه فى حبه لهم يشبه الظمان المحب للماء ، ومن طبعه أن يحميهم ويحمى جاره ويبقى لصديقه :

إذا المرء لم يبعث سواما ولم يرح	عليه ولم تعطف عليه أقاربه
فللموت خير للفتى من حياته	فقيراً ومن مولى تدب عقاربه
وسائلة أين الرحيل ، وسائل	ومن يسأل الصعلوك أين مذاهبه ؟
مذاهبه أن الفجاج عريضة	إذا ضن عنه بالفعال أقاربه
فلا أترك الإخوان ما عشت للردى	كما أنه لا يترك الماء شاربه
ولا يستصام الدهر جارى ولا أرى	كمن بات تسرى للصديق عقاربه ^(٢)

(١) الأغاني ٧٣/٣ الدار

(٢) الديوان ٤ وشعره النصرانية ٩٠٥/٦ وفى شرح ديوان الحماسة المرزوقى والأغاني ١١/٢٤

ساسى أن الأبيات لأبى الفشناس من لصوص بتي تميم فى الإسلام

ولهذا المنهج ، ولهذا الخلق ذاعت شهرة عروة ، وجرى تقديره على ألسنة السادة ، قال عبد الملك : « من زعم أن حائماً أسمع الناس فقد ظلم عروة بن الورد »^(١) ، وقال : ما كنت أحب أن أحداً ولدني من العرب إلا عروة بن الورد لقوله :

أتهزأ مني أن سممت وأن ترى بجسمي مسّ الجوع والجوع جاهد
لأنى امرؤ عافى إنائى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد
أقسم جسمي في جسوم كثيرة وأحسوا قراح الماء والماء بارد^(٢)

كان أمل الصعاليك أن يعيشوا في غنى ، فيقتضوا حاجاتهم ، ولا يشعروا بمرارة الحرمان ، ولذلك يغامرون ليثروا أو ليهلكوا فيتخلصوا من شقوة الفقر ، قال عروة :

أقل على اللوم يا ابنة منذر ونامى فإن لم تشتهى النوم فاسهرى
ذريني ونفسي أم حسان إننى بها قبل ألا أملك البيع مشتر
أحاديث تبقى والفتى غير خالد إذا هو أمسى هامة فوق صير
ذريني أطوف في البلاد لعلى أخليك أو أغنيك عن سوء محضر
فإن فاز سهم للنية لم أكن جزوعاً ، وهل عن ذاك من متأخر
وإن فاز سهمى كفكم عن مقاعد لكم خائف أديار البيوت ومنظر^(٣)

ويظهر أنهم كانوا يعتقدون بأنهم على حق فيما يصنعون ، فيزعمون أن المال مال الله ، فليأخذوا منه ما يشاءون ، فهم إذاً أوغل في الاشتراكية من الاشتراكيين وقد عبر الأحيمر السعدى في الإسلام عن هذه الفكرة بقوله إنه يخجل من الله أن يراه يجر حبلاً لا بعير فيه ، وأن يسأل اللئيم الشحيح بعيراً وقد خلق الله بعيرانا كثيرة ، فلما لا يأخذ منها ما يشاء ؟ ثم أفصح عن بغضته للجماع بقوله إنه يأنس إلى عواء الذئب ويفرق من صوت الإنسان ، وأشهد الله على كراهيته للناس حتى لتأذى عينه وقلبه بمرآهم :

(١) الأغاني ٣ / ٧٤ الدار

(٢) الديوان ٧ والعقد الفريد ١ / ٢٧٥ والماء بارد أى في فصل الشتاء أو لأنه يشربه على جوع

(٣) الديوان ١٣ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ صير : قبر

فيحس برده .

وإني لأستحي من الله أن أرى أجرا حبلًا ليس فيه بعير
وأن أسأل الجبس اللثيم بعيره وبعرا ربي في البلاد كثير
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أظير
يرى الله أنى للأنيس لشانى ويغضهم لى مقلة وضمير^(١)

وخاطب عروة بن الورد زوجته بانه يحب البلاد ليفتنى فيتحمل حقوقا يعجزه
الفقر عن تحملها ، وأنه ليتألم أن تنزل نازلة بمن يعنى بهم ولا يستطيع أن يقدم إليهم
مساعدة . ونظرته هنا إلى الصعلكة نظرة من يراها وسيلة شريفة لأنها تيسر عليه
أن يقضى حقوقا ويقوم بعمل عظيم :

دعنى أطوف في البلاد لعلى أفيد غنى فيه لذى الحق محمل
أليس عظيما أن تلم ملية وليس علينا في الحقوق معول^(٢)

الصعاليك مغامرون شجعان ، يعتمدون في حماية أنفسهم وفي نيل مآربهم على
الفتك والجرامة والسلاح . وهم ذوو أنفة لا يرضون ذلة ولا يخضعون لتهديد .
حدث المفضل أن رجلا من همدان يقال له حريم أغار على إبل لعمر بن براق وخيل
فذهب بها . وعزم عمرو على أن يغير على حريم ، فقالت له امرأة كان يتردد عليها
ويحك لا تعرض لتلفات حريم فإني أخافه عليك ، خالفها وأغار عليه ، فاستاق كل
شيء له . فأتاه حريم بعد ذلك يطلب إليه أن يرد عليه ما أخذه منه ، فقال : لا أفعل ،
وَأَب عليه ، فانصرف وقال في ذلك حريم :

تقول سليمي لا تعرض لتلفة وليلك عن ليل الصعاليك نائم
وكيف ينام الليل من جل ماله حسام كلون الملح أبيض صارم
صموت إذا عض الكريهة لم يدع له طمعا طوع اليمين ملازم
نقدت به إلغا وساحت دونه على النقد إذ لا يستطاع الدراهم

(١) معجم الشعراء ٣٧

(٢) الديوان ٣١ وشعراء النصرانية ٩١٦/٦

ألم تعلمي أن الصعاليك نومهم قليل إذا نام الدثور المسلم
إذا الليل أذجى واكفهرت نجومه وصاح من الإفراط هام جواثم
ومال بأصحاب السكرى غالباته فإني على أمر الغواية حازم
كذبتهم وبيت الله لا تأخذونها مراغمةً ما دام للسيف قائم
كأن حريماً إذر جا أن يضمها ويذهب مالى يا ابنة القوم حالم
متى تجمع القلب الذكى وصارما وأنفا حيا تجتنبك المظالم
ومن يطلب المال الممنع بالقنا يعيش ذا غنى أو تحترمه المخارم^(١)
وكانت الصعلكة مفخرة لأنها شيمة الأقوياء الشجعان ، قال الأحيمر السعدى
فى الإسلام إن سيفه كفيل بأن يستولى على مال التجار :

تغيرنى الإعدام والبدو معرض وسيفى بأموال التجار زعيم
ولما تاب كاد لا يطيق صبراً وهو يرى القوافل محملة بالطعام والمتاع :
أشكو إلى الله صبرى عن زواملهم وما ألاقى إذا مروا من الحزن
قل للصوص بنى اللخناء يحتسبوا بزّ العراق وينسوا طرفة اليمن
فرب ثوب كريم كنت آخذه من القطار بلا نقد ولا ثمن^(٢)
وكان الأحيمر هذا يستبشر إذا ما سمع نهيق حمار ، لأنه يؤذنه باقتراب التجار :
نق الحمار فقلت أيمن طائر إن الحمار من التجار قريب^(٣)
وقال عمرو بن بركة :

متى تطلب المال الممنع بالقنا تعيش ماجداً أو تحترمك المخارم

وهم لشجاعتهم وقوتهم لا ينامون إلا غراراً ، يتسمعون سائر الناس وأصواتهم
لعلهم أن ينالوا منهم شيئاً ، قال عمرو بن بركة الهمداني :

(١) الأغاني ١١٣/٢١

(٢) الأمالي ٤٩/١ . اللخناء : التى لم تحتن . الفطار : جماعة الإبل المقطورة

(٣) معجم الشعراء ٣٧

وكيف ينام الليل من جُلِّ ماله
غموض إذا عض الكريهة لم بدع
حسام كلون الملح أبيض صارم
ألم تعلّى أن الصعاليك نومهم
له طمعاً ، طوعُ اليمين ملازم
متى تجمع القلب الذكي وصارما
قليل إذا نام الخُلّي المسالم
متى تطلب المال الممنوع بالقنا
وأنا حميا تجتنبك المظالم
تعش ماجداً وتخرمك المخارم (١)

ثم هم ذوو أنفة يسلبون ولا يطلبون ، وإذا عضهم الجوع صبروا ولم يطلبوا ،
حتى لقد وصف الشنفرى نفسه بأنه يديم الصبر على الجوع حتى يذهب ويذهل عنه
ويفضل أن يستف التراب على أن يكون لإنسان نعمة عليه ، ولولا هذا لعاش
في رغد ، ولكن نفسه أبية لا ترتضى المذلة :

أديم مطال الجوع حتى أميته
وأستف ترب الأرض كي لا يرى له
وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل
على من الطول امرؤ متطول
ولولا اجتناب الذم لم يُلَف مشرب
يعاش به إلا لدى وما كل
ولكن نفساً حرة لا تقيم بي
على الضيم إلا ريثما أتحوّل (٢)

ولذا ذم عروة بن الورد الصعلوك المتكاسل الخامل الذي يقنع بأن يهرق العظم
ويجلس حول المجازر ، ويقنع بأنه يملأ بطنه وينام نوما عميقا ، ويخدم نساء الحى لأنه
لا عمل له ، فإذا ما أتى الليل صار هز يلا منسكسرا . ومدح الصعلوك المشرق الوجه
الذى يغامر ، فإن قتل كان مشكورا مذكورا بالجرأة ، وإن غنم كان بالغنيمة جديرا :

لما الله صعلوكا إذا جنَّ ليله
يعد الغنى من نفسه كل ليلة
مُصافي المشاش آلفاً كل مجزِر
أصاب قراها من صديق ميسر
ينام عيشاء ثم يُصبح ناعسا
يحت الحصا عن جنبه المتعفر

(١) الأماي ١٢٢/٢ والأغانى ١١٣/٢١

(٢) أعجب العجب في شرح لامية العرب . محمود الزمخشري ٢٥ - ٣٠

يُعين نساءَ الحى ما يستعنه ويمسى طليحا كالبعير المحسر
ولكن صعلوكا صفيحة وجهه كضوء شهاب القابض المتنور

فذلك إن يلقى المنية يلقها حميدا وإن يستغن يوما فأجدر^(١)

وقال حاتم إنه يجوس فى ظلمات الليل مدرعا بالظلام إذا تخوف الجبان أن يجوس
خلال الصحراء ، وإن الصعلوك لن يكتسب ثناء ولا مالا إذا هو لم يقتحم المخاطر ،
ودعا بالهلاك للصعلوك الضعيف العزيم الذى لا أمل له إلا أن يأكل ويلبس ، وأعجب
بالصعلوك البعيد الهمة ، المقدام على الأحداث :

وليل بهم قد تسربت هوله إذا الليل بالنسكس الضعيف تجهما
ولن يكسب الصعلوك حمدا ولا غنى إذ هو لم يركب من الأمر مغلما
لحا الله صعلوكا مناه وهمه من العيش أن يلقى لبوسا ومطعا
ولله صعلوك يساور هممه ويمضى على الأحداث والدهر مقديما^(٢)

ومما يدل على أن الصعلوك كانت فتوة وقوة أن لقيط بن زرارمة لما قتل أشيم بن
عوف من قيس بن ثعلبة ثارا لأخيه علقمة افتخر بأنه ثار من مأوى الصعاليك ، وبأنه
قطع بقتله أنف اليمامة كلها ، وخير رجالها :

فإن تقتلوا منا كريما فإننا قتلنا به مأوى الصعاليك أشيما
جدعنا به أنف اليمامة كلها فأصبح عرنين اليمامة أكثما
قتلنا به خير الضيعات كلها ضبيعة قيس لا ضبيعة أضيجا^(٣)
وقد سبق إعجاب عبد الملك بن مروان بعروة وجعله عدلا لأبيه .

(١) الديوان ١٥ وجمهرة أشعار العرب ٢١٤ والحماسة ١/١٦٥

(٢) شعراء النصرانية ١١٩ (٣) المؤتلف والمختلف ١٧٥ ومعجم الشعراء ٢٢٢

والصعاليك كثير ، أشبرهم عروة بن الورد ، وتأبط شرا ، والشنفرى ، والسليك ابن النسلكة ، وعمرو بن بركة ، والأحيمر السعدى ، وهم جميعاً يمتازون بسرعة الحركة والخفة والعدو والخبرة بدروب الصحراء ، وقدروا عن تأبط شراً والشنفرى والسليك أعاجيب فى ذلك .

وموجز مذهبهم :

(١) أنهم يهجمون على أموال البخلاء ، أما الكرماء فإنهم يعفون عن ما لهم
(٢) أنهم كانوا يقتسمون ما يغنمون ، وكانوا ديموقراطيين فى اقتسامهم ،
فليس للرئيس نصيب أعظم من غيره ، فقد أغار عروة وغنم كثيراً ذات مرة ، وكان فى غنائمه امرأة ، فأراد أن يستأثر بها ويقوم أصحابه ثمنها عليه ، فرفضوا ، وقالوا نقومها بإبل ثم يكون كل منا حراً فى أن يأخذها إذا شاء .

(٣) كانوا ذوى نجدة وعطف على الفقراء العاجزين عن الكسب والغارة ،
لذلك كانوا يعطونهم من الأسلاب أنصبة مثل أنصبتهم

(٤) لم يجدوا معرة فى عملهم ، بل إنهم فآخروا به ، ورأوه نوعاً من الفتوة والاقتصاد من البخلاء ، والأشترابية العادلة ، والتضامن الاجتماعى . لذلك شاد بذكر عروة عبد الملك بن مروان كما سبق .

أما أدبهم فيمتاز بخصائص .

- ١ - إنه يصور ضرباً من ضروب الحياة العربية لا نجده فى غيره .
- ٢ - أكثره مقطعات لا قصائد ، ولعل مرد هذا إلى أنهم ذوو خفة وسرعة واختلاس ، لم يألّفوا التمل والتروى والتنميق ، فجاء شعرهم صورة من حياتهم .
- ٣ - ويتميز شعرهم بوحدة الموضوع ، فليس فيه غزل وبكاء أطلال ووصف للرحيل والرواحل ، لذلك كانت مقطعاتهم موحدة الموضوع .
- ٤ - شعرهم يصور أعمالهم ونفسياتهم ، فهو صدى للواقع ، لهذا لا نجد فيه غزلاً . وكيف يتغزل من يقضى نهاره بترقب ، وليله يترصد ، ولا يستقر فى مقام ؟

البَابُ الثَّالِثُ

الحَيَاةُ الْخَلْقِيَّةُ
مِنَ الشَّعْرِ

الكرم

بواعثه . مظاهره . أوقاته وأنواعه . هداية الضيف . نثر بالكرم ومدح به

١ - بواعثه —

كانوا يحبون في بادية شحية بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوّال ، فكل واحد منهم مُعرّض لأن ينفد زاده ، فهو يقرى ضيفه اليوم لأنه سيضطر إلى أن يضاف في يوم ، ثم هم يكرمون لكلفهم بحسن الاحدوثة وطيب الثناء ، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف ، وكان المال في نظرهم وسيلة لا غاية ، وسيلة إلى الحياة الشريفة وإلى كسب المحامد ، ولذا عاب بعضهم قيس ابن عاصم ، لأنه أوصى بنيه فكان أكثر وصيته أن يحفظوا المال ، والعرب لا تفعل ذلك وتراه قبيحا ،^(١)

وكان كرم العربي من وسائل سيادته قال حاتم :

يقولون لي أهلك مالك فاقصد وما كفت لولا ما تقولون سيدا^(٢)

وكتب الأدب والتاريخ حوافل بأخبار كرمهم وقصص كرمائهم ، ولسنا نشك في أن كثيراً منها قد تطرق إليه الخيال والمبالغة ، ولكنها على ما فيها من خيال ومبالغة صورة لأصالة الكرم في نفوسهم وشيوعه بينهم .

وما يدل على أن الكرم أثيرٌ عندهم أنه كان من بواعث الميسر عند أجوادهم وأثريائهم إذا اشتد البرد وكَلَب الزمان ، ليطعموا ذوى الحاجة الجزور الذى تياسروا عليه ، قال لبيد في معلقته : رب جزور مما يذبح أصحاب الميسر دعوت ندمائى لنحرها بسهام الميسر المتشابهة الأجسام ، وأنا أدعو بالقداح لنحر هذه الناقة سواء أكانت عاقراً أم ذات ولد ، وأبذل لحمها للجيران جميعاً ، فالضيوف والجيران يشبعون كأنهم نزلوا بوادى تباله الخصيبة سهوله .

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحَفَّتِهَا بِمَغَالِقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُو بَيْنَ لِعَاقِرٍ أَوْ مَطْفِلٍ بَذَلْتُ لَجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا
فَالضَيْفِ وَالْجَارِ الْجَنِيبِ كَأَنَّمَا هَبْطًا تَبَالَةً مُخَصَّبًا أَهْضَامُهَا^(١)

ب - مظاهره

١ - فرحوا بالضيف وأعزوه ، وبالع الكرماء في الحفاوة به والتعهد له حتى صاروا له كالعبيد ، ولسكنهم شرفوا بهذه العبودية ، قال حاتم :

وإني لعبد الضيف مادام ثاويًا وما فيَّ إلا تلك من شيمة العبد^(٢)

وافتنحروا بتقديمهم للضيف أشهى ما يملكون ، قال مُضَرَّسُ بْنُ رَبِيعٍ إِنَّهُ يَقْدُمُ
لَضَيْفِهِ دَهْنَ سَنَامِ الْبَعِيرِ وَهُوَ أَنْفَسُ مَا فِيهِ :

وإني لأدعو الضيف بالضوء بعدما كسا الأرض أنصاحُ الجليد وجامده
لأكرمه إن الكرامة حقه ومثلان غندي قربه وتباعده
أبيت أعشيه السديف وإني بما نال حتى يترك الحى حامده^(٣)
وأشهدوا نساءهم على إكرامهم لضيفانهم كما أسبقنا .

ومن صنوف الحفاوة بالضيف أن يتلقاه المضيف ببشر وإيناس ويتبسط معه
في الحديث ، قالوا : تمام الضيافة الطلاقة عند أول وهلة ، وإطالة الحديث عند
المؤاكلة ، قال حاتم :

سلى الجائع الغرثان يا أم منذر إذا ما أتاني بين ناري ومجزرى
هل أبسط وجهي إنه أول القرى وأبذل معروفى له دون منكر^(٤) ؟
وقال عروة بن الورد العبسى أو عتبة بن بجير :

(١) تبالة : موضع ببلاد اليمن يضرب المثل بخصبه وهي غير تبالة الحجاج - بلدة مشهورة من أرض
هامة في طريق اليمن - معجم البلدان ٣٥٧/٢

(٢) الحماسة ٣٠٢/٢

(٣) ديوان حاتم ٩

(٤) البيان والتبيين ٢٣/١ وفي الحماسة ٢٤٦/٢ وشعره النصرانية ٩٢١/٦ أنها لعروة بن الورد

فراشي فراش الضيف والبيت بيته ولم يلّهي عنه غزال مقنع
أحدثه إن الحديث من القرى وتعلم نفسى أنه سوف يهجع^(١)
وقال عمرو بن الأهتم :

فقلت له أهلا وسهلا ومرحبا فهذا مبيت صالح وصديق^(٢)
٢ — وسخوا على الأرامل واليتامى والبائسين والسائلين ، قال أوس بن حجر
في رثاء فضالة بن كلفة :

أبا دليجة من يوصى بأرملة أم من لاشعث ذى هدمين طملال^(٣)
فجعله ملجأ الأرامل وموئل الفقراء

وقالت ابنة وثيمة في رثاء أبيها وثيمة بن عثمان إنه يهب المال التليد العزيز عليه ،
ويجود إذا اشتد البرد وقل المطر واشتد القحط ولم يجد الناس طعاما خيرا من هشيم
الشجر ، وهو في هذا الجذب نادى الأرامل واليتامى :

الواهب المال التلا د لنا ويكفينا العظيمة
واحمـر آفاق السما ء ولم تقع في الأرض ديمة
وتعذر الآكـال حتى كان أحمدـها الهشيمة
لا ثلّة ترعى ولا إبل ولا بقرٌ مُسيمة
ألفيته مأوى الأرا مل والمدفعة البيتمة^(٤)

٣ — ومن أنواع كرمهم صلة الأرحام وإعطاء السُّؤال ، قال ابن ربيع الهذلي
في رثاء رُقبة :

أعني ألا فابكى رُقبة إنه وُصُولٌ لأرحام ومِعْطاء سائل
فأقسم لو أدركته لحميته وإن كان لم يترك مقالا لقائل^(٥)

(١) الديوان ٢٢ وشعراء النصرانية ٩١٣/٦ والحماسة ٣١٤/٢ والبيان والتبيين ٢٤/١

(٢) البيان والتبيين ٢٤/١

(٣) ديوان أوس بن حجر ٢٣ والبيان والتبيين ١٥٩/١ هدم : بال . طملال : فقير

(٤) البيان والتبيين ١٦١/١ (٥) البيان والتبيين ١٨٢/١

ومن عجيب شأنهم في الكرم أن بعضهم كان يؤثر المحتاجين على نفسه وأولاده ، فقد حدثت امرأة حاتم أن سنة مجدة أصابتهم ، وفي ليلة كان صبيتهم يتضاغون جوعاً ، فجهد حاتم وزوجه في إسكاتهم ، ثم علل زوجه بالحديث فعرفت أنه يسرى عنها فتناومت . وفي آخر الليل جاءت إلى حاتم جارة تشكو إليه جوع بنيتها ، فقال : أعجليهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت تحمل اثنين ويمشي إلى جانبيها أربعة كأنها نعامة حولها رثاها ، فقام إلى فرسه فذبجه ، ونادى في الحى فهبوا جميعاً ، واجتمع القوم على اللحم يشوون ويأكلون ، أما حاتم فقد التفع في ثوبه وجلس في ناحية ينظر وما ذاق قطعة مما ذبح ، وقال :

مهلا نوارُ ألقى اللوم والعذلاً ولا تقولى لشيء فات ما فعلاً
ولا تقولى لمال كنت مهلكه مهلا وإن كنت أعطى الإنس والخبلاً
يرى البخيلُ سبيل المال واحدة إن الجواد يرى في ماله سبلاً^(١)
ح - أوقاته وأنواعه

وهم كرماء في كل وقت ولكنهم يشيدون بالكرم إذا أجذبت الأرض وكفت السماء ، لأنه كرم تحرص النفوس فيه على البقاء والاحتفاظ بالمال ، فهو كرم جدير بالثناء . قالت الخنساء في رثاء صخر :

وإن صخرأ لمكافينا وسيدنا وإن صخرأ إذا نشتو لنجار^(٢)
وقال ابن أحرر بن العمرد :

وكم حلها من تيجان سميذع مصافى الندى ساق بسهماء مطعم
طوى البطن متلاف إذا هبت الصبا على الأمر غواص وفي الحى شيطم^(٣)

(١) الديوان ١٩ والعقد الفريد ٣٣٤/١ وأمثال الميداني ١٢٣/١ الحبل : الجن . وفي الديوان (البحر والحبلا) .
(٢) ديوان الخنساء ٧٩ .
(٣) البيان والتبيين ٢٢٠/١ التيجان : الكثير الحركة . السميذع السيد الكريم . السهماء : السنة الشديدة المهزلة للأجسام . شيطم : فتي جسم طويل

وقد أكثروا من الافتخار بالكرم ، وأكثروا من المدح به إذا ما هبت ریح الشمال ، لأنها لا تهب إلا فی الجذب ، قالت بنت لیبد بن ربیعة العامری :

إذا هبت ریح أبی عقیل ذکرنا عند هبتها الولیدا
أشم الأنف أبيض عبشمیا أعان علی مروءته لیبداً^(١)

وهذه الریح مهبها من کرس بنات نعش إلى مغرب الشمس صیفاً ، وكانوا یکرهونها لبردها وذهابها بالغیم والحیا والخصب فی زعمهم ، وهی عندهم الشامیة ، وكانوا یمدحون بالإفناق والکرم إذا هبت هذه الریح^(٢)

وهی غیر ریح الصبا التي تهب من المشرق إلى المغرب ، وكانوا یحبونها لرقتها ولأنها تنجیء بالسحاب والمطر والری والخصب^(٣) .

وهم یقدمون اللبر قرى للضیف ، قال الحارث بن حلزة : لا تترك فی ضروع النوق بقایا لبن ، وصب لضيفافك ألبانها ، فإن شر اللبن الذی یدخر فی البیت :

لا تَكْسَعِ الشُّولُ بأغبارها إنك لا تدری من الناتج
واصْبِ لِأضیافك ألبانها فإن شر اللبن الواج^(٤)

ویقدمون اللحم ، ویفخرون بتقدیم شحم السنام ، قال محلم بن فراس یرثی منصوراً وهما ما ابني المسجاح :

ومن قتی یملأ الشَّیزى مکلة شحم السَّدیف نَدِیُّ الحمد مطعام^(٥)

كما یفخرون بسعة الجفان لأنها تدل علی كثرة الآكلین ، قال أبو قرودة یرثی ابن عمار :

یا جفنةً کیا زاء الحوض قد هدموا ومنطقاً مثل وشى الثَّیْمَةِ الحَبَرَةِ^(٦)

(١) بلوغ الأرب ٩٣/١ (٢) بلوغ الأرب ٣٧٣/٣

(٣) نهاية الأرب ٩٧/١ وبلوغ الأرب ٣٧٣/٣

(٤) البیان والتبیین ١٨٤/٣ الأغبار : بقایا اللبن . الشول : النوق . الواج : المدخر فی البیت

(٥) المرجع السابق ٢١٥/٢ (٦) المرجع السابق ١٩٠/١

وقال أمية بن أبي الصلت في مدح عبد الله بن جدعان .

له داع بمكة مُشْمَعْلٌ وآخر فوق دارته ينادى
إلى رُدْج من الشيزى عليها لباب البر يُلبك بالشهاد^(١)

وصور الأعشى جفنة المحلق ممتلئة فياضة في قوله :

تروح على آل المحلق جفنة كجاية السَّيح العراقي تفهق

وكان أبو محرز خلف يروى البيت هكذا ، ويقول (كجاية الشيخ) تصحيف ،
والسيح الذى يسيح على وجه الأرض ويجرى ، والجاية الحوض الذى يجمع فيه الماء^(٢)
وخير ما يمثل نهجهم فى الكرم قول المتنخل الهذلى إنه لا يستحق الخير إن أطعم
ضيفه قشر المقل (الدوم) وهو يستطيع أن يقدم قمحا :

لادر درى إن أطعمت نازلهم قرف الحسى وعندى البر مكنوز^(٣)

وأى عمل أدل على الكرم ورعاية الغريب من أن يفتقظ الرجل إبله لياخذ ما بقى
فى كروشها من الماء فؤثر به الغرباء فيحفظ بهذا الماء حياتهم وإن لم يكن فيه رى لهم ،
قال زيد الخيل :

نصول بكل أبيض مشرفى على اللاتى بقى فيهن ماء

عشية نؤثر الغرباء فىنا فلا هم هالكون ولا رواء^(٤)

ولم تكن مفخرة العربى بأن يقدم لضيفه طعاما عظيما لتزيد على مفخرته بأنه جاد
بأنفس ما يملك ، وقد علمت أن حاتما وكعبا وهرما لم يجعلوا أمثالا فى الجود لعظم
عطياتهم فى القدر ؛ لأن الواحد منهم إنما كان يقرى ضيفا أو يهب بغيراً أو عدداً
من الشام قليلا ، ولسكن ذهب صيتهم فى السماح وبعد ذكرهم فى الجود لأنهم كانوا
يعطون وهم محتاجون وينيلون وهم مختلون ، وكان عطاء الرشيد والبرامكة والمأمون

(١) المرجع السابق ٣١/١

(٢) الأمالى ٢/٢٩٦

(٣) البيان والتبيين ٣٠/١

(٤) الأمالى ١/١١٧

والأمين في اليوم الواحد أكثر من جميع ما أعطاه أولئك في جميع أيامهم ، ولم يضرب بواحد من هؤلاء المثل كما ضرب بأولئك ، فهذا يدل على أن الناس إنما استحسنوا منهم بذلهم مع ضيق أحوالهم وقلة ذات أيديهم ، فجعلوهم أمثالا مضروبة لكل من استغربوا فعله ، ^(١) .

و — هداية الضيف

ولقد يسدل الليل أستاره والغرباء يضربون في الصحراء رجالا وعلى كل ضامر ، وهم في حاجة إلى زاد أو ماء أو مبيت ، فما الذي يهديهم إلى محلة أو نجع ؟ تهديهم النار التي يوقدها السكرام لهداية الضيفان واجتذابهم ، وتهديهم النار التي يوقدها العرب لإنضاج الطعام أو للاستدفاء ، وقد أكثروا من التحدث بنار القرى ، قال عمرو بن عبد الله العجلي :

إذا أخذ النيران من حذر القيرى رأيت سنا نارى يشبُّ اضطرامها ^(٢)
وقال حاتم إنه يأمر غلامه بإيقاد النار إذا ما أطفأ البخيل ناره ، وإنه يأمر من يوقدها أن يتوسع فيها لتكبر وتعلو ، فإن جلبت ضيفا كان خيرا ، وإلا فقد أدوا ما رأوه واجبا عليهم ، وإن حاتما ليصف غلامه الذي يسبق الآخرين بإيقاد النار بالعفة وبأنه يستحق الثناء :

إذا ما البخيل الخب أخذ ناره أقول لمن يصلى بنارى أوقدوا
توسع قليلا أو يكن ثمَّ حسبنا وموقدها البادى أعف وأحمد ^(٣)
ويقول لغلامه في ليلة باردة الريح : أوقد لي نارك من يمر ، وإن جاءنا ضيف فأنت حر :

أوقد فإن الليل ليل قرُّ والريح يا غلام ريحٍ صرُّ

(١) السكراء لأبي هلال العسكري ٣٠-٣١

(٢) شعراء النصرانية ١١٣/١

(٣) معجم الشعراء ٢٢٣

عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفا فانت حر^(١)
وكانوا يوقدونها على المرتفعات لتكون أبين وأوضح ، وربما أوقدوها بالمندل
الرطب - وهو عطر ينسب إلى مندل بلد بالهند - ونحوه مما يتبخر به ليتهدي
إليها العميان ،^(٢).

ولا نوافق على أن إيقاد النار بالشجر العطير الرائحة كان هداية العميان إليها ،
ونرى أنه نوع من الترف وإظهار المقدرة ، والتباهى بالثراء ، ورغبة أن يشموا
هم رائحته الطيبة ، قال عدى بن زيد إن ناره كانت تحرق الشجر الطيب الرائحة :

رُبَّ نَارٍ بَثَّ أَرْمَقَهَا نَقْضِمُ الْهِنْدِيَّ وَالْغَارَا^(٣)

وقال الأعشى في مدح المحلق :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة إلى ضوء نار باليفاع تحرق
تشب لمقرورين بصطليانها وبات على النار الندى والمحلق

وقد هدوا الغرباء إلى منازلهم في الليل بنباح الكلاب أيضا ، وكنوا عن كرم الرجل
بجبن كلبه لأنه ينبج في الليل فإذا ما رأى الغرباء كف لأنه قد اعتاد أن يطرق الدار
غرباء ، قال أحدهم في كلب له .

أوصيك خيرا به فإن له خلائقا لا أزال أحمدها

يدل ضيفي على في غسق الليل إذا النار نام موقدها^(٤)

وإذا ضل السارى ليلا وتحير فلم يدر أين البيوت نبج فتسمعه الكلاب فتنبج
فيقصد أصواتها ، وهذا الذى تقول له العرب (المستنبح) قال الشاعر لقد ضل مستنبح
في ظلمات الليل ، فرفع له ناره وتلقاه بهشاشة ، وإن كانت نياقه قد ذعرت من مقدمه
لأنها تخوفت العقر :

(١) شعراء النصرانية ١١٦/١ (٢) بلوغ الأرب ٧٠/١

(٣) الأماي ٦٠/١ (٤) بلوغ الأرب ٧٠/١

ومستنجح بات الصدى يستجبه
رفعت له ناراً ثقبوباً زناده
فلما أتى والبؤس رادف رحله
فقامت له : أهل كأهل ، فلم يجر
وكانت تطير الشول عرفان صوته
ولم تمس إلا وهي خائفة العقر^(١)

وهذا عتبة بن بجير الحارثي يقص قصة ضيف مستنجح ، أضله صدى الصوت
فسمع بجير رغام ناقته وسمع نباح كلاب الحى ، فسأل أهله فقالوا إنه غريب طوحت
به الصحراء والخطوب ، فنهض بجير إلى نجدته ولقائه ، ولم تقعه معاذير تخلفها النفس
الشحيحة ، ونادى ابنه شبلاً فلبى نداه لأن الكرم سجية لها ، وربما أكرما من يعاديان ،
وقام متهللاً فزجر من نوقه الباقيات ، وطالما نحروا من نوقهم وأهانوها ليصونوا
أعراضهم . وجميل منه أن يسمى نفسه أبا الضيف :

ومستنجح بات الصدى يستجبه
فقلت لأهلى : ما بُغام مطية
فقالوا : غريب طارق طوحت به
فقامت ولم أجثم مكافى ولم تقم
وناديت شبلاً فاستجاب وربما
فقام أبو ضيف كريم كأنه
إلى جذم مال قد نهكنا سوامه
جعلناه دون الذم حتى كأنه

إلى كل صوت فهو فى الرحل جانح
وسار أضافته الكلاب النواج
متون الفيافي والخطوب الطوائح
مع النفس علات النفوس الشجائح
ضمننا قرى عشر لمن لا نصافح
وقد جد من فرط الفكاهة مازح
وأعراضنا فيه بواق صحائح
إذا عد مال المسكرين منائح^(٢)

ومن هذا القصص المصور للكرم قول المثقب العبدى إنه رأى سارياً أعياء
الميت ولم يجد فى الظلماء طريقاً ، ولسكنه رأى على البعد كوكبا فظنه ناراً فأسرع إليها

(١) الأمالى ٢١٠/١ تليح : تشير . وجه بشر : وجه منطلق

(٢) الكرماء ١٠ ، والهامسة ٢٤٠/٢

ليجد قراه ومبيته وأمانه ، فلما تبين أنه واهم رفع له المثقب ناره ، وأمر عبديه أن يشعلاها ، فقدم الضيف إليها مبتلا من المطر فرحب به أيما ترحيب ، ونهض إلى إبله الراقدة فتخير منها أسمنها ، ونحرها ، وأنضج له لحمها وقراه :

وسار تعناه المبيت فلم يدع	له طامس الظلماء والليل مذهبا
رأى ضوء نار من بعيد فجاءها	لقد أكذبت النفس بل رأى كوكبا
فلما استقار أنها إنسيه	وصدق ظنا بعدما كان كذبا
رفعت له بالكف نارا تشبها	شامية نكباء أو عاصف صبا
وقلت ارفعاها بالضعيد كفى بها	مناد لسار ليلة إن تأوبا
فلما أتاني والسماء تب له	فلقيته أهلا وسهلا ومرحبا
وقمت إلى البرك الهواجد فاتقت	بكوماء لم يذهب بها النى مذهبا
فرجعت أعلى الجنب منها بطعنة	دعت مستكن الجوف حتى تصيبا
تسامى بنات الغلى في حجراتها	تسامى عتاق الخبل ورذا وأشها (١)

هـ - نخر بالكرم ومدح به

وإذا كانوا قد افتخروا بالشجاعة فقد افتخروا أيضا بالكرم ، وكان نخرهم بالكرم دليلا على أنهم قمعوا شره نفوسهم وتغلبوا على شحها ، وآثروا غيرهم على أنفسهم أو أشركوه في خيرهم .

وقد مر بنا طرف من نخرهم بهذا ، ومن ذلك نخر حاتم بأنه سيد ماله ينفقه ويهينه فليس لماله عليه ساطان كسلطانه على بعض الناس ، وهو ينفق ماله في الخير فيفك به الأسرى ، ويقدمه طعاما للآكلين ، ويغيث به السائلين والمحتاجين إذا بخل الناس : إذا كان بعض المال ربا لأهله فإنى بحمد الله مالى معبد

(١) ديوان المثقب العبدى ١٨ مخطوط . تعناه : أتعبه . البرك الهواجد : الإبل النائمة . كوماء : سمينة . النى : السمن . تسامى : ترتفع . بنات الغلى : قطع اللحم . حجراتها : نواحي القدر

يفك به العاني ويؤكل طيبا ويعطى إذا من البخيل المصرد^(١)
وقال الشمخي الفزارى :

ألم تعلمى يا عمرك الله أننى كريم على حين الكرام قليل
وأنى لا أخزى إذا قيل مُقْتَرٌ جواد وأخزى أن يقال بخيل^(٢)
وقد تبرأ طرفه بن العبد من أن يكون نزوله إلى مسايل الماء والوهاد تهربا
من القرى :

ولست بحلال التسلاع مخافة ولسكن متى بسترقد القوم أرفد^(٣)
وقد رووا عن سلمى بن ربيعة أو علباء بن أرقم قصيدة ، يقول فى بعض أبياتها
إن العذارى ينضجن له اللحم على عجل فيدور به على الطالبين فى مغالق :
وإذا العذارى بالدخان تقنعت واستعجلت هزم القدور فلت
دارت بأرزاق العفاة مغالق بيدي من قمع العشائر الجلة^(٤)

وكانت لبعضهم فلسفة عملية صائبة مبنية على بعد النظر والتجربة ، فهم لا يرون
مدعاة للبخل ، لأنهم لن يموتوا جوعا ، ولأن المال الذى يخلفونه سيرثه غيرهم ، وقد
يكون من الورثة عدو يتلف ويتشوف ، ثم هم سيموتون وخير لهم أن يخلفوا
ذكرا طيبا . قال طرفه :

أرى قبر نحام بخيل بماله كقبر غوى فى البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيمة مال الفاحش المتشدد^(٥)
وفى هذا المعنى قال حاتم :

أماوى إن المال غاد ورائح ويبقى من المال الأحاديث والذكر

(١) شعراء النصرانية ١١٢

(٢) البيان والتبيين ١٥٤/٣ (٣) ديوان طرفه ٢٧

(٤) الأماوى ٨١/١ ، ونوادى أبى زيد ١٨٤

(٥) ديوان طرفه ٣١ . يعتام : يصطفى . الفاحش : البخيل

أماوى ما يغنى الثراء عن الفتى إذا حشر جث نفس وضاق بها الصدر^(١)
وتبدو العزيمة على بذل المال فى قوله :

أهن للذى تهوى التلاد فإنه إذا مت كان المال نهبا مقسما
ولا تشقين فيه فيسعد وارث به حين تخشى أغبر اللون مظلمها
يقسمه غنما ويشرى كرامة وقد صرت فى خط من الأرض أعظما
قليل به ما يحمدك وارث إذا ساق بما كنت تجمع مغنما^(٢)

حاتم هنا ساخط ناظم حزين ، يتمثل الموت والوارثين ، وبعضهم يتشوفون
موت الغنى ليرثوا ، لذا يوصى حاتم الغنى أن ينفق ماله فى السكرم حتى لا يستمتع به
شائى ، ولقد يشتري هذا الوارث الشائى محامد ومفاخر لنفسه بالمال الذى ورث .
ولعلمهم بكرم حاتم أكثر احتفاء من كرم غالب بن صعصعة ، لأن الناس بماثر
الجاهلية أشد كلفا . وإلا نال بال أيام الإسلام ورجالها لم تكن أكبر فى النفوس
وأحل فى الصدور من رجال الجاهلية ، مع قرب العهد ، وعظم خطر ما ملكوا ،
وكثرة ما جادت أنفسهم ، ومع الإسلام الذى شملهم ، وجعله الله تعالى أولى بهم
من أرحامهم ،^(٣)

ورثوا السكرماء فأشادوا بكرمهم فى حياتهم ، قال معية بن الحمام فى رثاء أخيه حصين :
نعت حيا الأضياف فى كل شتوة ومدره حرب إذ تخاف الزلازل
ومن لا ينادى بالهضيمة جاره إذا أسلم الجار الألف المواكل^(٤)

وأشاد السفاح بن بكير بن معدان اليربوعى بسعة وعمق القصاع التى كان يقدمها
لضيوفه يحيى بن شداد بن ثعلبة بن بشر :

والمالى الشيزى لأضيافه كأنها أعضاء حوض بقاع
لا يخرج الأضياف من بيته الا وهم منه رواء شباع^(٥)

(١) شعراء النصرانية ١٠٩/١ (٢) شعراء النصرانية ١١٩/١

(٣) الحيوان للجاحظ ١٠٨/٢ تحقيق هارون

(٤) الأمالى ٦٢/١ الألف : العاجز المي بالأمور

(٥) المفضليات ١٢٣/٢

وود حازم بن أبي طرفة أن تربيته ابنته بالكرم إذا مات ، فتعدد من مآثره أنه كان معطاء جوادا ، وأنه كان مأوى الجياع والبائسين :

بنيّة إن الموت لا بد لاحق بشيخك ماضى الأنام المودع
فإن قمت تبكىنى فقولى أبو الندى ومأوى رجال بائسين وجوع^(١)
ومن رثاء شداد بن الأسود — أبي بكر بن الأسود — لقتلى بدر :
فماذا بالقلب قلب بدر من القينات والشرب الكرام
وماذا من الشيزى تكمل بالسنام^(٢)

البخل

بعض الرجال بخلاء . بخل النساء ولومهن على الكرم . لماذا بخلت النساء ؟

١ — على أن شيوع الكرم فيهم ، وتقديرهم للكرم لا ينبغي أن بعضهم كان على بخل ، يرضن بماله على السؤال ، ويتهرب من النوال ، وقد هجى بالبخل بعض رجالهم ، وسنرى أن نساءهم كن أبخل من الرجال . قال الأعشى :

تبيتون فى المشتى ملاءً بطونكم وجاراتكم غرثى بيتن خمائصا

وعير عروة بن الورد خصمه بالبخل ، واقتخر بالكرم فى قوله :

إنى امرؤ عافى إنانى شركة وأنت امرؤ عافى إنائك واحد

أتهزأ منى أن سمئت وأن ترى بوجهى شحوب الحق والحق جاهد

أقسم جسمى فى جسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد^(٣)

على أن تنفيرهم من البخل دليل على وجوده ، وإلا فلماذا يهجنونه وينفرون منه ؟ إن الداعين إلى الخير والمنفرين من الشر إنما ينفرون من شر واقع فى المجتمع ويريدون أن يطهروا المجتمع منه ، أقول ذلك لأثبت أن بعض العرب كان بخيلا ، غير مجتزىء

بأهاجى الشعراء وتعبيرهم خصوصهم بأنهم بخلاء ، فقد يقال إن الشعراء يلصقون بأعدائهم ما ليس فيهم .

فمثلا يرى الهذلى أن طريق السيادة صعب المرتقى ، وأصعب ما فيه أن يكسر الراغب فى السيادة من حرصه على المال :

وإن سيادة الأقوام فاعلم لها صُعداء مطلبها طويل
أترجو أن تسود ولن نغنى وكيف يسود ذو الدعة البخيل؟^(١)

وحذر رجل بنت عمه من أن تزوج ببخيل جبان ، وإن قدم مهرأ مغريا ؛ ستين ناقة سمينات وغيرها من عبيد ورضا بما يريدون :

لا تقربى يا بنت عمى بوهة من القوم دفناسا غبيا مفندا
وإن كان أعطى رأس ستين بكرة وحكما على حكم وعيدا مؤلدا
ألا فاحذرى لا توردينك هجمة طوال الذرى جبسا من القوم قعددا^(٢)

وقد استرعى انتباهى وأنا أنقب فى الشعر القديم فيض من شكاية الرجال من نساءهم المانعات من الكرم اللائمات على الإسراف ، فمثلا حاولت امرأة حاتم أن تغل يده عن العطاء بدعوى أنه بسخائه قد أضر بنفسه وبها ، فعصاها ؛ لأن الكرم عادة راسخة عنده لا يستطيع أن يبطلها :

وقائلة أهلك بالجود مالنا ونفسك حتى ضر نفسك جودها
فقلت دعينى إنما تلك عادى لكل كريم عادة يستعيدها^(٣)
وضاق المثل بن رباح المرى بلائماته على كرمه ، لأنهن جاهلات بما يثمر الكرم من محامد ، ويدعين أنه إسراف وطيش ، وما الطيش إلا البخل والامر بالبخل :

(١) البيان والتبيين ٢٢٥/١

(٢) المرجع نفسه ٢٠٧/١ بوهة : أحمق . دفناس : بخيل حقير . بكرة : ناقة فنية . هجمة : قطيع من الإبل من أربعين إلى ما بعده . جبس : ثقیل . قعدد : جبان خامل

(٣) شعراء النصرانية ١٢٦/١

بَكَرَ العَوَازِلَ بِالسَّوَادِ يَلْمَنِي جَهْلًا ، يَقْلَنُ : أَلَا تَرَى مَا تَصْنَعُ ؟
 أَفْنَيْتَ مَالَكَ فِي السَّفَاهِ وَإِنَّمَا أَمْرُ السَّفَاهَةِ مَا أَمْرُكَ أَجْمَعُ (١)
 وَرَدُ حَطَائِطُ بْنُ يَعْفَرَ النَّهْشَلِي رَدَا مَفْحَمًا عَلَى زَوْجِهِ رُفْهَمُ الَّتِي زَعَمَتْ أَنَّ جُودَهُ
 أَهْلَكَهُمْ ، لِأَنَّهُ كَلَّمَا اقْتَنَوْا إِبِلًا بِذُلْهَا كَمَا يَصْنَعُ أَخُوهُ الْأَسْوَدُ ، فَقَالَ لَهَا غَيْرُ عَاجِزٍ
 عَنِ الْجَوَابِ : تَبْصُرِي ، فَهَلْ تَرِينَ أَنَّ الْهَزَالَ هُوَ الَّذِي أَمَاتَ زَيْدًا وَأَرْبَدَ ، وَإِنَّكَ
 لَتَعْجِزِينَ أَنَّ تَسْمِيَّ لِي كَرِيمًا مَاتَ مِنَ الْهَزَالِ ، وَتَعْجِزِينَ أَنَّ تَسْمِيَّ بِخَيْلٍ قَدْ تَخْطَاهُ
 الْمَوْتُ ، فَلَا السَّكْرَ يَمِيتُ ، وَلَا الْبَخْلَ يَبْقَى :

تَقُولُ ابْنَةُ الْعَبَّابِ رُفْهَمُ حَرَبْتَنَا حَطَائِطُ لَمْ تَتْرَكْ لِنَفْسِكَ مَقْعَدًا
 إِذَا مَا أَفْدَنَّا صِرْمَةً بَعْدَ هَجْمَةٍ تَكُونُ عَلَيْهَا كَابِنُ أُمِّكَ أَسْوَدًا
 فَقُلْتُ - وَلَمْ أَعَى الْجَوَابَ - تَبْنِي أَكُنْ الْهَزَالَ حَتْفَ زَيْدٍ وَأَرْبَدًا
 أَرَيْنِي جَوَادًا مَاتَ هَزَلًا لَعَلَّنِي أَرَى مَا تَرِينَ أَوْ بِخَيْلٍ مَخْلَدًا (٢)
 وَيَسْلُكُ الْمَخْبِلُ السَّعْدِيُّ مَسْلُكًا آخَرَ فِي الرَّدِّ ، حِينَ تَدْعِي عَادِلَتَهُ الَّتِي لَا تَعْلَمُ الْغَيْبَ
 وَلَا تَعْرِفُ مَا يَحْيِي بِهِ الْغَدَّ أَنَّ الْغَنَى يَخْلُدُ صَاحِبَهُ ، وَأَنَّ الْفَقْرَ يَجْلِبُ الْمَصَائِبَ ، فَكُنْهَا
 تَقُولُ إِنَّهُ يَنْقُصُ الْعُمْرُ وَيَسْرِعُ بِالْأَجْلِ ، فَيَقُولُ لَهَا : أَقْسِمُ أَنِّي لَوْ مَلَكَتُ مِائَةَ مِنْ
 الْإِبِلِ الْخَالِصَةِ الْبَيَاضِ الَّتِي طَارَ وَبَرَهَا مِنْ سَمْنِهَا مَا نَجَوْتُ مِنَ الْمَوْتِ :

وَتَقُولُ عَادِلَتِي وَلَيْسَ لَهَا بَغْدٌ وَلَا مَا بَعْدَهُ عِلْمُ
 إِنَّ الثَّرَاءَ هُوَ الْخُلُودُ وَإِنْ (م) الْمَرْءُ يُكْرَبُ يَوْمَهُ الْعُذْمُ
 إِنِّي وَجَدْتُكَ مَا تَخْلُدُنِي مِائَةَ يَطِيرُ عِفَاؤُهَا أَدَمُ
 وَلَئِنْ بَنَيْتَ لِي الْمَشْقَرُ فِي هَضْبٍ تَقْضُرُ دُونَهُ الْعَصْمُ
 لَتَنْقَبَنَّ عَنِّي الْمَنِيَّةُ إِنْ (م) اللَّهُ لَيْسَ كَحُكْمِهِ حَكَمُ (٣)

(١) الحماسة ٢/٢٨٦

(٢) الحماسة ٢/٣٢٠ . حَرَبْتَنَا : سَلَبْتَنَا مَالَنَا الَّذِي نَعِيشُ بِهِ . صِرْمَةٌ : جَمَاعَةٌ مِنَ الْإِبِلِ مِنْ عَشِيرَةِ

إِلَى أَرْبَعِينَ . هَجْمَةٌ : مِنْ الْأَرْبَعِينَ إِلَى مَا بَعْدَهَا (٣) الْمُفَضَّلِيَّاتُ ١/١١٦

وإذا كان الشعراء السابقون قد ردوا على العاذلات ردوداً شتى ، فإن أوجعها رد معاوية بن مالك العامري ، فقد اتهمته زوجته بالسفه والضلال لما رأت الناس يقصدونه فقال لها : ليكن عملي ضلالاً ، فسأفعله دائماً لأنى تعودته ، وهو بهذا يغيظها مرتين : قالت سمية : قد غويت بأن رأيت حقاً تناوب مالنا ووفود غي لعمرى لا أزال أعوده ما دام مال عندنا موجوداً^(١)

ولبعض الرجال أقاصيص مع نساءهم البخيلات ، كهذه التى رووها عن حجة ابن المضرب ، فقد رأى جاريتته ومعها قعب من لبن فقال : أين تذهبين ؟ قالت : إلى أولاد أخيك اليتامى ، فأراقه ، فلما أراح راعيه إبله عليه قال لعبديه : أزيحوا هذه الإبل على أولاد أخى ، فأراحاها كلها عليهم ، فغضبت امرأة حجة غضباً شديداً ، فقال :

لججنا ولجت هذه فى التغضب	ولط الحجاب دوننا والتنقب
تلوم على مال شفانى مكانه	فلومى على ما فاتك اليوم واغضبى
ولا تحسبنى ملدماً إذ نكحته	ولكننى حجة بن المضرب
فإن تجلسى فانت اقفى عيالنا	وإن تكهرى هذى المعيشة فاذهبي
وخطت بعود إتمد فوق عينها	لتذهب عقلى بالنواكة زيني
رحمت بنى معدان إذ ساف ما لهم	وحق لهم منى ورب المحصب
ولما رأيت النفس ألا تقرها	هدايا لهم فى كل قعب مشعب
رثيت لهم لما رأيت سوامهم	عطاء الموالى من أفيل ومصعب
فقلت لعبدينا أزيحوا عليهم	سأجعل بيتى مثل آخر معزب
وقلت خذوها واعلموا أن عمكم	هو اليوم أولى منكم بالتكسب

أحابي بها قبر امرئ لو أتته حريبا لأساني على كل مركب

اخوك الذي إن تدعهُ للممة يجبك وإن تغضب إلى السيف يغضب^(١)

فهو هنا يصور زوجه غضبي لأنه أنف أن تُهدى إلى أولاد أخيه لبنا في قعب كما يهدى إلى العبيد والبائسين ، فأمر عبديه أن يريحا الإبل على أولاد أخيه ليحتلبوا ما يشاءون ، ولم يعبأ بلومها وغضبها لأن هذا العمل قد أراح نفسه ، وهو ليس بليد الخس حتى ينصاع للومها ، وليس أحق حتى تخدعه بكحلها فتفسيه ما وجب عليه ، ولكنه رجل يحتفظ لنفسه بحقوقه ، فلتعش معه على ما يريد وهي إذن موضع رعايته كأنها أعز بنيه وإلا فلتفارق ، ثم صور الباعث له على عطفه .

وشبيه بهذا قول ضمرة بن ضمرة أن زوجه عجلت بلومه بعد موهن من الليل ، لأنه أعان ابن عمه بلبن من إبله ، فقال لها : كيف أبقي اللبن في أضراعها وابن عمي جائع ؟ هل ترين أني إذ امت تخمش على الإبل وجوها أو تعصب رموسها ؟

بكرت تلومك بعد وهن في الندى بسل عليك ملامتي وعتابي
ولقد علمت فلا تظني غيره أن سوف تخليجني سبيل صحابي
أأصرها وبني عمي ساغب فكفاك من إبة على وعاب
أرأيت إن صرخت بليل هامت وخرجت منها باليا أثوابي
هل تخمشن إبلي على وجوها أم تعصبن رموسها بسيلاب^(٢)

ويظهر أن عدل النساء كان شائعا معتادا ، حتى أن بعض الشعراء المادحين تحدثوا به ، فزهير في مدحه لحصين بن حذيفة يقول انه رآه صليحا والعواذل يلبنه تارة ويتوسلن إليه تارة ولكنه أعجزهن في كلتا الجاليتين :

(١) المؤلف والمختلف ١٨٣ لط : لزوم . ملهم : أحق ثقيل لحيم . أفتي عياننا : خيرهم . النواكة : الحق . ساف ملهم : نفد . أفيل : ولد الناقة . مصعب : خل من الإبل . حريب : في شدة
(٢) الأمل إلى ٢/٢٨٠ . بكرت : المراد هنا عجلت . البسل : الحرام هاهنا . تخليجني : تجذبني . الإبة : الحياء . السلاب : خرقه سوداء تتقنع بها المرأة في المأتم

وأبيض فياض يدهاء غمامة على معتفيه ما تغب فواضله
بكرت عليه غدوة فرأيته قعوداً لديه بالصريم عواذله
يفدنه طوراً وطوراً يلمنه وأعياناً يدرين أين مخاتله
فأقصرن منه عن كريم مرزأ عزوم على الأمر الذي هو فاعله
أخى ثقة لا تتلف الخمر ماله ولكن قد يتلف المال نائله
تراه إذا ما جئته متهللاً كأنك تعطيه الذي أنت سائله

ب — وبعد ، فيحق لنا أن نقف هنا وقفتين :

أما الأولى فهي أن الشعر الجاهلي ليس كله ممثلاً للعرب أجواداً كراماً كما ذهب الدكتور طه حسين ، يمثل لنا العرب أجواداً كراماً مهينين للأموال مسرفين في ازدرائهم ، ولكن في القرآن إلحاحاً في ذم البخل وإلحاحاً في ذم الطمع ، فقد كان البخل والطمع إذناً من آفات الحياة الاقتصادية والاجتماعية في الجاهلية ، وهو يبنى على هذه الدعوى وأمثالها أن الشعر الجاهلي مصنوع منحول ، لأنه لا يصور الحياة الجاهلية ، وإنما يصورها القرآن الكريم .

وقد رأينا أن الشعر الجاهلي تحدث بالبخل كما تحدث بالكرم ، وأن بعض الناس عُيروا بالبخل ، وأن بعض الناس نُقروا منه ، ولم ينفروا من رذيلة غير موجودة في المجتمع ، ثم رأينا أن النساء أبخل من الرجال أو هن حقاً بخيلات .

وأما الوقفة الثانية فهي تتصل بالمرأة البخيلة ، لماذا نجد كثيراً من الشعراء حين يفخرون بالكرم أو يمدحون به يصورون النساء عاذلات لا ثمات ؟ حتى قالوا إن حاتماً طلقته امرأته ، أو طلقها لأنها ألحت عليه أن يبخل .

ولماذا خصوا الزوجات بهذا العذل واللوم ؟

نستطيع أن ندعى أن هذا تخيل من الشاعر أراد به أن يعظم من عزيته ومروءته ، لأنه بكرم حتى حين يلام ، والشاعر أدار هذا الخيال على زوجته ولم يدره على أمه أو أخته أو ابنته لأن الزوجة ليست من قرابته ، ولكننا نرد على هذه الدعوى بأن من دواعي شرف الرجل أن تكون زوجته كريمة مثله لأنها من أصهار كرماء ، أو لأن كرم زوجها أعداها ، فليس مما يشرف الزوج أن يتخيل اللوم من الزوجة لا من أمه أو أخته .

ولم يبق في نظرنا إلا أن الشعراء صوروا حقيقة واقعة هي أن النساء بخيلات أو على الأقل أبخل من الرجال ، فهن لا يفتأن يلمن على السكرم ويسمينه سفها ، ويغزلن على مساعدة الضعاف ، ويدعين أنها تجلب الفقر والهلاك . . . ولعل بخلهن راجع إلى ظروف خاصة بهن ، منها أنهن بعيدات عن المجتمعات التي يفتخر فيها بالسكرم ، وأنهن ربات البيوت والحريصات على زاد الأسرة ، والمباشرات لما تحتاجه من طعام ، على أنهن عمليات أكثر من الرجال ، فلا يعبان بثناء يجر نقصا في الأموال أو فقرا وحاجة . وإذا صح هذا فإن ألصق الناس بالرجل زوجته ، فهي تلومه وتغضب من سخائه ، وهو يصور هذا اللوم وهذا الغضب ، ويرد على زوجته بما ترتضيه نفسه .

الشجاعة

١ - بواعثها

مفخرة العربي وحليته شجاعته ، يلبسها وتلبسه سواء أكان غنيا أم فقيرا ، ذا قبيل أم وحيدا ، وذلك أن أهل البادية متفردون عن المجتمع ، بعيدون عن الحماية ، يعيشون في العراء غير محتمين بأسوار أو جدران أو أبواب ، فهم يقومون بالدفاع عن أنفسهم ولا يكلونه إلى سواهم ، يحملون السلاح دائما ، ويتلفتون عن كل جانب ، ويتجافون عن الهجوع ، ويتوجسون للنبآت والهيعات ، ويتفردون في البيداء ، مدلين بياسهم ، واثقين بنفوسهم ، قد صار لهم البأس خلقا والشجاعة سجية (١) .

وإذا تقصينا حياة العربي منذ طفولته أدركنا أن الشجاعة ولدت معه، وأنه شب وكبر وهي تتمشى في دمه، وكيف لا وقد ربي في بيئة تتمدح بالبطولة والإقدام، وحسن البلاء في حماية الذمار والأخذ بالتأثر، وبالعدوان في كثير من الأحيان، وطالما فزع طفلا على قعقة السلاح وصيحات المتقاتلين، وسمع الأفاقيص عن شجعان من القبيلة حموها، وردوا المغيرين عليها، أو هجموا على أخرى وأجلوها، ثم شب فرأى الرماح تشبك والسيوف تتقارع والأبطال في ميدان الوغى تتنازع، ثم كبر فشارك في المواقع، وأفنى العمر في المعارك، فلا عجب أن كانت الشجاعة خلقا عاما عند العرب. « وقد كانت شجاعة العرب تشبه شجاعة قدماء الإغريق تعتمد على الحماسة وتحتفي سريعا أمام الفتور والتأخير، » (١).

وكان العربي يشجع إلى أن يلقي بنفسه في التهلكة راضيا مختارا إذا كان بذلك يحمي المرأة ويصونها من الأسر أو المهانة، وقد علمنا أن النساء كن كثيرا ما يصحبن المقاتلين، قال عمرو بن معد يكرب إنه لما رأى نساءهم يحجرين خائفات فتؤثر أقدامهن في الأرض الصلبة، وبدت حبيته لميس كالبدن، وكشفت عن محاسنها — التي كانت تخفيها من قبل — هلعاً وذعراً، لما رأى الشاعر ذلك هجم على رئيس كتيبة الأعداء، ولم يجد وسيلة غير ذلك :

لما	رأيت	نساءنا	يفحصن	بالمعزاء	شدا
وبدت	ليئس	كانها	بدر السماء	إذا تبسدى	
وبدت	محاسنها	التي	تخفى	وكان الأمر	جدا
نازلت	كشهم	ولم	أر من نزال الكبش	بدا	(٢)

ب — مظاهرها

وقد تنوعت مظاهر شجاعتهم، فمدحوا الموت في ظلال السيوف والبنود،

وهجوا بالموت على الفراش ، وسموه الموت حَتَفَ الأنوف . قال السموئل
ابن عديام :

وإنا لَقَوْمٌ ما نرى القتلُ سُبَّةً إذا ما رأته عامر وسَلول
يُقَرِّبُ حُبُّ الموتِ آجالنا لنا وتكرهه آجالهم فتطول
وما مات منا سيدٌ حَتَفَ أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل
تَسِيلُ على حدِ الظُّبَاةِ نفوسنا وليست على غيرِ الظُّبَاةِ تسيل^(١)

وقال عمرو بن شاس :

لَسْنَا نَمُوتُ على مضاجعنا بالليل بل أدواؤنا القتل
ورأوا أن الإقدام لا يذنى الأجل ، وأن الحياة الجديرة بالبقيا إنما هي حياة
الفتوة والمجد والشجاعة ، فمن العار أن يفرا المحارب من لقاء أعدائه ؛ لأن فراره موت .

قال الحصين بن الحمام المرى :

تأخرت أستبقى الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما
فلسنا على الأعقاب تدمى كلومنا ولكن على أقدامنا تقطر الدماء^(٢)

وفى هذا يقول عنتره :

بَكَرْتُ تُخَوِّفُنِي الحَتُوفَ كأننى أصبحتُ عن غرض الحتوف بمعزل
فأجبتها : إن المنية منهلٌ لا بد أن أُسْقَى بكأس المنهل
فاقتنى حيامك - لا أبالك - واعلمى أنى امرؤ سأموت إن لم أُقتل
وإذا حُمِلت على الكريهة لم أقل بعد الكريهة : ليتنى لم أفعل^(٣)

وشعارهم أن الإقدام حياة ومجد والفرار معرة وموت حقير ، قال الأسدى :

فإن السنان يركب المرءُ حده من العار أو يعدو على الأسد الورد^(٤)

(١) الحماسة ٣٨/١

(٢) الحماسة ٦٧/١ وفى عيون الأخبار ١٢٥/١ نسب الشعر إلى يزيد بن المهلب

(٣) ديوان عنتره ١٢٠ والعقد الفريد ١٢٤/١ (٤) البيان والتبيين ٢٥/٣

١) وافتخروا بصبرهم عند اللقاء وإن كان لقاء عنيفا ، حتى ينتصروا ، قال نهشل ابن حري :

ويوم كان المصطلين بحره - وإن لم تكن نار - قيام على جمر
صبرنا له حتى يُوخَ وإنما تفرج أيام الكريهة بالصبر^(١)
وذلك أنهم استطابوا الموت في المعارك واستطابهم الموت ، قال حارثة بن بدر :
وشيب رأسي واستخف حلومنا رعود المنايا فوقنا وبروقها
وإنا لتستحلي المنايا نفوسنا وتترك أخرى مرة ما تذوقها
رأيت المنايا بادئات وعودا إلى دارنا سهلا إليها طريقها^(٢)
وقد أسلفت أن الفرسان والشجعان كانوا يزدهون ببسالتهم في حديثهم إلى
حيياتهم وزوجاتهم ، ومن ذلك قول عامر بن الطفيل لزوجته :

طلقت إن لم تسألني أي فارس حليلك إذ لاقى صدام وخشما
أكر عليهم دعلجا ، ولبانه إذا ما اشتكى وقع الرماح تحمجا^(٣)
٣ - وإذا ما تافت القبيلة إلى أن يشيد شاعرها بمحامدها فلتشجع قلوبها ولتقطع
سيوفها ، عندئذ يحق للشاعر أن يملأ الأسماع نغارا ، قال شاعر لقومه وقد افتخر
عليهم أعداؤهم بالنصر :

وقافية قلت لكم لم أجد لها جوابا إذا لم تضربوا بالمناصل
فأنطق في حق بحق ولم يكن ليرحض عنكم قالة الخزي باطلا^(٤)
ولذلك اعتذر عمرو بن معد يكرب عن سكوته بأن قومه لم تنطقه شجاعتهم بفخر :
فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت^(٥)
٦) وكان من محامد القبيلة أن يكثر في الحروب قتلاها لأن هذا دليل على أنهم

(١) عيون الأخبار ١٢٥/١

(٢) الأغاني ٢٠/٢١ ساسي

(٣) الحماسة ٥١/١

(٤) البيان والتبيين ١٨٣/١

(٥) المرجع السابق ١٨٤/١ . أجرت : أسكنت

ألفوا الحروب وألفتهم ، وزبنوها وزبنتهم ، قال بشامة بن حزن النهشلى
أو المرقش الأكبر :

إني لمن معشر أفنى أوائلهم قيل السكاة : ألا أين المحامونا ؟
لو كان في الألف منا واحد فدعوا من فارس ؟ خالهم إياه يعنونا
إذا السكاة تنحوا أن يصيبهم حدّ الضبابة وصلناها بأيدينا
ولا تراهم وإن جلت مصيبتهم مع البكاة على من مات يسكونا
ونركب الكره أحياناً فيفرجه عنا الحفاظ وأسياف تواتينا^(١)

وقال دريد بن الصمة إنهم يابون إلا أن يموتوا في الوغى ، وإنهم دائماً على وتر ،
وحياتهم كلها إما أن يثأروا لأنفسهم وإما أن يثأر منهم :

أبي القتل إلا آل صمة إنهم أبوا غيره والقدر يجرى إلى القدر
فإما ترينا لا تزال دماؤنا لدى واطر يسعى بها آخر الدهر
فإنا للحم السيف غير نكيرة ونلحمه أحياناً وليس بذى نكر
يغار علينا واطرين فيشتقى بنا إن أصبنا ، أو نغير على وتر
قسمنا بذاك الدهر شطرين بيننا فما ينقضى إلا ونحن على شطر^(٢)

ولقد يقال إن شجاعتهم تهور ، ولكننا نقول إن هذا الذى نسميه تهوراً كان
هو الشجاعة فى أعلى مراتبها فى نظر أولئك الشجعان ، والشعر السابق يفتخر بالهجوم
على الأعداء إذ يتهيب الأبطال أن يهجموا ، ويفتخر بالتنافس على الإقدام وكثرة
القتلى فى الحروب ، وتلك فى نظرهم هى الشجاعة .

٤ — ونكاد نوقن بأن بعض شجعان العرب كانوا ينقرون عن الموت تنقيراً حين
لا يتصونون من مظان الختوف ، وإلا فما بال أبى سليط طريف بن تميم يأنف أن

(٢) الحماسة ١/٣٤٧ والقدر

(١) الحماسة ١/٣٤ وشعراء النصرانية ٣/٢٨٨

تجرى إلى القدر : القتل مقدر لهم وهم مقدرون له . نكيرة : عيب ومنكر .

يتقنع في المواسم والجموع كما يفعل الناس مخافة أن يغتالهم الأعداء ؟ وما باله لا يبالي أن يعرفه جميع فرسان العرب ؟ ولما أقبل حمصية الشيباني يتأمله قال طريف :

أَوَكَلِّهَا وَرَدَّتْ عَكَظَ قَبِيلَةٍ بعثوا إلى عريفهم يتوسم ؟
فتوسموني إنني أنا ذاكم شك سلاحي في الحوادث معلّم
تحتي الأغرّ وفوق جلدِي نثرة زغفّ ترد السيف وهو مُثَمِّلٌ^(١)

وقد عير درهم بن يزيد بن ضبيعة مالك بن العجلان ، لأنه كان إذا شهد الحرب بغير لباسه ويتنكر لئلا يعرف فيقصد :

إنك لاقِ غدا غُواةَ بني عَمِي فانظر ما أنت مُزْدَهَفٌ
فأبد سِيماكَ بعرفوك كما يبدون سِيماهم فتعترف^(٢)

فالشجاع الصنديد يُعلم نفسه بشارة كأنه يتحدى أعداءه. ويقول لهم ها أنذا ، وكان حمزة بن عبد المطلب يوم بدر مُعلِّماً بريشة نعامة حمرأ ، وكان الزبير بن العوام معلماً بعمامة صفراء^(٣)

ومن ضروب بسالتهم فخرهم بأنهم بخطون إلى الأمام ليدركوا العدو إذا ما قصرت سيوفهم عن أن تصل إليه ، قال الأخنس بن شهاب بن شريق التغلبي :

وإن قُصُرَتْ أسيافنا كان وصلها خطانا إلى القوم الذين نضارب^(٤)
وقال آخر :

إن لقيس عادةً تعتادها سلّ السيوف وخُطّي تزدادها^(٥)

ومن ذلك أن الفارس ربما زاد في طول رمح ليخبر عن فضل قوته ، ويخبر عن قصر سيفه ليخبر عن فضل نجده ، قال كعب بن مالك :

نصل السيوف إذا قُصُرْنَ بخطونا قدّما ونُلحِقُها إذا لم تُلْحَقْ

(١) البيان والتبيين ٦٩/٣ والأصمعيات من مجموعة وإيم البروسي ٦٧/١ فترة : درع متينة . زغف :
لينة واسعة محكمة . (٢) الأغاني ٢١/٣ الدار . مزدَهَف . مقتحم : تعترف : تعرف
(٣) البيان والتبيين ٧٠/٣ (٤) المفضليات ٧/٢ (٥) البيان والتبيين ٢٠/٣

وقال رجل من بني تميم بن نمير :

وصلنا الرقاق المرهفات بخطونا على الهول حتى أمكنتنا المضارب (١)
٥ - ولم تسكن النساء لينحن على قتيل في الحرب ، لأن قتله مجـد وشرف ،
ولأنهن تعودن أن يفقدن أعزاء في الحرب ، ولأن النواح عليه ينيء أن دمه مطلول ،
قال عمرو بن كلثوم :

معاذ الإله أن تنوح نساؤنا على هالك أو أن تضج من القتل (٢)
وقد اصطحب المحاربون نساءهم ليعثن الحمية والحماسة والبسالة فيهم ، كما فعلت
مذحج يوم فيف الريح ، فقد كانت معهم النساء والذراري حتى لا يفروا ، فإما
ظفروا وإما قتلوا جميعاً (٣). وفي هذا يقول عمرو بن كلثوم :

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
أخذن على بعولتهن عهداً إذا لاقوا كتائب معلينا
ليستلبن أفراساً وييضاً وأسرى في الحديد مقرنيننا
يقتن جياتنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا (٤)
وقد مر بنا أن بعض حكمائهم عاب هذا وعده مجازفة (٥)

٦ - ونحن نعلم كلفهم بالخير ، وسنتحدث عن هيامهم بها وإعزازهم لها ، ولسكنهم
رأوا أن الخير لا يجدر بها غير الشجاع المقدام ، أما الرعديد الجبان فخير خـلق
بأن يشرب إلا المرق ، قال عمرو بن جبلة بن باعث بن صريم في يوم ذي قار يحضض
قومه على القتال :

يا قوم لا تفرركم هذى الحرق ولا ويص البيض في الشمس برق
من لم يقاتل منكم هذا العنق فجنبوه الراح واسقوه المرق (٦)

(١) البيان والبيان ١٩/٣ (٢) الحماسة ١٨٨/١ (٣) أيام العرب ١٣٢
(٤) شرح القصائد العشر للتبريزي (٥) العقد الفريد ١٥٧/١
(٦) معجم الشعراء ٢٢٥ ويص : لعان . العنق : بضم العين والنون أو فتح النون الجماعة من الناس

وإذ كان الأسد أشجع الوحوش وملكها وأعظمها رهبة ألحقوا الرجل الشجاع به في جراته وغلبه ، وكذلك شبهوا الشجاع بالنمر لقوته وبسالته ، قال امرؤ القيس .

قولا لدودان عبيد العصا ما غرکم بالأسد الباسل ؟ (١)
وقال عوف بن عطية بن الحرير :

ألم تر أننا مردى حروب نسيل كأننا دُفَاع بَحْرٍ
ونلبس للعدو جلود أسد إذا نلقاهم وجلود نمر (٢)
وقال البراق في رثاء ظليل بن الروحان أخيه :

عين تجود وقلب واله كمد لما ثوى في الثرى الضرغامه الأسد (٣)
وفي قصيدة للمهلل بعد مقتل أخيه كليب وانتقامه من قاتليه يمدح بني شقيق الذين أقبلوا لنصرته بأنهم أسود الغاب :

فدى لبني شقيق حين جاموا كأسد الغاب تُجَلِّبُ بالزئير (٤)
وقد صور خدّاش بن زهير بن ربيعة شجاعتهم وشجاعة أعدائهم حين التحموا في عراق بأنهم كانوا جميعاً نموراً وأسوداً :

فعانقنا الكماة وعانقونا عراق الثمر واجهت الأسود (٥)
٧ - إنصاف الأعداء :

وبلغ من حبههم للشجاعة أن شهدوا بها لأعدائهم ، فأنصفوهم اعترافاً بشجاعة الخصم . قال مالك بن حطان - في يوم قُشاوة وقد انهزم :

وما ذنبنا أنا لقينا قبيلةً إذا واكلتُ فرساننا لا تواكل
يساقوننا كأساً من الموت مرة وعردّ عنا المقرنون الحناكل (٦)

(٢) الفضليات ١٢٨/٢ النمر . جمع نمر

(٤) شعراء النصرانية ١٧٠/٢

(١) البان والتبيين ٦/٣

(٣) شعراء النصرانية ١٤٤/٢

(٥) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٣

(٦) النقائض ٢٣ الحناكل : القصار الأفعال .

وقال عباس بن مرداس السلمى ينصف أعداءه ويشيد ببطولتهم :

فلم أر مثل الحى حيا مُصَبِّحاً ولا مثلنا يوم التقينا فوارسا
أَكْرَ وأحى للحقيقة منهم وأضرب منا بالسيوف القوانسا
إذا ما شددنا شدة نصبوا لنا صدور المذاكى والرماح المداعسا
إذا الخيل جالت عن صريع نكرها عليهم فما يرجعن إلا عوابسا^(١)

ومن المنصفات قول خدّاش بن زهير بن ربيعة :

فأبلغ إن عرضت بنا هشاما وعبد الله أبلغ والوليدا
أولئك إن يكن فى الناس خير فإن لديهم حسبا وجودا
همو خير المعاشر من قریش وأوراهم إذا قدّحت زنودا
بأنا يوم شمت قد أقننا عمود المجد إن له عمودا
فجاءوا عارضا برّدا وجئنا كما أضرمت فى الغاب الوقودا
فعانقنا الحكمة وعانقونا عراقك الثمر واجهت الأسودا
فلم أر مثلهم هُزّموا وقلوا ولا كذيانا عنقا مجودا^(٢)

وليس الغرض من الشهادة للعدو بالشجاعة أن يتخذها الشاعر سلما للفخر المضاعف، لأنهم هُزّموا الشجعان، وإنما هى شهادة منبعثة عن إعجاب بالشجاعة وتقدير للشجعان، فى المثالين السابقين إقرار بشجاعة الخصوم، وفى المثال الثالث إقرار بأنهم خير قریش، وأن الشاعر لم ير مثلهم فى قلتهم وشجاعتهم، ولو أنه أراد الفخر بالنصر ووصف خصومهم بالشجاعة كذبا لقال إنهم كثير وإنهم شجعان.

ومن أحسن ما قيل فى إنصاف العدو الشجاع قصيدة لعبد الشارق بن عبد العزى الجهنى، منها :

تنادوا يا كبهشة إذ رأونا فقلنا : أحسنى ضرباً جُهينا

(١) الحماسة ١٧٥/١ والأغانى ٦٨/١٣ ساسى. مصبجا : أغرنا عليه صبجا . القوانس : الببضات . المذاكى : الخيل التامة السن والقوة . المداعس : الطاعنات (٢) طبقات الشعراء لابن سلام ٥٣

سمعنا دعوة عن ظهر غيب فجلنا جولة ثم ارعونا
فلما أن تواقفنا قليلا أنخنا للكلال فارمينا
فلما لم ندع قوسا وسهما مشينا نحوهم ومشوا إلينا
تلاؤ مزنة برقت لأخرى إذا حجلوا بأسياف ردينا
شددنا شدة فقتل منهم ثلاثة فتية ، وقتل قينا
وشدوا شدة أخرى فجزوا بأرجل مثلهم ورموا جونا
وكان أخى جوين ذا حفاظ وكان القتل للفتيان زينا
فأبوا بالرماح مكسرات وأبنا بالسيوف قد انحنينا
فباتوا بالصعيد لهم أحاح ولو خفت لنا الكلمى سرينا^(١)

فهذا شاعر أشاد ببطولة أعدائه ، وقال إن هؤلاء الأعداء قد رجعوا برماحهم مكسرة من أجسامنا ودروعنا ، وإننا رجعنا بسيوفنا منحنية من دروعهم وبيضاتهم . وانجلى المعركة عن جرحى من الأعداء يئنون ، وعن جرحى منا عاجزين عن السرى معنا إلى قومنا .

ويفصل المفضل العبدى بلاءهم وبلاء أعدائهم تفصيلا لا تحيز فيه ، يقول فى ختامه :

بكل قرارة منا ومنهم بنان فقى وجمجمة فلىق
وكم من سيد منا ومنهم بذى الطرفاء منطق شبيق
فأشبعنا الضباع وأشبعوها فراحت كلها تثق يفوق
فتلقى الحارث الوضاح منهم كأن سواد لمته العذوق
وقد قتلوا هم منا غلاما كريما ما نخونه العروق^(٢)
واعترف عمرو بن معد يكرب بأن نساءهم ولولن كما ولولت نساء أعدائهم :
عجت نساء بنى زياد عجة كهجيج نسوتنا غداة الأرب^(٣)

(١) الحماسة ١٧٧/١ تلاؤ مزنة : شبه لمعان السلاح السكين بالمزنة البارقة . حجلوا : خطوا خطأ متقاربا . ردينا : أسرنا . قين : اسم فارسهم .

(٢) حماسة البحتري ٦٢ تثق : ملآن . العذوق : العنايد . العروق : الأصول .

(٣) المرجع السابق ٦٣

الجـنـبـن

وفي بعض الهزائم اعترف الشاعر بجن حلفائه وضعف قومه ، وتحسر لأن جنبهم عقل لسانه عن مدحهم والفخار بهم ، قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي :

لحاً الله جرماً كلها ذرّ شارق وجوه كلاب هارشت فازبأرت
فلم تغن جرم نهدّها إذ تلاقنا ولكن جرماً في اللقاء ابذعرت
ظلمت كأنى للرماح درية أقاتل عن أبناء جرم وفرت
فلو أن قومي أنطقني رماحهم نطقت ولكن الرماح أجرت^(١)

وذلك أن جرماً قتلت رجلاً من بني الحارث وارتحلت إلى بني زبيد قوم الشاعر ، وهب بنو الحارث للثأر ، فعبأ عمرو قبيلة جرم لقتال بني نهد حلفاء بني الحارث ، وتعبأ هو وقومه لقتال بني الحارث ، ففرت جرم من قتال بني نهد وانهزمت زبيد ، فلام الشاعر جرماً ولا م قومه أيضاً . ورواية البيت الثاني في الحماسة (فلم تغن) ولكن المعنى لا يستقيم إلا بتصحيحها كما صححناها .

ولقد صرح كثير من الشعراء بفرارهم ، وتلمسوا المعاذير لنفوسهم ، وتنوعت معاذيرهم ، ولا يعنيننا صدقهم أو كذبهم في تبرير فرارهم ، وإنما يعنيننا أنهم اعترفوا بالفرار ولم يكتفوا .

فر أوس بن حجر ذات يوم من جموع بني عبس وغيرهم ، واعتذر بأنه لما شهد الجموع خاف ، لأنهم شجعان ، ودافع عن نفسه بأن فراره اليوم لامعة فيه إذ أن شجاعته مشهورة وبلاءه محمود من قبل .

(٢) الحماسة ٥٢/١ . هارشت : احترشت . ازبأرت : نهبت للشر ، والمهارشنة والاحتراش ، يقال في الكلاب . ابذعرت : فرت .

أجاعة أم الحصين خزانة
ورسط أبي شهيم وعمرو بن عامر
مطاعين في الهيجا مطاعيم للقرى
كان جلود الثمر جيت عليهم
فضموا علينا حجرتنا بصادق
وليس الفرار اليوم عاراً على الفتى
على فرارى إذ لقيت بني عبس ؟
وبكرأ ، فجاشت من لقاءهم نفسى
إذا اغبر آفاق السماء من القرس
إذا جمعجعوا بين الإناخة والحبس
من الرأى حش النار في الحطب اليبس
إذا جربت منه الشجاعة بالأمس^(١)

وفي يوم بدر فر الحارث بن هشام وترك أخاه أبا جهل ، فعيده حسان بن ثابت
بقوله من قصيدة طويلة :

إن كنت كاذبة الذى حدثنى
ترك الأحبة لم يقاتل دونهم
ملأت به الفرجين فارمدت به
فأجابه الحارث بهذه المعاذير — وكان ذلك قبل إسلامه —
فنجوت منجى الحارث بن هشام
ونجا برأس طمرة ولجام
وثوى أحبه بشر مقام^(٢)

الله يعلم ما تركت قتالهم
وشممت ريح الموت من تلقائهم
وعلمت أنى إن أقاتل واحدا
فصدت عنهم والأحبة فيهم
حتى علوا فرسى بأشقر مزبد
فى مازق والخيل لم تقبدد
أقتل ولا يضُرر عدوى مشهدى
طمعألم بعقاب يوم مرصد^(٣)

وقد فر حيان بن الحكم الذى سمي (الفرار السلى) وحسن فراره تحسينا ، واعتذر
عنه اعتذاراً لا يخلو من طرافة ، قال إنه خلط السكتيتين فلما اختلطتا نفى يده منهما

(١) ديوان أوس ص ١٠ وحامسة البجترى ٥٢ ورواها صاحب العقد الفريد ١٧٢/١ لعمر بن معد يكرب
مع تغيير كثير . القرس : البرد . الثمر : جمع تمر . حجرتنا : ناحيتنا

(٢) العقد الفريد ١٧٠/١ وسيرة ابن هشام ٣٨٢/٢ الطمرة : الأثى الوثابة من الخيل . ملأت به
الفرجين : كناية عن سرعة عدوها حتى لا تترك سعة بين قوائمها . ارمدت : أسرع

(٣) الحامسة ٦٤/١ والعقد الفريد ١٦٥/١ وسيرة ابن هشام ٣٨٥/٢ . أشقر مزبد : دم أحمر
مجمد . مرصد : معد للشر .

وتركهما تكسر الرماح ظهور من فيهما ، فهم بين قتيل وموشك أن يموت ، وظرف
في اعتذاره بقوله : وأى خير لى فى أن تقول نساؤهم لى بعد قتلى : لبتك لم تمت ١٩

وكتيبة لبستها بكتيبة حتى إذا التبتت نفضت لها يدي
وتركتهم تقص الرماح ظهورهم من بين مقتول وآخر مسند
هل ينفعنى أن تقول نساؤهم - وقتلت دون رجالها - لا تبعد^(١)

وإذا كان الفرار السلى قد تطرف فى تبرير فراره ، فإن خبيب بن عوف فر يوم
مرداء هجر ، وبرر فراره بسبب آخر هو أن له روحا واحدة يحرص عليها ، ولو أن له
روحين لجاد بإحداهما وضمن بالآخرى :

بذلت لىكم يا قوم حولى وقوتى ونصحنى وما ضمت يداى من التبر
فلما تناهى لى الأمر من عدوكم إلى مهجى وليت أعداءكم ظهري
وطرت ولم أحفل ملامة عاجز يقيم لأطراف الردينية السمر
فلو كان لى روحان عرضت واحدا لكل ردينى وأبيض ذى أثر^(٢)

وما من شك فى أن الفرار عار ، والفار يجد فى تبرير فراره صادقا أو كاذبا ،
وهذا عذر آخر لقبیصة بن النصرانى يلقى فيه التبعة على حصانه ، ويقول إنه نفر فباعده
بينه وبين الحرب ، فباعه أو أهمله عقابا له :

ألم تر أن الورد عرد صدره وحاد عن الدعوى وضوء البوارق
وأخرجنى من فتية لم أرد لهم فراقا وهم فى مازق متضايق
وعض على فأس اللجام وعزنى على أمره إذ رد أهل الحقائق
فقلت له لما بلوت بلاءه وأبنا : تمتع من خليل مفارق
أحدث من لا قيت يوما بلاءه وهم يحسبون أننى غير صادق^(٣)

(١) العقد الفريد ١٦٤/١ وشرح ديوان الحماسة للرزوق ١٩١/١

(٢) العقد ١٧٧ الأثر : فرند السيف وجوهه

(٣) الحماسة ٢٥٢/١ الورد : اسم فرسه . عرد : انحرف . الدعوى : قول السكاة . من يبارز ؟
البوارق : السيوف والسلاح . عزنى : غلبنى . رد أهل الحقائق : أرجع المدافعون عن الحمى خيلهم للقاء
الأفران . بلاءه : سوء بلائه .

وبعد .. فهذا شاعر ومحارب آخر اسمه عُتَيْبَةُ بن الحارث بن شهاب فر يوم بُرَّة
عن ابنه حَزْرَةَ ، وتحسر ولكن حسراته لم تغنه شيئاً :

يا حسرتا لقد لقيت حسرة يالْتِمِمْ غَشِيَتْنِي غَمْرَةٌ
نعم الفتي غادرته بثيرة نجيت نفسي وترك حَزْرَةَ
وهل يترك الحر الكريم بَكْرَهُ (١)

ولقد يفر المحارب لأنه يتحقق من الهزيمة ، قال هيرة بن أبي وهب يعتذر عن
فراره ويكي عمر بن عبدود :

لعمري ما وليت ظهري محمداً وأصحابه جبنوا ولا خيفة القتل
ولكنني قلبت أمري فلم أجد لسيفي غناء إن ضربت ولا نبلي
وقفت فلما لم أجد لي مقدماً صدرت كضرغام هزبر أبي شبل (٢)

ولعله قد استبان من نخر للشعراء بشجاعتهم ، واعتذار آخرين عن جبنهم أو فرارهم
أن الشعر الجاهلي صادق في تصوير الحالين ، وصحيح النسبة إلى العصر الجاهلي ، فقد
قيل إن من بواعث الوضع والاختلاق في الشعر الجاهلي رغبة الشعراء في أن يرفعوا من
شأن قبائلهم وعشائرتهم ، فينسبون إليهم محامد لم تكن ، ومفاخر لم يتصفوا بها ، من
كرم وشجاعة وغيره وقوة الخ . . . ولكننا نقول إن هذا الشعر الذي يصرح بجبن
العشيرة ، ويعترف بالفرار ، ويشهد للأعداء بحسن البلاء ، صحيح الانتساب إلى العصر
الجاهلي ، ودليل على أن الشعر الجاهلي لم يكن مجال الوضع فيه رحباً سهلاً إلى هذا
الحد ، ولو أن الوضع كان شائعاً هذا الشيوع الذي يتصوره ويصوره بعض النقاد
ما بقي هذا الشعر الذي يجافي الفضائل العربية ، وينافي الطباع البدوية .

الطيش وسرعة الانفعال

كان الطيش خلقاً شائعاً في البادية ، وذلك طبعي حيث لا حكومة تردع ، ولا قوانين تمنع ، وحيث يعتقد كل امرئ في نفسه السمو والسيادة والقوة وعراقة المحدث ، ويتوقع كل فرد أن تنصره قبيلته وعشيرته فيثور معتمداً على أسناده وأعوانه ، ولا يقبل حسه إذا سمع ما يزرى به ، ثم يثور أيضاً لنصرة قريب أو حليف .

ولم يحبس العربي عواطفه وهو ربيب الحرية والانطلاق وحليف الصراحة واتضح الأخلاق ؟

العربي سريع الانفعال ، عصبي المزاج ، تثيره كلمة ، وتهيجه إشارة أو حركة ، إذا ظن أن شرفه قد مس غضب غضبة الأسد ، وطاوع هياجه واستسلم لثورته واستمرأها دون أن يفكر في عاقبة ، يمثل نفسيته قول سعد بن ناشب المازني مفتخراً بنفسه :

إذا هم لم تردع عزيمة همهم ولم يأت ما يأتي من الأمر هائبا

إذا هم ألقى بين عينيه عزمه ونكب عن ذكر العواقب جانبا

ولم يستشر في أمره غير نفسه ولم يرض إلا قائم السيف صاحباً^(١)

وأى دلالة على الجهل والطيش أقوى من قول عمرو بن كلثوم إنهم يبطشون بالناس عن قدرة وعن عدوان ، وإن لم يمسسهم عدوان ، فهم يبدءون بالظلم ، وإن لم يلحق بهم ظلم :

لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطش حين نبطش قادرينا

بغاة ظالمين وما ظلمنا ولكننا سنبداً ظالمين^(٢)

وفي قصيدة لقريظ بن أنيف شكوى من قومه وتهكم بهم لضعفهم وتخليبهم عن نصرته ، ومدح لبني مازن الذين نصره ، مدح لهم بالإسراع إلى الشر والتسابق إليه ، ومدح لهم بنصرة أخيه دون أن يعرفوا أنه مظلوم يستحق النصرة :

قوم إذا الشر أبدى ناجذيه لهم طاروا إليه زرافات ووحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا^(١)
وقد تهكم بحلم قومه وصفحهم عن المسىء ، وعجب من خلقهم هذا وسماه ضعفاً ،
وعجب من اتصافهم وحدهم بالضعف ، كأن الله لم يخلق للخوف منه أحداً غيرهم :
لكن قومي وإن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشر في شيء وإن هانا
يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأن ربك لم يخلق لحشيتة مواهم في جميع الناس إنسانا^(٢)
ومن مفاخر القبيلة ومفاخر الشعراء بها أن تنجد بنيتها وتنصرهم ، قال أدوم
ابن أبي الزعرار الطائي :

وليس أخونا عند شرٍّ يخافه ولا عند خير - ان رجاه - بواحد
إذا قيل من للمعضلات ؟ أجابه عظام اللهى منا طوال السواعد^(٣)
وما من شك في أن هذا الخلق مضافاً إلى أخذهم الثأر كان له بعض الأثر في كبح
العدوان ، لأن الضعيف مركب ذلول ، قال النابغة :
تعدو الذئاب على من لا كلاب له وتحتفى مَرَبَضُ المستأسد الحامى^(٤)
وقال زهير في معلقته :

ومن لا يزد عن حوضه بسلاحه يَهْدَمُ ومن لا يظلم الناس يُظلم

الحلم

١ - ليس طبعياً أن يكون العرب كلهم حقى أو طائشين ثائرين ، بل الطبيعى أن
تختلف طباعهم بعض الاختلاف ، فيكون فيهم الأحمق لا يتروى ولا يتدبر
ولا يرعوى ، ويكون فيهم القريب إلى الحلم ، وبين هذين درجات مختلفات ، ويكون

فيهم الحليم ، وإن كان العلماء قلة . وكان الحلم فضيلة في نظرهم وإن خالف السائد من أخلاقهم . مدح خلف بن خليفة مولى قيس بن ثعلبة قوما من العرب بالحلم وإن حدث ما يثيرهم ، فإذا ثاروا كانت ثورة عارمة :

عليهم وقارُ الحلم حتى كأنما وليدهم من أجل هيبتهم كهل
 إن استجملوا لم يعزبَ الحلم عنهم وإن آثروا أن يجملوا عظمُ الجهل^(١)
 ولم يتصف بالحلم إلا بعض الطاعنين في السن المجربين الذي أطفأت السنون
 حدتهم ، وإلا بعض الأقارب الذين يحتملون مساةة القريب الأحق ، وقد صور ذو
 الإصبع العدواني تحلمه على ابن عمه تصويراً رائعاً بارعاً مثل فيه تناقض خلقيهما ،
 وصبره على زراية ابن عمه به وعدوانه عليه ، من ذلك قوله :

ولى ابن عم على ما كان من خلق مختلفان فأقلية وبقليتي
 فإن ترد عَرْض الدنيا بمنقصتي فإن ذلك مما ليس يُشجيني
 ولا تُرى في غير الصبر منقصة وما سواه فإن الله يكفيني^(٢)
 وفي إحدى مرأى المهلهل لأخيه كليب يعدد من مناقبه أنه حليم وعفو مع قدرة
 على العقاب والانتقام :

وإنك كنت تحلم عن رجال وتعفو عنهم ولك اقتدار
 وتمنع أن يمسهم لسان مخافة من يُجير ولا يجار^(٣)
 ومع حقهم كانوا كثيراً ما يحملون على القريب والصديق ، لأن الحلم عليه لا يعد
 في نظرهم مذلة . ولمعن بن أوس قصيدة في الحلم على صديقه واستعطافه أملتأ عليه
 عاطفة حارة صادقة ، قال لصديقه : وحياتك ما أدري أين يموت قبل الآخر أنا
 أم أنت ؟ فلماذا الهجر والقطيعة يا صديقي والموت سيفرقنا لا محالة ؟ وأنا أخوك
 الثابت الود لم أخنك حين بطش بك عدو أو عاكسك الحظ ، كنت حرباً على من

(١) بلوغ الأرب ١٠٣/١

(٢) المفضليات ١٦٠/١

(٣) شعراء النصرانية ١٦٣/٢

حاربوك ، وكنت أعينك بمالى ، وكنت أصفح عن إساءتك أملا فى أن تثوب إلى رشذك . فلماذا تصر على إساءتى كأن فى نفسك داء قديما تشفيه بها ؟

ثق أنك إن قطعتنى فقد قطعت يمينك ، فمن أين لك بيدى منى ؟ على أنى لن أعدم غيرك بنى ويخلص ولن أعدم داراً غير الدار التى تقيم فيها أنت :

لعمرك ما أدرى وإنى لأوجل	على أينما تعدو المنية أول
وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن	إن أبزأك خصم أو نبا بك منزل
أحارب من حاربت من ذى عداوة	وأحبس مالى إن غرمت فأعقل
وإن سؤتى يوما صفحت إلى غد	ليعقب يوما منك آخر مقبل
كأنك تشفى منك داء مسامتى	وسخطى ، وما فى ريبتى ما تعجل
وإنى على أشياء منك تريبنى	قديماً لذو صفح على ذاك مجمل
سنتقطع فى الدنيا إذا ما قطعتنى	يمينك فانظر أى كف تبدل ؟
وفى الناس إن رثت جبالك واصل	وفى الأرض عن دار القلى متحول ^(١)

ويصور أوس بن حجر حلمه على ابن عمه وإن كان ظالماً بأنه لا يشتمه ، ويصفح عن عدوانه ، وإن استشاره هذا المعتدى وجده قريباً محبباً له عطوفاً ظريفاً :

لا أشتم ابن العم إن كان ظالماً	وأغفر عنه الجهل إن كان جاهلاً
وإن قال لى ماذا ترى ؟ يستشيرنى	يحدثنى ابن عم مخطط الأمر مزىلاً ^(٢)

ب — وقد رويت عن بعض حكمائهم قصص تبعث العجب والإعجاب ، وإن صحت أو صح بعضها كانت دليلاً على عزيمة راسخة كالجبال ، وضبط للنفس عز أن يكون له مثال ، فشلاً قيس بن عاصم كان شريفاً فى قومه وكان حليماً ، وكان الأحنف ابن قيس يقول : إنما تعلمت الحلم عن قيس بن عاصم ، أتى بقاتل ابنه فقال : رعبتم الفتى ،

(١) الحماسة ٢/٢ أبزاه : بطش به وغلبه

(٢) حماسة البحرى ٢٨٣ . مزىل . ظريف لطيف . مخطط : مجرب

وأقبل عليه وقال : يا بني ، نقصت عددك ، وأوهنت ركنك ، وأشمت عدوك ، وأسأت بقومك ، خلوا سبيله . وما حل حبوته ولا تغير وجهه ،^(١)

وفي رواية الميداني : سئل الأحنف بن قيس هل رأيت أحلم منك ؟ قال : نعم ، وتعلمت منه الحلم ، قيل : ومن هو ؟ قال : قيس بن عاصم المنقري حضرته يوما وهو محتب يحدثنا إذ جاءوا بابن له قتيل وابن عم له كتيف ، وقالوا : إن هذا قتل ابنك هذا ، فلم يقطع حديثه ولا نقض حبوته حتى إذا فرغ من الحديث التفت إليهم فقال : أين ابني فلان ؟ فجاءه ، فقال له : يا بني قم إلى ابن عمك فأطلقه ، وإلى أخيك فادفنه ، وإلى أم القتيل فأعطها مائة ناقة فإنها غريبة ، لعلها تسلو عنه^(٢)

وقيس هذا هو الذي سئل : بم سدت قومك ؟ قال يبذل الندي ، وكف الأذى ونصر المولى .^(٣) ولما جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم نظر الرسول إليه وقال : هذا سيد أهل الوبر^(٤) :

أما تلميذه الأحنف فقد سأله رجل : دلني على حمد بلا مَـرِزِة ، قال : الخلق السجيج ، والكف عن القبيح ، ثم اعلّموا أن أدوى الداء اللسان البذيء والخلق الرديء^(٥) .

الحرية والإباء

١ — وإذا كان العربي قد عاش في بيئة مجدبة قليلة الضرع نادرة الزرع شحيحة بالخير عامة ، فإنه قد استعاض عن هذا الفقر المادي بأعظم الغنى وأكثره إمتاعا وإسعادا ، ذلك هو الحرية والإباء ، قست عليه الطبيعة فخرته كثيرا من الوسائل المادية الحسية التي يترفّ بها المتحضرون ، ولكنه استمتع بخير مما يستمتعون به ،

(١) أمالي المرتضى ٧٦/١ والأغاني ١٤٠/١٢ سامي

(٢) الميداني ٢٠١/١

(٣) البيان والتبيين ٩٣/٢

(٤) المرجع السابق ٢٦/٢

(٥) المرجع السابق ٩٤/٢

فعاش في الصحراء حرأ كالهواء ، طليقا كالطير ، أيأ كالأسد ، قوى القلب كالصخر ، منبسط النفس كالبطحاء ، صافي المشاعر كالشمس المشرقة والبدر السافر .

وكانت الحرية طبيعة العرب منذ أقدم عصور التاريخ ، فقد روى ديودورس الصقلي أن الأنباط وهم من أعراب بلاد الحجر العربية (بطرا) كانوا ممتنعين من بذر القمح وغرس الأشجار المثمرة وبناء البيوت ، لما في هذه الأعمال من التضحية بالحرية طوعا ، والأعراب لذلك لم يستدلهم أحد ، وهم الذين لم يعطوا الفرس الجزية ، وقد أعطاها أهل فينيقية وفلسطين كما ذكر هيرودوتس ،^(١)

ولما قسمت دولة الإسكندر بعد موته أضحت البقاع القرية من حدود مصر وفلسطين والتي كان العرب يسكنونها من نصيب بطليموس ، وشايع الأنباط بطليموس على أنتيغون الذي فتح أحد قواده الماهرين بلاد الحجر بغتة بعد أن أصبح سيد سورية وفينيقية ، وأباد الأنباط بعدئذ جيش أنتيغون المؤلف من ٦٤٠٠ جندي ، فساق إليهم جيشاً آخر بقيادة ابنه ديمتريوس ، ولما بلغ ديمتريوس بلادهم خاطبوه بما رواه ديودورس : « لماذا تحاربنا أبها الملك ديمتريوس ؟ ونحن من سكان الصحارى التي لا تُسد فيها خلة . ترانا نقطن في هذه البقاع القاحلة فراراً من العبودية ، فاقبل هديتنا وارجع إلى حيث كنت فسنكون من أوفى الأصدقاء لك . ولسكنك إذا رغبت في حصرنا حرمت كل هناة ، ورأيت عجزك عن إكراهنا على تبديل طرق حياتنا التي تعودناها منذ نعومة أظفارنا ، وإذا قدرت على أسر بعضنا أيقنت أنك لن تجد واحداً ممن أسرت يستطيع أن يألف حياة غير التي ألفناها . »

فرأى ديمتريوس أن يقبل هدية الأنباط ، وأن يرضى بالمآب خاتماً بالسلم حرباً أبصرها مملوءة بالمصاعب^(٢) .

(١) حضارة العرب . جوستاف لوبون ٩٣

(٢) حضارة العرب . جوستاف لوبون ١١٤

وقد اشتهر فتك عمرو بن كلثوم بعمر بن هند لأنه بغى وتملكه الزهو ، واستعلت أمه على ليلي أم عمرو بن كلثوم ، وأرادتها أن تقوم منها مقام الوصيفة ، فصاحت :
واذلاه يا تغلب ، فسمعها عمرو بن كلثوم فثار ، ووثب إلى سيف ضرب به رأس عمرو بن هند^(١) ، وكانت هذه الحادثة سبب قوله معلقة المليئة بالفخر التي يقول فيها :

ألا لا يجهل أحدنا	فنجعل فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند	نكون لقيلىكم فيها قطينا ؟
بأى مشيئة عمرو بن هند	نطيع بنا الوشاة وتزدرينا ؟
تمددنا وأوعدنا . رويدا	متى كنا لأمك مقتوين ؟
فإن قناتنا يا عمرو أعيت	على الأعداء قبلك أن تلينا
ونحن التاركون لما سخطنا	ونحن الآخذون لما رضينا
وأنا المانعون لما أردنا	وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا العاصمون إذا أطعنا	وأنا العارمون إذا عصينا
إذا ما الملك سام الناس خسفاً	أيننا أن نقر الذل فينا ^(٢)

وكيف يقيم العربي على ضيم أو يحبس نفسه في منة ، وقد علم أنه لا يرضى بالضيم إلا الحمار ووتده ؟ قال المتلمس الضبعي :

ولا يقيم على ضيم يراد به إلا الأذلان غير الحى والوتد^(٣)

تم هو شجاع كما قدمنا ، لا يتهيب الموت وإنما يقدم عليه ويقبل ، والحياة الجديرة بالحفاظ في نظره إنما هي حياة البطولة والفتوة والقوة ، فلماذا يقبل العبودية ؟ إن الناس تستعبدهم الشهوات والمطامع والبقيا على الحياة وإن كانت مرقة مقيدة ، والعربي بعيد عن ذلك كله .

(١) الأغاني ١٨٢/٩

(٢) شرح القصائد العشر القبل : الملك . القطين : التابع والخادم . مقتون : خدام . العارمون : أصحاب الشراسة .

(٣) حاسة البحرى ١٩

كل عربي معتر بنفسه ، يأنف أن يخضع لغيره ، فلا يدين لرئيس أو حاكم إلا إذا كان من القبيلة نفسها وإذا مميزات يمتاز بها كالشجاعة أو الحسب أو الذكاء أو السن ، وهم يخضعون لمشايخهم خضوع عصبية وائتلاف لا خضوع تملك وسلطان .

ثم لماذا يخضع العربي لغيره وليس له مأوى يلزمه فلا يريم عنه ؟ خيائه متقلبة لا تناسبها أحكام ملزمة ، استعاض بالمدن ظهور الإبل والخيل ، واستبدل بالقوانين والشرطة العصبية والنصرة والشجاعة .

ب — وكان من آثار الشعور بالحرية والإباء أن ملأ العربي الصحراء نخاراً بقوته وعدته ، وهل يفخر بالقوة إلا الحر ؟ إنه يرضى كبريائه بهذا الفخر ، وإنه يخيف أعداءه منه ، يقول طرفة بن العبد إنه رجل نشيط ماض في أموره مخوف كالحية وإنه لا يفتأ يحمل سيفه القاطع ، وإذا ما انتصر به أو انتقم كفته ضربة ، حتى إن الذي يحجزه عن الضربة الثانية يقول له كفأك كفأك ، وإذا ما حمل القوم سلاحهم فإنه مسلح منيع إذا ما ظفرت يده بقائم سيفه :

أنا الرجل الضرب الذي تعرفونه	خشاشاً كرأس الحية المتوقد
فأليت لا ينفك كسحي بطانة	لأبيض عصب الشفرتين مهند
حسام إذا ما قت متصراً به	كفي العود منه البدء ليس بمعضد
أخي ثقة لا ينثنى عن غواية	إذا قيل مهلاً قال حاجزه : قدري
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى	منيعاً إذا بلت بقائمه يدي ^(١)

وكانهم لم يكفهم التفاخر بالقوة والشجاعة والبأس على أنه بين أفراد أو قبائل ، بل أبوا إلا أن يفخروا بتعاليمهم على الملوك كما قدمنا في معلة عمرو بن كلثوم ، وكما قال أعشى بنو حنورة عبد الله بن سنان ، أو أبو الحويرث :

(١) ديوان طرفة ٣٣ — ٣٤ الضرب : الخفيف القليل اللحم . خشاش : الرجل الماضي في الأمور . المعضد : الرديء المتهن . بلت : ظفرت . قائم : مقبض .

أَبَاحَ لَنَا مَا بَيْنَ بَصْرَى وَدُومَةَ كِتَابُ مِنَّا يَلْبَسُونَ السَّنَوْرَا
إِذَا هُوَ سَامَانَا مِنَ النَّاسِ وَاحِدٌ لَهُ الْمَلِكُ خَلَّى مَلِكُهُ وَتَقَطَّرَا
نَفْتٌ مُضَرَّ الْحَرَامَ عَنَّا سَيُوفُنَا كَمَا طَرَدَ اللَّيْلَ النَّهَارُ فَأَدْبَرَا^(١)

وهذا جابر بن حنى التغلبي يوبخ الملوك الذين لا يستحون منهم ويتقون محارمهم
مخافة أن ينتقموا منهم ، ويقول إنهم يسالمون الملوك ماسالموهم وما عدلوا ، ولسكنهم
يقتلوتهم إن جاروا ، وليس قتل الملوك عندهم حراما ولا محالا ، وهم بهذه الصورة
أنداد الملوك ونظراؤهم ، وطالما أنزلوا الختف بالملوك الذين احتقروا قوتهم
ولم يحسنوا السيرة :

أَلَا تَسْتَحِي مِنَّا مَلُوكٌ وَتَتَّقِي مَحَارِمَنَا ، لَا يَبُوءُ الدَّمُ بِالدَّمِ
تَعَاطَى الْمُلُوكُ السَّلْمَ مَا قَصَدُوا بَنَا وَلَيْسَ عَلَيْنَا قَتْلُهُمْ بِمَحْرَمٍ
وَكَاثِنٌ أَزْرَانَا الْمَوْتَ مِنْ ذِي تَحِيَّةٍ إِذَا مَا أَزْدَرَانَا أَوْ أَسَفَ لِمَاثِمٍ^(٢)

ومثله قول الشَّدَّاحِ بن عوف السكناني :

أَبِينَا فَلَا نَعْطِي مَلِيكَاً ظُلَامَةً وَلَا سُوقَةً إِلَّا الْوَشِيحَ الْمُقُومَا
وَالْإِحْسَامَا يَبْرُقُ الْعَيْنَ لِحُجَّةٍ كَهَاعِقَةٍ فِي غَيْثِ مَزْنٍ تَرْكَا^(٣)

العربي أبي يؤثر الموت على حياة الذلة ، قال المتلمس الضبعي :

لَا تَأْخُذْنِ ضِيَا وَلَا تَقْبَلْ ضُثُولَةً وَمَوْتُنْ بِهَا حَرًّا وَجِلْدُكَ أَمَاسٌ^(٤)

وهو الذي ينفر من المرضاة بالضم بقوله إن الضيم لا يصلح به إلا اثنان : الحمار
والوتد :

إِنَّ الْهَوَانَ حِمَارُ الْأَهْلِ يَعْرِفُهُ وَالْحَرُّ يَنْسُكِرُهُ وَالرَّسْلَةُ الْأَجْدُ
وَلَا يَقِيمُ عَلَى خَسْفٍ يَرَادُ بِهِ إِلَّا الْأَذْلَانُ عَيْرُ الْحَى وَالْوَتْدُ
هَذَا عَلَى الْخَسْفِ مَعْقُولٌ بِرَمْتِهِ وَذَا يُشَجُّ فَلَا يَبْكِي لَهُ أَحَدٌ^(٥)

(١) معجم الشعراء ١٥

(٢) شعراء النصرانية ١٩٠/٢

(٣) حساسة البحتري ٢٣

(٤) حساسة البحتري ١٨

(٥) حساسة البحتري ١٩

وشعار كل عربي يتمثل في قول عمرو بن براقة :

متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفا حميا تجتنبك المظالم^(١)

ح - وقد تبادى العرب في حب الحرية تبادياً أخرج بهم عن معنى الحرية وحدودها ، لأنهم فهموها حرية مطلقة من القيود التي تتنافى وطبائعهم ، وكان لهذا الفهم آثار سيئة بجانب آثاره الحسنة ، فلم يكد العرب يخضعون للقانون العام المنظم للعلاقات الدينية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلا لينفلتوا منه ، ذلك أن هذا التبادى في حب الحرية أو هذا التصور الخاطئ للحرية كان من أسباب ردة بعض المسلمين عن الإسلام بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذ رفضوا أن يخضعوا لسلطان أبي بكر ، وامشعوا من أداء الزكاة ، مدعين أنها إتاوة لأبي بكر ، جاهلين حكمها وآثارها الاجتماعية والروحية ، وكان أبو بكر حازماً إذ صمم على قتالهم لأن الإسلام وحدة لا تتجزأ ، وأقسم أن لا بد من حربهم إذا منعوه عقال بعير كانوا يؤدونه لرسول الله .

الوفاء

١ - في العالم المتحضر يلزم الناس بالوفاء ما يتعارفون عليه من عهود وصكوك ووثائق مدونة وشهود وعقود مسجلة الخ . . . ولكن البيئة البدوية كانت خلواً من هذه الضمانات المسجلة والوثائق المدونة ، فكانت الكلمة ينطقها الرجل عهداً يجب عليه أن يفي به وإلا عرض شرفه للتجريح .

كان الوفاء إذاً من أخلاق العرب ، وقد أسلفت في الحياة الاجتماعية أنهم كانوا يتعاقدون في المحالفات على الدم والرب والماء والطيب ويتمسحون بالسكبة ، يريدون تأكيد الحلف ومصاحبته بعمل مادي يذكر بالوفاء ، وكان الغدر معرة يتجافونها ،

وإذا ما غدر أحدهم رفعوا له لواء بسوق عكاظ ليظهروا به ، وفي ذلك يقول قطبة ابن أوس بن محصن بن جرول إنهم لم يغدروا ، وإنهم لا يأتون ما يشكك حليفهم فيهم :

أَسْمَى وَيَحْكُ هَل سَمِعْتَ بَغْدَرَةَ رَفَعَ اللِّوَاءَ لَنَا بِهَا فِي مَجْمَعٍ ؟
إِنَّا نَعَفُ فَلَا نُزِيبُ حَلِيفَنَا وَنَسْكُفُ شُحَّ نَفُوسِنَا فِي الْمَطْمَعِ^(١)

وافتر عوف بن الأحوص بأنهم ملوك ولكنهم لا يتكبرون على الناس ولذا يحييهم الناس بتحية العامة ، وهم يقولون بأيمانهم وبنذورهم :

ملوك على أن التحية سُوقَةٌ أَلَا يَأْمُرُ يَوْفَى بِهَا وَنُذُورَهَا^(٢)

ب — وقد ضربوا المثل في الوفاء بالسمومل بن عادياء ، وكان امرؤ القيس قد أودعه مائة درع ، فأتاه الحارث بن ظالم ويقال الحارث بن أبي شمر الغساني ليأخذها منه ، فتحصن منه السمومل ، فأخذ الحارث ابناً له غلاماً وكان في الصيد فقال : إما أن سلمت الأدراع إلي وإما أن قتلت ابنك ، فأبى السمومل أن يسلم إليه الأدراع ، فضرب الحارث وسط الغلام بالسيف فقطعه قطعتين ، وقال السمومل في ذلك :

وَفَيْتُ بِذِمَّةِ الْكِنْدِيِّ إِنْ إِذَا مَا ذُمَّمُ أَقْوَامٌ وَفَيْتُ

وَأَوْصَى عَادِيَاءَ يَوْمًا تَهْدِمُ يَا سُمُومَلُ مَا بَنَيْتُ

بَنَى لِي عَادِيَاءٌ حَصْنًا وَمَا كَلِمَا شَتَّتِ اسْتَقْبَيْتُ

وقد أشاد الأعشى بهذه الأريحية في مدحه لشريح حين وقع أسيراً في يد رجل كلبى كان الأعشى قد هجاه ، ومر به شريح فاستغاث به ليخلصه ، فذكره أولاً بكرم أبيه السمومل ، ثم عرض لوفائه فقال :

كُنْ كَالسُمُومَلِ إِذْ طَافَ الْهَمَامُ بِهِ فِي جَحْفَلٍ كَهَزِيعِ اللَّيْلِ جَرَارِ

إِذْ سَامَهُ خَطَطَى خَسَفَ فَقَالَ لَهُ قُلْ مَا تَشَاءُ فَإِنِّي سَامِعٌ حَارِ

(١) المفضيات ٤٣/١ وحامسة البجترى ٢١٦

(٢) المفضيات ١٧٦/١ . أليامهم . أيمانهم جمع ألية .

فقال : غدر وثكل أنت بينهما فاختر وما فيهما حظ لاختار
فشك غير طويل ثم قال له اقتل أسيرك إني مانع جاري
فاختار أذراعه كي لا يُسبَّ بها ولم يكن وعده فيها بختار^(١)
ويروون قصة أخرى كهذه بطلها هاني بن مسعود ، فقد وفى للنعمان وفاء أغضب
كسرى وأنشب حربا ، وقد تقدمت في صلة العرب بالفرس .

وقد ضرب المثل في الوفاء بقوس حاجب بن زرارة التي رهنها عند كسرى ، ذلك
أنه أتى كسرى في جذب أصابهم ، وسأله أن يأذن له ولقومه أن يصيروا إلى ناحية
من نواحي مملكته حتى ينتجعوا ، فقال كسرى : إنكم معشر غدر ، فإن أذنت لكم
أفسدتم البلاد ، وأغرتم على الرعية وآذيتموها . قال حاجب : فإني ضامن للملك ألا
يفعلوا ، قال : فمن لى بأن تفي أنت ؟ قال : أرهنتك قوسي ، فضحك من حوله ، فقال
كسرى : ما كان ليسلمها أبدا فقبلها منه ، وأذن لهم أن يدخلوا الريف
ولما مات حاجب شخص ابنه عطاردا إلى كسرى يطلب قوس أبيه ، فردها عليه ،
وكساه حلة ، فلما وفد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بني تميم وأسلم أهدى الحلة
إلى رسول الله ، فباعها بأربعة آلاف درهم^(٢) . وإلى قوس حاجب يشير أبو تمام
في قوله :

إذا افتخرت يوما تميم بقوسها نخرأ على ما وطدت من مناقب
فأنتم بذى قارٍ أمالت سيوفكم عروش الذين استرهنوا قوس حاجب
وبسبب الوفاء نصروا الحلفاء ، وذبوا عن الجار ، وقد تقدم ذلك .

ح — وأعظم الوفاء ما كان لعظيم مات أولمذهب مضطهد ، وقد رويت عن
العرب في ذلك أعاجيب ، وأعجبها ما يتصل بالنساء ، فقد كانت أم الخير بنت الحرث

(١) الأغاني ٧٩/٨ و ٨٥/٦ ساسي وحجاسة البحرى ٢١٥ وطبقاته الشعراء لابن سلام ١٠٩ .

(١) المعارف ٢٦٢

البارقية تحرض المسلمين على قتال جند معاوية يوم قتل عمار بن ياسر ، ولما آلت الخلافة إلى معاوية بعث إليها وحدثها وقص عليه أحد جلسائه خطبتها ، فقال لها معاوية : والله لو قتلتك ما حَرَجْتُ في ذلك ، فقالت : والله ما يسوءني يا بن هند أن يجرى الله ذلك على يدي من يسعدني الله بشقائه ^(١) .

ومثلها سودة بنت عمار ، كانت تحرض المسلمين يوم صفين على قتال معاوية بأبيات منها :

شمر كفعل أبيك يا بن عمار يوم الطعان وملتي الأقران
وانصر علياً والحسين ورهطه واقصد لهند وابنها بهوان

.

ثم وفدت على معاوية في خلافته فذكرها بما قالت ، فقالت : أي والله ، ما مثلي من رغب عن الحق أو اعتذر بالكذب ^(٢)

وقد روى كثير من أشباه هذا ، وقد يكون التعصب الحزبي قد صاغه أو شكله أو لونه أو تزيده فيه ، ولكن دليلاً على الوفاء للمذهب المضطهد ، وإذا كان العصر إسلامياً فإن الأخلاق الجاهلية التي لا تناقض الإسلام قد ظلت حية قوية .

وهذه قصة يرويها الأصمعي عن رجل من بني ضبة ، تصور وفاء زوجة عربية من بني سليم مازالت حالية بخلق البادية في العصر الجاهلي : ضلت لى إبل فخرجت في طلبها حتى أتيت بلاد بني سليم ، فلما كنت في بعض أحومها إذا جارية غشي بصرى إشراق وجهها ، فقالت : ما بغيتك ؟ إني أراك مولها قالت : إبل ضلت لى فأنا في طلبها قالت : فتجب أن أرشدك إلى من هي عنده ؟ قلت : نعم ، قالت : الذي أعطاكهن هو الذي أخذهن ، فإن شام ردهن ، فاسأله من طريق اليقين لا من طريق الاختبار ،

(١) بلاغات النساء ٤١ والعقد الفريد ٢١٧/١

(٢) العقد الفريد ٢١١/١ وبلاغات النساء ٣٥

فأعجبني ما رأيت من جمالها وحسن منطقتها ، فقلت لها : هل لك من بعل ؟ قالت : كان والله ، فدعى فأجاب إلى ما منه خلق ، ونعم البعل كان ! قلت لها : فهل لك في بعل لا تدم خلائقه ولا تخشى بوائقه ؟ فأطرقت ساعة ثم رفعت رأسها وعيناها تذر فان دموعا ، وأنشأت :

كنا كغصنين من بان غذاؤهما	ماء الجداول في روضات جنات
فاجتث صاحبها من جنب صاحبه	دهر يكر بفرحات وترحات
وكان عاهدتني إن خانتني زمن	ألا يضاجع أنثى بعد موتاة
وكنت عاهدته أيضا فعاجله	ريب المنون قريبا مذ سنينات
فاصرف عتابك عمن ليس يصرفه	عن الوفاء له خلب التحيات

قال : فانصرفت وتركته^(١) .

و — على أن الاستمسك بالعهد كان يُؤوَّل في بعض الأحوال بالضعف والجنوح إلى الهويني ، ولم يكونوا في تأولهم هذا إلا كالأقوياء في زماننا ، فطالما مزقوا معاهدات في العصر الحاضر ، وقد استمسك بها الضعفاء نصّاً وروحاً ، ولكن الأقوياء تنكروا لها وعدوها قصاصة ورق ، ولذا هجا العربي أحياناً بعدم الغدر :

قبح الإله بني كليب إنهم لا يغدرون ولا يفون لجار
يستيقظون إلى نهيق حمارهم وتنسام أعينهم عن الأوتار
وافتحروا بالغدر كما افتخروا بوثاقة العهد :

فما يستطيع الناس عقداً نشده وتنقضه منهم وإن كان مبرماً^(٢)

(١) أخبار النساء . ابن قيم الجوزية ٦١ وعيون الأخبار ٣١/٤

(٢) المفصليات ١٢١/٢

العفة والغيرة

١ - في هذه البيئة التي قامت فيها الأخلاق على الإباء والاعتزاز بالشرف وحسن الاحدوثة كان لا بد للرجال والنساء من العفة ومن التعفف ، لأن العدوان على عرض الغير يجر ويلا وحربا كما سبق . وكان لا بد من الغيرة على العرض أن يمس أو يחדش ولم تكن الخلاعة والمجانة مما يتغاضون عنه ، فامرؤ القيس طرده أبوه لخلاعته ، والمنافرة التي كانت بين علقمة بن علاثة وابن عمه عامر بن الطفيل كان سببها قول علقمة له : « إنك أعور البصر عاهر الذكر ، وأنا عفيف »^(١) . فتنافرا إلى هرم بن قطبة حكيم العرب ، فقال لعلقمة : « بأى شيء أنت أسود من عامر ؟ » قال : « أنا بصير وهو أعور ، وأنا أبو عشرة وهو عقيم ، وأنا عفيف وهو عاهر »^(٢)

والعفة شرط من شروط السيادة فهي كالشجاعة والكرم ، لذلك كانت أحد أسباب ثلاثة في تفضيل بسطام بن قيس على منافسيه .

« وما فضل به بسطام بن قيس على عامر بن الطفيل وعتبة بن الحارث بن شهاب أن بسطاما كان فارساً عفيفاً جواداً ، وكان عتبة فارساً عفيفاً بخيلاً ، وكان عامر فارساً جواداً عاهراً ، فاجتمعت في بسطام ثلاث خصال شريفة ففضلهما »^(٣) .

وقد لقبوا حسان ملك حمير وهو أحد الأذواء بلقب (ذو معاهر) لأنه كان يرمى بالفجور^(٤) .

ب - ولذا كثر الفخر بالعفة والمدح بها ، فقد افتخر برزعة بن عدى الأوسى بأنه لم يخن زوجته ولم يخاتل زوجة جاره :

لعمري أيها لا تقول حليتي
وأحفظ جاري أن أخاتل عرسه
ألا إنه قد خاتني اليوم برزعة
ومولاي بالنسكراء لا أتطلع^(٥)

(٣) أخبار النساء ٨٦

(٢) أخبار النساء ٨٦

(٥) مجالس تغلب ١/٢٥٣

(١) طهارة العرب ١٢

(٤) طهارة العرب ١٢

وافتخر شاعر آخر بأنه لا يعود من بيت جاره وهو يشعر بحاجة ملحة إلى العودة ، كالحمار الوحشى الذى لم يروّ وبه حاجة إلى معاودة الماء ، وهذه كناية لطيفة عن عفقه ، ثم كرر المعنى بطريقة ثانية أنه لا يسأل جاراته عن أزواجهن ورجلهن أم حاضرون أم غائبون ؟ ثم إنه لا يلهمى الصبى ليخلو هو بأمه :

ولست بصادر عن بيت جارى صدور العَـير غَمْره الورود
ولست بسائل جارات بيتى أغْيَابُ رجالك أم شهود
ولا ألقى لذي الودَعَاتِ سَوَطى لأهليه وريته أريد^(١)

ح - ولم تكن العفة حلية العاجزين أو تعلقة المحرومين ، وإنما كانت حلية الرجال ومفخرة من مفاخر الأبطال ، هذا عنتره بن شداد يفخر بأنه لم يراود أثنى عن نفسها وإنما يتزوجها من وليها بمهرها ، وبأنه يرى جاراته ويغشى دور جيرانه ما دام الرجال مقيمين ، فإن سافروا للغزو كف عن التردد ، وبأنه يغض نظره إن مرت به جارته حتى يوارىها بيتها :

ما استمت أثنى نفسها فى موطن حتى أوفى مهرها مولاها
أغشى فتاة الحى عند حليلها وإذا غزا فى الجيش لا أغشاها
وأغض طرفى ما بدت لى جارتى حتى يوارى جارتى مأواها^(٢)

ولم يندفع الشاعر وراء اللجاجة والادعاء وهو يغرى حبيبته ، فيدعى أنه قد تم أمثالها ، بل إنه قصر هؤلاء الأتراب على البعيدات الطليقات ، فهن لا زوجات ولا جارات ، قال قيس بن الخطيم :

ومثلك قد أصيبت ، ليست بكنة ولا جارة أفضت إلى خباءها^(٣)

وكانت الخنساء فى مراثيها لأخيها صخر حفية بعفته واستحيائه أن يفعل الفاحشة أو يتتبع بنظراته النساء :

(١) الأمالى ٤٥/١ تغمر . لم يرو وبه حاجة إلى ورود الماء (٢) ديوان عنتره ١٨٥

(٣) طهارة العرب ٣٣

لم تره جارة يمشى بساحتها لريبة حين يُخلى بيته الجار^(١)
وقالت :

ولا يقوم إلى ابن العسم يشتمه ولا يدب إلى الجارات تخويدا^(٢)
على أنه أكثر حياء من فتاة مخدرة وأعظم شجاعة من أسد فاتك :

وأحي من مخبأة كعاب وأجراً من أب شبل هزبر^(٣)

كذلك رثت خرق بنت هفان أخت طرفة بن العبد لأمه ، رثت قومها بفضائل ،
العفة إحداها :

النازلون بكل معترك والطيفون معاقد الأزر^(٤)
ورثي أعشى باهلة المنتشر بن وهب بأنه عفيف النظرات :

لا يهتك الستر عن أنثى يطالعها ولا يشدُّ إلى جاراته النظرا^(٥)

و — وأما عفة نسائهم فكانت مثلاً أعلى ، وهذا حديث هند بنت عتبة مع النبي صلى الله عليه وسلم على وجازته دليل على هذه العفة ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لما تلا عليها قوله تعالى : « ولا يسرقن ولا يزنين » ، قالت : ما أقبحه حالاً لا فكيف به حراماً ؟^(٦)
وهم جميعاً أشادوا بعفة الحبيبات وتمنعهن وبخلهن بحيث لا ينوِّلن شيئاً ، قال
علقمة بن عبدة بن النعمان بن قيس :

منعمة^١ ما يستطيع كلامها على بابها من أن تزار رقيب

إذا غاب عنها البعل لم تُفش سره وترضى إياب البعل حين يثوب^(٧)

وقال سويد بن أبي كاهل اليشكري :

تسمع الحداث قولاً حسناً لو أرادوا غيره لم يُستمع^(٨)

(١) الديوان ٨٢ وبلاغات النساء ١٦٨

(٢) الديوان ٦٨

(٣) الديوان ٧٠

(٤) ديوان الخرق ٢١

(٥) طهارة العرب ١٢

(٦) طهارة العرب ٣٤

(٧) المفضليات ١٩٠/١

(٨) المفضليات ١٩١/٢

فالأولى لا سبيل إلى محادثتها ، وليس ذلك لأن على بابها رقبيا ، فإن العفة طبيعة فيها ، على أنها لا تبوح بسر زوجها الغائب ، وإذا ما عاد سره أنها حفظته . والثانية تجود على جلساتها بحديث حسن ولا أمل لهم في غير الحديث .

ولم يكن الحديث محظورا دائما ، وإنما كان يباح كثيرا ، لما كانوا يرون من النقص في الريب ، ويأخذون أنفسهم بحفظ الجيران وما يعرف بعضهم عن بعض من الوفاء والتحرز من العار ، لأن الرجل منهم كان يصون حرمة جاره وصاحبه كصيانة الابنة والأخت ، والزوجة ولا يرى أحد منهم لنفسه رخصة في إضاعة ذلك . وإنما يتحمل الغدر ويرخص نفسه فيه من باين البوادي وخالط الحضر ؛ لأنه رأى أجناس العبيد وأخلط العوام وقد نشئوا على عادة فجروا عليها^(١)

هـ — وهؤلاء المتمدحون بالعفة لا بد أن يكونوا غيراً على النساء ، وغيره العربي ما زالت مضرب الأمثال ، ولذا قالوا : « كل شيء مهه ما خلا النساء وذكرهن » ، أى كل شيء يسير جميل سهل يحتمله الرجل إلا ذكر الحرم فإنه يتمتع منه^(٢) . وقد مر بنا أن من الأسباب التي عزی الوأد إليها تفضيل سبية أسرهما على أبيها . ورووا أن آكل المرار قتل امرأته هنداً لما سبها ابن الهبولة في غيابها ، فلما قدم تبعه وقتله وأنقذها منه . وربطها في أذنان الخيل حتى تقطعت أوصالها ، ولم يرض أن يسكها بعد أن نال منها ابن الهبولة وطره^(٣) .

وروا حادثة أخرى : كان القتال — عبد الله بن المضر حى — يتحدث إلى ابنة عمه عبد الله ، فقدم أخوها ورآهما فنهى القتال وحلف لئن رآه ثانية ليقتلنه ، فلما كان بعد ذلك بأيام رآه عندها فأخذ السيف وبصر به القتال فخرج هارباً ، فخرج في إثره فلما دنا منه ناشده القتال بالله والرحم فلم يلتفت إليه ، فبينما هو يسعى وقد كاد يلحقه وجد رجلاً مركوزاً أو سيفاً فأخذه وعطف على زياد فقتله ، وقال :

(٢) أمثال الميداني ٢٠/٢

(١) أخبار النساء ٨٦

(٣) الأغاني ٨٢/١٥ وطهارة العرب ٦

نہیت زیاداً والمہامہ بیننا وذکرته أرحام سعد وهیثم
فلما رأیت أنه غیر منته أملت له کفی بلدن مقوم
ولما رأیت أننی قد قتلته ندمت علیه أى ساعة مندم^(١)

وغار العربی من الغزل فی المرأة التي یحميها ، لأنه جرح لشرفه . علم الإصبع بن
محسن بحب مالک بن الصمصامة لأخته جنوب ، فألی یمیناً لئن عرض لها أو زارها
لیقتلنه ، ولئن عرض بها فی شعره أو ذکرها لیأسر نه ثم لا یطلقه حتی یجز ناصيته
فی نادى قومه ، فبلغ ذلك مالکاً فقال قصيدة طويلة منها :

فما الحلق بعد الأسر شرُّ بقية من الصد والهجران وهی قریب
أحب هبوط الوادین وإننی لمشتهر بالوادین غریب
أحقا عباد الله أن لست خارجا ولا والجا إلا علی رقب
ولا زائرا وحدي ولا فی جماعة من الناس إلا قیل أنت مرید
وهل رية فی أن تحن نجية إلى إلفها أو أن یحن نجیب^(٢)

وكان الغزل بالمرأة أحيانا ً يتخذ وسيلة للإغاظه فحسب ، كما فعل قيس بن
الخطيم فی يوم بعث ، إذ غاظ عبد الله بن رواحة بالغزل فی أخته عمرة
بقصيدة مطلعها :

أتعرف رسماً كاطراد المذاهب لعمره قفراً غیر موقف راکب^(٣)

وكان هذا الغزل الانتقامی سبباً فی هلاك الشاعر أحيانا ، كما حدث لكعب بن
الأشرف ، فإنه بکی قتلی بدر وشبب بنساء رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء
المسلمين ، فأمر رسول الله محمد بن مسلمة ورهطاً معه من الأنصار بقتله فقتلوه^(٤)

(١) الأغاني ١٥٩/٢٠ سامی

(٢) الأغاني ٨٣/١٩ سامی

(٤) ابن سلام ١١٠

(٣) طبقات الشعراء لابن سلام ٨٩

أما فحش امرئ القيس ومن شأكله فإنه يمثل أخلاق قلة من العرب
تأثرين على العرف خارجين على التقاليد منبوزين من المجتمع . وهذه القلة
من ذوى الدعارة كانوا يقصدون المظلمات أصحاب الرايات ، قالت العوراء
بنت سبيع فى رثاء أخيها عبدالله :

أبكى لعبد الله إذ حُشْتُ قبيل الصبح ناره
طيان طاوى الكشح لا يَرْخَى لمُظْلِمَةٍ إزاره^(١)

الباب الرابع

الحياة الدينية
من الشعر

تمهيد

نريد أن نقف ونقفات نستشف منها عقائد العرب الدينية ، ونعرف إلى أى حد يستطيع ما بقى من شعرهم أن يصور هذه العقائد .

ووجهتنا فى ذلك أن ندرس ونستنبط لا أن نستنهج ونبرر ، لأن دراستنا يجب أن تقوم على إيراد ما كان يعتقد العرب ، وهذا أولى من بذل الجهد فى نقد ما كانوا يعتقدون ،^(١) .

ولسنا ننتظر أن يحدثنا هذا الشعر حديثاً مستفيضاً مفصلاً يوقفنا على دقائق الحياة الدينية ، بل ليس من حقنا أن ننتظر هذا التفصيل ، لأن الشعر إنما يتناول الحياة الدينية والاجتماعية والسياسية بطريقة فنية وجدانية ، تمس التفاصيل مساً رفيقاً أو لا تمسها ، وهو من هذه الناحية لا يتقيد بما يتقيد به النثر من طرائق وبراهين وتفاصيل .

وثمة شئ آخر نريد ألا نعتسفه ونركب العنت من ورائه ، ذلك أنه لا يصح لنا أن نتوقع باباً خاصاً فى الشعر الجاهلى يدور حول الدين كالأبواب الأخرى من مدح وهجاء وراثاء ، فإن النزعة الدينية مبثوثة فى أبواب شتى ، فقد تكون فى الغزل أو فى الفخر أو فى وصف الحرب إلخ . . . كما سيجىء .

ولا أن نتوقع كثرة من الشعراء تغلب النزعة الدينية على شعرهم كما غلبت على شعر أمية بن أبى الصلت ، وبحسبنا أن يكون فى شعراء الجاهلية شاعر واحد يسم الطابع الدينى شعره ، حتى لنسميه شاعراً دينياً . بحسبنا هذا الشاعر الواحد ، فإننا لا نجد فى العصور الإسلامية المتعاقبة المتطاولة إلا قلة من الشعراء الدينيين بين آلاف من الشعراء .

وليس من الطبيعي أن نرتقب من كل شاعر جاهلي أن تكون له في الدين جولة ، فإن كثيراً جداً من الشعراء المسلمين على فحولتهم وعظم مكانتهم لم يقصروا على الدين بعض شعرهم ، حتى يصعب على الباحث أن يستشف من خلال قصائدهم عقيدة دينية متميزة ، كالمتنبي والبحتري وابن الرومي .

هل عجز الشعر الجاهلي عن تصوير الحياة الدينية ؟

اعتمد الدكتور طه حسين على أسباب في رفض الشعر الجاهلي الذي وصل إلينا ، منها : أن القرآن حين يتحدث عن الوثنيين واليهود والنصارى وغيرهم من أصحاب النحل والديانات إنما يتحدث عن العرب وعن نحل وديانات ألفها العرب ، فهو يبطل منها ما يبطل ، ويؤيد منها ما يؤيد ، وهو يلقي في ذلك من المعارضة والتأييد بمقدار ما لهذه النحل والديانات من السلطان على نفوس الناس ، وإذا فما أبعد الفرق بين نتيجة البحث عن الحياة الجاهلية في هذا الأدب الذي يضاف إلى الجاهليين ونتيجة البحث عنها في القرآن . فأما هذا الشعر الذي يضاف إلى الجاهليين فيظهر لنا حياة غامضة جافة بريئة أو كابرية من الشعور الديني القوى والعاطفة الدينية المتسلطة على النفس والمسيطرة على الحياة العملية . وإلا فإين تجد شيئاً من هذا في شعر امرئ القيس أو طرفة أو عنقرة ؟ أو ليس عجباً أن يعجز الشعر الجاهلي كله عن تصوير الحياة الدينية للجاهليين ؟ ، (١)

مناقشة هذا الرأي :

١ - ضياع شعر كثير

أما أن الشعر الجاهلي تحدث عن الأديان فهذا مما لا ريب فيه ، ولكن الشعر الذى سلم من العوادي ووصل إلينا أقل مما كان ينتظر ، ولا عجب ، فإن الشعر الجاهلي قد فقد كثير منه فى تخطيه الأحقاب الطوال حتى عصر التدوين ، قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافر آجاءكم علم وشعر كثير . » (١) وقال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه ، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب وتشاغلوها بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولهيت عن الشعر وروايته ، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح واطمأنت العرب بالأمصار راجعوا رواية الشعر فلم يثلوا إلى ديوان مدون ولا كتاب مكتوب ، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل ، خففوا أقل ذلك وذهب عنهم منه أكثره . » (٢)

٢ - تناسى كثير من شعر الوثنية وأديان الجاهلية :

ثم إن الشعر الدينى أقدم آداب الأمم كلها كالبلياذة هو ميروس ، ومهابارة الهند فلا بد أن نظم العرب كثيراً فى آلهتهم ، خاطبوها ، وتوسلوا إليها واستعطفوها ، ولكن قصائدهم توارت مع الزمن ، لعدم تدوينها ، ولانصرافهم إلى الفخر والحماسة وما يتصل بالحرب ، فلما أنعم الله عليهم بالإسلام وشرح له صدورهم تناسوا كثيراً مما كان لهم من شعر وثنى ثم نسوه فلم يجد الرواة إلا أنارة قليلة منه ، أو أغصوا عن كثير مما وجدوا أنفة من دينهم الوثنى ، واعتزازاً بالإسلام ، وتعفية على العقائد التى قوضها تقويضاً .

ومن الطبيعى أن يحدث هذا الإغضاء عن رواية الشعر الجاهلي الدينى حتى لا يثير

في بعض النفوس ذكريات عن الماضي قد تهيج لها الضغائن ، وقد حدث ما يشبه هذا في الأهاجي التي كانت بين المسلمين وكفار قريش بعد أن استظل الجميع براية الاسلام . من ذلك أن عمر نهى الناس أن ينشدوا شيئاً من مناقضة الأنصار ومشركي قريش ، وقال : « في ذلك شتم الحى بالميت (أو والميت) وتجديد الضغائن ، وقد هدم الله أمر الجاهلية بما جاء من الإسلام »^(١) .

ومن ذلك أن النبي عليه الصلاة والسلام نهى عن رواية قصيدة لامية بن أبي الصلت كان يحرض فيها قريشاً بعد وقعة بدر ، منها :

ماذا ييدر والعقن قتل من مرازية ججاج
هلا بكيت على الكرام م بنى الكرام أولى المادح^(٢)

وقد كفوا عن روايتها حينما من الدهر ، فلما تمت للإسلام النصره زالت علة المنع فرويت القصيدة ، وقد أثبتتها ابن هشام في السيرة ما عدا بيتين اثنين ، لأن الشاعر « نال فيهما من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم »^(٣) .

٣ — اليهود يغضون عن شعرهم في أصنامهم :

على أن الذين تهودوا منهم أو تنصروا قبل الإسلام قد أغضوا عن شعرهم الوثني ، يعزز ذلك قول هشام بن الكلبي في حديثه عن يعوق : « ولم أسمع همدان سميت به ، ولا غيرها من العرب ، ولم أسمع لها ولا غيرها فيه شعراً ، وأظن ذلك لأنهم قربوا من صنعاء واختلطوا بحمير ، فدانوا معهم باليهودية أيام تهود ذو نواس فتهودوا معه »^(٤) . وكان يعوق بقرية خيوان القريبة من صنعاء

ثم يقول في حديثه عن نسر : « واتخذت حمير نسراً ، فعبدوه ، ولم أسمع حمير سميت به أحدا ، ولم أسمع له ذكراً في أشعارها ولا أشعار أحد من العرب ، وأظن ذلك كان لانتقال حمير أيام تبع عن عبادة الأصنام إلى اليهودية »^(٥)

(٢) الأغاني ١٢٢/٤ الدار ، والبيان والتبيين ٢٣٦/١

(٤) الأصنام ص ١٠

(١) الأغاني ١٤٠/٤ الدار

(٣) سيرة ابن هشام ٤٠٥/٢

(٥) الأصنام ص ١١

ويقول في حديثه عن رثام : « وتهود تبع وأهل اليمن ، فمن ثم لم أسمع بذكر رثام ولا نسر في شيء من الأشعار ولا الأسماء ، ولم تحفظ العرب من أشعارها إلا ما كان قبيل الإسلام »^(١)

فهو يعلن أن هذه الأصنام الثلاثة قد انقطع عنه ما قيل فيها من شعر ؛ لأن عبادها لما تهودوا عَفَّوا على جهالتهم الأولى ، واستنكفوا أن يخلدوا شعرًا قيل فيها. أو ليس من المنطق ومسايرة الحوادث والقياس الصحيح أن نعلن نحن أيضًا أن كثيرًا من شعر الجاهلية الوثني قد عَفِيَ عليه المسلمون أنفة من ضعة روحية وعقلية تردوا في حماها ؛ وورعا وتقية وانصரா إلى دينهم الجديد ، وامتزاجا به ؟ بلى !

٤ — الشعراء لا يحفلون بالدين :

ولم يكن شعراء الجاهلية مرتبطين بدينهم ارتباطًا يُدير ألسنتهم بقصائد أكثر تنبع من هذا الدين وتدور حوله ، ونحن نجد قلة من الشعراء في الإسلام والمسيحية واليهودية يقسم شعرهم بسمات دينية ، فلماذا لا نصدق أن شعراء الجاهلية كانوا متحللين من النزعة الدينية ؟ يقول بروكلمان : ولم تكن الصلة بين القبيلة عند العرب وبين آلهتها وثيقة جدًا كما كانت الصلة عند بني إسرائيل مثلاً ، بين يهوه وشعبه ،^(٢)

ويقول : « وليس من شك في أن العرب كانوا في أول الأمر يؤدون الشعائر الدينية إلى تلك الآلهة التي كانت أقرب إليهم من الله رب العالمين العظيم ، حتى إذا أوشك فجر الإسلام أن يبزع لم تبق هذه العبادة قادرة على أن تملأ وجدان العرب الديني ، وهكذا انحط شأن هذه العبادة ، وانحطت دلالتها انحطاطًا متواصلًا كان كان يرافقه أبدا تعاضم في أهمية الشعور الديني العام القائم على أساس الإيمان بالله ،^(٣) ويتفق نيكلسون مع بروكلمان في هذا الرأي ، فيقول : « كان تأثير الدين على حياة العرب قبل الإسلام ضئيلاً ، حتى لا نتوقع تأثيراً كبيراً له في شعرهم والعرب

(١) الأصنام ص ١٢

(٢) العرب والإمبراطور العربية ص ٢٦

(٣) العرب والإمبراطورية العربية ص ٢٧

لم يكن يولى الدين اهتماماً كبيراً ، وكان تقديره لدينه يقتصر على مزاياه العملية ، وإذا غضضنا النظر عن الشهوات ، فقد كان العربي البدوى يجد فى الدين راحة وأماناً خلال الأشهر الأربعة المقدسة التى يمنع فيها الحرب ، فى حين كان موسم الحج فى مكة يمكنه من الاشتراك فى احتفال وطنى ،^(١) .

٥ — ما بقى من الشعر الجاهلى يصور الحياة الدينية

ومع ذلك كله فإننا نرى فيما سلم من عوادم الزمن من الشعر الجاهلى ممثلاً للحياة الدينية ، ونعجب كيف وصلت الأمانة العلمية بالرواة أن يحرصوا على هذا الشعر حتى آن أوان تدوينه ، وكان المتوقع أن يمحو من سجلات الزمن محواً ؟
بقى لنا من الشعر الجاهلى كثير يصور حياتهم الدينية ، وثنية وغير وثنية ، تصويراً واضح المعالم فى شعر أمية بن أبى الصلت ، وتصور عجلان فى شعر غيره ، ولكن هذا الأخير ليس بأقل عدداً أو أضال تصويراً من شعر مئات من شعراء الإسلام الذين لم يصبغوا شعرهم بصبغة دينية .

٦ — وقد حفلت بعض المراجع بأشعار شتى تنبع من عاطفة دينية ، أو تدور حول هذه العاطفة ، أذكر منها كتاب الأصنام لابن الكلبي ، وسيرة ابن هشام ، والأغانى ، وديوان أمية بن أبى الصلت ، ولسان العرب ، وملحق كتاب الأصنام إلخ . وسأقتصر على التمثيل بطرف مما يتصل بالدين ، لأن استيعابه كله يخرج بالبحث عن منهجه الاصيل إلى منهج آخر .

وإذا كان الشعر الجاهلى قد تعرض للشك ، وكان نصيب الشعر الدينى من الشك أكبر من غيره ، فإننا لا نستمرسل مع الشك الذى لا يدعمه برهان من التاريخ أو من طبيعة الشعر نفسه ، ونكاد نوقن أن ابن سلام وأبا الفرج وأضرابهما من جهابذة النقاد القدماء قد نبهوا على الشعر المنحول فلم يفتهم شيء منه .

ويعجبني قول نيكلسون : « وما لا يمكن تجاهله أن قدراً كبيراً من المشاعر الدينية تمثل في الشعر الجاهلي ، وإذا كان قد سبق قول بعض العلماء بأن بعض تلك القصائد منحول ، فإن هذا القول لم يعد قائماً ، والفضل في تقويضه أولاً إلى فون كريم ، وسير شارلس ليال ، وفلهاوزن ؛ لأنهم أثبتوا :

١ - أن الشعور الديني الذي تمثله هذه القصائد ليس في كثير من الحالات إسلامياً في لهجته .

ب - وأن الموضوعات التي ورد فيها ليست من الإسلام .

ح - وأنه نتيجة طبيعية وحتمية لتأثير المسيحية واليهودية الذي عم انتشاره^(١) . وإذا ما تبصرنا في الشعر الذي نوردناه لنستنبط منه الحياة الدينية وجدناه مستمداً من عاطفة وثنية أو مسيحية أو يهودية ، لا إسلامية ، ووجدناه أيضاً يدور على موضوعات بعيدة عن الإسلام ، فهو إذن شعر جاهلي صحيح لا إسلامي موضوع . أما الشعر الديني الذي يمثل عاطفة إسلامية أو يبشر بالدين الإسلامي وبالنبي محمد فهو الموضوع ، كقصيدة خنافر الحميري^(٢) وما يشبهها .

٧ - ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي .

وما من شك في أن اليهودية والنصرانية قد أنارت كل منهما الطريق في بلاد العرب فاهتدى بهما خلق كثير ، هداية تصل إلى أن يدين الشخص بإحداهما أو يتبصر بعض التبصر في دينه الوثني ، وما من شك في أن بعض العرب الذين كانوا على إثارة من دين إبراهيم وإسماعيل كان لهم أيضاً تأثير في تفكير الناس في الخرافات التي يدينون بها .

على أن العرب في أواخر العصر الجاهلي كانوا على أبواب يقظة عقلية وروحية ، وكانوا في ريعان نهضة أدبية ، وكل هذه أمور من شأنها أن هزت أركان الوثنية هزات كادت تقوضها .

ويستنتج نيكلسون من ظهور شعر يحث على الفضيلة ، ويدعو إلى التأمل والتفكير في الموت إلخ . . . أنه في خلال القرن السادس الميلادي كان الدين والمدنية يمتدان بشكل ظاهر في أنحاء الجزيرة العربية ، ويغيران من أفكار العرب الوثنيين ، ويمهدان الطريق للإسلام ،^(١).

وإننا لنجد طرفاً من ضعف تأثير الوثنية ، والسخرية بها في الشعر نفسه :

١ — كان لبني ملكان بن كنانة بن خزيمية بن مدركة بن إلياس بن مضر صنم يقال له سعد ، وهو صخرة طويلة بفلاة من أرضهم ، فأقبل رجل من بني ملكان بإبل كثيرة ليقفها عليه ، التماس بركته فيما يزعم ، فلما رآته الإبل - وكانت مرعية لا تركب ، وكان يهراق عليه الدماء - نفرت منه . فذهبت في كل وجه ، وغضب صاحبها فأخذ حجراً فرمى به سعدا ، ثم قال له : لا بارك الله فيك ، نفرت على إبل ، ثم خرج في طلبها حتى جمعها ، فلما اجتمعت له قال :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد

وهل سعد إلا صخرة بتنوفة من الأرض لا يدعولغي ولا رشد^(٢)

ب — وعبيد بن الأبرص هجا بني جديله ، فعيرهم بعبادة الصنم (اليعسوب)

وتبدلوا اليعسوب بعد إلههم صنما فقرؤا يا جديل وأعذبوا^(٣)

ح — وأي شيء أدل على الاستخفاف بالوثنية من أن يأكل الناس الإله الذي

صنعوه بأيديهم ؟ ذلك أن بني حنيفة اتخذوا صنما من الخيس^(٤) فعبدوه دهرًا طويلاً

ثم أصابتهم مجاعة فأكلوه فقال قائل :

(١) Nichotson, P, 140

(٢) سيرة ابن هشام ٨٥/٤ والأصنام ٣٧ والملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ٢٢٢/٣

تنوفة : قفر لا ينبت شيئاً

(٣) ديوان عبيد . قروا : افرحوا . أعذبوا : استطيخوا هذه العبادة

(٤) تمر يخلط بسمن وأقط فيعجن عجناً شديداً وربما جعل فيه سويق

أكلت حنيفة ربها زمن التقحّم والمجاعة
لم يحذروا من ربهم سوء العواقب والنباعة^(١)
وقال قائل من تميم :

أكلت ربها حنيفة من جو ع قديم بها ومن إعواز^(٢)

و - وبلغ من ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي أن عبادتها صارت أقرب إلى العادة ، أو صارت عادة لا عقيدة ؛ يدل على ذلك حديث أبي رجاء العطاردي : « كنا نعبد الحجر في الجاهلية فإذا وجدنا حجرا أحسن منه نلقى ذلك ونأخذه ، فإذا لم نجد حجرا جمعنا حفنة من تراب ، ثم جئنا فخلبنا عليه ، ثم طفنا به ، »^(٣) .

ه - وفي هذا الدور الذي تزعمت فيه العقيدة الوثنية ، واستنارت البصائر ، استشار بعضهم الأصنام ، على أن الاستشارة نوع من تزويد النفس بالثقة فحسب ، لا على أنها حكم لانقض فيه ، فإذا لم توافق المشورة هواه رفضها في استخفاف وازدراء كما فعل رجل من العرب قُتل أبوه فأراد الطلب بثأره ، فأتى ذا الخلصة فاستقسم عنده بالأزلام ، فخرج السهم بنبيه عن ذلك ، فقال :

لو كنت يا ذا الخلص الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا

ومن الناس من ينحلها امرأ القيس بن حجر السكندی^(٤)

و - وثمة شيء آخر يدل على هذا الضعف ، لأنه كان نتيجة له ، ذلك أنا لم نجد شعرا كثيرا يتحدث عن عبادة الشجر والكواكب والملائكة والجن ، وذلك بأن هذه العبادات كانت أقدم من عبادة الأصنام ، وانطمست معالم الشعر الذي قيل فيها

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٤٣ . النباغة : المسارعة إلى الشر

(٢) بلوغ الأرب ٢٢٧/٢

(٤) سيرة ابن هشام ٩١/١ والأصنام ٣٥

(٣) بلوغ الأرب ٢٢٧/٢

لما فتر تأثيرها وتطاول الزمن بها ، ولكن بقي شعر كثير يتحدث عن الأصنام لأنها أحدث عهداً ، والشعر المقول فيها قريب من فجر الاسلام فلم يندثر .

ز — وقد تأله بعضهم في الجاهلية وترك عبادة الأصنام ، ومن هؤلاء زيد بن عمرو بن نفيل القائل :

تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الجلد الصبور
فلا العزى أدين ولا أبنيتهاً ولا صنمى بنى غنم أزور
ولا هبلأ أزور وكان ربا لنا في الدهر إذ حلنى صغير^(١)
ولم يكونوا يرون في الخمسة الأصنام التي رفعها عمرو بن لحي رأيهم في هذه ولا قريباً منه ، فظننت أن ذلك كان لبعدها منهم^(٢)

(١) الأصنام

تعدد المعبودات . كيف نشأت عبادة الأصنام ؟ ما ترمز الأصنام اليه . بعض أصنامهم . إخلاصهم لها . الأصنام في الشعر .

١ — تعدد المعبودات

انقسم العرب في دينهم طرائق قددا ، شأن الأهم البدائية كلها ، فاعتقدوا كما اعتقد غيرهم أن الطبيعة ملأى بقوى أعظم من قوة الإنسان ، يتوسل إليها في كسب الخير ودفع الشر ، ثم ارتقوا فاعتقدوا بحلول هذه القوى في الأشجار والكهوف والينابيع والحجارة العراض على الخصوص .

ومن طريق الشعائر الدينية التي تؤلف التوضحية نواتها ارتبطت الآلهة برباط دموى مع القبائل المقدسة لها ، وأصبحت بمثابة الحامي الذي تلوذ به القبيلة بل بمثابة

(١) الأصنام ٢٢ والأغاني ١٢٤/٣ وشرط البيت الأول (عزلت الجن والجنان عني)

(٢) الأصنام ٢٧

جدها وسيدها الأعلى ؛ وكانت كل قبيلة تتعبد لإلهها الخاص ، ولكنها تعترف بسلطان آلهة القبائل الأخرى في مناطقها الخاصة . . . ولقد كانت بعض العشائر تتخذ أحيانا آلهة غير التي تدين لها القبيلة ، كما كانت بعض القبائل تشترك أحيانا في عبادة إله واحد . وقد جرت العادة أن تزور القبيلة المرتحلة مقام إلهها مرة أو مرتين في العام أيام الأعياد . . . وكان السلام الإلهي يخيم على الصحراء في الأعياد الدينية (المواسم) ، فيكف الناس عن القتال والحرب ، والواقع أن الأسواق التي كان العرب يقيمونها في الجاهلية ارتبطت بالاحتفالات الدينية ، ومن هنا كانت مجالا لتبادل النتاج الروحي بالإضافة إلى البضائع والعروض المادية ،^(١)

تعددت آلهتهم قبل الإسلام وإن كانت عبادة الشمس وأهم النجوم أكثرها انتشارا ، « وأخذت القبائل العربية عن الأمم التي كانت تتصل بها كثيرا من آلهتها ، فكان زونها كالأوليمبيا الإغريقية الرومانية جامعا لشتى الأصنام » ،^(٢)

وهم مع تعدد آلهتهم يقرون بالخالق سبحانه وتعالى ، هو خالق الكون والمحبي والمميت ، لم يخالف أحد منهم إلا اللثوية المتأثرون بالمجوسية ، وهم الذين أنكروا البعث : « أئذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمبعوثون ؟ » ، قال تعالى : « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » ، « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله » ، « قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون ؟ » سيقولون لله .

ولكنهم اتخذوا الأصنام وغيرها وسائط ووسائل وزلفى : « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » .

ولكن ما الأنصاب ؟ وما الأصنام والأوثان ؟

قال الفيروز آبادي إن الأنصاب حجارة كانت تنصب حول الكعبة فيهل عليها ، والأصنام والأوثان بمعنى واحد : ما عبد من دون الله ، وقال أبو المنذر هشام

(١) بروكلمان . العرب والإمبراطورية العربية من ٢٥ - ٢٦

(٢) حضارة العرب ١٢٢ . جوستاف لوبون

ابن محمد الكلبي : إذا كان من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن ^(١) وقال : إذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان ^(٢) ، والأنصاب حجارة أمام الحرم وأمام غيره يطوفون بها كطوافهم بالكعبة ^(٣) .

ب - نشأة الأصنام وما ترمز إليه

روى ابن الكلبي ^(٤) أن الذي سلخ بهم إلى عبادة الأوثان والحجارة أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباية بمكة ، فحيثما حلوا وضعوه ، وطافوا به كطوافهم بالكعبة ، وهم بعد يعظمون الكعبة ومكة ، ويحجون ويعتمرون على إرث إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، ثم سلخ بهم ذلك إلى أن عبدوا ما استحبوا ، ونسوا ما كانوا عليه فعبدوا الأوثان ، وعادوا إلى ما كان يعبده قوم نوح ، وأشركوا وإن دانوا بالربوبية ، وجعلوا ملك الأصنام بيده تعالى ، يقول تعالى : وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، أي ما يوحدونني إلا جعلوا معي شريكا من خلق .

وفي موضع آخر روى أن أول من غير دين إسماعيل عليه السلام ، فنصب الأوثان وسيب السائبة ووصل الوصيلة وبحر البحيرة وحى الحامى ، عمرو بن ربيعة ابن لحي الأزدي وكان قد مرض واستشفى بالشام ووجد أهلها يعبدون الأصنام فقدم بها مكة ، ونصبها حول الكعبة ^(٥) ، وعمر وهذا هو الذي قاتل جرهم حتى أخرجهم من حرم مكة واستولى عليها وأجلاهم عنها وتولى حجابة البيت بعدهم ^(٦) .

ثم ذكر أن كل دار في مكة كان لأهلها صنم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر تمسح به ، وإذا قدم تمسح به ، فلما بعث الله نبيه بالتوحيد قالوا : «أجعل الآلهة إلهاً واحداً؟ إن هذا لشيء عجيب» ، يعنون الأصنام . واستهزت العرب بها وأولعت ، فمنهم من اتخذ بيتاً ومنهم من اتخذ صنماً ، ومن لم يقدر نصب حجراً أمام الحرم

(٤) الأصنام ٦ - ٨

(٣، ٢) الأصنام ٣٣

(١) الأصنام ٥٣

(٦) معجم البلدان لياقوت ٦٥٢/٤

(٥) الأصنام ٨ - ٩ وسيرة ابن هشام ٨٢/١

أو غيره ، وطاف به كطوافه بالبيت ، وسموها الأَنْصاب . فإذا كانت تماثيل دعوها الأصنام والأوثان ، وسموا طوافهم بها الدَّوَار^(١) .

وخطرت لهم فكرة تمثيل العظام وذوى الأثر الصالح فيهم من الأسلاف ، أو تمثيل القوى التى يالفونها وهى سبب عظيم فى نفعهم ، فصنعوا تماثيل لها وتقربوا إليها ، ومما يؤكد ذلك قول ابن الكلبي فى وصف ودّ : « قلت لمالك بن حارثة صف لى ودّاً حتى كأنى أنظر إليه ، قال : كان تمثال رجل كأعظم ما يكون من الرجال ، قد ذُبر (نقش) عليه حلتان ، مُزْرِبِحْلَة مرتد بأخرى ، عليه سيف قد تقلده ، وقد تنسكب قوساً ، وبين يديه حربة فيها لواء ووفضة (جعبة) فيها نبل ،^(٢) وهذا يشبه ان يكون تمثالاً لإله الحرب .

وقال فى وصف هبل : « وكان فيما بلغنى من عقيق أحمر على صورة الإنسان ،^(٣) وقال فى وصف الفلّس : « وكان أنفاً أحمر فى وسط جبلهم الذى يقال له أجأ ، أسود كأنه تمثال إنسان ،^(٤) .

وقال : « المعمول من خشب أو ذهب أو فضة على صورة إنسان فهو صنم ، وإذا كان من حجارة فهو وثن ،^(٥) .

وقال : « وكان من تلك الأصنام ذو الخلصة ، وكان مَرَوَةً بيضاء منقوشة عليها كهيئة التاج ،^(٦) .

فهذه الأوصاف تدل على أن الصنم كان تمثالاً على صورة إنسان ، وهو إذاً يرمز إلى إنسان أو إلى فكرة .

قال الزمخشري فى تفسير قوله تعالى : « ولا تَدْرُنَّ ودّاً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً ،^(٧) إنها انتقلت عن قوم نوح إلى العرب . . . وقيل هى أسماء رجال

صالحين ، وقيل من أولاد آدم ماتوا فقال إبليس لمن بعدهم : لو صورتم صورهم فكنتم تنظرون إليهم ففعلوا ، فلما مات أولئك قال لمن بعدهم : إنهم كانوا يعبدونهم ، فعبدوهم ^(١) .

ومما يعزز أنهم كانوا يقيمون تماثيل لآلهتهم ما جاء في أحد النقوش الآشورية المشيرة إلى عودة أسرحدون من غزوه لبلاد العرب : « أتى الملك العربي إلى عاصمتي نينوى ومعه هدايا كثيرة ، فقبل قدمي طالبا أن أعيد إليه تماثيل آلهته ، فرق له قلبي فأعدتها إليه بعد أن أمرت باصلاحها ، ونقش تمجيد ربي آشور عليها وتوقيعها ، وجعلت الأميرة العربية طبوة التي نشأت في بلاطي ملكة ، وأعدتها إلى بلادها مع آلهتها » ^(٢) .

ولم يكن ذلك عجيبا أو مقصورا على العرب وحدهم ، فقد كان الرومان يعبدون الامبراطور ، وعندهم هيكل لعبادته ^(٣)

- ح بعض أصنامهم

مناة :

أقدم أصنامهم التي عبدوها منذ أدخل عمرو بن لحي عبادة الأصنام ، وكانت تعظمه الأوس والخزرج ، ومن ينزل المدينة ومكة وما قرب منهما ، ويذبحون له ويهدون ، وكانت العرب كلها تعظمه ، وقد سموا به فقالوا : عبد مناة وزيد مناه ^(٤)

وكان مناة صخرة لهديل وخزاعة ، وسميت الصخر بذلك لأن دماء النساء كانت تُمْنَى عندها أى تراق ، ومن قرأ بالمد فلعلها مفعلة من النوم ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركاً بها ^(٥)

(١) الكشف ٤٩٢/٢

(٢) حضارة العرب جوستاف لوبون ١٢٣ (٣) روح الاجتماع ٨٨ - ٨٩

(٤) الأصنام ١٣ (٥) النيسابورى على هامش الطبرى ٤١/٢٧

وفي بعض بلاد نجد كشف Pely عن عمود مسيحي حطمه الوهايون ، وقرر دوتى وآخرون أنه كان بالطائف تماثلان من الحجر لا شكل لهما كان يعبدهما القدماء على أنهما اللات والعزى ، وقد حطمهما الوهايون ، ويظن أن ثالث هذين التمثالين — وهو تماثل مناة الذى قد يرجع إلى عصر ما قبل التاريخ أيضا — يوجد إلى الجنوب من الطائف (١).

وظلت مناة قائمة إلى أن بعث النبي صلى الله عليه وسلم سعد بن زيد أو أبا سفيان ابن حرب أو على بن أبى طالب فهدمها (٢).

ويرى بروكلمان أن مناة « إلهة القضاء والقدر التى تقابل إلهة الحظ المخلص Tyche Soteira عند الإغريق ، وكانت معروفة فى مكة ، ولكن عبادتها شاعت على الخصوص بين قبائل هذيل البدوية المجاورة » (٣).

اللات :

أتخذها أهل الطائف ، وكانت صخرة مربعة ، وكانت قریش وسائر العرب تعظمها وسموا زيد اللات ، وتيم اللات (٤).

وكان أهل ثقيف يعكفون عليه للعبادة ويطوفون ، وزعموا أنه سمي برجل كان يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه ، الحجاج ، فلما مات عبدوه ، وهذا على قراءة من يشدد التاء ، وقال آخرون إنه بيت كان بنخلة فعبدته قریش (٥).

ويرى بروكلمان أن اللات هى الإلهة التى كانت تعرف فى الطائف بالربة أى السيدة والى شبهها هيرودوتس بإلهة الفلك Urania وهى تقابل الأم الكبرى للإلهة عشتروت عند الساميين الشماليين (٦). وذكر الطبرى أن اللات مشتقة من الله ، ألحقت فيه التاء فأنث كما قيل عمرو للذكر وللأنثى عمرة (٧).

(١) عصر ما قبل الإسلام . مبروك نافع ٦ (٢) الزبى دحلان على هامش السيرة الحلبية ٣٤٤/٢

(٣) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧ (٤) الأصنام ١٦

(٥) الطبرى ٣٥/٢٧ والنيسابورى على هامش الطبرى ٤١/٢٧

(٦) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧ (٧) تفسير الطبرى ٣٤/٢٧

وظلت إلى فجر الإسلام إذ بعث النبي صلى الله عليه وسلم أبا سفيان والمغيرة بن شعبة لهدمها بالطائف^(١). بعد أن أسلمت ثقيف، وعلاها المغيرة بضرب بالمعول وحماه قومه بنو معتب خشية أن يرمى أو يصاب كما أصيب عروة، وخرجت نساء ثقيف حسراً يبيكين عليها ويتهمن بالجن كل من لم يدافعوا عنها^(٢).

العزى :

كانت العزى أعظم الأصنام عندهم، وسموا عبد العزى، وكان العرب يطوفون بالكعبة ويقولون : اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، فإنها الغرائق العلا، وإن شفاعتهن لترتجى. وزعموا أنها بنات الله وشفعاؤه إليه، قال تعالى : «أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. ألكم الذكر وله الأنثى؟ تلك إذا قسمة ضيزى، إن هي إلا أسماء سميتموها أتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان».

وكانت بواد من نخلة الشامية يقال له حراض، فبنى عليها بيت، وكانوا يسمعون فيه الصوت، وكانت العرب وقريش تسمى عبد العزى، وكانت أعظم الأصنام عند قريش، وكانوا يزورونها، ويهدون لها، ويتقربون عندها بالذبح^(٣).

ويختلفون في عبادها، فابن هشام يذكر أنها كانت لقريش وبني كنانة، وأن حجابها وسدنتها من بني شيبان من سلّم حلفاء بني هاشم أو حلفاء بني طالب خاصة^(٤).

وغیره يرى أنها كانت لغطفان، وهي شجرة سمرة بعث إليها رسول الله خالد بن الوليد فقطعها، وزعموا أنها خرجت منها شيطانة مكشوفة الرأس ناشرة الشعر تضرب رأسها وتدعو بالويل والثبور فضربها خالد بالسيف... حتى قتلها وهو يقول :

يا عز كفرانك لا سبحانهك إني رأيت الله قد أهانك

فرجع إلى النبي وأخبره بما فعل فقال : تلك العزى ولن تعبد أبدا^(٥) ولكن في

(١) دحلان ٣٧٩/٢ (٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/٤ (٣) الأصنام ١٨ - ١٩

(٤) سيرة ابن هشام ٨٧/٤

(٥) أخبار مكة للأزرقي ٧٤/١ والنيسابوري على هامش الطبري ٤١/٢٧ والزبني دحلان على هامش

السيرة الحلبية ٣٤٠/٢

هذه الرواية خيالا ، والأقرب إلى الصواب ما ذكره ابن هشام أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث خالد بن الوليد بعد فتح مكة إلى العزى ، فلما سمع صاحبها السليسي بمسيره إليها علق عليها سيفه وهرب في الجبل الذي هي فيه ، وهو يقول :

أيا عَزَّ شدى شدة لا شوى لها على خالد ، ألقى القناع وشمرى

يا عَزَّ إن لم تقتلى المرم خالداً فبوتى بإثم عاجل أو تنصرى

فلما انتهى إليها خالد هدمها ، ثم رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم^(١) ولم تكن العزى غير شكل آخر للإلهة الثانية اللات ، وكانوا يعبدونها في صورة الكوكب السماوى الزهرة (فينوس)^(٢) . وتسمية هذا الاسم مشتقة من اسم الله تعالى العزيز^(٣) أو هو مؤنث الأعز كما ذهب النيسابورى .

ولكن الآراء مختلفة في حقيقة العزى : أكانت صنما كما ذكر هشام الكلبي ؟ أم كوكبا كما ذكر بروكلمان ؟ أم شجرات ، أم حجراً أبيض ، أم بيتاً كما ذكر الطبرى^(٤) وكما ذكر ابن هشام في موضع آخر أنها يدت تعظمه قريش وكنانة ومضر كلها^(٥) وقد سموا بعض أصنامهم بأسماء كانت منذ عهد نوح عليه السلام . من ذلك أن هذيل اتخذوا سواعاً بأرض يافع ، واتخذت كلب وداً بدومة الجندل ، واتخذت مذحج وأهل جرش يغوث ، واتخذت همدان يعوق ، واتخذت حمير نسرأ ، ولم تزل تعبده حتى هودها ذو نواس ، وهذه الأصنام ذكرها الله تعالى في كتابه الكريم : « وقالوا لا تذرنا آلهتهم ولا تذرنا ودا ولا سواعا ولا يغوث ويعوق ونسرا »^(٦) وكان ود لكلب ، وسواع لهمدان ، ويغوث لمذحج ، ويعوق لمراد ، ونسر لحمير وسموا عبداً ود وعبداً يغوث^(٧)

(٢) سيرة ابن هشام ٦٤/٤ لا شوى لها : لا تبقى على شيء . بوثنى : ارجعى . تنصرى : كوني نصرانية وروى تنظري

(٢) بروكلمان ٢٧

(٤، ٣) تفسير الطبرى ٣٤/٢٧

(٥) سيرة ابن هشام ٦٤/٤

(٧) الكشف ٤٩٢

(٦) الأصنام ٩ - ١٠ وسورة نوح

وكان ود على صورة رجل ، وسواع على صورة امرأة ، ويغوث على صورة أسد ، ويعوق على صورة فرس ، ونسر على صورة نسر^(١)

٥ - إخلاصهم للأصنام

والأصنام عندهم كثيرة ، وهم يعبدونها مخلصين ، ويعظمونها تعظيمهم للحرم ، حتى إنه كان لا يظعن من مكة ظاعن إلا احتمل معه حجراً من حجارة الحرم تعظيماً للحرم وصباية يملكه ، فحينما حلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة^(٢)

ويرى المرحوم الأستاذ محمود جمعه أن السبب في حمل هذا الحجر عقيدة العربي في أن الحجر فيه روح الإله ، فهو يحمله معه تيمناً به^(٣). ولكنى أوافق على رأى هشام ، لأن الظاعن من مكة لم يغادر جزيرة العرب التي تسرى فيها كلها روح الإله ، فإنه مكة هو إله الطائف واليمامة والحجر . . . إلخ ثم لماذا يحدث هذا من سكان مكة وحدهم ؟

وبلغ من تعلقهم بأصنامهم أن يتخوف أبو أحيحة ألا تعبد العزى من بعده . ذلك أنه مرض مرضه الأخير فدخل عليه أبو هب يعود فوجده يبكي فقال : ما يبكيك يا أبا أحيحة ؟ أمن الموت تبكي ولا بد منه ؟ قال : لا ، ولكن أخاف ألا تعبد العزى بعدى . قال أبو هب : والله ما عُبِدَتْ حياتك لأجلك ، ولا تُترك عبادتها لموتك . فقال أبو أحيحة : الآن علمت أن لى خليفة^(٤).

وقاتل بعض العرب لحماية أصنامهم من التدمير ، كما حدث لما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة وأسلمت العرب ووفدت عليه وفودها ، وكان في القادمين جرير بن عبد الله الذى جاء مسلماً ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : يا جرير ألا تسكفني ذا الخلصة ؟ فقال : بلى ا فوجهه إليه ، فخرج حتى أتى بنى أحس من بجيلة ،

(١) السكشاف ٤٩٢

(٤) الأصنام ٢٣

(٣) النظم السياسية والاجتماعية ١٤٠

(٢) الأصنام ٦

فسار بهم إليه فقاتلته خشم وباهلة دونه ، فقتل من سدنته من باهلة يومئذ مائة رجل ، وأكثرت القتل في خشم ، وقتل مائتين من بني قحافة بن عامر بن خشم ، فظفر بهم وهزمهم وهدم بنيان ذي الخلفة وأضرمت فيه النار فاحترق ، فقالت امرأة من خشم :

وبنو أمانة بالولية صرّعوا ثُملاً يعالج كلهم أنبوبا

جاءوا ليعضنهم فلاقوا دونها أسداً تقب لدى السيوف قيبيا

قسم المذلة بين نسوة خشم فتیانُ أحسنَ قسمةً تشعيباً^(١)

ونقل ابن هشام والأزرقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى حنين ومعه مسلمون بعضهم حديث عهد بالجاهلية ، فلما رأوا في الطريق ذات أنواط — شجرة خضراء عظيمة كانوا يأتونها كل سنة ويلقون أسلحتهم عليها ويدبحون عندها ويعكفون عليها يوماً — قال بعضهم : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط . فقال : الله أكبر ، قلت — والذي نفس محمد بيده — كما قال قوم موسى لموسى : اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون ، إنها السنن ؟ لتركنن سنن من كان قبلكم^(٢) .

ولا سبيل إلى ادعاء أن هؤلاء وأمثالهم كانوا يحمون استقلالهم ممثلاً في حماية الصنم ، فقد حدثت حروب بسبب الأصنام أيضاً لم تكن فيها مظنة الذود عن استقلال ، حدثت بين بعض قبائل اليمن لاقتناء يغوث ، منها موقعة رزم بين الحارث وهمدان وسدنة الصنم وبين مراد ،^(٣) .

وإلى هذه الموقعة يشير الشاعر بقوله :

وسار بنا يغوث إلى مراد ففنا جزناهم حتى الصباح^(٤)

وقد أسبقنا أن ملكا عربياً ذهب إلى الملك أسرحدون في نينوى ومعه هدايا

(١) الأصنام ٣٦ . الولية : موضع . ثُملاً : جمع ثُملة وهي الحب والسويق . أنبوب : رمح . تقب : تصخب وتقعقع أنيابها
(٢) سيرة ابن هشام ٧١/٤ وأخبار مكة ٧٧/١
(٣) معجم البلدان ٧٧٦/٢ و ١٠٢٢/٤
(٤) الأصنام ١٠

وجثا أمامه وقبل قدمه طالبا أن يعيد إليه تماثيل آلهته ، فرق له قلب أسرحدون وأعادها إليه بعد أن أمر باصلاحها^(١).

وذكر ابن هشام والأزرقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل البيت يوم فتح مكة ، فرأى فيه صور الملائكة وغيرهم ، فرأى إبراهيم عليه السلام مصورا في يده الأزلام يستقسم بها ، فقال : قاتلهم الله ، جعلوا شيخنا يستقسم بالأزلام ؟ وما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانياً ولكن كان حنيفا مسلما ، ثم أمر بتلك الصور كلها فطمست^(٢).

وروى في موضع آخر أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما دخل مكة يوم الفتح على راحلته طاف عليها ، وحول البيت أصنام مشدودة بالرصاص ، فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يشير بقضيب في يده إلى الأصنام ويقول : (جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا) فما أشار إلى صنم منها في وجهه إلا وقع لقفاه ، ولا أشار لقفاه إلا وقع لوجهه ، حتى ما بقى منها صنم إلا وقع ، فقال تميم بن أسعد الخزاعي في ذلك :
وفي الأصنام معتبرٌ وعلم لمن يرجو الثواب أو العقاب^(٣)

هـ - الأصنام في الشعر

(١) القسم بها :

أقسم العرب بالأصنام كما يقسم العباد بالآرباب ، وجاء هذا القسم على السنة كثير من الشعراء ، وإن لم يتسموا بنزعة دينية . أقسم طرفة بالنصب في قوله :
فأقسمت عند النصب إنى لهالك بمتلفة ليست بغبط ولا خفض^(٤)
وأقسم المتلمس بالأنصاب وباللات في قوله يهجو عمرو بن المنذر :
أطردتني حذر الهجاء ، ولا واللات والأنصاب لا تليل^(٥)

(١) حضارة العرب ١٢٣

(٢) سيرة ابن هشام ٣٧/٤

(٣) سيرة ابن هشام ٣٢/٤ وأخبار مكة للأزرقي ١٥٠/١

(٤) الأنصاب ١٦

(٥) ديوان طرفة ٤٩ غبط : أرض مستوية يرتفع طرفاها

وأقسم عبد العزى بن وديعة المزني بمناة :

إني حلفت يمين صدق برة^(١) بمناة عند محل آل الخزرج^(٢)
وحلف طرفة بالأنصاب التي يذبحون القرابين عليها في اعتذاره لعمر بن هند :
إني وجدك ما هجوتك وال أنصاب يسفح بينهن دم^(٣)
وحلف أوس بن حجر باللات والعزى وبالله :

وباللات والعزى ومن دان دينها وبالله ، إن الله منهن أكبر^(٤)
وكانت قریش قد حمت لها شعباً من وادي حراض يقال له سقام يضاهون به
حرم الكعبة ، فذاك قول أبي جندب الهذلي في امرأة كان يهاها :

لقد حلفت جهداً يميناً غليظة بفرع التي أحت فروع سقام
لئن أنت لم ترسل ثيابي فانطلق أبديك أخرى عيشنا بكلام
يعز عليه صرم أم حويرث فأمسى يروم الأمر كل مرام
وحلف الشنفرى الأزدي بأثواب الأقيصر في قوله :

وإن امرأ أجار عمرأ ورهطه على - وأثواب الأقيصر - يعنف^(٥)
وأقسم زيد الخير (زيد الخيل الطائي) بعائمه :

نخبر من لا قيت أن قد هزمتهم ولم تدر ما سيهاهم ، لا ، وعائمه^(٦)
وإذا كان مؤلف الأصنام قد قرر أنه لم يسمع شعراً في (نسر) فإن ياقوتاً أورد
شعراً فيه عند كلامه على (بلخع) وهي الأرض التي عبد فيها نسر ، ونسبه إلى الأخطل ،
والصواب نسبه إلى عمرو بن عبد الجن الفارس الجاهلي كما في تاريخ الطبري^(٧) ، وقد
رواها ابن منظور في لسان العرب في مادة (أبل) وكذلك رواها البغدادي في خزانه

(١) الأصنام ١٤

(٣) الأصنام ١٧

وديون أوس بن حجر نمرة ٧

(٢) ديوان طرفة ١٥

(٤) الأصنام ٤٠

(٥) تاريخ الأمم والملوك ٣٤/٢

الأدب ، وتاج العروس في (أبل) ، وهي أيضاً في ديوان الأخطل طبعة اليسوعيين ص ١٤٩ ، ويرجح طابعه الأب أنطون صالحاني أن الأبيات لغير الأخطل :

أما ودماء مائرات تخالها على قنّة العزّي أو النسر عندما
وما سبّح الرهبان في كل بيعّة أبل الأبلين المسيح بن مريما
لقد ذاق منا عامر يوم لعلع حساما إذا ما هز بالكف صمما

وكانوا أحيانا يتحالفون على النار ، يأخذون العهد المؤكّد واليمين الغموس ، وأحيانا يضعون فيها الملح للتحويل ، قال الشاعر :

حلفت لهم بالملح والقوم شهد وبالنار واللات التي هي أعظم
(٢) ذكرها :

وحسبنا هذا الشعر الدائر على القسم والتحالف ، فلنأخذ في شعر آخر يدور حول الأصنام وغيرها مما كانوا يعبدون . فمن شعرهم في ود :

حيّاك ودّ فإنّا لا يحل لنا هو النساء وإن الدين قد عزّما^(١)
ومن شعرهم في يغوث :

وسار بنا يغوث إلى مراد فناجزناهم قبل الصباح^(٢)
وفي اللات يقول عمرو بن الجعدي :

فاني وتركي وصل كأس لكالذي تبرأ من لات وكان يدينها^(٣)

وكانت هذيل تعبد سواعا ، وقد شبه الشاعر خضوع أناس لحاكمهم بخضوع هذيل لسواع ، وذكر القرابين التي كانت تذبحها عنده :

تراهم حول قيلهم عكوا كما عكفت هذيل على سواع
تظل جنابه صرعى لديه عتائر من ذخائر كل راع^(٤)

وذكر الجاحظ أن الرجل كان ينذر أن يذبح عند الأصنام كذا عتيرة إذا بلغت إبله أو غنمه كذا ، فإذا اكتمل العدد استعمل التأويل ، وقال : إنما قلت إنى أذبح كذا شاة ، والظباء شاة كما أن الغنم شاة ، فيجعل قربانه شاة كله مما يصيده من الظباء ^(١) ، ولذلك يقول الحارث بن حلزة اليشكري في معلقته :

أَمْ عَلَيْنَا جُنَاحُ كَعْنَدَةِ أَنْ يَغْ — نِمَ غَازِيهِمْ وَمَنَا الْجُزَاءُ
عَنَّا بَاطِلًا ، وَظَلَمًا ، كَمَا تُعْ — تَرُ عَنْ حُجْرَةِ الرِّبِضِ الظُّبَاءُ ^(٢)

ويقول الروزني في شرح البيت ، العتيرة ذبيحة كانت تذبح للأصنام في رجب ، وقد كان الرجل ينذر إن بلغت غنمه مائة ذبح منها واحدة للأصنام ، ثم ربما ضنت نفسه بها فأخذ ظيياً وذبحه بدل الشاة الواجبة عليه .

وكانت لهم حجارة غُبر منصوبة يطوفون بها ، وَيَعْتِرُونَ عِنْدَهَا يَسْمُونَهَا الْأَنْصَابَ ، ويسمون الطواف بها الدوار ، يقول عامر بن الطفيل وقد أتى غَنِيَّ بْنَ أَعْصَرٍ يوماً وهم يطوفون بِنُصْبٍ لَهُمْ ، فرأى في فتياتهم جمالا وهن يطفن :
أَلَا يَالَيْتَ أَخْوَالِي غَنِيًّا عَلَيْهِمْ كُلُّهَا أَمْسَوْا دَوَارُ ^(٣)

وقال امرؤ القيس في معلقته يشبهه قطيع البقر أو الظباء بالعذارى اللابسات ملامات :
فَعَنَّ لَنَا سِرْبٌ كَأَنَّ نَعَاجَهُ عَذَارَى دَوَارٍ فِي مُلَامٍ مُذِيلٍ
شبه نعاج السرب في مشيها وطول أذنانها بفتيات حول الصنم يدرن وعليهن الملام الطوال ذوات الأهداب .

وكان سَعْدُ بْنُ أَحِيَةَ جُدَّةً ، وكان صخرة طويلة ، فأقبل رجل منهم يابله ليقفها عنده تبركاً به ، فلما دنت منه — وكان الدم يراق عليه — نفرت وتفرقت ، فغضب الرجل وتناول حجراً فرمى به سعداً ، ثم جمعها وانصرف وهو يقول :

أتينا إلى سعد ليجمع شملنا فشتتنا سعد ، فلا نحن من سعد
 وهل سعد إلا صخرة بقتوفة من الأرض لا يدعى لغى ولا رشد^(١)
 وشبه ملامة بن جندل أعناق الخيل بالأنصاب :
 والعاديات أسابي الدماء بها كأن أعناقها أنصاب ترجيب^(٢)
 (٣) الاستقسام عندها :

وكانوا يستقسمون عندها بالأزلام أى القداح ، فإذا أراد أحدهم سفراً أو غزوا
 أو تجارة أو أمراً عظيماً ضرب بالقداح ، قالوا إنها ثلاث قطع من الخشب مكتوب
 على أحدها : نهاني ربى ، وعلى الآخر : أمرنى ربى ، وأما الثالث فغفل ، فإن خرج
 الأمر مضى لطيته ، وإن خرج الناهى أمسك ، وإن خرج الغفل أجال القداح مرة
 ثانية . وقالوا إنها كانت سبعة ، وإن سادن الصنم هو الذى كان يتولى إجالتها ، وسواء
 أكانت ثلاثاً أم سبعة أم أكثر ، وسواء أكانت عليها كتابة أم لم تكن فإن الذى
 نريد أن نقرره أن الأصنام كانت تستشار . قال طرفة ساخراً بالاستقسام لما بعث
 عمرو بن هند قائداً من قواده هو الفلاق بن شهاب العدوى ليصلح بين بكر وتغلب
 فاصطلحوا على دخن فأغارت تغلب على بكر وكان الفلاق ضالعاً مع تغلب :

فَسَعَى الْفَلَّاقُ يَدْنَهُمْ سَعَى خَبٍّ كَاذِبٍ شِيمُهُ
 أَخَذَ الْأَزْلَامَ مَقْتَسِمًا فَأَتَى أَغْوَاهَا زَلْمُهُ
 عِنْدَ أَنْصَابِهَا زُفْرٌ فِي صَعِيدِ جَمَّةٍ أَدَمُهُ^(٣)

ويروون أن امرأ القيس لما قتل بنو أسد أباه حُجراً استقسم عند الصنم
 ذى الخلصة ، فخرج له القدح المانع من الثأر ، فكسر الأزلام وضرب بها وجهه
 الصنم ، وقال : لو كان أبوك قتل ما عقتنى ، وأنشد :

(١) الأصنام ٣٧
 (٢) الفضليات ١١٩/١ أسابي : طرائق . ترجيب : ذبح
 (٣) ديوان طرفة ١٧ — ١٨ أدمة : جلود ما حملته إلى الأنصاب ليذبحه
 عليها . زفر : من معانيها البحر والنهر الكثير الماء وهو المراد هنا ليدل على الدماء الغزار .

لو كنت يا ذا الخلصة الموتورا مثلى وكان شيخك المقبورا

لم تنه عن قتل العداة زورا^(١)

وكان كثير منهم يخضع لما تتخيره له قداحه ، وللقداح رأى الفصل ، قال شملة
ابن أخضر الضبي :

رئيس ما ينازعه رئيس سوى ضرب القداح إذا استشارا

وكان منهم الخازم الذى يستشير قداحا ، وإذا هم بالامر مضى فيه ، كجذع بن سنان
فإنه عزم على الحرب ولم يستشر قداحا :

أتانى قاشر وبنو أبيه وقد جنّ الدجى والليل لاحا

وحذرني أمورا سوف تأتى أهز لها الصوارم والرماحا

سامضى للذى قالوا بعزم ولا أبغى لذككم قداحا

(٤) الدّوار بها :

وكانوا يطوفون بحجارة غير منصوبة ، ويعترون عندها ، ويسمونهم الانصاب
ويسمون الطواف بها الدوار ، وفى ذلك يقول عامر بن الطفيل وقد أتى يوما غنى
ابن أعصر وهم يطوفون بنصب لهم ، فرأى فى فتياتهم جمالا وهن يطفن :

ألا يا ليت أخوالى غنيا عليهم كلما أمسوا دوار

وقال المثقب العبدى لعمر بن هند :

يطيف بنصبهم حجن صغار فقد كادت حواجبه تشيب^(٢)

(٥) قرايينهم لها :

وكانوا يذبجون لها ، ويسمون الذبائح العتائر ، وهم عارفون بفضل الكعبة عليها ،
يحجونها ويعتَمرون إليها .

وحوا بعض الأنواع من الذبح والعمل ، تقرباً إلى الأصنام أيضا ، وفى تفسير

هذه الأنواع آراء شتى ؛ ويظهر أن السبب في تشعب الآراء اختلاف القبائل في الاصطلاح نفسه ، وسنقتصر على رأي واحد :

البحيرة : الناقة التي نتجت خمسة أبطن آخرها ذكر ، فيبحرون أذنهما ويحرمون نحرها وركوبها ، ولا يطردونها من ماء ولا يمنعونها عن مرعى .

السائبة : التي تفتج عشرة أبطن إناث فتهمل ولا تركب ولا يجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف .

الوصيلة : كانوا إذا ولدت الشاة ذكر أ جعلوه لأهنتهم وإذا ولدت أنثى اختصوا بها ، فإن ولدت ذكر أ وأنثى ، قالوا إن الأنثى وصلت أخاها فلم يذبحوه للآلهة .

الحامى : الفحل يولد من ظهره عشرة أبطن فيقولون قد حمى ظهره ، فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى .

وقد نهى القرآن الكريم عن ذلك كله : « ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام » ،

وقد تحدث الشعر عن هذه القرايين :

حَوْلَ الْوَصَائِلِ فِي شُرَيْفِ حَقَّةٍ وَالْحَامِيَّاتِ ظُهُورَهَا وَالسَّيْبِ^(١)

وقال تميم بن أبي في وصف حمار الوحش :

فِيهِ مِنَ الْأَخْرَجِ الْمُرْبَاعِ قَرَقَرَةٌ هَذَرُ الدِّيَافِ وَسَطُ الْهَجْمَةِ الْبُحُرُ^(٢)

ومن أنواع القرايين .

الفرع : ذبح كان في الجاهلية ، وهو أول النتاج إذا نتجت الناقة أول نتاجها ذبح يتبركون به ، قال أوس بن حجر :

(١) سيرة ابن هشام ٩٧/١ الوصائل : جمع وصيلة . شريف : ماء لبنى نمر . حقة : الإبل التي دخلت في الرابعة .

(٢) السيرة ٩٨/١ . الأخرج : الظليم فيه لوان . المربع : الذى رعى في الربيع . قرقرة : صوت فيه ترجيع . هذر : صوت . الديافى : نسبة إلى دياف قرية بالشام . الهجمة : قطعة من الإبل . البحر : جمع بحيرة وهى المشقوقة الأذن .

وشبه الهذب العبام من ١١ أقوام سقبا مجللاً فرعا^(١)
وكانوا يسمون الذبائح للأصنام عتائر والمذبح الذي يذبحون فيه لها العيتر . قالت
امرأة في رثاء ولدها :

ما زلت أضعده وأحدره من قتر مومة إلى قتر
هرباً به والموت يطلبه حيث انتويت به ولا أدري
حتى دفت به لمصرعه سوق المعيز تساق للعيتر^(٢)
وقال زهير بن أبي سلمى :

فزّل عنها وأوفى رأس مرقبة كمنصب العيتر دمي رأسه النُسك^(٣)



(٢) التوحيد

تمهيد :

لا حاجة بنا إلى أن نعرض لليهودية والنصرانية من حيث نشأتها ومراكزها
وتأثيرها في بلاد العرب فقد فصلنا ذلك في الباب الأول ، واليهود والنصارى
موحدون ، وحتى عباد الأصنام وغيرها على قسط كبير من التوحيد .

« وإنما كانت عبادتهم لها ضرباً من التدين بدين الصابئة في تعظيم الكواكب
والأصنام الممثلة بها في الهياكل ، لا على ما يعتقد الجاهل بديانات الأمم وآراء الفرق
من أن عبدة الأوثان ترى أن الأوثان هي الآلهة الخالقة للعالم . ولم يعتقد قط هذا
الرأى صاحب فكرة . بدليل قوله تعالى « ما نعبدكم إلا ليقربونا إلى الله زلفى »^(٤)

وإذا كان العرب قد عبدوا الأوثان وغيرها ، وصاروا إلى ما كانت عليه الأمم
قبلهم من الضلالات ، فإن « فيهم على ذلك بقايا من عهد إبراهيم يتمسكون بها من تعظيم

(١) الأما ٨/١ • الهذب : الثقل الكثير الشعر . العبام : العمى الثقيل . مجللاً فرعا : لابساً

جلد فرع (٢) زهر الآداب على هامش العقد الفريد ٨/٢ . قتر : جانب (٣) الأصنام ٣٤

(٤) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٤٤

البيت والطواف به ، والحج ، والعمرة ، والوقوف على عرفة والمزدلفة ، وهدى البدن والإهلال بالحج والعمرة ، مع إدخالهم فيه ما ليس منه ، فكانت كنانة وقريش إذا أهلوا قالوا : « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك ، تملكه وما ملك ، فيوحدونه بالتلبية ثم يدخلون معه أصنامهم ، ويجعلون ملكها بيده ، يقول الله تبارك وتعالى لمحمد صلى الله عليه وسلم : « وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون ، أى ما يوحدوننى لمعرفة حقى إلا جعلوا معى شريكاً من خلقى » . (١)

وهم على توحيدهم المشوب بالشرك يعظمون الكعبة ويعرفون فضلها ، وقد اتخذوا معها طواغيت ، وهى بيوت يعظمونها كتعظيم الكعبة ، ولها سدنة وحجاب ، ويهدون إليها كما يهدون للكعبة ، ويطوفون بها كطوافهم بالكعبة وينحرون عندها ، ولكنهم يعرفون فضل الكعبة عليها ، لأنهم قد عرفوا أنها بيت إبراهيم الخليل ومسجده (٢) .

وإذا كان الشعر الجاهلى الوثنى الذى أوردنا بعضه قد مثل الوثنية تمثيلاً يضطرنا إلى الإقرار بأن الشعر الجاهلى لم يغفل الدين إغفالاً ، فإننا سنجد شعراً أكثر منه يتصل بالتوحيد والإيمان بالله مالك الملك البارى المصور الواهب المكافئ ، ويتصل باليهودية والنصرانية اتصالاً وثيقاً .

وقد قلنا إن العرب — على وثنيتهن — اعتمدوا ياله هو خالق الكون ، ولم ينقلوا فكرتهم عن اليهود والنصارى كما يظن كثير من الباحثين ، (٣) وإنما كان هؤلاء فريقاً من المستبصرين المفكرين الذين جروا على دين إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام .

التوحيد في الشعر

١ — أمية بن أبي الصلت :

وهذا شاعر جاهلي حفل ديوانه بتوحيد الله وتمجيده ، وبالكونيات والبعث والحساب إلخ ، قال فيه الأصمعي : « ذهب أمية في شعره بعامة ذكر الآخرة ، وذهب عنبرة بعامة ذكر الحرب ، وذهب عمر بن أبي ربيعة بعامة ذكر الشباب »^(١).

وهو بحق أعظم شعراء الجاهلية احتفالا بالدين ، وأكثرهم قصائد دينية ، وقد تعرض لما لم يتعرض له غيره من دقائق وتفصيل ، حتى قال فيه ابن سلام : « وكان أمية كثير العجائب ، يذكر في شعره خلق السموات والأرض ، ويذكر الملائكة ، ويذكر من ذلك ما لم يذكره أحد من الشعراء ، وكان قد شام أهل الكتاب »^(٢).
وقد أدرك أمية الإسلام ، وتوفي سنة ٥٩ هـ ، « وقد قرأ الكتب واتصل بالقدسين ولبس المسوح ، وتنسك وحرم الخمر ونبت الأوثان »^(٣) ، وما من شك في أنه سمع كثيرا من سور القرآن الكريم .

وقد أنشد النبي عليه الصلاة والسلام قول أمية :

✓ الحمد لله نمسانا ومُصَبِّحَنَا بالخير صَبَّحَنَا رَبِّي وَمَسَّانَا

.....

فقال إن كاد أمية لِيُسَلِّمَ^(٤) .

وفي ديوانه دالية عرض فيها قدرة الله في خلقه ونعمه على عباده ، وعدد بعض مظاهر قدرته ، من تربة مختلفة النوع وسحب ومطر ، ثم عرض لخرافة الهدد وأنه دفن أمه في قفاه . . . ثم ذكر أن السموات سبع ، وذكر العرش وذكر الشياطين وأنها تُرْمَى بالكواكب ، ثم وصف مواكب الملائكة وسماهم تلاميذ الله . . . إلخ^(٥).

(٣) شعراء النصرانية ٢١٩

(٢) سبقات الشعراء ١٠٣

(١) الأغاني ١٢٥/٤ الدار

(٥) ديوان أمية ٢٥ — ٢٩

(٤) الأغاني ١٢٩/٤ الدار

ومن القصص الدينية التي ذكرها قصة نوح والطوفان :

جزى الله الأجل المرء نوحاً جزاء البر ليس له كذاب
بما حملت سفينته وأنجت غداة أتاها الموت القلاب
وفيها من أرومته عيال لديه لا الظماء ولا السخاب
وإذ هم لا لبوس لهم ، عراة وإذ صخر السلام لهم رطاب
عشية أرسل الطوفان تجرى وفاض الماء ليس له جراب
على أمواج أخضر ذى حبيك كأن سعار زاخره الهضاب
وأرسلت الحمامة بعد سبع تدل على المهالك لا تهاب
تلمس هل ترى في الأرض متناً به تيس أو اضطراب
فجاءت بعد ما ركضت بقطف عليه الثأط والطين الكُثاب
فلما قدشوا الآيات صاغوا لها طوقاً كما عقد السخاب
إذا ماتت تورثه بنيتها وإن تقتل فليس لها استلاب^(١)

فهو هنا يتحدث عن الطوفان وسفينة نوح ونجاة ركبها ، ويستطرد إلى خرافة قديمة أن الحمامة هي التي دلت الركاب على اليابسة فكافئوها بطوق ملازم لعنقها .

وعرض أيضاً لقصة إبراهيم وإسماعيل ، وذكر فيها تفاصيل لم ترد في القرآن الكريم ، مثل :

فاقض ما نذرت لله واكفف عن دمي أن يمسه سربالى
واشدّد الصفد أن أحيد عن الله كين حيد الأسير ذى الأغلال
بينما يخلع السراييل عنه فكه ربه بكبش جلال^(٢)
وقد خلق الله الكون لحكمة عظيمة يعلمها سبحانه :

(١) ديوان أمية ٣٥ حبيك : طرائق الماء والموج . ثأط : طين . كُثاب : كثير . سخاب : قلادة .
(٢) الديوان ٣٣ الصفد : الشد والربط . جلال : عظيم .
القلاب : الملك . السخاب : الجياح .

لم يَخْلُقُ السَّمَاءَ وَالنَّجُومَ وَالشَّمْسَ مَعَهَا قَمَرٌ يَقُومُ
قَدْرَهُ الْمِهْمَنِ الْقِيُومَ وَالْحَشَّ وَالْجَنَّةَ وَالنَّعِيمَ
إِلَّا لِأَمْرِ شَأْنِهِ عَظِيمٍ^(١)

وكل شيء هالك إلا وجهه :

فكل معمر لا بد يوماً وذو دنيا يصير إلى زوال
ويفنى بعد جدته ويبيلى سوى الباقي المقدس ذو الجلال
وتعرض أمة للبعث والحشر والحساب والميزان :

ويوم موعدهم أن يُحْشَرُوا زُمَرًا يَوْمَ التَّغَابُنِ إِذْ لَا يَنْفَعُ الْحَذَرُ
وَأَبْرَزُوا بِصَعِيدٍ مَسْتَوْ جُرُزٍ وَأَنْزَلَ الْعَرْشَ وَالْمِيزَانَ وَالزُّبَرَ^(٢)
ويطول بنا القول لو ذهبنا نستشهد بشعر أمة ، لأنه حافل بالكونيات والتوحيد ،
وأرجح أنه تأثر بالقرآن الكريم في بعض شعره ، لأن الفكرة واحدة وبعض
التعابير مشتركة مثل قوله :

عرفت أن لن يفوت الله ذو قدمٍ وأنه من أمير السوء يفتقم
المُسْبِجُ الخُشْبَ فَوْقَ الْمَاءِ مَخْرَهَا خِلَالِ جَرِيَّتِهَا كَأَنَّهَا عُومٌ^(٣)
وهو في البيت الثاني متأثر بقوله تعالى : « وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفَلَكَ لِتَجْرِيَ فِي
الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ » .

ومثل قوله في سفينة نوح :

فَار تَنْوَرُهُ وَجَاشَ بِمَاءِ طَمَّ فَوْقَ الْجِبَالِ حَتَّى عَلَاهَا
قِيلَ لِلْعَبْدِ مَرٍّ ، فَسَارَ وَبِاللَّهِ عَلَى الْهَوْلِ سَيْرُهَا وَسُرَاهَا
قِيلَ فَاهْبِطْ فَقَدْ تَنَاهَتْ بِكَ الْفَلَكَ عَلَى رَأْسِ شَاهِقٍ مُرْسَاهَا^(٤)

(١) الديوان ٢٤ - ٢٥ الحش بفتح الحاء وضمتها : البستان والنخل .

(٢) الديوان ٥٦ التغابن : غيب أهل الجنة لأهل النار . جرز : لاتنبت .

(٣) الديوان ٣١ عوم : جمع عومة : دوية (٤) الديوان ٣٧

فهنّا من القرآن الكريم (فار تنوره) و (سيرها وسراها) مأخوذة من قوله تعالى : . باسم الله مجراها ومرساها . .

وفي شعر أمية تعبير مسيحي ما زال حيا :

مجدّوا الله وهو للمجد أهل ربنا في السماء أمسى كبيرا^(١)

٢ — وكان عدى بن زيد نصرانيا ديانا ، وترجمانا وصاحب كتب ، وكان من دهاة أهل ذلك الدهر . قال عدى بن زيد يذكر شأن آدم ومعصيته وكيف أغواه الشيطان ، وكيف دخل في الحية ، وأن الحية كانت في صورة جمل فسخها الله عقوبة لها حين طاوحت عدوه على وليه :

قضى لسته أيام خليفته	وكان آخرها أن صور الرجل
دعاه آدم صوتا فاستجاب له	بنفخة الروح في الجسم الذي جبلا
ثمت أورثه الفردوس بعمرها	وزوجه صنعة من ضلعه جعل
لم ينهه ربه عن غير واحدة	من شجر طيب أن شم أو أكلا
فكانت الحية الرقشاء إذ خلقت	كما ترى ناقة في الخلق أو جملا
فعمدا للتي عن أكلها نهيا	بأمر حواء لم تأخذ له الدغلا
كلاهما خاط إذ بزأ ابوسهما	من ورق التين ثوبا لم يكن غزلا
فلاطها الله إذ أغوت خليفته	طول الليالي ولم يجعل لها أجلا
تمشى على بطنها في الدهر ما عمرت	والترب تأكله حزنا وان سهلا
فأتعبا أبوانا في حياتهما	وأوجدا الجوع والأوصاب والعلا
وأوتينا الملك والإنجيل نقرؤه	نشفي بحكمته أحلامنا عللا
من غير ما حاجة إلا ليجعلنا	فوق البرية أربابا كما فعلا ^(٢)

(١) الديوان ٤٣

(٢) الميوان للجاحظ ١٩٧/٤ طبعة هارون

٣ - شعراء آخرون غير أمية وعدى :

وسنمر بعدة من شعراء الجاهلية وننقر في أشعارهم لنستنبط منها مذاهبهم الدينية، غير طامعين في أن ينطلق أحدهم انطلاق أمية بن أبي الصلت ، فإن أمية شاعر ديني بمعنى الكلمة ، فهو في العصر الجاهلي كآبي العتاهية مثلاً في العصر العباسي ، كل منهما في عصره لا نظير له في اتجاهه .

وحتى ليبد مع تميزه بنغمة دينية قبل إسلامه لم يبلغ شأو أمية ، قال أبو عمرو ابن العلاء : ما أحد أحب إلى شعراً من ليبد ؛ لذكره الله عز وجل وإسلامه ولذكره الدين والخير .

وهذه بعض اتجاهات دينية مستقاة من شعرهم :

١ - أقسمو بالله :

أقسم عبيد بن الأبرص بالله المنعم الغفور :

حلفتُ بالله ، إن الله ذو نِعَمٍ لمن يشاء وذو عفو وتَصْفَاح
ما الطَّرَف منى إلى ما لستُ أملكه مما بدا لي يباغى اللحظ طاح^(١)
وأقسم النابغة بالله الذي لا قسم أقوى من القسم به :

حلفتُ فلم أترك لنفسك رية وليس وراء الله للبرء مذهب
وأقسم رب السكبة :

فلا ، لعمرُ الذي مسَّحتُ كعبته وما هُرِيقَ على الأنصاب من جَسَد
ما قلتُ من سيءٍ مما أُتيتَ به إذا فلا رفعتُ سوطي إلى يدي
وأقسم أوس بن حجر بالأصنام وبالله الأكبر :

باللات والعزى ومن دان دينها وبالله إن الله منهم أكبر
وحلف المهلهل رب البيت :

قتلوا كلياً ثم قالوا لا تَنبُ كلاً ، ورب البيت والإحرام

وحلف ذو الإصبع العدواني بالله :

والله لو كرهت كفى مصاحبتى
لقلتُ إذ كرهتُ قُرْبِي لها بيني^(١)
وحلف بالله عامر المحاربي :

فما إن شهدنا خمركم إذ شربتم
على دهش والله شربة أشأما^(٢)
وحلف به لقيم الشيباني :

إني وبيت الله لولا شدتي
لشتا (الملبد) في رجام موصد^(٣)
ومن للقسم بالكعبة بيت الله قول راشد بن شهاب يخاطب قيس بن مسعود الشيباني:
فلا تحسبنا كالعُمور وجمعنا فنحن وبيت الله أدنى إلى عمرو^(٤)
وقول درهم بن يزيد في تهديده لمالك بن العجلان في خصومة بينهم ، لما قتل
رجل من بني عمرو بن عوف جاراً لمالك وأبوا أن يدفعوا الدية كاملة بحجة أن
الحليف له نصف الدية :

إني لعمرُ الذي يحج له النسا
س ومن دون بيته سرف
يمين برِّ بالله مجتهد
يحلف إن كان ينفع الحلف
لا نرفع العبد فوق سنته
ما دام منا يبطنها شرف^(٥)
وحلف زهير بالكعبة التي يطوف بها العرب :

فأقسمت بالبيت الذي طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يميناً لنعم السيدان ووجدتما
على كل حال من سحيل ومُبرم^(٦)
ب — وأسندوا إليه سبحانه وتعالى الثواب والعقاب والمنع والمنع والنفع ،
والضرر . قال عبد يغوث يدعو الله أن يعاقب قومه وحلفاءهم لأنهم تخلوا عنه
في الحرب فأسر :

(١) الفضليات ١٦٢/١

(٢) الفضليات ١١٩/٢

ثم تنقص من قدره الملبد .

(٤) الفضليات ١١١/٢

(٣) النقائص ٢٣ الملبد : رجل أقذه لقيم يوم فشاوة

(٥) الأغاني ٢١/٣ الدار

(٦) شرح القصائد العشر للتبريزي

جزى الله قومي بالكُلاب مَلامة صريحهم والآخرين المواليا^(١)
وفي القصيدة نفسها يناجى الناس متحسراً على أنه قد حرم من سماع أناشيد الرعاة
التي تتجاوب وتتردد ، فيعبر عن مخاطبتهم بأنهم عباد الله :

أحقاً عباد الله أن لست سامعاً نشيد الرعاة المعزبين المتألياً^(٢)
والله سبحانه وتعالى هو الرافع والخافض ، قال مَقَّاسُ العائِذِي يدعو الله أن يرفع
من قدر بني شيان :

إذا وَضَعَ الهَزَاهُ آلَ قَوْمٍ فزاد الله آلَكم ارتفاعاً^(٣)
ولما أجاز الأوس مَخْلَدُ بن الصامت الساعدي قال أبو قيس بن الأسلت :
أجرتُ مَخْلَدًا ودفعت عنه وعند الله صالح ما أتيت^(٤)
وفي استعطاف عدي بن زيد العبادي للنعمان وقد حبسه قوله إن الله قد فضلكم
على المسيحيين جميعاً :

أَجَلٌ نَعْمَى رَبُّهَا أَوْلُكُمْ ودنوئى كان منكم واصطبارى
أجل إن الله قد فضلكم فوق من أحكأ صلباً بإزار^(٥)
والله هو المعين على الانتصار ، قال أبو قيس بن الأسلت (صفي بن عامر الوائلي
الأوسي) :

وأحرزنا المغانم واستبحرنا حَمَى الأعداء واللهُ المُعِين^(٦)
والله هو الذى يقبض الدنيا ويبسطها ، ويعلم السر والنجوى ويجازى ، قال
ذو الإصبع العدواني فى شكواه من ابن عمه :

إن الذى يقبض الدنيا ويبسطها - إن كان أغناك عنى سوف يغنيئى
الله يعلمكم والله يعلمنى والله يجزيكم عنى ويجزئنى

(١) المفضليات ١٥٥/١ (٢) المرجع السابق ١٥٥/١

(٣) المفضليات ١٥٥/٢ الهزاهز : الحروب .

(٤) الأغاني ١٤/٣ الدار (٥) البيان والتبيين ٢٨٥/٢ أحكأ : شد وعقد

(٦) البيان والتبيين ١٧/٣

لولا أوأصرُ قربى لست تحفظها ورهبة الله في مولى يعاديني
 إذا بريتك برياً لا انجبار له إني رأيتك لا تنفك تبريني^(١)
 والله تعالى هو الواقى من السوء ، قال أفنون التغلبى :
 لعمرك ما يدرى امرؤ كيف يتقى إذا هو لم يجعل له الله واقياً^(٢)
 وهو المانح الجمال ، قال قيس بن الخطيم في غزله :
 قضى لها الله حين صورها الـ خالق ألا يـكـنـها سـدـف^(٣)
 وهو قاسم الأرزاق والحظوظ بين الناس ، قال ليلى في معلقته :
 فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلاق بيننا علماً^(٤)
 وقال عبيد بن الأبرص إن الله هو المعطى الذى لا يخيب سائله :
 من يسأل الناس يحرموه وسائل الله لا يخيب^(٥)
 وهو الذى يبارك ، قال عبيد يصف شربة ماء لناقته :
 بارك في ماءها الإله فما يـبـص منه كأنه عسل^(٦)
 وهو الذى يشيب على المعروف ، قالت هند بنت الحُسّ فى مدحة للقلمس ، وكان
 سيداً من سادات كنانة ، وحكياً من حكماء العرب وكاهناً ، من كهانهم ، وكان يفسأ
 الشهور فيحل حرامها ويحرم حلالها :
 إذا الله جازى منعماً بوفائه فجازاك عنى يا قلمس بالكرم
 وهو المانح للقبيلة مكاتها وسماحة أخلاقها ، قال سويد بن أبي كاهل اليشكري :
 كتب الرحمن والحمد له سعة الأخلاق فينا والضلع^(٧)
 وللأعشى بيت قد يكون صالحاً للدلالة على أنه قد رى :

(١) الأغاني ١٠٥/٣ الدار ، والأمالى ٢٥٥/١ (٢) المفضليات ٦١/٢

(٣) الأغاني ٣٣/٣ الدار (٤) المعلقات العشر ٩٦ الشنقيطى

(٥) ديوان عبيد القصيدة الأولى Lyall (٦) ديوان عبيد القصيدة ٣

(٧) المفضليات ١٩٥/١

استأثر الله بالوفاء وبالعدل ل وولى الملامة الرجال
وسئل يحيى بن متى راوية الأعشى - وكان نصرانياً عبادياً معمرًا ، وكان يرى
أن الأعشى قد رى - : من أين أخذ الأعشى مذهبه ؟ قال : من العباديين نصارى
الخير ، كان يأتهم يشترى منهم الخمر فلقد نوه ذلك ^(١)

ح - وقصروا علم الغيب على الله سبحانه وتعالى ، وأقروا بأنهم لا يستطيعون
أن يعرفوا ما وراء المشاهد المحسوس من تصارييف القضاء .

قال زهير إن الله يعلم السر والنجوى :
ألا أبلغ الأحلاف عنى رمالة وذيان هل أقسمت كل مقسم
فلا تكتمن الله ما فى نفوسكم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم ^(٢)
وقال المرقش الأكبر إن للزمن أحداثاً شتى ، وإن الله هو الذى يعلم الولود من
العقيم ، فهذه يكثر أولادها ، وهذه عقيم لا ولد لها :

ليس على طول الحياة ندم ومن وراء المرء ما يعلم
يهلك والد ، ويخلف مولود ، وكل ذى أب يتم
والوالدات يستفدن غنى ثم على المقدار من يعقم ^(٣)
وقال لبيد إن طرق الحصاد وزجر الطير لا يكشف عما فى علم الله :
لعمرك ما تدرى الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعل

وقال طرفة إن الله كتب فى اللوح ما يلقي كل شخص :
إذا ما أردت الأمر فامض لوجه وخل الهوينا جانباً متائباً
ولا يمنعك الطير مما أردته فقد خط فى الألواح ما كنت لا قياً ^(٤)
والأعشى يدين بأن الله علام الحقائق وخفايا النفوس :

فإني وما كلفتموني بجهلكم ويعلم ربي من أعق وأحوبا
لكالثور والجني يضرب ظهره وماذنبه إن عافت الماء مشربا^(١)
وحاتم يقسم بالله عالم السر وبجي العظام ، أنه كان يؤثر ضيوفه على نفسه :
أما والذي لا يعلم السر غيره ويحي العظام البيض وهي رميم
لقد كنت أختار القرى طاوى الحشا محافظة من أن يقال : لثيم^(٢)
وهم بشر لا وسيلة لهم إلى استشفاف ما وراء حجب الغيب ، قال أحيحة
ابن الجلاح :

وما يدرى الفقير متى غناه وما يدرى الغنى متى يعيل ؟
وما تدرى وإن ألقيت شولا أتلقح بعد ذلك أم تحيل ؟
وما تدرى إذا ذمرت سقبا لغيرك أم يكون لك الفصيل ؟
وما تدرى وإن جمعت أمرا بأى الأرض يدركك المقيـل^(٣) ؟
وقال المخبل السعدى :

وتقول عاذلتى وليس لها بغد ولا ما بعده علم^(٤)
وقال :

وما أدرى إذا يمت أرضا أريد الخير أيهما يلينى
الخير الذى أنا ابتغيه أم الشر الذى هو يبتغينى^(٥)

وقد علّق المثقب العبدى على إرادة الله ومشينته فى قوله يصف ناقته :
وأيقنت - إن شاء الإله - بأنه سيبلغنى أجلاؤها وقصيدُها^(٦)
ودان طريقة بأن القضاء بيد الله ، قال فى معلقته يخاطب مالكا بن عمه :

(١) حماسة البحرى ٣٥٢

(٢) الحماسة ٣١٢/٢

(٣) جمهرة أشعار العرب ٢٥٥ يعيل : يفتقر . الشول : الناقة

التي نطلب اللقاح . ذمر : جس ولد الناقة . السقب : ولد الناقة (٤) حماسة البحرى ١٤١

(٥) حماسة البحرى ١٨٦ (٦) المفضليات ١٤٩/١ . أجلاؤها : جسمها . قصيدها : مخ

عظامها ، يريد أنها ستبلغه غايته ما بقيت فيها قوة

فلو شاء ربى كنتُ قيسَ بن خالد ولو شاء ربى كنتُ عمرو بن مرثد
فأصبحتُ ذا مالٍ كثيرٍ وزارنى بنور كرام سادة لمسود^(١)

و - والله سبحانه وتعالى هو الحى الباقي الذى يرث الأرض ومن عليها . قال
الممزق العبدى داعياً إلى التهوين من شأن المال ، لأن المال لا بد أن يرثه الله الباقي :
هَوْنٌ عليك ولا تولعْ بإشفاق فإنما مالنا للوارث الباقي^(٢)
وقال ليبد :

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل
ه - وهم يؤمنون بيوم القيامة حيث تجزى كل نفس ما عملت ، وقد ذكرنا
طرفاً من عقيدتهم فى أن الله تعالى هو المالك للكون المتصرف فيه ، ولكن صرح
بعضهم بذكر يوم البعث كما صرح أمية بن أبى الصلت ، قال علاف بن شهاب التيمى
إن الله سيثيب عباده يوم الحساب على أعمالهم الطيبة :

ولقد شهدت الخصم يوم رفاة فأخذت منه خطة المقتال
وعلمت أن الله جازٍ عبده يوم الحساب بأحسن الأعمال^(٣)
وقال ليبد :

وكل امرئ يوم ما سيعلم سعيه إذا كُشِفَتْ عند الإله الحصائل
وإيمانهم بالبعث حملهم على الاستعداد له ، ومن عدتهم هذا التخيل العجيب الساذج :
كانوا إذا مات الرجل شدوا ناقته إلى قبره وجعلوا رأسها إلى الوراء ، وغطوه
بِوَلِيَّة (برذعة) ، وتركوها حتى تموت أو تنفك ، فإذا انفسكت لم يردوها عن ماء ولا
مرعى ، ويزعمون أنهم إذا فعلوا ذلك حُشِرَت مع الميت فيركبها فى الميعاد^(٤) ، فإن
لم يفعلوا ذلك حُشِر حافيا .

(١) شرح القصائد العشر للتبريزى (٢) المفضليات ١٠٠/٢ (٣) بلوغ الأرب ٣٠٤/٣

(٤) صبح الأعشى ٤٠٤/١ وعاضرات الأدباء ٧٤/١

ويورد الألوسى معنى آخر يغير هذا في أنهم يتركون البلية في حفيرة لا تطعم ولا تشرب حتى تهلك ، ويقول إنهم ربما أحرقوها بعد موتها ، وربما سلخوها وملئوها جلدها ثمأما ، وكانوا يزعمون أنه من مات ولم يُبَلَّ عليه حشر ماشياً ، ومن كانت له بلية حشر راكبا عليها^(١) . ويوافقه الفيروز آبادى فيعرفها بأنها الناقة يموت ربهها فتشدد عند قبره حتى تموت ، كانوا يقولون ن صاحبها يحشر عليها ، ومن لم يفعل له ذلك حشر راجلا ، وهذا مذهب من يقول بالبعث من العرب وهم الأقل^(٢) .

ويذكر صاعد الأندلسى أن الناقة كانت تنحر على قبر المتوفى ليحشر راكبا لا ماشيا^(٣) .

قال جريرة بن الأشيم الفقعسى^(٤) لابنه ، طالبا أن يحبس ناقته على قبره ليركبها يوم الحشر :

يا سعد إماما أهلكن فإني أوصيك ، إن أخا الوصاة الأقرب
لا تتركن أباك يحشر راجلا في الحشر يصرع للدين وينسكب
واحمل أباك على بعير صالح وتق الخطيئة إنه هو أقرب
ولعل لى بما تركت مطية في القبر أركبها إذا قيل : اركبوا^(٥)

وقال عمرو بن زيد يوصى ابنه أن يلو ناقته :

أبني زودنى إذا فارقتني في القبر راحلة برحل قاتر
للبعث أركبها إذا قيل : اظعنوا متوثقين معاً لحشر الحاشر
من لا يوافيه على عثراته فالخلق بين مدفع أو عاثر^(٦)

وهذه عقيدة كانت مسيطرة على من يدينون بها ، ولذا أكثروا من الوصاة بحبس

(١) بلوغ الأرب ٢/٣٤٠ (٢) القاموس المحيط مادة (بلى) وحاشيته (٣) طبقات الأمم ٤٤

(٤) القاموس المحيط مادة (جرب)

(٥) الملل والنحل للشهر ستانى على هامش الفصل لابن حزم ٣/٢٣٠ وطبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٤

وذكر أن اسمه خزيمة

(٦) المرجع السابق ٣/٢٣٠ الرجل القاتر : اللطيف المتمكن من الظاهر .

البلية على قبورهم ، وافتخروا بكثرة البلايا التي تركوها على قبور الاحباب ، قال
عويمر النبهاى :

أبني لا تنس البلية ، إنها لا ييك يوم نشوره مركوب

ونخر أعرابي بكثرة ما ترك على القبور من بلايا ، يريد أنه غنى يملك النوق ،
وأنه لا يبق عليها ، وأنه حفي بأهله معني بيعتهم ركبانا يوم القيامة :

نجبية قوم شادها القت والنوى يثرب حتى نيا متظاهر

فقلت لها : سيري فما بك علة سنامك ملحوم ونايك فاطر

فثلك أو خيرا تركت رزية تقلب عينها إذا مر طائر^(١)

وشبه أبو زيد الطائي بالبلايا رجلا أثر فيهم الغزو فقال :

بدل الغزو أوجه القوم سودا ولقد أبدوا وليست بسود

في ثياب عمادهن رماح عند جوع يسمو سمو الكبود

كالبلايا رموسها في الولايا مائحات السموم سفع الخدود^(٢)

و — وأما شعائر اليهودية والنصرانية فقد ترددت في شعر كثير منهم :

(١) على سبيل الحلف :

حلف عدى بن زيد بالله وبالصليب ، قال يخاطب النعمان :

سعى الأعداء لا يألون شرا عليك ورب مكة والصليب

وحلف الأعشى بمسوح الرهبان وبالسكبة :

حلفت بثوبي راهب الدير والتي بناها قصي والمضاض بن جرهم

(٢) على سبيل التشبيه والتصوير واستمداد المعاني :

وصف ليبد رجلا غلبه النعاس فشبهه باليهودي المصلي :

يلبس الأحلام في منزله يديه كاليهودي المصلي

(١) البيان والتبيين ٣/١٨٥ القت : نبات جاف ترعاه الإبل . التي : الشحم . فاطر : ظاهر . رزية : بلية

(٢) جهرة أشعار العرب ٢٩٠ وجهزة الأمثال لأبي هلال ١٩٣

أى يطلب الأكسية الرقاق التى توضع على ظهر البعير تحت الرجل ، ويتحسسها بيديه وهو لا يحس بها من غلبة النوم .

وشبه أوس بن حجر سنان رحه بمصباح يوقده رئيس النصارى يوم الفصح :
عليه كمصباح العزيز يشبه بفصح ويحشوه الذبال المفتلا
وشبه عدى بن زيد زجاجة الخمر التى صبح بها ضيفانه بقنديل الكنيسة المجلو المنير فى عيد الفصح :

بَكُرُوا عَلَى بَسْجَرَةٍ فَصَبَحْتَهُمْ يَأْنَاءُ ذِي كَرَمٍ كَقَعْبِ الْحَالِبِ

بزجاجة ملء اليدين ، كأنها قنديل فصح فى كنيسة راهب

وتصور امرؤ القيس وضاء وجه حبيبته مصباح راهب :

تَضَى الظَّلامَ بِالْعِشَاءِ كَأَنَّهَا مَنْارَةٌ تُسَمَّى رَاهِبٌ مُتَبَقِّلٌ

وشبه ضوء البرق بمصاييح الرهبان التى أميلت فتائلها لأها ريا بالزيت :

أَصَاحَ تَرَى بَرَقًا أُرِيكَ وَمِيزُهُ كَلَمَعَ الْيَدَيْنِ فِي حَيٍّ مَكَلَّلٍ

يضى سناه أو مصاييح راهب أَمَالِ السَّلِيْطِ بِالذُّبَالِ الْمَفْتَلِ (١)

وقد وصف مُزَرَّد بن ضرار الذيبانى البيضة والحلق المتصل بها الذى يُطرح على

الظهر لستر العنق ، فقال إن بيضته يمنية سلسلة ماساء لينة تنزلق الحجارة عنها ، وشبه

لمعانها فى شعاع الشمس بمصاييح الرهبان تلعب :

وَتَسْبِغَةٌ فِي تَرْكَةٍ حَمِيرِيَّةٍ دُلَامِصَةٌ تَرْفُضُ عَنْهَا الْجُنَادِلُ

كأن شعاع الشمس فى حجراتها مصاييح رهبان زهتها القنادل (٢)

وشبهوا بنواقيس السكنائس ، قال المرقش الأكبر إن أصوات البوم فى هداة

الليل تشبه قرع النواقيس :

(١) دايوان امرؤ القيس

(٢) المفضليات ٩٦/١ . تسبغة : زرد مشتبك الحلقات متصل بالبيضة يطرح على الظهر لستر العنق .

تركة : بيضة مستديرة . دلامصة : سلسلة لينة . حجرات : جوانب

وتسمع نَزَقَاءً من اليوم حولنا كما ضَرَبَتْ بعد الهدوء النواقيس^(١)
ويقول جواس بن القعطل إن الشعرى تتلألأ كالقناديل في الكنائس :
وأعرضت الشعرى العبور كأنها معلق قنديل علته الكنائس^(٢)
وهم شبهوا الحسان بدمى الكنائس ، قال عدى بن زيد العبادى :
كُدِّمى العاج فى المحاريب أو كالدَّيَّان فى الروض زهره مستنير^(٣)
وشبهوا بالصلبان ، قال بشر بن أبى خازم :
لله دَرُّ بنى حَدَّاءَ من نَفَرٍ وكلُّ جار على جيرانه كَلْبُ
إذا عَدَوْا وَعَصَى الطلح أرجلهم كما تُنصَّبُ وسط البيعة الصُّلْبُ^(٤)
أى أنهم عرج ، ولذا تشبه أرجلهم عصى الطلح ، وهى دائماً معوجة .

(٣) الكواكب

وكان منهم عباد الشمس يسجدون لها إذا أشرقت وإذا توسطت السماء وإذا
غربت ، ولذا نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة فى هذه الأوقات . وقد
عبدتها ثمود ، ثم عبدتها تميم ، يقول بروكلمان عن سجاح : « حتى إذا جاءها نبأ وفاة
النبي سارت مع عدد كبير من أتباعها إلى أنسبائها من قبيلة تميم ، الذين كانوا يحكم
بداوتهم الخالصة على مستوى ثقافى أدنى من مستوى غيرهم من العرب ، فهم يؤطون
الشمس على الخصوص »^(٥)
وعبدها أيضا عرب من حمير قبل أن يتهودوا ، ومنهم بلقيس : « وجدتها وقومها
يسجدون للشمس من دون الله » .
وبعض قبائل من كنانة عبدت القمر ، وعبدت تميم الدبران ، وعبدت لخم

(١) المفضليات ٢٥/٢ (٢) المؤلف والمختلف ٧٤ (٣) البيان والتبيين ٤/١

(٤) البيان والتبيين ٥٣/٣ (٥) العرب والإمبراطورية العربية ٢٧

جذام لمشتري ، وعبدت طيء سهيلا ، وعبدت قيس الشعرى العبور ، وعبدت
أسد عطاردا^(١) .

ومن عباد الكواكب الصابئة ، وهم يعتقدون فى الأنواء اعتقاد المنجمين فى
السيارات ، فلا يتحركون ولا يسكنون ولا يسافرون ولا يقيمون إلا بنوء منها .
ومن آثار عبادتهم للكواكب أنهم سموا بأسماء مضافة إليها بالعبودية ، كعبد شمس
وعبد المشتري وعبد الشارق .

وسموا الشمس إلهة ، قال للشاعر :

تَرَوُّحَنَا مِنَ اللَّعْبَاءِ عَصْرًا وَأَعْجَلْنَا إِلَهَةً أَنْ تَتُوبَا^(٢)

وكان الغلام إذا سقطت سنه قذف بها إلى الشمس قائلا : « أبدلنى بها سنا أحسن
منها ، ولتجر فى ظلِّها أياتك ، أو إياؤك ، والكلمتان معناهما شعاع الشمس ، وزعموا
أنه إذا فعل ذلك أمن على أسنانه العوج ، وما زال الصغار يفعلون ذلك إلى الآن
غير متأثرين بعبادة الشمس . وفى هذا البريق الذى تجريه الشمس فى الأسنان يقول
طرفة واصفا ثغر محبوبته : إن أسنانها براقه سقاها شعاع الشمس ، وهى أسنان
صحيحة غير مثلبة ، لأنها لم تضغط على شيء يثلمها ، ولثتها وشفتها فيهما حُوة ، كأنما
ذر عليهما كل ، والعرب يستملحون حُوة الشفة واللثة :

سَقَّتْهُ أَيْأَةُ الشَّمْسِ إِلَّا لثَاتَهُ أُسْفَ - وَلَمْ تَكْدِمِ عَلَيْهِ - يَأْتِمِدُ^(٣)

وقال شاعر آخر :

وَأَشْنَبَ وَاصْبَحَ عَذْبُ الشَّيَا كَأَنْ رُضَابَهُ صَافِي الْمُدَامِ

كسسته الشمس لونا من سناها فلاح كأنه برق الغمام

وقال طرفة فى الأسنان :

(١) طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ٤٣

(٢) تروحنا : رجعنا . اللعباء : اسم مكان . أعجلنا : سبقنا (٣) ديوان طرفة ٢٢

بدلته الشمس من منبته برداً أبيض مصقول الأشر^١
وقال آخر :

بذى أشر^٢ عذب المذاق تفردت به الشمس حتى عاد أبيض ناصعا

(٤) النار

وعبد بعضهم النار ، ولعل هذه العقيدة سرت إليهم من الفرس المجوس .
وعباد النار يفضلونها على التراب ، ويصوبون رأى إبليس في استكباره أن يسجد
لآدم ، ورؤى أن بشار بن برد كان على هذا المذهب لقوله :
الأرض سافلة ساء دام مظلمة والنار معبودة مذ كانت النار
وربما كان مذهب إحراق الموتى بالنار إلى الآن امتداداً للمذهب القديم الذي
كان يتقرب إلى النار بالنفس والولد .
وقد تمثلت عبادة النار في هذه المظاهر :

١ - حلفوا بها فكانت لهم نار باليمن لها سدنة ، فإذا تفاقم أمر بين قوم فحلفوا
بها انقطع ما بينهم من تعاد ، وسموها الهولة والمهولة ، وكان سادنها إذا أتى برجل
هيبه من الحلف بها ، ولها قيم يطرح فيها الملح والكبريت ، فإذا وقع فيها استشاطت
وتنفضت ، فيقول له : هذه النار قد تهددتك . فإن كان مذنباً نكل ، وإن كان بريئاً
حلف^(٣) وقال الطبرى : « وكان باليمن فيما زعم أهل اليمن نار تحكم بينهم فيما يختلفون
فيه ، تأكل الظالم ولا تضر المظلوم ، »^(٤) .

قال أوس بن حجر :

إذا استقبلته الشمس صد بوجهه كما صد عن نار المهول حالف^(٥)

(١) ديوان طرفة ٦٥

(٢) أبيات المعاني (٣) تاريخ الطبرى ٩٦/٢

(٤) الديوان ١٦ والبيان والتبيين ٦/٣

وقال الأول :

حلفت بالملح والرماد وبالنار وبالله تُسَلِّمُ الحلقة
حتى يظل الجوادُ مُنْعَقِرًا^(١) وتُخَضِّبُ النَّبْلُ غُرَّةَ الورقة^(٢)
وقال آخر :

حلفت لهم بالملح والجمع شُهِدُ وبالنار واللات التي هي أعظم^(٣)
وقال أفنون التغلبي .

لو أننى كنت من عاد ومن إرم رِيَّيتُ فيهم ولقمان ومن جَدَن
لما قَدَوْا بأخيهم من مُهَوِّلة أخا السَّكُونِ ولا جاروا على السُّنَنِ^(٤)
وقد أشار إليها السكيت في المعصر الأموى :

كَهَوِّلة ما أوقد المخلفون لدى الخالفين وما هَوِّلوا^(٥)
وقال :

هم خوفونا بالعمى هوة الردى كما شب نار الخالفين المهول
ب - وتحالفوا على النار كما تحالفوا على غيرها مما أسبقنا في الحياة الاجتماعية
(الحلف والجوار) يذكرون عند المحالفة منافع النار ويدعون إلى الله عز وجل
بالحرمان والمنع من هذه المنافع على الذى ينقض عهد الحلف ويخيس بالعهد ، ويقولون
في الحلف : الدم الدم ، الهدم الهدم ، (أى ما هدم لكم من بناء أو شأن فقد هدم
لنا ، وما أريق لكم من دم فقد أريق لنا) لا يزيده طلوع الشمس إلا شداً ، وطول
الليالى إلا مداً ، وما بل البحر صوفة ، وما أقام رضوى فى مكانه - إن كان جبلهم

(١) البيان والتبيين ٦/٣ وفى الأغاني ١٣٩/٢٠ أن الشعر للأعشى :

حلفت بالملح والرماد وبالغى - وعرى وباللات تسلم الحلقة
حتى يظل الهمام منجد لا - ويقرع النبل طرة الدرة

(٢) المرجع السابق ٧/٣

(٣) الفضليات ٦٢/٢ أخا السكون أسير من قبيلة السكون اليمنية كان عند قوم أفنون

(٤) البيان والتبيين ٦/٣

رضوى - وكل قوم يذكرون جبلهم أو المشهور من جبالهم ، وربما دنوا منها حتى تكاد تحرقهم^(١)

وربما سرى ذلك إليهم من المجوسية الفارسية القائمة على عبادة النار . وابن عبد ربه يفسر قول الأعشى في مدح المخلوق :

رضيَ لبان ثدى أم تحالفا بأسحَمَ داج عَوْضُ لا تتفرق

بأنهما تحالفا على الرماد كما يفعل الفرس . وإذا كان التحالف على الرماد من تأثير الفرس ، فالتحالف على النار نفسها أحق بأن يكون من تأثيرهم ، على أنى أفضل تفسير الأسحَم بدم الحلف كما نص القاموس واللسان .

ح - واستمطروا بها :

كانوا إذا أكدت السماء فأجدبوا استمطروا بربط السِّلَع والعُشَر بأذنان البقر وأضرموا فيها النار .

ويذكر الجاحظ أنهم كانوا يجمعون ما يقدرون عليه من البقر ، ثم يعقدون في أذنانها وبين عراقيها السِّلَع والعُشَر ، ثم يصعدون بها في جبل وعر ويشعلون فيها النيران ويضجون بالدعاء والتضرع ، ويرون أن ذلك من أسباب السقيا^(٢) ويتابعه الألوسى فيذكر أنهم كانوا يدعون الله ويستسقونه^(٣)

ولكن لعلاقة بين إحراق البقر على هذه الصورة وبين دعائهم الله تعالى ، فهل لهذا العمل علاقة بعبادة النار ؟ ما أظن هذا ، إذ لو أن له بها صلة لأشعلوا نارا ودعوا حولها مثلاً .

وعلل بعضهم لذلك بأن الهذد تعبد البقر ولها عندهم حرمة ، ولهم بها تبرك فربما حذا العرب حذوهم^(٤) ، ولكنى لا أرى ذلك صحيحاً ، لأن بعض الهنود يعبدون البقر ويحرصون على سلامتها ، وشتان بين هذا وإحراق العرب لها في استمطارهم .

(١) الحيوان للجاحظ ١٥٠/٤ وأيمان العرب للنجى الكاتب مخطوط

(٢) بلوغ الأرب ٣٣٣/٢

(٣) الحيوان ١٥٠/٤

(٤) بلوغ الأرب ٣٣٤/٢

والذى أراه أنهم كانوا يتفألون بالنار طلبا للبرق ، أو أنهم كانوا يحاكون عبادة
قديمة تقرب الأبقار قربانا للآلهة .

وقد سجل أمية بن أبى الصلت هذه الخرافة فى شعره :

سِنَّةُ أَزْمَةٍ تُخِيلُ بِالنَّاسِ	تَرَى لِلْعِضَاءِ فِيهَا صَرِيرًا
إِذْ يُسَقُّونَ بِالْدَقِيقِ وَكَانُوا	قَبْلَ لَا يَأْكُلُونَ شَيْئًا فَطِيرًا
وَيُسَوِّقُونَ بِأَقْرَسِ السَّهْلِ لِلطُّودِ	مَهَازِيلَ خَشِيَّةً أَنْ يَمُورًا
عَاقِدِينَ النَّيْرَانَ فِي شُكْرِ الْأَذْنَابِ	عَمْدًا كَيْمَا تَهْبِجُ الْبُحُورًا
فَاشْتَوَتْ كُلُّهَا فَهَاجَ عَلَيْهِمُ	ثُمَّ هَاجَتْ إِلَى صَبِيرٍ صَبِيرًا
فَرَأَاهَا الْإِلَهَ تُرْشِمُ بِالْقَطْرِ	وَأَمْسَى جَنَابُهُمْ مَطُورًا
فَسَقَاهَا نَشَاطَهُ وَكَفُّ النَّبْتِ	مُنَهُ إِذَا وَادَعُوهُ السَّكْبِيرَا
سَلَعٌ مَا وَمِثْلُهُ عَشْرُ مَا	عَائِلٌ مَا وَعَالَتِ الْبَيْقُورَا (١)

وسخر أعرابي آخر بهذا العمل ، وذكر أن المطر بيد الله ينزله متى شاء :

شَفَعْنَا بِبَيْقُورٍ إِلَى هَاطِلِ الْحَيَا	فَلَمْ يَغْنِ عَنَّا ذَاكَ بَلْ زَادَنَا جَدْبًا
فَعَدْنَا إِلَى رَبِّ الْحَيَا فَأَجَارَنَا	وَصِيرَ جَدْبَ الْأَرْضِ مِنْ عِنْدِهِ خَصْبًا (٢)

وقال آخر :

لَمَّا كَسَوْنَا الْأَرْضَ أَذْنَابَ الْبَقَرِ بِالسَّلَعِ الْمَعْقُودِ فِيهَا وَالْعَشْرِ
وعجب الوردل الطائي من الذين يستمطرون بهذه الأبقار المحروقة ، ويجعلونها
وسيلة بينهم وبين الله تعالى :

لَا دَرَّ دَرٌّ رَجَالِ خَابَ سَعِيمُهُ	يَسْتَمْطَرُونَ لَدَى الْأَزْمَاتِ بِالْعَشْرِ
أَجَاعِلُ أَنْتَ بَيْقُورًا مُسَلَّعَةً	ذَرِيعَةً لَكَ بَيْنَ اللَّهِ وَالْمَطَرِ (٣)

(١) ديوان أمية ٤٥ Fridrick Schulthets والحيوان ١٥٠/٤ تخيل بالناس : تفزعهم . العضاء :
جمع عضاهة أعظم الشجر أو الحُط أو كل ذات شوك . باقر وبيقور : البقر . شكر الأذنان : جمع شكر
الشعر فى الذيل . الصبير : السحابة البيضاء أو الكشافة . منه . بالغ الغاية . عائل : منقل أو كاف وناقص .
عال : أثقل ، ويروى غال بمعنى أهلك

والثنوية طائفة من الزنادقة ، قال ابن قتيبة^(١) : إنهم أخذوا الزندقة من الحيرة وهم المعتقدون بالثنوية ، أو القائلون بإله النور وإله الظلام ، وهما إله الخير والشر ، وكانت هذه العقيدة في تميم ، ومنهم زرارة بن عدس وابنه حاجب ، وقد تزوج حاجب بنته كما قيل ثم ندم ، ومنهم الأقرع بن حابس الذي أسلم وحسن إسلامه .

(٥) الملائكة والجن

وَقَلَّةٌ مِنَ الْعَرَبِ عَبْدُوا الْمَلَائِكَةَ وَالْجِنَّ ، وَقَدْ حَكَّى الْقُرْآنُ السَّكْرِيمَ حَالَهُمْ : « وَيَوْمَ نَخْشِرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهْؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ؟ » قَالُوا : سُبْحَانَكَ ، أَنْتَ وَلِينَا مِنْ دُونِهِمْ ، بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرَهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ ، . وَهُمْ الَّذِينَ عَجَبُوا أَنْ يَكُونَ الرَّسُولُ بَشَرًا مِثْلَهُمْ وَأَرَادُوا أَنْ يَكُونَ مَلَكًا ، قَالَ تَعَالَى : « وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا : أَبْعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا ؟ » ،

قال أمية بن أبي الصلت يتبرأ من عبادة الجن :

حنانك إن الجن كانت رجاءهم وأنت إلهي ربنا ورجائنا^(٢)

(٦) الشجر

وقد عبد بعضهم الشجر كما عبدوا الصنم ، وهم في هذا وذاك يعتقدون أن قوة إلهية حلت في المعبود ، كما اعتقد قدماء المصريين في العجل أبيس . فكان الإله عثر يعبد في الأصل لا بوصفه إله الزهرة بل بوصفه إله أرضيا ، إله سقى النخل وجنى الثمار والخصب والنتاج ، وهذا ظاهر مما ورد في النقوش المعينية من ألقاب ونعوت ، كان يوصف بها فمن ذلك أنه كان يدعى واهب الماء وجانى الثمار وجامع الحصاد ، فهو من أقدم الآلهة التي عبدت في جزيرة العرب ، وقد انتقلت عبادته إلى جميع أنحاء العالم السامي ،^(٣)

(١) المعارف (٢) ديوان أمية ٣٨

(٣) النظم السياسية والاجتماعية ١٢٥ — ١٢٦

ثم عبد الإله عثر في صورة مؤنث على أنه إلهة لا إله ، فكانت عثر إلهة الخصب
والنتاج ممثلة في النخل والماء ، وقد وردت بهذا المعنى في النقوش المعينية ، وكانت تدعى
في البابلية منتجة الخضرة والنبات . وقد قرنت بعبادة النخل والأشجار عند الساميين
منذ قديم الزمان ، حتى كانوا يطلقون اسمها على كل صنم مصنوع من خشب ، كما ورد
مراراً في التوراة . وكانت تمثل عادة بجذع شجرة فصلت عن الأغصان ، وكان
الساميون يعتقدون أن هذه الإلهة وما شاكلها تسكن جذع الأشجار ، وأن أرواحها
قادرة على البطش والانتقام وقد ظل هذا الاعتقاد إلى ظهور الإسلام (١)

وقد سميت في شمالي الجزيرة بأسماء أخرى ، منها العزى ، وقد اعتقدوا أن العزى
شيطانة ، تأتي ثلاث سمرة بيطن نخلة ، فلما افتتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة بعث
خالد بن الوليد فقال له : إيت بطن نخلة ، فإنك تجد ثلاث سمرة ، فاعضد الأولى .
فأتاها فعضدها ، فلما جاء إليه قال : هل رأيت شيئاً ؟ قال لا . قال : فاعضد الثانية ،
فأتاها فعضدها ، ثم أتى النبي عليه الصلاة والسلام فقال : هل رأيت شيئاً ؟ قال لا .
قال : فاعضد الثالثة ، فأتاها ، فإذا هو بحبشية نافشة شعرها واضعة يديها على عاتقها ،
تصرف بانيها ، وخلفها دية بن حرمي الشيباني — وكان سادنها — فلما نظر إلى
خالد قال :

أَعْزَاءُ شَدَى شَدَّةَ لَا تَكْذِبْنِي عَلَى خَالِدٍ . أَلْتَقَى الْحِمَارُ وَشَمْرَى
فَإِنَّكَ إِلَّا تَقْتُلِي الْيَوْمَ خَالِدًا تَبَوَّئِي بَذَلٍ عَاجِلًا وَتَنْصَرِي

فقال خالد : يا عز كفرانك لا سبحانه ، إني رأيت الله قد أهانك ثم ضربها
ففلق رأسها فإذا هي حمة ، ثم عضد الشجرة وقتل دية السادن ، ثم أتى النبي صلى الله
عليه وسلم فأخبره ، فقال : « تلك العزى ، ولا عزى بعدها للعرب ، أما إنها لن تعبد
بعد اليوم » (٢)

(١) النظم السياسية والاجتماعية ١٣٣ - ١٣٥

(٢) الأصنام ٢٥ - ٢٦

ولست أورد هذه القصة مؤمناً بتفاصيلها ، وإنما أذكرها لبيان الأثر الذي كان للعزى في نفوس العرب .

وفي رثاء دُية يقول أبو خراش الهذلي .

ما لِدِيَّةٍ منذَ اليَومِ لم أره وَسَطَ الشُّرُوبِ ولم يُلِمِّمْ ولم يَطْفِ
لو كان حيا لفاداهم بِمُتْرَعَةٍ من الرُّواويق من شيزى بنى الهَطَفِ
ضخم الرَّمَادِ ، عَظِيمَ القَدرِ جَفَنَتُهُ حينَ الشِّتَاءِ كحوضِ المنهلِ اللَّقِفِ
أَمسى سَقَامُ خَلاءٍ لا أنيس به إلا السَّبَاعُ وَمَرُّ الرِّيحِ بِالْغَرَفِ (١)

ولم تكن هذه السممرات إلا من الطلح الشائك ، لا يظل ولا يشمر ولا ترعاه الإبل إلا إذا عضها الجوع ، لأنها تسقم منه ، ولكن سلطانها ظل إلى ما بعد الإسلام ، يدل على ذلك قول المعري في رسالة الغفران : وذات أنواط شجرة كانوا يعظمونها في الجاهلية . وقد روى أن بعض الناس قال : يا رسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط .

وقد ذكرها المعري في شعره للدلالة على أثر الحظ في الحياة :

والجُدُّ يدرك أقواما فيرفعهم وقد يُنال إلى أن يُعْبِدَ الحَجَرا

وشرّفت ذات أنواط قبائلها ولم تباين على علاتها الشجرا
وقال ابن الأثير في سبب تسميتها : إنها سميت بذلك لأن المشركين كانوا ينوطون بها سلاحهم ويعكفون حولها .

وكان أهل نجران قبل اعتناقهم المسيحية — يعبدون نخلة طويلة لها عيد في كل سنة ، فاذا كان العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه ، وحلى النساء ، ثم خرجوا إليها فَعَكَفُوا عليها يوما (٢)

(١) الأصنام ٢٤ الشروب : القوم يشربون . الشيزى : الأبنوس أو خشب الجوز . بنو الهطف : من كنانة أو من أسد وهم أول من نحت الجفان . اللقف : الحوض الذى لم يحكم بناؤه فيتهور من أسفله أو يحفر وهو مملوء فيحمل عليه الماء فيفجره . الغرف : ورق الشجر أو الثمام أو مادام أخضر

(٢) سيرة ابن هشام ٣٢/١

ولم ينفرد العرب بعبادة الشجر ، فقد كان الإسرائيليون يعتقدون أن الشجر ينطق ويتكلم ، ويفعل ما يفعل الإنسان ،^(١)

(٧) الدهريون

وكان منهم دُهريون ، حكى الله تعالى عقيدتهم بقوله : « ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر » ، فهم ينكرون الخالق والبعث والجزاء ويرون أن العالم لا يخرب ولا يبيد وإلا كان مخلوقاً مبتدعاً^(٢)
قال قائلهم :

منع البقاء	تقلب الشمس	وطلوعها من حيث لا تسمى
وطلوعها	حمرام صافية	وغروبها صفراء كالورس
تجري على كبد السماء كما	يجري حمام الموت في النفس	
اليوم أعلم ما يجيء به	ومضى بفصل قضائه أمس ^(٣)	

وقال شداد بن الأسود بن عبد شمس برث كفار قريش يوم بدر :

يحدثنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟

والصدى الطائر الذي يطير بالليل ، والهامة جمجمة الرأس ، وهي التي يخرج منها الصدى بزعمهم ، وزعموا أن روح القتيل الذي لا يدرك بثأره تصير هامة فتزقو وتقول اسقوني ، وإذا أدرك بثأره طارت فذهبت .

وقد عبد الأسبذيون الخيل بالبحرين^(٤)

وعبدت طيء الجمل الأسود فقد وفد زيد الخير (الخيل) بن مهلهل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه عدة من طيء ، فلما رأهم قال لهم : إني خير لكم من من العزى ومن الجمل الأسود الذي تعبدونه من دون الله غز وجل^(٥)

(١) سفر القضاة ٩ أصحاح ٨ آية عن النظم السياسية والاجتماعية

(٢) طبقات الأمم لصاعد الأندلسي ٤٤ (٣) بلوغ الأرب ٣٤٢/٢

(٤) فتوح البلدان للبلاذري ٨٥ (٥) الأغاني ٤٧/١٦

البَابُ الْخَامِسُ
الْعَادَاتُ وَالْمَعْتَقَدَاتُ
مِنَ الشَّعْرِ

تمهيد

للشعوب أوهام وخرافات تجافى التفكير والعلم ولكنها ينبوع لطمانينة معتقياً وسعادتهم ، وإذا كان العلم قد كشف نوره عن زيف الخرافات العامة ، فإنه لا شيء يستطيع أن يعيد لنا تلك الأوهام التي فرت أمام نوره ،^(١) ولا غنى لشعب عن الأوهام لأنها بنات الغرائز^(٢)

وقد سيطرت الأوهام على الناس قروناً على ما بها من مخالفة قواعد المنطق الأولى ، حتى أن المثقفين والممتازين رجاحة العقل رسفوا في قيودها ألني عام وكان أصحاب العقول النيرة كثيرين في القرون الوسطى وزمن النهضة ولكن لم يهتد أحدهم إلى ما في أوهامه من الشطط^(٣) ، وهذه الأهم الأوربية قد دانت لأقاصيص واعتقدت أنها حق لا شك فيه نحو خمسة عشر قرناً كأقاصيص مولوخ . وهكذا بقي العالم قروناً وهو لا يفقه تلك الخرافة الرائعة القائلة بأن إلهاً أذاق ابنه عذاب الهون انتقاماً ممن عصاه من خلقه^(٤)

وإنما تشيع الأوهام في الشعوب لأن الناس يتشابهون فيما يرجع إلى اللا شعور والغرائز وإن اختلفت طبقاتهم ، فهم يتشابهون في الوجدان والشهوات والمشاعر . وإذا كانت الفلسفة قد سارت إلى الأمام شوطاً بعيداً فإنها مع تقدمها لم تهيم للجماعات خيالاً يلذ لها ، والجماعات لا غنى لها عن الأوهام .

وفي الجماعات نزعات تتيح للخرافات والأوهام أن تضيع ، ذلك بأن الجماعة سريعة التصديق والاعتقاد ، وأخصع للتخيلات من الأفراد ، وكثيراً ما تخطئ الجماعة في

(٢) روح الاجتماع ١٤٥

(١) روح الاجتماع . جوستاف لوبون ١٥

(٣) روح الاجتماع ١٤٤

(٤) روح الاجتماع ١٨٤ . مولوخ : إله عبدة الكلدانيين وأهل قرطاجة وكانوا يحرقون أطفالهم

قرباناً له ويعتقدون أنه يمد ذراعيه دائماً ليتلقاها .

تفكيرها وتعقلها وقياسها ، وهذه أمور سهلت على الأوهام العربية الجاهلية أن تنتشر . فها هو إلا أن ينتقل الوهم أو الخرافة من رجل إلى آخر ومن امرأة إلى أخرى حتى يعم تصديقه بتأثير العدوى . وكان تكرير الشعراء لهذه المعتقدات ناشراً لها ومؤكداً ، حتى ظلت قروناً ذات سلطان على النفوس ، بل ظل بعضها قوى الأثر إلى اليوم . وسنعالج في هذا الفصل صلة الشعر الجاهلي ببعض العادات كالخمر والميسر ، ثم بكثير من المعتقدات المؤسسة على وهم وخرافة ؛ لنرى أنه سجل صالح لتصوير هذا اللون من ألوان الحياة .

ولست أشك في أن بعض ما أوردته في الباب السابق كحبس البلايا والقرايين للأصنام مردّه إلى الوهم والخرافة ، ولكني جعلته من الحياة الدينية لأنه وثيق الصلة بالدين ومنبعث عنه ، فهو نوع من العبادة ، أما هذا الباب فيدور على المعتقد الخرافي والعادة .

(١) الخمر

لماذا أولعوا بها ؟ مظاهر ولعهم بها . مجالسها . أثرها . المحرمون لها

١ - لماذا أولعوا بها ؟

١ - أغرم بها العرب متحضرين ومتبدين ، فشربوها ، وافتخر الشعراء بمعاقرتها وبذل الأموال في سبائها .

أولعوا بها ليزجوا فراغهم الطويل الممل ، ولتزيدهم حمية وحماسة في الحرب فإنهم كانوا يشربون الخمر لتزيدهم جرأة وشجاعة^(١) وحتى بعض المسلمين قد اصطبحوها بالخمر يوم بدر لتزيد حماسهم اشتعالاً^(٢) ، وقد كان الفرس يحتمسون الخمر قبل أن يخوضوا الغمرات . ثم إنها تولد خيالات سارة وتبعث في القلب جرأة .

يقول حسان بن ثابت في جاهليته :

ونشرها فتركنا ملوكا وأُسْدًا ما يُنْهِنُهُمُ اللقاء
ورأوا أنها باعثة على الكرم ، يقول عمرو بن كلثوم :

ألا هي بصحنك فاعبجينا ولا تبقى خمور الأندرينا

مشعشة كأن الحَصَّ فيها إذا ما الماء خالطها سَخِينا

تجور بذى اللبانة عن هواه إذا ما ذاقها حتى يلينا

✓ ترى اللّجَزَ الشَّحِيجَ إذا أُمِرَّتْ عليه لماله فيها مُهِينا^(١) ✓

٢ — ثم استهانوا بالحياة لسكثرة حروبهم ، وتوقعهم الفجيعة في أنفسهم وأحبائهم فانسكبوا على لذات الحياة يعلون منها وينهلون ، وهذه خلة ما زالت إلى الحرب القريية ، وكانت في كل حرب حتى قالوا إن أنهار الدماء وأنهار الخمر كانت تجري في الثورة الفرنسية . ثم هم بين غالب ومغلوب : غالب سَبَى وغنم وظفر ، فيعيب الخمر بهجة ونشوة ومجلبة للزهو المضاعف ، ومغلوب كُسِرَ ، وسُلب ماله ، وأسرت نساؤه ورجاله وفجع في أحبائه ، فأظلمت حياته ، وضاق بالدنيا وضائق به ، فيلوذ بالخمر يقناسى بها همه ملاوة من الزمن .

قال أبو حفص القُويَعي إنه قد هجر النبيذ منذ اقتنى المعزى ، وشرب لبنهن المذيق ، فوجده يوجع بطنه ، ووجد النبيذ كان صديقه ، لأنه يحقق له في الخيال ما يشتهى ، ويسل الأحران من النفس في رفق :

قد هجرت النبيذ مُذْ هُنَّ عِنْدِي وَتَمَزَّزَتْ رِيسَاهُنَّ هَذِيقًا

فوجدت المذيق يوجع بطني ووجدت النبيذ كان صديقًا

يَعِيدُ النَّفْسَ بِالْعَشِيِّ مَنَاهَا وَيَسُلُّ الْهَمُومَ سَلًّا رَفِيقًا^(٢)

(١) شرح القصائد العشر التبزي ٢١٨ . أندرين : قرية بالشام قريبة من حلب . مشعشة : رقيقة من العصر أو المزج . الحص : الورس . سخينا : إما حال من الماء وإما فعل بمعنى كرمنا . اللجَز : البخيل اللثيم (١) البيان والتبيين ٢٠٦/٣ . تمززت : تمصت . مذيق : لبن مزوج بالماء .

وقال المنخل البشكري :

فإذا انتشيت فإنني ربّ الخورنق والسدير
وإذا صحوت فإنني ربّ الشويهة والبعير^(١)

٣ - وهم يرون الموت يتخرم الأعمار ، ويختطف الأحباب ، ويذرى الآمال ،
فليستمتعوا في حياتهم القصيرة بما يملكون قبل أن يحتويهم التراب . وقد عبر طرفة
ابن العبد عن هذه النزعة خير تعبير :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي
إلى أن تحامتنى العسيرة كلها
رأيت بنى غبراء لا ينكروننى
ألا أبهذا الزاجرى أحضر الوغى
فان كنت لا تستطيع دفع منيتى
ولولا ثلاث هن من عيشة الفتى
فنهن سبق العاذلات بشربة
وبيعى وإنفاقى طريقي ومُتَلدى
وأفردت إفراد البعير المعبد
ولا أهل هناك الطراف الممدد
وأن أشهد اللذات هل أنت مُخَلدى؟
فدعنى أبادرها بما ملست يدي
- وجدك - لم أحفل متى قام عودى
كُتيت متى ما تُعلّ بالماء تُزبد^(٢)

وذكر الحافظ أبياتا لشاعر قديم تمثل الاتجاه نفسه ، اتجاها إلى الشبع من لذات
الحياة والخمر قبل أن يدركه الموت :

قومي اصبحينى فما صيغ الفتى حجرا
قومي اصبحينى فان الدهر ذو غير
اليوم خمر ، ويبدو فى غد خبر
فاشرب على حدّثان الدهر مرتفقا
لسكن رهينة أحجار وأرماس
أفنى لُقينا وأفنى آل هرماس
والدهر من بين إناعام وإبّاس
لا يصحب الهُم قرع السنّ بالكاس^(٣)
ويرى مُسحيم بن وثيل الرياحى أن الخمر هى الثناء والفخر ، وأن المال لا يكفل

(١) معجم الشعراء ٣٨٧ والخامسة ١/٢١١ (٢) المعانيات العشر . الشنقيطى ٧٤

(٣) البيان والتبيين ١/١٦٤ هرماس : نهر نصيبين . أرماس : قبور

له الخلود فلينفقه فيها ، ولولا الخمر ما حرص على الحياة وما تألم من أن يضمه لحد ،
لأن الخمر هي الحياة واللهو والمتعة ، وليست زوجه ولا ماله ولا أولاده بمتعة :

تقول حدراء ليس فيك سوى الخمر - - - معابٌ بعبيته أحد
فقلت أخطأت ، بل معاقرت الخمر - - - وبذلت فيها الذي أجسد
هو الثناء الذي سمعت به - - - لا سببٌ مخلدى ولا لبس
ويحك لولا الخمر لم أحفل العبد - - - ش ولا أن يضمنى لحد
هي الحياة والحياة واللهو ، لا - - - أنت ولا ثروة ولا ولد^(١)

٤ - ثم هم شغفوا بالخمر في مجامعهم الفرحة في الأعراس والأعياد ، وفي مجامع
التحالف ، وقدموها قرى للضيفان .

قال الأسود بن يعفر النهشلي :

ولقد لهوت - وللشباب لداذة - - - بسلافة مزجت بماء غواذى

من خمر ذى نطف أغن منطق - - - وفى بها لدراهم الإسجاد

يسعى بها ذو تومتين مشمر - - - قنات أنامله من الفرصاد^(٢)

وكانت الخمر على ما أحسوا لها من آثار نفسية وجسمية مفخرة من مفاخر
القادرين عليها ، يجمع الرجل ندماءه فيسقيهم وينحدر لهم ، قال البرج بن مسهر بن الجلاس :

وندمان يزيد الكأس طيبا - - - سقيت إذا تعرضت النجوم

رفعت بكأسه وكشفت عنه - - - بمعرفة ملامة من يلوم

فلما أن تنشئ قام خرق - - - من الفتيان مخلق هضم

إلى وجناء ناوية فكاست - - - وهى العرقوب منها والصميم

فأشبع شربه وجرى عليهم - - - يابريقين كأسهما رذوم

(١) البيان والتبيين ٢٠٥/٣

(٢) المفضليات ١٨/٢ الفواذى : السحب الناشئة غدوة . نطف : جمع تطفة بفتح تين وهى القرط .
منطق : غلام عليه نطق . الإسجاد : السجود ودراهم الإسجاد هى دراهم الأكاسرة كانت عليها صور
يسجدون لها . تومتين . أولوتين . قنات . اشتدت حرمتها حتى مالت إلى السواد . الفرصاد : التوت

تراها في الإناء لها حُميا كُميتا مثل ما فقَّعَ الأديم
فبتنا بين ذاك وبين مسك فيا عجباً لعيش لو يدوم^(١)

وكان شربها عند الملوك مفخرة كبرى ، لأن الذين ينادمون الملوك هم الطبقة العليا ،
قالت خرنق في رثاء زوجها بشر بن عمرو الذي قتله بنو أسد في يوم قُلاب :

فكم بقُلاب من أوصال خرق أخى ثقة ، وجمجة فليق
ندامى للملوك إذا لقوهم حُبوا وسُقُوا بكأسهم الرحيق^(٢)

هـ - وتقديم الخمر للضيف كرم بلغ الغاية ، وجمع الفتيان لشربها مفخرة . روى
أن أبا براء عامر بن مالك بن جعفر جمع قومه عند ماء النظيم ليصلح بينهم ، فحضرُوا
وتخلف عامر بن الطفيل ، فنال منه علقمة بن علاثة وشتمه - وكان يبغيضه - وسمع
عامر مقالته ، فجاء وقال في الجمع : « لَمْ تُقَرُّوا شَتْمِي بَيْنَكُمْ ؟ » . وما حبسني عنكم
إلا خمر قدِمَ بها ، فسبأها ، وجمعت لها شباب الحى ، فخشيت أن أدعهم فيتفرقوا ،
حتى أنفدتها ،^(٣)

ب - مظاهر ولعهم بها

١ - افتخر عنتره في معلقته بشرب الخمر بعد اشتداد الحر ، في قدح مجلو منقوش ،
أو اشتراها بدينار مجلو منقوش ، وشربها من زجاجة صفراء مخططة ، ومعها إبريق
أبيض مسدود الفوهة بالفِدام (المصفاة) وأنه يستهلك ماله في سكره حفيظاً على
عرضه ، يَكْرُم سكران ويكرم مُفريقاً :

ولقد شربت من المُدامة بعد ما رَكِدَ الهواجر بالمشُوف المُعَلَّم
بزجاجة صفراء ذات أُسرة قُرِنت بأزهر بالشَّمال مُفَدَّم

(١) معجم الشعراء ٦٢ والمؤتلف والمختلف ٦٢ خرق : سخي ظريف . مختلق : تام الخلق معتدله .
ناوية : سمينه . كاست : مشت على ثلاث قوائم ومى معرقة . رذوم : ممثلة تفيض . فقح : أحمَر

(٢) ديوان خرنق ١٦ مخطوط بدار الكتب

(٣) مقدمة ديوان عبيد وعاصم Lyall ١٩

فإذا سكرت فإننى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحوت فما أقصر عن ندى وكما علمت شمائل وتكرمى^(١)
وافتخر الأسود بن يعفر بمبادرته إلى شربها :

وقهوة صباه باكرتها بجهمة ، والديك لم ينعب^(٢)

وافتخر المرقش الأكبر بأنه قدير على امتلاك الحسان ، وعلى احتساء الخمر
الروية الجيدة التى يشتريها بماله ، قال لحبيته خويلة .

يا خول ما يذكرك ربّ حرّة خود كريمة حيّا ونسائها
قد بت مالكما وشارب رية قبل الصباح ، كريمة بسائها^(٣)

وقال ليبد فى معلقته يخاطب حبيته : أنت لا تعلمين كثرة ليالى الطيبات التى
استلذذت فيها لهوى ومنادمى للكرام ، أبيت أحدثهم . وأنت لا تعلمين كم من راية
خمار قصبتها حين نصبت ، واشتريت الخمر غالية لندامى ، من كل زق مقير
أوخاية مقيرة ، قد فض ختامها فتالات ، وإنى لأصطحبها قبل أن يصحو الدجاج :

بل أنت لا تدرين كم من ليلة طلق لذيد هوها وندامها
قد بت ساهرها ، وغاية تاجر وافيت إذ رفعت وعز مدامها
أغلى السباء بكل أدكن عاتق أو جونة قدحت وفض ختامها
بادرت حاجتها الدجاج بسخرة لأعل منها حين هب نيامها^(٤)

وهذا طرفة بن العبد يحاهر فى معلقته بولعه بالخمر ، ويفخر بأنه سيد يشترك
مع قومه فى مهامهم ، وخير حلس خماره وخمار :

فان تبغى فى حلقة القوم تلقنى وإن تلمسنى فى الحوانيت تصطد

(١) المعلقات العشر ١١٦ المشوف المعلم : الدنار المجلو أو السكاس . ذات أسرة : ذات خطوط .
أزهر : إبريق من فضة . مقدم : مسدود بخرفة أو عليه مصفاة .

(٢) ديوان جران الفود النيرى ١٧ جهمة بضم الجيم : ثمانون بعيداً أو نحوها وافتحها بقية سواد الليل

(٣) المفضليات ٣٤/٢ (٤) المعلقات العشر ٩٣

ثم لا يبالي في حبه الخمر أنها أفنت ماله كله ، وأنها جرّت عليه اجتناب العشيرة له
فصار كالبعير الأجرب ، ولكنه راض ؛ لأن الفقراء لا ينكرون إحسانه وإنعامه ،
ولأن السراة من أمثاله لا يتجافونه ، فهم رفقائه ونداماه :

وما زال تشرابي الخمر ولذتي وبيعي وإنفاقي طريفي ومُتلدي
إلى أن تحامتن العشيرة كلها وأفردتُ إفرادَ البعير المعبد
رأيت بني غبراء لا ينكرونني ولا أهلَ هَذاكَ الطُّرف الممدد
ويعلن أنه يحرص على الحياة لثلاث لذات ، الخمر أولاً هن :

ولولا ثلاث هنّ من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودي
فمن سبقي العاذلات بشربة كُمت متى ما تعلّ بالماء تزبد^(١)
ويكرر في موضع آخر أن أصدقاءه وأقرباءه أكثروا من لومه وعدوه شريراً
لأنه مستهتر بالخمر ، ونصحوه أن يتجنبها :

وما زال شربي الراح حتى أشرني صديق وحتى سامني بعض ذلك
وحتي يقول الأقربون نصيحة ذرا الجهل واصرم جيلها من حبالك^(٢)
وامرؤ القيس يعلن أنه ودع الصبا إلا أربع لذات الخمر أولاً هن :

وأصبحت ودعت الصبا غير أني أراقب خلّات من العيش أربعا
فمن قولي للندامى ترفقوا يداجون نشاجاً من الخمر مترعا

٢ — وبلغ من غرامهم بالخمر أن أوصى حاتم الطائي امرأته أن تنضح قبره
بالخمر ، وهذا خيال لا نجده إلا في العصر العباسي ، وفي شعر عمر الخيام :

أماوى إما مت فاسعى بنطفة من الخمر رياً فانضح بها قبري
فلو أن عين الخمر في رأس شارق من الأسدور دلاعتلجنا على الخمر^(٣)

(١) ديوان طرفة ٢٨ — ٣٠ . كمت : خرفها سواد وحمرة . تعل بالماء : يصب عليها . تزبد :

تعلوها رغوة (٢) ديوان طرفة ٥٥

(٣) الديوان ١٠ وشعراء النصرانية ١/١٣٢

٣ - ورثوا الميت بانه صاحب خمر وندامى ، قال أوس بن حجر :

ليبك الشرب والمدام -
ة والفتيان طراً وطامع طمعا

٤ - وأى دليل على ولوعهم بالخمر وارتخاصهم فيها كل غال من أن يرهن الرجل

امراته على شراب فيخلق الرهن ويترك زوجته ؟

روى أبو الفرج أن عروة بن الورد سبى سلى الغفسارية ، وكانت ذات جمال فولدت له أولادا ، وكان شديد الحب لها ، وكان ولده يُعَيَّرُونَ بأهمهم ويسمون بنى الأخيذة - السبية - فقالت : ألا ترى ولدك يعيرون ؟ قال : فماذا ترين ؟ قالت : أرى أن تردنى إلى قومى حتى يكونوا هم الذين يزوجونك . فرضى مقالها ، فأرسلت إلى قومها أن يلقوه بالخمر ثم يتركوه حتى يسكر ويشمل فإنه لا يسأل حينئذ شيئاً إلا أعطاه ، فلقوه وقد نزل فى بنى النضير ، فسقوه الخمر ، فلما سكر مألوه سلى فردها عليهم ، ثم زوجوها له بعد .

ويقال إنه جاء بها إلى بنى النضير - وكان صعلوكا يغير - فسقوه الخمر ، فلما انتشى منعوه ولا شئ معه إلا زوجته فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غَلِقَتْ ، فلما قال لها : انطلقى ، قالت لا سبيل إلى ذلك ، قد أغلقتنى ، فصارت عند بنى النضير فقال فى ذلك :

سقوني الخمر ثم تكنفونى	عداة الله من كذب وزور
وقالوا : لست بعد فداء سلى	بمغن مالديك ولا فقير
فلا والله لو ملكتُ أمرى	ومن لى بالتدبر فى الأمور
إذا لعصيتهم فى حب سلى	على ما كان من حسك الصدور
فيا للناس كيف غلبت أمرى	على شئ ويكرهه ضميرى ^(١)

٥ - وشبهوا ريق المحبوبة بها ، كما قال عبيد بن الأبرص :

إذا ذقت فاما قلت طعام مدامة مشعشة تُرخى الإزار قديح
بماء سحاب في أباريق فضة لها ثمن في البائعين ربيع^(١)

وقال المسيب بن علس إن ريق حبيته كالخمر التي مزجت بماء جدول على حافيته
القصب لأنه دائم الجرى :

ومها يرف كأنه إذ ذقته عانية شجّت بماء يراع^(٢)

وقال الأسود بن يعفر إن ريق حبيته بعد نومها حلو عذب طيب الرائحة ، كأنها
شربت عشاء خمرأ صرفا تخيرها الخنارون من دن لثامه وسداده فغو وريحان :

كأن ريقتها بعد السكرى اغتبت صرفا تخيرها الحانون خرطوما

سلافة الدن مرفوعا نصائبه مقلد الفغو والريحان ملثوما^(٣)

ويمتد بنا القول إذا ذكرنا كثيراً مما قيل في هذا المعنى ، وحسبنا أن نورد قول
المرقس الأصغر : إن فم حبيته إذا ما ارتشفه ليلاً ألد وأروى من الصهباء العطرة ،
كالمسك قد ثوت في الدن عشرين عاماً وقد طلى بالقرمد ، وقد اشتراها رجال
مولعون بالخمر من تاجر يربح فيها كثيراً :

وما قهوة صهباء كالمسك ريحها تعل على الناجود طوراً وتزح

ثوت في سواد الدن عشرين حجة يطان عليها قرمد وتروح

سباها رجال مدمنون تواعدوا بجيلان يدينها إلى السوق مريح

بأطيب من فيها إذا جئت طارقاً من الليل بل فوها ألد وأنضح^(٤)

٦ - وأولع بها الحضر كما أولع بها البدو .

أولع بها أهل الحيرة لقربهم من الفرس والروم ، وكانت في الحيرة

(١) الديوان القصيدة ٨

(٢) المفضليات ٥٩/١ مها : بلور شبه نقرها به اصفاؤه . عانية : خر منسوبة إلى عانة بلد بالعراق .

شجّت : كسرت ومزجت . يراع : قصب أي بماء جدول على حافيته القصب

(٣) المفضليات ١١٨/٢

(٤) جهرة أشعار العرب ٢١١ والمفضليات ٤٢/٢ الناجود : إناة الخمر

حانات كثيرة قامت إلى ما بعد الإسلام بزمان طويل ، كانوا يسكرون فيها ويفخرون ، وكانت فيها أديرة للعبادة واحتساء الخمر ، وقد أكثر الشعراء القول في خمرها وغلماها وأزهارها وأعيادها . قال أبو الفرج في دير اللج : « كان النعمان يركب في كل أحد إليه ، وفي كل عيد ، معه أهل بيته خاصة ، من أهل المنذر ، ومن ينادمه من أهل دينه ، عليهم حلل الديباج المذهبة ، وعلى رؤوسهم أكاليل الذهب ، وفي أوساطهم الزناير المحلاة بالذهب ، المفصصة بالجواهر ، وبين أيديهم أعلام فوقها صلبان الذهب ، ، فإذا قضوا صلاتهم انصرف إلى مستشرفه على النجب ، فيشرب فيه بقية يومه إلى أن يمسي ، »^(١)

ولهم ساقيات وقينات ، وهم يمزجونها بالماء فتعلوها فقاعات ، قال عدى بن زيد :

ثم ثاروا إلى الصُّبوح فقامت قينة في يمينها لمبريق
قدَّمته على عُقَّار كعين الدي لك صفي سلافها الراووق
مُزَّة قبل مزجها ، فإذا ما مُزجت لَدَّ طَعَمها من يذوق
وطفت فوقها فقاقيع كالدر صغار يثيرها التصفيق

وأولع بها أهل الطائف ، وفي الطائف كروم غلبت على جوانب الجبل ، وتكتنف البيوت ، وبلغ من كثرة زيبها أن سليمان بن عبد الملك لما حج مر بالطائف فرأى بياض الزيب ، فقال : ما هذه الحرار ؟ (حجارة نخرة سود بركانية) فقالوا : ليست حرارا ولكنها بياض الزيب . ولما حاصر الرسول عليه الصلاة والسلام الطائف وامتنعت عليه ، أوعز إلى أصحابه أن يقطعوا أعناب ثقيف ، فشرع المسلمون يقطعون حتى رجا بعض القرشيين الرسول أن يكف عنها ، وناشدوه صلة الرحم فكف .^(٢) وكانت بها حانات كثيرة قبل الإسلام ، فلما حرم الإسلام الخمر تهادى الثقفون في شربهم ، وضاق بهم عمرنها وحدثاً ، فأضرم النار في الحانات والمعاصر . يقول أبو محجن الثقفي :

رماها أمير المؤمنين بحتفها نخلانها يكون حول المعاصر

وأبو محجن هذا شاعر مخضرم ، استهتر بالخر في جاهليته وإسلامه ، وحده
عمر بن الخطاب مرات ، فلما لم يزد جرنفاه ، ولكنه هرب ولحق بسعد بن أبي وقاص ،
أبلى بلاء حسناً في موقعة القادسية ، فخطم المشركين ، وكان سبب الهزيمة . . .
فقال له سعد : لا ضربتك في الخمر أبداً ، فقال أبو محجن : وأنا والله لا أشربها أبداً ،
ومن خمرياته هذا الخيال الحضري البعيد ، يريد أن يدفن في أصل كرمة لتنضح
جذورها عظامه ، ويخشى أن يدفن في الفلاة فتحرم عظامه نطاف الخمر :

إذا مت فادفني إلى أصل كرمة تروى عظامي في التراب عروقتها

ولا تدفني في الفلاة فإنني أخاف إذا ماتت ألا أذوقها

وشغفت الخمر أهل المدينة ، ففي المدينة وما حولها مثل خيبر ثروة ونخل وزرع ،
وبها يهود ذوو صناعة وثروة وطرب لا يدعونه حتى في وقت الحرج ، فبنو النضير
كانوا وهم يحملون عن المدينة معهم الدفوف والمزامير والقيان يعزفن خلفهم .

وكان أهل المدينة يصنعون خمرهم من التمر والبسر كما يقول ابن قتيبة ، وكان
اليهود يحملون إليها خمر الطائف والشام يتاجرون فيها ، وكثرت الخمر بالمدينة حتى
قال أنس : « إنها جرت في سكك المدينة حين حرمت » .^(٢)

وكانت الحروب ديدن سكانها ، فشربوها ليشجعوا ، وشربوها في السلم لتزجية
الفراغ وللهو ، وورد على حاناتهم بدو البادية يرتوون من خمرها ، وتجبر الكأس
الكأس حتى ينفد مامعهم ، رووا أن عروة بن الورد - وكان صعلوكا يتعيش من
الغارة - جاء بني النضير فسقوه الخمر ، حتى إذا انتشى منعوه ، وليس معه شيء إلا
امراته سلى ، فرهنها ، ولم يزل يشرب حتى غلقت فتركها وانصرف ، وهو يقول :

سقوني الخمر ثم تكنفوني عداة الله من كذب وزور

فلا والله لو ملكت أمري ومن لي بالتدبر في الأمور

إذا لعصيتهم في حب سَلَمَى على ما كان من حَسَكِ الصدور
وقد ضربوا المثل في الجودة بخمر بابل ، قال عبيد يتحدث عن وقوفه على
رسوم دار حبيبه :

ظَلْتُ بِهَا كَأَنِّي شَارِبٌ صِهْبَاءَ مِمَّا عَمَّقَتْ بَابِلُ (١)

ح - مجالسها

وقد شربوها في أوان شتى ، ذكرها القالي ، منها الغمر - القدح الصغير - والقعب
- أكبر منه - والصحن ، والرّفْد - القدح العظيم - إلخ . . . (٢)

وشربوها في أباريق من الفضة ، قال عبيد يصف ريق محبوبته :

إذا ذُقْتُ فَاها قَلْتُ طَعْمُ مُدَامَةٍ مُشْعَشَعَةٍ تُرْخِي الْإِزَارَ قَدِيحِ
بِمَاءِ سَحَابٍ فِي أَبَارِيقِ فِضَّةٍ لَهَا ثَمَنٌ فِي الْبَائِعِينَ رَيْحِ (٣)

ولقد يعقد فوق خاتم الإبريق إكليل من الريحان ، قال عبدة بن الطبيب :

وَالْكُوبُ أَزْهَرُ مَعْصُوبٍ بِقُلَّتِهِ فَوْقَ السِّيَاحِ مِنَ الرِّيحَانِ إِكْلِيلِ (٤)

وقال الأسود بن يعفر إن الدن مرفوع على نصائب ، وقد طابت رائحته مما عليه
من طيب وريحان :

كَأَنَّ رَيْقَتَهَا بَعْدَ الْكَرَى اعْتَبَقَتْ صِرْفًا تَخِيرُهَا الْخَانُونَ خُرْطُومًا
سَلَافَةَ الدَّنِّ مَرْفُوعًا نَصَائِبُهُ مُقَلَّدَ الْفَغْوِ وَالرِّيحَانِ مِلْثُومًا (٥)

وتحدثوا عن السقاة والكتوس والندامى ، والغناء المصاحب للخمر ، وقد
أوردنا كثيراً من شعرهم المتصل بالخمر والغناء في (نشأة الوزن والقافية) .

ولعبدة بن الطبيب أبيات جياذ يصور فيها غدوه مبكراً - وسواد الليل يحلل

(١) ديوان عبيد القصيدة ٢٦

(٢) الأمل ٧/٢ و ٣٠٣/٢ (٣) ديوان عبيد القصيدة ٨ Lyall

(٤) المفضليات ١٤٢/١ أزهر : أبيض . قلته : أعلاه . السباح : الطلاء ويريد بالكوب هنا
لأبريق الخمر .

(٥) المفضليات ٢١٨/٢ اغتبت : شربت ليلاً . الخانون : الخمارون . الخرطوم : أول ما ينزل من
الدن . نصائبه : ما يرتفع الدن فوقه . الفغو : نبت طيب الرائحة . ملثوما : عليه لثام

قرن الشمس ، والديك يصبح لبوقظ الدجاج - إلى الخمارين ، ومعه رفيق يشاركه في الشراب ، وهو رفيق مختال حسن الخاق كاسيف ذو شمائل حسان ، ظريف كريم ، ذو لهُو لا يرعوى لعذل ، وهناك جالسا على فراش مزين بالوشى والألوان المختلفة والصور المنوعة من دجاج وأسود وغيرها ، والحانة مربعة افتن بانيتها في تشييدها وتزيينها ، وينيرها مصباح قوى الفتيلة . وجلسا أمام دن مقطوع الرأس كأنه جدم هدمته الإبل المزدحمة عليه ، وأمام إبريق أبيض مطلى وفي فوهته إكليل من الريحان ، وبين الأضيص والإبريق جرة ضخمة مملأى بالماء ، والكوب مترع بالخمر وقد طفا الزبد فوقه ، وقطع اللحم من الكباش منظومة في السفود ، ويسعى عليهما بالخمر خادم سريع في وسطه حزام ، وعلى الخوان صحاف فيها خل وأبزاز وتوابل .

هنالك اصطبح عبدة خمرأ ترعد شاربها ولم يشربها أحد قبله ، وهى خمر صرف ، وممزوجة ، وهناك طرب لأنه سمع القينة تغنى بشعر جيد جميل كأنه وشى مقارب ، ووصف المغنية بأنها طويلة الجيد مؤنسة حلوة النغم ، فهم يطربون لها فيعطونها الهبات ويخلعون عليها البرود والسراويل :

وقد غدوت وقرن الشمس منفتق	ودونه من سواد الليل تجليل
إذا شرف الديك يدعو بعض أسرته	لدى الصباح وهم قوم معازيل
إلى التجار فأعدانى بالذته	رخو الإزار كصدر السيف مشمول
خرق يحد إذا ما الأمر جد به	مخاط اللهو واللذات ضليل
حتى اتسكأنا على فرش يزينها	من جيد الرقم أزواج تهاويل
فيها الدجاج وفيها الأسد مخدرة	من كل شى يرى فيها تماثيل
في كعبة شادها بان وزينها	فيها ذبال يضئ الليل مفتول
لنا أضيص كجذم الحوض دمه	وطء العيراك لديه الرق مغلول
والكوب أزهر معصوب بقلته	فوق السباع من الريحان إكليل
مبرد بمزاج الماء بينهما	حب كجوز حمار الوحش مبرول

والكون ملآن طاف فوقه زبدٌ وطابق السكبش في السفود مخلول
يسعى به منصف عجلان منتطق فوق الخوان وفي الصاع التوايل
ثم اصطبحت كميثا قرقفا أنفاً من طيب الراح واللذات تعليل
صرفا مزاجا وأحيانا يعلننا شعر كذهبة السماء محمول
تذري حواشيه جيداء أنسة في صوتها لسماع الشرب ترتيل
تغدو علينا تلهينا ونصفدها تأتي البرود عليها والسرايل^(١)

وهذا وصف بارع رائع لمجلس الشراب ، لا يقل في شيء عن أبدع ما جادت به
قريحة أبي نواس من بعد .

٥ — أثرها

وعلى كثرة الشعراء الذين أغرموا بها ، وعلى كثرة ما أداروا من شعر حولها ،
فإنهم اتجهوا إلى تصوير الخمر ومجالسها تصويراً مادياً ، غنوا فيه بوصفها ووصف
زقاقها وكنوسها ، والفخار باحتشائها ونباله الندامى ... الخ ولم يتجهوا إلى تصوير
آثارها في النفس والخيال ، وإن كان قليل منهم صور أثر الخمر في نفسه ، وفترات
السكر ، وأطيافه ، مثل قول المنخل اليشكري :

فإذا انتشيت فإني رب الخورنق والسدير

(١) المفضليات ١٤١/١ تجليل : كأنه متغطف بجلال من سواد الليل . معازيل : عزل من السلاح .
التجار : الحمارون . أعدائي : أعاني . رخو الإزار : يجر إزاره مخيلة . مشمول : حلو الشمائل . خرق :
ظريف كريم . ضليل : لا يرعوى لعذل . رقم : وشي . أزواج : أنماط وهي البسط . تهاويل : ألوان
شتى . مخدرة : في خدرها . كهبة : بيت مربع . أصيص : دن مقطوع الرأس . أزهر : أبيض . السباع :
الطلاء . الحب : الجرة الضخمة . الجوز : الوسط . مبزول : مثقوب . طابق السكبش : نصفه أو عضو
منه . مخلول : مشكوك في السفود . منصف : خادم . الصاع : صفحة فيها خل وأبراز مخلوط . قرقف :
تصيب شاربها رعدة . أنف : مستأنفة لم تشرب . يعلننا : يلهينا . السماء : وشي مقارب . محمول : مروي
مشهور . حواشيه : أطرافه . تذريه ترفعه أو تسقط حواشئ أغانيها تطربها وترجيعا . جيداء : طويلة الجيدة .
آنسة : منبسطة متجددة . نصفدها : نعطها . السرايل : الثياب

وإذا صحوت فإنني رب الشوبهة والبعير^(١)
وقول حسان :

ونشرها فتركنا ملوكا وأسدا ما ينهنها اللقاء^(٢)
وقول لقيط بن زرارعة :

شربت الخمر حتى خلت أني أبو قابوس أو عبد المدان
أمشي في بني عُدس بن زيد رخي البال منطلق اللسان
وقول الأعشى :

وشراب خسرواني إذا ذاقه الشيخ تغنى وأرجحن
وقال امرؤ القيس إنه يشرب هو وندمانه حتى يفقدوا صوابهم فيحسبوا الخيل
صغار ضان، ويظنوا الأبيض المسود أو الأسود المبيض أشقر :
ونشر حتى نحسب الخيل حولنا نقاداً، وحتى نحسب الجون أشقرا^(٣)

هـ — المحرمون لها

وبعض العرب حرموا الخمر في الجاهلية فلم يحتسوها . ذكر أبو القاسم عبد الرحمن
السعدي الأندلسي في كتابه (مساوىء الخمر) كثيراً ممن صدوا عن شربها في الجاهلية ،
منهم الكندي عم الأشعث بن قيس ، وقال في ذلك : إنه لن يشرب خمرأ ولن
يصاحب شاربها ، ويقين من أقواله أن آباءه وأخواله صدوا عنها أيضاً :

فلا والله لا ألتقي وشرباً أنازعهم شراباً ما حميت
أبي لي ذاك آباء كرام وأخوال بعزهم رريت^(٤)
ومنهم قيس بن عاصم التميمي وهو القائل :

لعمرك إن الخمر ما دمت شارباً لسالبة مالي ومذهبه وعقلي

(١) الحماسة ٢١١/١ ومعجم الشعراء ٣٨٧ (٢) الديوان ٨
(٣) ديوان امرئ القيس ٧٥ (٤) بلوغ الأرب ٣/٣٢٥ والأمالى ١/٢٠٥

وتاركتى من الضعاف قواهم ومورثتى حرب الصديق بلا تبلى^(١)
وكان قيس هذا كلفا بالخمير فى الجاهلية ، يأتسه تاجر خمر فيبتاع منه ، ولا يزال
الخمير فى جواره حتى ينفذ ما عنده ، ولكننه عزف عن الخمير وقال :

وتاجر فاجر جاء الإله به كأن عشونه أذئاب أجمال
جاء الخبيث ببيسانية تركت صحبى وأهلى بلا عقل ولا مال

وآلى ألا يذوق خمرة أبدا^(٢) . وله قصة تدل على بغضه للخمر^(٣) . وقد صد عنها
غير قيس بن عاصم التميمى صفوان بن أمية بن محرب السكنانى ، وعفيف بن
معد يكرب السكندى . وحرم بعضهم على نفسه الزنا والخمر :

سألت قوما بعد طول مضاضة والسلم أبقي فى الأمور وأعرف
وتركت شرب الراح وهى أميرة والمومسات وترك ذلك أشرف
وعففت عنه يا أميم تسكرما وكذلك يفعل ذو الحيجا المتعفف^(٤)
ومن امتنعوا منها تسكرما وصيانة لأنفسهم عامر بن الظرب ، القائل :

سألة للفتى ما ليس فى يده ذهابه بعقول القوم والمال
أقسمت بالله أسقيها وأشربها حتى يفرق ترب الأرض أوصالى
مورثة القوم أضغان بلا إحن مزرية بالفتى ذى النجدة الحالى^(٥)

وآلى صفوان بن أمية ألا يشربها وألا يداوى بها سقيما :

رأيت الخمر صالحة وفيها مناقب تفسد الرجل السكرىما
فلا والله أشربها حياتى ولا أشفى بها أبدا سقيما^(٦)

وذكر أبو على القالى ممن حرموها وقالوا شعرا فى تحريمها عفيف بن معد يكرب
وسويد بن عدى^(٧)

(١) الأما ١/٢٠٤ والبيت الثانى كذا بالأصل

(٢) العقد الفريد ٣/٣١٣ والأغانى ١٢/١٤٥

(٣) الأغانى ١٢/١٤٨ (٤) الملل والنحل للشهرستانى ٣/٢٢٩

(٥) الأما ١/٢٠٤ (٦) الأما ١/٢٠٤ (٧) الأما ١/٢٠٥

وذكر ابن قتيبة في كتاب الأشربة أن كثيراً من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حرموا الخمر على أنفسهم في الجاهلية لعلمهم بسوء مصرعها وكثرة جنائياتها .
وقالت عائشة رضي الله عنها : « ما شرب أبو بكر خمرأ في جاهلية ولا إسلام » .
وقال عثمان رضي الله عنه : « ما تغيت ولا تفتت ولا شربت خمرأ في جاهلية ولا إسلام » .^(١)

(٢) الميسر

طريقته . الغرض منه . الفخر به . المدح به . العرب خير الأمم غرضاً من الميسر .

١ - عادة متأصلة شاعت في الأغنياء ، وطالما افتخروا به لأنه ضرب من المقدرة والكرم ، حيث يطعمون المحاويج ما ربحوه وخاصة أيام الشدة وانقطاع اللبن ، وأيام الشتاء والجذب .

وكانت طريقته أن يجتمع الموسرون ويشترى جزوراً يقسمه الجزار عشرة أجزاء ، ثم يجاء بالقдах ، فيأخذ كل من الأيسار على مقدرته ، ثم يسلمونها إلى أمين يدفنها في الرمل أو يضعها في خريطة ، ويدخل يده ويخرج قدحاً وهكذا .

وأوضح ما كتب في المياسرة وطريقتها ما أورده الألوسي في بلوغ الأرب ، وخلاصته بالاستعانة بقايل مما ذكره غيره أن يجتمع عشرة من اللاعبين ويحضروا جزوراً يضمنون ثمنها لصاحبها ، ويدفع الثمن بعد المياسرة الغارمون وحدهم ، وتجعل القдах العشرة في خريطة وتجال وتحرك فيها ، ثم يخرج الحُرْضة^(٢) أول قدح باسم أحدهم على ترتيب لانهله - فربما كان بحسب جلوسهم أو أسنانهم أو تراضيتهم - ويكون هذا القдах هو نصيبه ، فإن كان رابحاً عرف مقدار ربحه وبقى القдах خارج الخريطة لا يعاد إليها ، ثم يخرج قدحاً باسم الثاني ويعرف مقدار ربحه وهكذا إلى العشرة .

وكل رابح يأخذ ما خرج له ، والثلاثة الذين تخرج لهم القداح التي لا نصيب لها هم الذين يغرمون ثمن الجزور فيقسم عليهم أثلاثاً^(١)

والقداح الراجعة هي الفذ والتووم والرقيب والحلس والنافس والمسبيل والمعلّى ، ولكل منها نصيب كترتيبه ، فللفذ نصيب واحد والمعلّى سبعة ، فمجموع أنصبتها ثمانية وعشرون . والقداح الغارمة هي المنيع والسفيح والوغد .

وقد عرض الزمخشري لطريقة المياسرة في تفسير قوله تعالى : « يسألونك عن الخمر والميسر » ، ونقل عنه الفخر الرازي وإسماعيل حقي صاحب روح البيان ، والألوسي مؤلف روح المعاني ، وعرض لها مؤلف نهاية الأرب في فنون الأدب^(٢) والقلقشندي في صبح الأعشى^(٣) ولكن ما أورده مبهم لا يكشف عن حقيقة هذه المقامرة .

ب — وكانوا يوسرون ليلاً حيث يوقدون النار وقد عقروا ناقة ، وعلى مقربة منهم فقراء العشيرة ينتظرون ما يرمى به الأيسار من أنصبتهم التي حرموها على أنفسهم كرها وأنفة . والتصدق باللحم هو النفع الذي ذكره القرآن الكريم : « يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما أكبر من نفعهما » . ولكن القرآن الكريم حرمه في آية بعد ، لما ينشأ عنه من عداوة وبغضاء بين المتياسرين ، ولأنه استيلاء على مال الناس بغير حق ولا طريق مشروع ، وحتى الكرم الذي في الميسر ليس خالصاً كما يكرم الشخص من ماله الصرف عن قصد ورغبة .

ج — وهم أشادوا بقدرتهم على المياسرة فاخرين ومادحين :

قال الشاعر مفتخراً بأنه يقامر إذا جف اللبن في الضرع ، وبأنه يتخير القدح الغالي :

وَإِذَا تَعَدَّرَتِ السَّوَادُ وَالتَّوْتُ جَالِ الْمَفْدَى وَسَطَهَا الْمَضْبُوحُ

(١) بلوغ الأرب ٦٥/٣

٨٢٥/١(٣)

١١٩/٣(٢)

أَغْلَى بِهِ رِخْوُ الْإِزَارِ مُعَذِّلٌ فَعَدَا يُمَارُّ لَهُ دَمٌ مَسْفُوحٌ^(١)

وقال لبيد في معلقته إنه طالما دعا ندماءه إلى نحر الجزور حيث يلعبون بأزلام متشابهة ، ينحرون الناقة عاقراً - لأنها أسمن - أو مطلقاً - لأنها أغلى - وهو يكسب فيطعم الجميع لحماً ، حتى إن الجيران والضييفان يشبعون وينعمون كأنهم في وادى تباله المخصبة سهوله :

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ دَعَوْتُ لِحْتَفِهَا بِمَغَاقٍ مُتَشَابِهٍ أَجْسَامُهَا
أَدْعُوهُمْ لِعَاقِرٍ أَوْ مُطْفَلٍ بَذَلْتُ لَجِيرَانِ الْجَمِيعِ لِحَامُهَا
فَالضَيْفَ وَالْجَارَ الْجَنِيبَ كَأَنَّمَا هَبَطَا تَبَالَةً مُخَصَّبًا أَهْضَامُهَا^(٢)
وافتخر الأعشى بالمقامرة :

وَجَزُورٍ أَيْسَارٍ جَزَرْتُ إِلَى النَّدَى وَنِيَاطٍ مَقْفَرَةٍ أَخَافُ ضَلَالَهَا
وكان الشتاء فصل الجذب والفقر ، فالمياسرة فيه دليل على الثروة والقدرة ، قال طرفة إنهم أصحاب قداح الميسر منذ القدم ، منذ لقمان بن عاد صاحب النصور السبعة التي آخرها لبد ، وهم يقامرون وإن صعب الشتاء على القادرين المشاركة في القداح ، ثم هم لا يلحفون في طلب الدين الذي لهم على رفيق في المياسرة ، ويدخلون معهم في اللعب ذوى المعسرة :

وَهُمْ أَيْسَارُ لَقْمَانَ إِذَا أَغْلَتِ الشَّتْوَةُ إِبْدَاءَ الْجَزْرِ
لَا يَلْحُونُ عَلَى غَارِمِهِمْ وَعَلَى الْأَيْسَارِ تَيْسِيرَ الْعَسْرِ^(٣)

وقال مسنان بن أبي حارثة إنه لعب الميسر والرياح الباردة قد اضطرت النوق إلى الرواح ، وإنه قد أطعم أهل الحى من جيران وعفاة :

وَقَدْ يَسَّرْتُ إِذَا مَا مَا الشُّوْلُ رَوَّحَهَا بَرْدُ الْعَشِيِّ بِشَفَّافٍ وَصُرَادٍ

(١) بلوغ الأرب ٥٦/٣ السواعد : مجارى الابل في الضرع . الغدى : القدح الغالى . المضبوح :

المقوم بالنار . أغلى به : أغلاه

(٢) المعلقات . الزوزنى ١١٣

(٣) ديوان طرفة ٧٣ - ٧٤

ثُمَّ أَطْعَمْتُ زَادِي - غير مدخر - أهل المحلة من جار ومن جاد^(١)
 وكان بعض المقامرين يأخذ ما بقى من القداح إن لم يحضر من يتمم الأيسار ،
 ويقول للأيسار قد تمتكم^(٢) ، وقد افتخر النابغة بأنه متمم الأيسار :
 إني أتمم أيسارى وأمنحهم مثنى الأيادى وأكسو الجفنة الأدم^(٣)

وأشاد عمرو بن قنطة قومه فقال : إذا اشتد البرد وانعدم البرق ، واحي
 السحاب من السماء فلا ترى فيها غيمة وإن رأيت فسرعان ما تنقشع ، ولقد يتفرق
 الغمام فى السماء كأنه نعال بالية بانت منها سيورها ، وفى هذا الوقت تهزل النوق فلا
 لبن - حينئذ نملأ قدورنا طعاما ونقدمها فيسرع إليها الضيوف والغرباء كما تسرع
 صغار الإبل تفرتها ككبارها ، وذلك بأننا نياسر بأقداح كاسية ونقدم ما كسبنا
 طعاما للناس :

إذا النجم أمسى مغرب الشمس رائباً ولم يك برق فى السماء يليحها
 وغاب شعاع الشمس فى غير جلبة ولا هبوة إلا وشيكا مصوحها
 وهاج غمام مقشعر كأنه نقيلة نعل بان منها سريحها
 إذا عدم المحلوب عادت عليهم قدور كثير فى القدور قديحها
 يشور إليها كل ضيف وجانب كما رد دهاد القلاص نضيحها
 بأيديهم مقرومة ومغالق يعود بأرزاق العباد منيحها^(٤)

(١) المفضليات ١٥٠/٢ يسرت : قامرت : الشول : الإبل التى نقصت ألبانها . الشفان والصراد :
 ربيع باردة . جاد طالب للعطية (٢) بلوغ الأرب ٦٢/٣
 (٣) مثنى الأيادى : أن يأخذ القسم مرة بعد مرة أو مى الأنصاء التى كانت تبقى من الجزور
 فى الميسر فيشتريها ويعطيها .

(٤) بلوغ الأرب ٨٥/٣ النجم : الثريا وأشد البرد عند طلوعها . رائب : مرتفع . يليحها :
 يظهرها ويضيئها . الجلبة القطعة من القيم . المصوح : الذهاب . الهبوة : الغبرة . النقيلة : رفعة النعل
 والحف . السريح : جمع سريحة وهى السير الذى تشد به النعل . القديح : المعروف والجميل . الجانب :
 الغريب . الدهداه : صغار الإبل . النضيح : الذى شرب حتى روى . المقرومة : سهام الميسر عليها علامة .
 المغالِق : سهام الميسر أو السهام التى تفوز . منيحها : ممنوحها أو كاسبها . فعيل بمعنى مفعول أو فاعل ،
 وليس المنيح هنا هو القدح الذى لاسهم له

و — وقد مدحوا من يلعب الميسر لأنه كريم مهين للمال ، وعابوا من لا ييسر ،
وسمّوه البرم ، قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا : إنه مولع بالميسر إذا قعقع الجلد
اليابس من شدة البرد ، وإنه كفيل بأخذ ما يبقى من القداح ، وله غنمه وعليه غرمه ،
ولا يحمى نصيبه أن يتقسمه الفقراء :

ولا برماً تهدي النساء لعرسه إذا القشع من حس الشتاء تقعقعا

إذا جرّد القوم القداح وأوقدت لهم نار أيسار كفى من تَضَجُّعا
وإن شهد الأيسار لم يلف مالك على الفرث يحمى اللحم أن يتمزعا^(١)

ومدح الشاعر قوما بأنهم أعداء النوق العظيمة السنام ، لأنهم ينحرونها فترغو
صغارها ، وهم لا يفرحون إذا فازوا ، ولا يباليون بالغرم إن كانوا في عسرة ، أسخياء
كفون بالميسر إذا ما عجز غيرهم عنه :

أعداء كُوم الذرى ترغو أجنتها عند المجازر بين الحى والحجر
لا يفرحون إذا فاز فازهم ولا تضيق عليهم أزبة العسر
هم الخضارم والأيسار إن ندبوا إذ لا تُجِيل قداحا راحتا يسر^(٢)

ولا تبرأ أمة قديمة أو حديثة من المقامرة ، على اختلاف طرقها . وإذا كان
العرب قد أولعوا بها مباهاة ومفاخرة وعطفاً على المحاويج فإن بعض الأمم كانت أشد
من العرب ولوعاً بالقمار ، ولم تقصد منه إلى إطعام جائع أو محتاج ، فقد ذكر تاسينوس
أن قدماء الجرمان كانوا يتقارمون على كل ما يملكون ، فإذا نفد تقامروا على حرثهم
فيصير المغلوب عبداً للغالب ، وكان الرومان واليونان كلفين بالمقامرة . ولكن العرب
تفردوا بالغرض النبيل من لعب الميسر .

(١) المفضليات ٢/٦٥-٦٧ وجهرة أشعار العرب ٢٩٢ تهدي النساء لعرسه : ليس ممن تعطى
النساء زوجه لحاف الشتاء . القشع : القربة اليابسة . تضجع : تسكسل . الفرث : مبالسكرش
(٢) بلوغ الأرب ٣/٥٩ أزبة : شدة وقحط .

(٣) الجن

تصورهم لها • تشكّلها • مساكنها • استعاذتهم بها • صعبة وزواج • قتلهم الغول • الجن في الأدب اليوناني •

١ - تصورهم للجن

عاش هذا الشعب الفطري في صحراء رحبة جديبة مليئة بالقيعان والأغوار والوهاد والنجاد والتلال ، يقل سكانها والجائون فيها ، ويسدل الليل ستاره فيغمر الظلام والسكون والوحشة كل شيء ، فتسلط الأوهام وتتجسم المخاوف والأحلام ، فيدعى كثير من العرب أنهم رأوا الجن وخالطوها وصادقوها وخاصموها ، ونسلوا منها .

وكل حديثهم في هذا خرافة ، ولكنها خرافة لم تقتصر على العرب ، فإن كثيراً من الأميين وضعاف العقول ما زالوا يؤمنون بهذا في العالم المتحضر .

وقد علل الجاحظ لذيوع الشعر المتصل بالجن تعليلاً حسناً بقوله : « وما زادهم في هذا الباب وأغراهم به ومدّ لهم فيه أنهم ليس يلقون بهذه الأشعار وبهذه الأخبار إلا أعراباً مثلهم ، وإلا غيلاً يأخذ نفسه قط بتمييز ما يوجب التاكذيب والتصديق والشك ... وإما أن يلقوا رواية شعر أو صاحب خبر ، فالرواية عندهم كلها كان الأعرابي أكذب في شعره كان أظرف عندهم ، وصارت روايته أغلب ، ومضاحيك حديثه أكثر ، فلذلك صار بعضهم يدعى رؤية الغول أو قتلها أو مرافقتها أو تزويجها ، »^(١) على أن تعليله صالح لانتشار هذه الأكاذيب ، ورواجها ، أما السبب في نشأتها فهو ما أسلفته .

وقد خصوا بعض أصناف الجن بالتحدث عنها كالغيلان والسعالى وأطلقوا

الغول على كل شيء من الجن يعرض للشفار ويتلون في ضروب الصور والشياب
ذكر أكان أو أنثى ، إلا أن الأكثر على أنه أنثى . والسعلاة اسم لواحدة من نساء
الجن تتغول لتفتن الشفار ، قالوا : وإنما هذا منها على العبث ، أو لعلها تفرع إنساناً
فيتغير عقله ،^(١) .

وزعموا أن خلق الغول كالإنسان ولكن رجلها رجل حمار .
ويزعمون أن الغول تتغول لهم في الخلوات ، وتظهر لخواصهم في أنواع الصور
فيخاطبونها وربما ضيفوها . وكانت تتراعى لهم فيتبعونها فتتبعهم ، ولذلك كانوا
يصيحون بها إذا ما رأوها :

يا رجل عمنز انهي نهيقاً لن تنزى السبيل والطريقا
لأنهم يزعمون أن رجلها رجل حمار .

وأكثر كلامهم على الأنثى من الغيلان . قال أبو المطراب :

وحالفني الوحوش على الوفاء وتحت عهدهم وبأبعاد

وغولا قفرة ذكراً وأنثى كأن عليهما قطع البجاد^(٢)

وقد زعم تأبط شراً أو زعموا له أنه رأى الغول وضربها في جراحة ضربة واحدة
قضت عليها ، وسندكر قوله في موضع آخر ، ولكن بعيننا هنا تصويره لها بأنها
صغيرة الرأس مشقوقة اللسان ، يشبه لسانها لسان الكلب ، مشوهة الساق ، تلبس
ثوباً من جلود بالية :

إذا عينان في رأس دقيق كرأس الهر مشقوق اللسان

وساق مخدج ، ولسان كلب وثوب من عباء أو شنان^(٣)

ونسبوا إلى أبي الغول الطهوى أنه لقيها فقتلها أيضاً ، وصور شكلها تصويراً
يكاد يكون تصوير تأبط شراً لفظاً ومعنى ، ولذلك أرجح أن الشاعر واحد :

(١) الحيوان للجاحظ ٤٨/٦ (٢) مروج الذهب ٢٥٢/١ — ٢٥٣

(٣) صبح الأعشى ٤٠٥/١ وبلوغ الأرب ٣٧٩/٢ والأغانى ٢٠٩/١٨ ومعجم البلدان ٢٣١/٤

إذا عِينان في وجهه قبيح كوجه الهر مشقوق اللسان
بعيني بُوهة وشواة كاب وجلد في فرا أو في شنان^(١)

وقد استمدوا من هذا التصور للجن صوراً شتى ، فمثلاً شبه الخطافي - جد جرير -
النوق السائرة في الليل ترفع أعناقها وتهز رؤوسها بالجن التي تمد أعناقها ، وقالوا إنه
سمي الخطافي لقوله هذا :

يرفعن بالليل إذا ما أسدفا أعناق جنان وهاما رجفا
وعنقا باقي الرسيم خيطفا^(٢)

وكذلك شبه امرؤ القيس بن عمرو بن الحارث بن معاوية الأكبر خيلهم بالسعالى :
سمونا لهم بالخيل تردى كأنها سعال وعقبان اللوى حين تُركب^(٣)
وقاؤ عمرو بن الأيهم التغلب في وصف الخيل أيضا :

وتراهن شزبا كالسعالى يتطلعن من ثغور نقاب^(٤)
وبقى هذا التخيل في الشعر الإسلامى على سبيل المحاكاة ، قال الأشر النخعى إن
خيله كالسعالى :

بقيت وفرى وانحرفت عن العلا ولقيت أضيافى بوجه عبوس
إن لم أشرب على ابن هند غارة لم تخل يوما من نهاب نفوس
خيلا كأمثال السعالى شزبا تعدو ببيض فى الكريمة شوس^(٥)
ب - تشكها

وروا كثيرا من الأفاصيص عن تشكّل الجن لهم بصور شتى ، منها أن عبيد بن
الأبرص سافر فى ركب من بنى أسد ، فبينما هم يسرون إذا هم بشجاع يتمعك على
الرمضاء فاتحاه من العطش ، وكانت مع عبيد فضلة من ماء فنزل فسقى الشجاع حتى

(١) المؤلف والمختلف ١٦٣ الفراء : جمع فروة وهى الجبة التى شمر كها .
(٢) البيان والتبيين ٢٨٣/١ والحيوان ٥٣/٦ العنق : سير شديد . الرسيم : أشد منه الخيطف : السريع
(٣) المؤلف والمختلف ١٠
(٤) الأمالى ١/٤٤ النقاب : جمع ثقب وهو الطريق .

شزب : ضوامر

(٥) الأمالى ١/٨٥

روى واستنحش ، فانساب في الرمل ، فلما كان الليل ونام القوم ندت رواحهم ، فقام كل واحد يطلب راحته ، فتفرقوا ، فبينما عبيد كذلك وقد أيقن بالهلكة والموت إذا هو بهاتف يهتف به :

يا أيها السارى المضلُّ مذهبه دونك هذا البكر منا فاركه
وبكرك الشارد أيضا فاجنبه حتى إذا الليل تجنى غيبه
فخط عنه رحله وسيله

فقال له عبيد : يا هذا المخاطب نشدتك الله إلا أخبرتنى من أنت ؟ فأنشأ يقول :

أنا الشجاع الذى ألفيته رمضا فى قفرة بين أحجار وأعقاد
وجدت بالماء لما ضن حامله وزدت فيه ولم تبخل بإنجاد
الخير يبقى وإن طال الزمان به والشر أخبث ما أوعيت من زاد
فركب البكر وجنب بكره فبلغ أهله مع الصبح ، فنزل عنه وحل رحله وخلاه
فغاب عن عينه ، ثم جاء إخوانه الذين سلبوا بعد ثلاث ليال (١)
وهذا الخبر وأمثاله بين الافتعال والوضع ، والغرض منه الترغيب فى عمل الخير ،
وقد نقله أبو الفرج عن كتاب عن ابن الكلبي عن أبيه وقال : « وهو خبر مصنوع
يتبين التوليد فيه » :

وزعموا أن الغول سميت بذلك لأنها تتغول لهم أى تتلون وتتشكل بصور شتى ،
أو لأنها تغتالهم ، قال كعب بن زهير فى وصف تلون المرأة :

فما تدوم على حال تسكون بها كما تلون فى أثوابها الغول (٢)

وادعوا أن الجن تتشكل أحيانا فى صور حيات ، من ذلك ما أورده الدميرى
من قصة الفتى الذى قتل حية ثم اضطربت عليه فقتلته لأنها جنية (٣) وطبيعى ألا يصدق

(١) الأغاني ٨٩/١٩ ساسى. أعقاد : كشبان رمل .

(٢) جمرة أشعار العرب ٣٠٨

(٣) حياة الحيوان . الدميرى ٣١٩/١ بولاق

أحد هذه المزاعم ، وقد سبق تعليق أبي الفرج على قصة عبيد مع الثعبان . وهذا تعليق ابن هشام على بيت كعب بن زهير : إن للعرب أموراً تزعمها لا حقيقة لها ، منها أن الغول تترامى لهم في الفلوات ، وتتلون ، وتضلهم عن الطريق ، وإلى ذلك ذهب أبو عبيدة ، فقد سأله رجل عن قوله تعالى : « طلعها كأنها رموس الشياطين ، كيف ذلك ؟ وإنما يقع الوعد والوعيد بما قد عرف مثله ، وهذا لم يعرف : فأجابه بأن الله تعالى كلم العرب على قدر عقولهم ، أما سمعت امرأ القيس يقول :

أَيَقْتَلْنِي وَالْمَشْرِفُ مِضَاجِعِي وَمَسْنُونَةُ زَرْقٍ كَأَنِّيَابِ أَغْوَالِ ؟

وهم لم يروا الغول قط ، ولكن لما كانت تهولهم أوعدوا بها ^(١) .

فالغول أو الجنى المتشكل وهم وتخيل ، ولذلك سموا الغول الخيتعور ، وهو كل شيء لا يدوم على حال واحد ويضمحل ، كالسراب وكالهباء ، قال الشاعر :

كل أنثى - وإن بدا لك منها آية الحب - حبها خيتعور

وعلى المسعودى لهذا الوهم تعليلاً حسناً مقبولاً في قوله : « وقد تنازع الناس في الهوائف والجان . . . وإن ما تذكره العرب وتنبئ به من ذلك إنما يعرض لها من التوحد في القفار والتفرد في الأودية والسلوك في المهامه الموحشة ؛ لأن الإنسان إذا سار في هذه الأماكن رُوع ووجل وجبن ، وإذا هو جبن داخلته الظنون الكاذبة والأوهام المؤذية السوداء الفاسدة ، فصورت له الأصوات ، ومثلت له الأشخاص وأوهمتهم المحال ، كما يعرض لذوى الوسوس . . . لأن المتفرد المتوحد يستشعر المخاوف ، ويتوهم المتالف ، ويتوقع الختف ، لقوة الظنون الفاسدة على فكره ، وانغراسها في نفسه ، فيتوهم ما يحكيه من هتف الهوائف به واعتراض الجان له ، ^(٢) »

ح - مساكنها واستعاذتهم بها

١ - وقد اعتقدوا أنها تخالطهم في كل مكان ، ولذا استعاذوا بها واحتموا وقد

أخبر القرآن الكريم بذلك : « وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادهم رهقا ،

وقد أفاض الشعراء في ذلك قال بعضهم :

قد بت ضيفا لعظيم الوادى الممانعى من سطوة الأعادى
راحلتى فى جاره وزادى

وقال آخر

أعوذ من شر البلاد الأبيد بسيدٍ مُعظمٍ مجيدٍ
أصبح يأوى بلوى زُرد ذى عزة وكاهل شديد^(١)

وقال ثالث :

يا جن أجزاء اللوى من عاج بك سارى الظلام الدالج
لا ترهقه بهوى هائج

وقال رابع :

هيا صاحب الشجرأ هل أنت مانعى فإنى ضيف نازل بفنائكا
وإنك للجنان فى الأرض سيد ومثلك آوى فى الظلام الصعالك

واستعاذ رجل ومعه ولده بجنى عظيم فى واد ، فأكل الأسد ولده ، فقال :

قد استعذنا بعظيم الوادى من شر ما فيه من الأعادى
فلم ييجرنا من هزبر عاد

٢ - وإذا مرض أحدهم وطالت علته حسبوا أن الجن مسته عقوبة له على قتله حية أو يربوعا أو قنفذا أو غزالا أو أرنباً ، وهى من مراكب الجن وأحبائها ،^(٢) فقدموا الدية للجن جوالات ملاء بالحنطة والشعير والتمر على جمال من طين ،

(١) اللوى : الرمال اللينة أو المنعطفة . زرود ، ضع (القاموس مادة هبر)

(٢) بلوغ الأرب ٢/٢٩٩

ووضعوها بجانب جحر إلى جهة الغرب وقت الغروب ، فإذا أصبحوا ووجدوا الجمال على حالها قالوا : إن الدية لم تقبل ، فزادوا فيها ، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من حب قالوا : قد قبلت ، واستبشروا بشفاء المريض ، وفرحوا ، وضربوا بالدف ، قال بعضهم :

قالوا — وقد طال عنائي والسقم —
أحمل إلى الجن جمالاتٍ وضمٌ
قد فعلت والسقام لم يُرَمَّ فبالذي يملك برثى أعتصم
وقال آخر يتبرم بسقمه ، وقد قدم الميرة للجن غير واثق بقدرتها على شفائه
ولكنه يمني نفسه ويعلمها :

فيا ليت أن الجن جازوا حمالي وزحزح عني ما عنائي من السقم
ويا ليتهم قالوا : أنطناكل ما حوت يمينك في حرب غماس وفي سلم
أعلل قلبي بالذي يزعمونه فيا ليتني عوفيت في ذلك الزعم^(١)
وذكر غيره أن الجن غضاب عليه ، ولا جريرة له ، وعجب من طلبهم الدية التي
لا حق لهم فيها ، وتسامل كيف يفتصف منهم وهم متوارون عنه ، ولو أنهم ظاهرون
له ما خشيهم :

ألا إن جنان النورية أصبحوا وهم بين غضبان على وآسف
حملت - ولم أقتل - إليهم حمالة تسكن عن قلب من السقم تالف
ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم ومن لي من أمثالهم بالتناصف
تغطوا بثوب الأرض عني ولوبدوا لأصبحت منهم آمناً غير خائف
وكانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو تجروا عينا ذبحوا عندها ذبيحة وسموها
ذبيحة الجن حتى لا ينالها شؤم^(٢).

وكان القنفذ من مراكبهم كما قلنا ، قال شاعر في قنفذ رآه ليلاً إنه يعجب من
اختيار الجن إياه مركباً ، ويدهش من تركهم الخليل والأسود والنوق :

فما يُعجب الجنان منك - عَدَمَتَهُمْ -
وفي الأسد أفراس لهم ونجائب
أيسرَج يربوع ويُلَجَم قنفذ؟
لقد أعوزتهم - ما علمت - النجائب
ونسبوا إلى الجن شعراً في مراكبهم .

وكل المطايا قد ركبنا فلم نجد
ألد وأشهى من ركوب الأرانب
ومن عَصْرُفُوط عن لي فركبته أبادر سرباً من عَظَاء قوارب^(١)
٣ - ومسكنها الفلوات ، وقد أكثروا من القول إنهم سمعوا عزيفها هنالك ،
ولعل الذي خيل إليهم ذلك رَجْعُ الأصوات ، وصدى الريح المتناوحة ، والعود
القاصفة ، والوحوش المصوتة في بيساء كلها وهاد ونجاد ، قال الأصمعي : وإنما
العزف من الريح على الرمل فَتُسمِع له صوتاً ، والجن لا تعزف ولكن الأعراب
قالوه بجهلهم ،^(٢)

قال الشاعر :

ويهما تعزف جَنَانُهَا مناهلها آجَنَاتٌ سُدُم^(٣)
وقال آخر :

وبلدة مثل ظهر الترس موحشة للجن بالليل في حافاتها زَجَل
وقال بشر بن أبي خازم إنه اخترق الفلاة التي تعزف جنها ، وتهدر ريحها :
وخرق تعزف الجنان فيه فيافيه تحنُّ بها السَّهَام^(٤)
وقال أعشى باهلة في رثاء أخيه المنتشر إنه كان جريئاً يمشى في البید التي لم تطأها
قدم ، فلا أثر فيها لغير الجن :

من ليس في خيرهِ منُّ بكَدرهِ على الصديق ولا في عفوهِ كدر
يمشى ببیداء لا يمشى بها أحد ولا يحسُّ - خلا الخافي - بها أثر^(٥)

(١) العَصْرُفُوط : ذكر العظاء أو هو من مراكب الجن . العظاء : جمع عظابة : دويبة مثل سام أبرص

(٢) ديوان جرّان العود النيمري ١٩

(٣) سدُم : مطمورة .

(٤) المفضليات ١٣٤/٢ السهام : الريح الحارة (٥) جمهرة أشعار العرب ٢٨٠ الخافي : الجنى

وطرفة بن العبد شجاع اخترق الفيافي التي تعرف الجن فيها :
وركوب تعزف الجن به قبل هذا الجيل من عهد أبدي

قد تبطنت بطرف هيكل غير مرء ولا جاب مكدي^(١)
والمنقب العبدى قد اجتاز بناقته مومة تعزف جنها :

في بلدة تعزف جناتها فيها خناطيل من الرود^(٢)
وقد ظل هذا التخيل إلى ما بعد العصر الجاهلي ، فجران العود النيرى يقول في
قصيدة غزلية قصصية :

حملن جران العود حتى وضعنه بعلياء في أرجائها الجن تعزف^(٣)

و - صحبة وزواج

راجت قصص زواج الإنس بالجن في الأدب العربي ، ولعل هذا الزواج عائد
إلى رواج السحر والخفاء ، ورواج ما كان يتحدث به السمار والرواة من غرائب
تشوق السامعين .

وقد أفرد ابن النديم في الفهرست ثبنا بأسماء عشاق الإنس للجن وعشاق الجن
للإنس ، وعلق عليها بقوله : « وكانت الأسحار والخرافات مرغوبا فيها مشتبهة
في أيام خلفاء بني العباس لا سيما في أيام المقتدر ، فصنف الوراقون وكذبوا ، فكان
من يفتعل ذلك رجل يعرف بابن دلان وآخر يعرف بابن القطار » .^(٤)

١ - وقد أكثروا من ذكر صحبتهم للجن ، ومعاشرتهم ومخالطتهم مفاخرة
بشجاعتهم وقد درتهم على ما يعجز عنه الناس ، قال عبيد بن أيوب العنبري أحد
لصوص العرب :

(١) ديوان طرفة ٤٥ أبدي : قديم وأضيفت الصفة إلى الموصوف . مرءاء : ثقيل في مشبه . الجاب :
الغليظ . مكدي : يكدي بالساق والسوط (٢) البيان والتبيين ١ / ١٢٨ لابل خناطيل : متفرقة .
الرود : الذهاب إلى المرعى (٣) ديوان جران العود ١٩ (٤) الفهرست ٤٢٨

تقول وقد ألممت بالأمس لمّةً مُحَضَّبَةً الأطراف خُرْسُ الخلاخل
أهذا خدين الغول والذئب والذي يهيم بربات الحجال الهراكل ؟ (١)
وقال إنه رأى نارها التي كانت توقدها للمتغرب المتقفر فيأنس ويهتدى :

فلله در الغول ، أى رقيقة لصاحب قفر فى المهامه يُذْعَرُ
أرنت بلحن بعد لحن وأوقدت حوالى نيرانا تلوح وتزهر (٢)
وتباهى فى حديثه لحبيته بأنه ألف الغيلان والسعالى :

وساخرة منى ولو أن عينها رأت ما ألقىه من الهول جنت
أبيت وسعلاة وغول بقفرة إذ الليل وارى الجن فيه أرنت (٣)
ونسبوا إليه كثيراً من الشعر المتصل بالغيلان ، كما نسبوا إلى تأبط شرا ، ولعلمهم
لامموا بين حياتهما القائمة على التقفر والصعلكة والفتك وبين هذا التخيّل العجيب .
وروى الجاحظ لمسهم أو سمير بن الحارث الضبي أنه أوقد ناره بالصحراء فطرقة
الجن ، فدعاهم إلى الطعام فأبوا :

ونار قد حصّات بُعيد وهن بدار لا أريد بها مقاما
سوى تجليل راحلة وعين أكالها مخافة أن تناما
أتوا نارى فقلت : منون ؟ قالوا سرّاة الجن . قلت : عموا ظلما
فقلت إلى الطعام ، فقال منهم زعيم : نخسّد الإنس الطعاما (٤)

واختلف الشراح فى معنى الحسد هنا ، وأحسن ما قيل أنهم لا يأكلون ما يأكل
الناس وإن كانوا يشتهونه .

وشبيه بهذه القصة ما نسب به جذع بن سنان الغساني إلى نفسه أو ما نخله القصاص
إياه ، فيه تفصيل لوفود الجن على ناره وتحيته لهم وأنه رآهم ملاح الوجوه ، فنحروهم .

- (١) الحيوان ١/٦ الهراكل : جمع هركلة أو هرکوة أو هرکیل : الحسنه الجسم والخلق والمشيّة .
ويروى (الكواهل)
(٢) الحيوان ٤٢/٥ و ٥٠/٦ ومروج الذهب
(٣) الحيوان ٤٨/٦ ومروج الذهب ٢٥٢/١ (الشعر لأبى المطراب)
(٤) الحيوان ١٥٣/٤ و ٦٠/٦

أتوا ناري فقلت : منون أتم ؟ فقالوا : الجن . قلت : عموا صباحا
 نزلت بشعب وادي الجن لما رأيت الليل قد نشر الجناحا
 أتيتهم والاقدار حتم تلاقي المرء صباحا أو رواحا
 أتيتهم غريبا مستضيفا رأوا قتلى - إذا فعلوا - جناحا
 أتوني سافرين فقلت أهلا رأيت وجوههم وُسما صباحا
 نَحَرْتُ لَهُمْ وَقُلْتُ : أَلَا هَلُوا كُلُوا مِمَّا طَهَيْتُ لَكُمْ سَمَاحَا
 وكلا الشعرين أكدوبة من أكاذيب العرب لم تقع قط ، (١) .

٢ - وتمادوا في تخيل الصحبة والعشرة حتى زعموا أن عمرو بن ربوع تزوج
 الغول ، وأولدها بنين ، ولذا سُموا بنى السُّعْلَاة ، قال شاعر يهجوهم :
 يَا قَبِيحَ اللَّهِ بَنَى السُّعْلَاةَ عَمْرُو بْنُ رَبُوعٍ شَرَّارِ النَّاتِ
 ليسوا بأبطال ولا أكيات (٢)

ويزعمون أن تأبط شرّ ألقى الغول فراودها عن نفسها فأبت فقتلها .
 فطالبتها بضعها فالتوت فكان من الرأي أن تقتلا (٣)
 وحدث عبيد بن أيوب العنبري عن نفسه أنه تزوج الغول :
 علام ترى ليلى تعذب بالمني أخوا قفرات كان بالذئب يأنس
 وصار حليل الغول بعد عرارة صفيا ، وربته القفار البسابس (٤)
 وذكر الجاحظ عن أبي زيد أن رجلا تزوج السُعْلَاة ، وأنها كانت عنده زمانا
 وولدت منه حتى رأت ذات ليلة برقاً على بلاد السُعْلَاة فطارت إليهن فقال :
 رأى برقاً فأوضع فوق بكر فلأياً ما أسال وما أعاما

(١) شرح أدب الكاتب لابن السبكي

(٢) الناس : أكيات : أكياس (٣) الأغاني ١٨ / ٢٠٩

(٤) الحيوان ٥١ / ٦ العرارة : النساء يلدن الذكور . البسابس : القفار الحالية .

فمن هذا النتاج المشترك وهذا الخلق المركب بنو السعلاة من بني عمرو ابن يربوع^(١).

وإلى هذا أشار أبو العلاء في ذكره حنين الإبل إلى البرق :

إذا لاح إيماض سترت وجوها كأي عمرو والمطى سعالى

هـ - قتلهم الغول

والعامة تزعم أن الغول إذا ضربت ضربة واحدة ماتت ، فإن أعاد الضارب ضربة أخرى قبل أن تموت فإنها لا تموت ، قال الشاعر :

فثنيت - والمقدار يحرس أهله - فليت يميني قبل ذلك شلت
وأنشدوا لابن البلاد الطهوى :

هان على جهينة ما ألقى من الروعات يوم رحا بطن

لقيت الغول تسرى في ظلام بسهب كالعباية صحصحان

فقلت لها : كلانا نضو أرض أخو سفر فصدى عن مكاني

فصدت وانتحيت لها بعضب حسام غير مؤتشب ، يمانى

فقد سرائها والبرد منها فخرت للدين وللجران

فقلت : زد . فقلت : زويد إني على أمثالها ثبت الجنان

شددت عقالها وحططت عنها لأنظر غُدوة ماذا دهاني

إذا عيان في وجه قبيح كوجه الهر مشقوق اللسان

ورجلا مخدج ولسان كلب وجلد من قراب أو شنان

وأبو البلاد الطهوى هذا من شياطين الأعراب ، وهو كما ترى يكذب وهو يعلم ويطلق الكذب ويحيزه .^(٢)

فهذا الشاعر يدعى أو يدعى له أنه لقي الغول في الظلام بفلاة واسعة مستوية ،

(١) الحيوان ٦٠ / ٦

(٢) الحيوان ٧٢ / ٦ صحصحان : أرض مستوية . سهب : فلاة . مخدج : ناقص الحلقة . شنان : قرب بالية . الجران : مقدم عنق البعير من مذبحة إلى منخره .

تخدعها بقوله إن كلا منهما مهزول من الترحال فابتعدت عنه ، ولكنه أنحى عليها
بسيفه القاطع فقدّ ظهرها وثوبها فخرت صريعة ، فهمت أن تخدعه كما خدعها فقالت له
زدني ضرباً ، فلم يضربها لثلاثيها ، وفي الصباح نظرها فرأى شكلها العجيب .
ولكن هذه القصيدة المنسوبة لأبي الغول الطهوى تسكاد هي نفسها تكون
منسوبة لتأبط شرّاً ، ولأبي الغول الطهوى . قال تأبط شرّاً :

ألا من مُبلِّغ فتیان فهم	بما لا قيت عند رجا بطان
بأنى قد لقيت الغول تهوى	بسبب كالصغيرة صحصحان
فقلت لها : كلانا نصسو أرض	أخو سفر ، نخل لي مكان
فشدت شدة نحوى فأهوت	لها كفى بمصقول يمانى
فأضربها بلا دهش ، فخرت	صريعاً للدين وللجران
فقالت : ثن . قلت لها : رويدا	مكانك إننى ثبت الجنان
ولم أنفك مضطجعاً لديها	لأنظر مضجعا ماذا دهانى
إذا عيناك فى رأس دقيق	كرأس الهر مشقوق اللسان
وساق مخدج ^١ ولسان كلب	وثوب من عباء أو شنان ^(١)

والقصيدتان قصيدة واحدة بها تغيير يسير .

ولا تخرج الأبيات التي عزيت إلى أبي الغول الطهوى عن ذلك ^(٢) .
ثم هم ينسبون إلى تأبط شرّاً أبياتاً آخر يصف فيها لقائه للغول وأنه راودها
عن نفسها فأبت فقتلها :

فأصبحت الغول لي جارة	فيا جارتا لك ما أهولا
فطالبتها بضعها فالتوت	على وحاولت أن أفعلا
فمن كان يسأل عن جارتى	فإن لها باللوى منزلا ^(٣)

(١) الأغاني ٢٠٩/١٨ ومعجم البلدان ٢٣١/٤ وصبح الأعشى ٤٠٥/١ وبلوغ الأرب ٣٧٩/٢

(٢) المؤلف والمختلف ١٦٣ (٣) الأغاني ٢٠٩/١٨

وتروى هكذا :

فطالبتها بضعتها فالتوت فكان من رأى أن تقتلا
فجللتها مرهفا صارما أبان المرافق والمفصلا

و - الجن في الأدب اليوناني

ولم يشذ العرب بتخيلهم للجن وتصورهم لشكلهم وادعائهم أنهم يخالطونهم ، فإن الأدب اليوناني مليء بهذا التخيل ، والميثولوجيا الإغريقية حافلة بالأقاصيص عن آلهة اليونان وأنصاف الآلهة ، وعرائس البحار والغابات ونبات الماء . ومن مميزات سكان الأولم القدرة على التشكل بهيئة إنسان أو حيوان أو نبات أو جماد ، فليس عجيباً أن يمثل هو مير هذه الأساطير في صور شعرية شائقة ، وليس عجيباً أن تعمر أساطيرهم بأقاصيص الغرام بين الآلهة والبشر في ثنايا الإلياذة والأوديسة ، وفي شعر هسيود وروايات سوفوكليس وپوربيدس . وما قصة غرام أفروديت بأودونيس إلا صورة من قصة الجنية العاشقة في تصوير شعري رائع .

(٤) شياطين الشعراء

عبقر . شيطان الشعر . شياطين بعض الشعراء . شياطين شعراء الإفرنج .

العقل الباطن

١ - الشعر وحى وفيض وإلهام ، وهو إذا ما صدر عن عاطفة مشبوبة صادقة فن لا أثر للإرادة فيه ، أو أثرها فيه أضعف من أثر التلق والطواعية والاستعداد من أغوار النفس واللاشعور

وقد نسب العرب كل أمر عجيب إلى الجن ، وتخيلوا أن عبقر وادبهم ومقامهم ، وقالوا في الأمر العظيم عبقرى ، فلا عجب أن يصلوا الشعر بالجن ، ولا عجب أن يتخيلوا أن لكل شاعر شيطاناً يلهمه القريض ، ولكن للشعر شيطانين ، أحدهما مجيد واسمه الهوبر ، والآخر مفسد واسمه الهوجل ، وكانت عقيدتهم هذه معلومة في العصر

الإسلامي ، فقد روى أن رجلاً من تميم أتى الفرزدق وقال له . إني قد قلت شعراً فاسمعه ، قال أنشدني ، فقال :

ومنهم عُمرُ محمود نائلة كأنما رأسه طين الخواتيم
فضحك الفرزدق ثم قال : يا ابن أخي ، إن للشعر شيطانين يدعي أحدهما الهوبر
والآخر الهوجل ، فمن انفرد به الهوبر جاد شعره ، ومن انفرد به الهوجل فسد
شعره ، وقد اجتمع لك في هذا البيت ، فكان معك الهوبر في أوله فأجدت ، وخالطك
الهوجل في آخره فأفسدت (١) .

وقد سموا الشعر رُقَى الشياطين ، قال جرير :

رَأَيْتُ رُقَى الشَّيْطَانِ لَا تَسْتَفْزُهُ وَقَدْ كَانَ شَيْطَانِي مِنَ الْجِنِّ رَاقِيَا
وَقَالَ آخِرُ :

مَاذَا يُظَنُّ بِسُلَى إِذْ يَلْمُهَا مَرَجَلُ الرَّأْسِ ، ذَوْبُ دَيْنٍ وَضَاحُ
خَزْ عِمَامَتِهِ ، حُلُوْ فَكَاهَتِهِ فِي كَفِّهِ مِنْ رُقَى الشَّيْطَانِ مِفْتَاحُ
وَصَرَحَ كَثِيرٌ مِنْهُمْ فِي الْعَصْرِ الْجَاهِلِي ، وَفِيَا بَعْدَهُ ، بِأَنَّ شَيْطَانِيهِمْ تَلْهَمُهُمْ أَفَانِيهِ
الْقَوْلُ ، قَالَ الرَّاجِزُ :

إِنِّي وَإِنْ كُنْتُ صَغِيرَ السِّنِّ وَكَانَ فِي الْعَيْنِ نَبْوٌ عَنِي
فَإِنْ شَيْطَانِي أَمِيرَ الْجِنِّ يَذْهَبُ بِي فِي الشَّعْرِ كُلِّ فَنٍ (٢)
وَقَالَ حَسَّانُ فِي جَاهِلِيَّتِهِ يَعْزُو إِلَى شَيْطَانِهِ أَنَّهُ قَاتِلُ بَعْضِ شَعْرِهِ .

إِذَا مَا تَرَعَرَعَ فِينَا الْغَلَامُ فَمَا إِنْ يُقَالُ لَهُ : مَنْ هُوَ
إِذَا لَمْ يَسُدْ قَبْلَ شَدِّ الْإِزَارِ فَذَلِكَ فِينَا الَّذِي لَا هُوَ
وَلِي صَاحِبٍ مِنْ بَنِي الشَّيْصِبَانِ فَطَوْرًا أَقُولُ ، وَطَوْرًا هُوَ
وَقَالَ جَرِيرُ :

إِنِّي لِيَلْقَى عَلَى الشَّعْرِ رَ مَكْتَهَلٌ مِنَ الشَّيَاطِينِ

ب - ولم يكتفوا بنسبة شعرهم إلى الشياطين ، بل سموها ، فكان لكل شاعر شيطانه المسمى فشيطان الأعشى مسجل ، وشيطان فرو بن قطن جهنم . قال الأعشى :

دعوت خليلي مسجلاً ، ودعوا له جهنم بعداً للغوى المذمم^(١)

وشيطان المخبل السعدى عمرو ، قال الشاعر الإسلامى :

لقد كان جنى الفرزدق قدوة ولا كان فينا مثل فحل المخبل
ولا فى القوافى مثل عمرو وشيخه ولا بعد عمرو شاعر مثل مسجل

وشيطان عبيد بن الأبرص هيب ، وهو نفسه شيطان بشر بن أبى خازم ، وينسبون إليه قوله :

أنا ابن الصلادم أدعى الهيب حبوت القوافى قرمى أسد
عبيداً حبوت بمأثورة وأنطقت بشراً على غير كد
ولاقى بمدرك رهط الكميت ملاذاً عزيزاً ومجدداً وجد
منحناهم الشعر عن قدرة فهل تشكر اليوم هذا معد^(٢) ؟

وسأله الراوى : أما عن نفسك فقد أخبرتنى ، فأخبرنى عن مدرك ، فقال : هو مدرك بن واغم صاحب الكميت ، وهو ابن عمى .

وقالوا إن شيطان امرئ القيس لافظ بن لاحظ ، وشيطان النابغة الذبياني هاذر^(٣) ، ونسبوا إلى أبى نواس أنه كان يستعين بإبليس فى نظم الشعر ، ورووا له آياتاً منها :

دعوت إبليس ثم قلت له فى خلوة والدموع تنحدر
أما ترى كيف قد بليت ، وقد أفرح جفنى البكاء والسمير ؟
إن أنت لم تلق لى المودة فى صدر حبيبي وأنت مقتدر
لا قلت شعراً ولا سمعت غناً ولا جرى فى مفاصلى السكر
فما مضت بعد ذاك نالسة حتى أتاني الحبيب يعتذر^(٤)

ولم يقتصر وا على نسبة الشعر للشياطين ، بل نسبوا إليهم الغناء أيضاً في الإسلام ، فقالوا إن الغريض كان يتلقى غناؤه عن الجن ، وأن سماره سمعوا وهو يغنيهم ذات ليلة عزيفاً عجيباً وأصواتاً مختلفة أفزعتهم ، فقال لهم إن فيها صوتاً إذا نام سمعه ، ويصبح فيبني عليه غناؤه ، فأصغوا إليه فإذا نغمته هي نغمة الغريض فصدقوه ^(١) . ولم يقنع أبو النجم أن يكون شيطانه كشياطين الشعراء ، فادعى أن شيطانه ذكر وشياطينهم إناث ، لأن الذكور أقوى من الإناث وأقدر :

إني — وكل شاعر من البشر شيطانه أنثى — وشيطاني ذكر
وروى بعضهم بيت عمرو بن كلثوم في معلقته هكذا :

وقد هرت كلاب الجن منا وشذبنا قتادة من يلينا ^(٢)
وقال إن الشعراء كانوا يسمعون كلاب الجن ، فالمعنى أننا لبسنا الأسلحة فشرع الشعراء يذكروننا ويرهبوننا .

ح — ولهم مع شياطين الشعراء أقاصيص ومساجلات ، ومحامكات منشورة في كتب الأدب ، نذكر بعضها للتمثيل :

قال جرير بن عبد الله البجلي ^(٣) : « سافرت في الجاهلية فأقبلت على بعيرى ليلة أريد أن أسقيه ، فأبى أن يتقدم ، فدنوت من الماء وعقلته ، ثم أتيت الماء فإذا قوم مشوهون عنده ، ففعدت . ثم أتاهم رجل أشد تشويهاً منهم ، فقالوا هذا شاعرهم وطلبوا منه أن ينشدني ، فانشد :

ودع هريرة إن الركب مرتحل البيت

فلا والله ما خرم منها بيتاً واحداً ، حتى انتهى إلى هذا البيت :

تسمع للحلى وسواساً إذا انصرفت كما استعان بريح عشرق زجل ^(٤)
فأعجبه ، فقلت له : من يقول هذه القصيدة ؟ قال : أنا ، قلت : لولا ما تقول

(١) الأغاني ٣٧٣/٢ الدار

(٢) آكام المرجان والمعلقات العشر للشوقيلى ١٠٠ وشرح القصائد البشر للتبريزى ٢٢٧

(٣) الأغاني ١٥٦/٩

(٤) العشرق : شجيرة في أكلها حب صغير إذا جفت فرت بها الريح سمعت لها حبها خشخشة

لأخبرتكَ أن أعشى بنى ثعلبة أنشدنيها عاما أول بنجران ، قال : فإنك صادق ، أنا الذي ألقيتها على لسانه ، وأنا مسجل صاحبه ، ما ضاع شعر شاعر وضعه عند ميمون بن قيس .

وقد لاقى الأعشى هاجسه مسجلا وسمع منه (١) ، وقد اعترف في شعره أن مسجلا يوحى إليه ، بل إنه مصدر وحيه ولولاه ما شعر .

وما كنت شاحوذاً ولكن حسبتني إذا مسجل يسدى لي القول أعلق
شريكان فيما بيننا من هواده صفيان : إنسي وجن موق
يقول فلا أعيأ بقول يقوله كفاني ، لا عي ولا هو أخرج (٢)

وحاور عبيد بن الحمارس جنيا بالشعر (٣)

وذكر أبو العلاء أن أبا بكر بن دريد قص على أصحابه أنه رأى فيما يرى النائم أن قائلاً يقول : لم لا تقول في الخمر شيئاً ؟ فقال : وهل ترك أبو نواس مقالا ؟ فقال له أنت أشعر منه حيث تقول :

وحمرأ قبل المزج صفراء بعده أتت بين ثوبى نرجس وشقائق
حكّت وجنة المعشوق صرفا فسلطوا عليها مزاجا فاكست لون عاشق

فقال له أبو بكر : من أنت ؟ فقال : أنا شيطانك ، وسأله عن اسمه فقال : أبو زاجية ، وخبره أنه يسكن بالموصل (٤) .

و — وإذا كان العرب قد عزوا شعرهم إلى الجن ، وتخيلوا أنها تلهمهم ، ونسبوا كل أمر عظيم إلى عبقر فإن الفرنجة يشبهونهم في كثير من تخيلهم .
يعبر الإنجليز عن العبقرية بكلمة Genius ومصدرها الذي اشتقت منه كلمة

(١) خزائن الأدب ٥٤٩/٣ (٢) جهرة أشعار العرب ٣٠

(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤٤٨/٤

(٤) رسائل أبي العلاء ١٠٦

Genii ومعناها جن ، فبين العبقريّة والجن علاقة في اللغة الإنجليزيّة كالعلاقة التي بين عبقر والعبقريّة في اللغة العربيّة ، وقيل إن أصل الكلمة لا تأتي يدل على معنيين متقابلين ملك رحيم وشيطان رحيم ، يولد الواحد منهما أو يولدان معاً بمولد الشاعر ، ويقصون عن بعض شعرائهم قصصاً تشبه شهاباً قويا ما روى عن شياطين شعراء العرب فمثلاً بدأ الشاعر كولردج قصيدته (كوبلاخان) وأتمها له جنّي والشاعر ناثم . واستيقظ الشاعر ماسفيلد من نومه لينقل عن جنّي قصيدته (المرأة تتكلم) . وأغرب من هذين ما يرويه ولیم بلاك عن نفسه إذ يزعم أنه مسكون ، وأن ساكنيه ملائكة وشياطين تطارده نهاراً ، وتوقظه ليلاً ، لتوحى إليه بما ينظم وحيّاً لا يستطيع أن يصده ولا قدرة له على تنقيح ما توحى به .

ويقول « ريلكه » ، إنه ظل أسير الأرواح ثلاثة أيام لم ينقطع فيها نظمه ، وأخرج ديواناً من دواوينه الروائع ، وأعجبه ، وألح الجن أن ينشره ، فرضى على شريطة أن يكون النشر بعد وفاته ، حتى لا يتحمل تبعه شعر أملاه عليه جنّي جالس قبالة (١) هـ — ولكن علم النفس يعزو هذا كله إلى العقل الباطن ، وقد كشفت الدراسات التي قام بها علماء التحليل النفسي عن كثير من عمل العقل الباطن عند الفنان ، وانتهوا إلى أن لإنتاج الفنى مصدر غالباً عن العقل الباطن كأنه حلم يقظة .

ويروى ستيفنسن كيف بدأ هو نفسه يكتب قصته الفنية البديعة « دكتور جيكل ومستر هايد » ، فيقول : « إن العمل الحقيقي يقوم به مساعد غير منظور أبقية أنا داخل حجرة عليا مغلقة . . . يقوم به أولئك الناس الصغار — في الدماغ — الذين ينجزون لى نصف عملي وأنا مستغرق فى نومى ، وربما أنجزوا النصف الباقى وأنا مستيقظ تمام اليقظة ، حيث أظن أنى أنا القائم بالعمل ، وكثيراً ما يعنى لى أن أعتبر نفسى غير فنان ، بل مخلوقاً شأنه شأن بائع الجبن أو الجبن نفسه . »

وهذا التصوير المستملح تؤيده إشارات من كتاب آخرين ، فهذا قولتير - وقد جلس مرة أخرى في إحدى مقاصير المسرح يشهد تمثيل رواية من رواياته - يصبح متعجباً : أحقاً أنا الذى كتب هذا ؟

وجورج إليوت - ولم تكن تعتقد فى قوى نفسية غير طبيعية - تصرح أنها قد خيل إليها وهى تكتب Adam bede أن عقلاً آخر قد استحوذ على قلبها وسيره . ويقول جوته إنه كتب أحسن رواية له وهو فى غيبوبة حاملة يشبهها بحالة النائم الماشى . وكثير من الأدباء الأحياء صرحوا بهذا ، فمثلاً بروفسور هوتمان يقول فى طريقة إنتاج قصائده : أنا أظن أن إنتاج الشعر ليس عملية فاعلة Active قدر ما هى قابلة Passive وغير اختيارية ^(١) .

و — التحليل النفسى يعزو إلى العقل الباطن الإنتاج الأدبى الرفيع ، وقد عبر الشعراء العرب والإفرنج عن هذا العقل بأنه قوى خفية تلهم ، وسموها شياطين . وإذا كان الشعر يخلق بجناحين من الخيال فقد حُق للشعراء أن ينطلقوا مع خيالهم فينسبوا شعرهم إلى قوى وراء حسهم . وتَصَوَّرُهم هذه القوى شياطين ألصق بالخيال وأدنى إلى الشعر من التحليل النفسى الذى يرجع الإنتاج الأدبى إلى العقل الباطن للشاعر ، أى إلى الشاعر نفسه .

لست بهذا أهيم مع الشعراء ، وأجحد حقائق العلم ، وإنما أقرر أن الشعراء كانوا موفقين فى تخيلهم وفى دعواهم أن شياطينهم تلهمهم أو تملى عليهم .

(٥) الزجر والعيافة

ما الزجر ؟ بم تشاءموا ؟ بم تفاملوا ؟ إنكار كثير منهم للزجر

١ — الزجر والعيافة أن تعتبر بأسماء الطير ومساقطها وأنوائها فتتسعد أو تتشامم ، والعائف المتسكن بالطير أو غيرها ^(٢) .

(١) كيف يعمل العقل . سرل برت ٢/٢١٨ - ٢٢٠ (٢) القاموس المحيط مادة عاف .

وقد شاع في العرب زجر الطير والوحش وإثارتها ، فما تيامن منها سموه سانحا ، وما تياسر سموه بارحا ، وما استقبلهم فهو الناطح ، وما جاء من خلفهم فهو القعيد .
واختلفوا في تفاؤلهم وتشاؤلهم بها ، فمنهم من يتشائم بالبارح لأنه لا يمكن رميه إلا بالانحراف إليه ، ويتبرك بالسانح . ومنهم من يرى عكس ذلك ^(١) . قال عمرو ابن العلاء : « سأل يونس رؤية بن العجاج : ما السانح ؟ قال : ما ولاك ميامنه . وما البارح ؟ قال : ما ولاك مياسره » ^(٢) .

وحكى أبو عبيدة عن رؤية أن البارح ما جاء من ميامنك إلى مياسرك فولاك مياسره . والسانح ما جاء من مياسرك فولاك ميامنه ^(٣) .
ونقل عن المفضل الضبي أن البارح ما يأتيك من يمينك إلى يسارك ، والسانح ما يأتي من يسارك إلى يمينك ^(٤) .

وإنما اختلفوا في الاصطلاح لأن الزجر وهم وخراقة تابع للمصادفة البحت ، فمن زجر طيراً وقضى لبائته تفاءل باتجاهها ، ومن لم يقض حاجته تشائم بهذا الاتجاه نفسه .
قال ابن دريد : أهل نجد كانوا يقيمون بالسانح ويتشائمون بالبارح . وأهل العالية على عكسهم . وقال أبو جعفر النحاس : السنيح عند أهل الحجاز ما أتى من اليمين إلى اليسار ، والبارح عندهم ما أتى من اليسار إلى اليمين ، وهم يتشائمون بالسانح ويقيمون بالبارح ، وأهل نجد بالضد من ذلك والسانح عند أهل نجد هو البارح عند أهل الحجاز ، وقال المبرد : السانح ما أراك مياسره فأمكن الصائد ، والبارح ما أراك ميامنه فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له ^(٥) .

ب — وأصل التطير من الطير إذا مر بارحا أو سانحا أو رآه يتفلى ويفتف ، ثم صاروا إذا رأوا الأعور من الناس والبهائم ، أو الأعضب أو الأبر زجروا

(١) مفتاح دار السعادة لابن القيم (٢) العمدة ٢٠٣/٢
(٣) الأغاني ١٥٧/٩ ساسي (٤) بلوغ الأرب ٣١٨/٣
(٥) العمدة ٢٠٣/٢ والأغاني ١٥٧/٩ ساسي

عند ذلك وتطيروا كما تطيروا من الطير إذا رأوها على تلك الحال ، فزجر الطير هو الأصل ، ومنه اشتقوا التطير ، ثم استعملوه في كل شيء (١)

فهم إذا بدموا بالطير ثم انتقلوا إلى غير الطير من الحيوان ، ثم جاوزوا الحيوان إلى ما يحدث في الجماد من كسر أو صدع مثلاً (٢) .

وليس في الأرض بارح ولا نطيح ولا قعيد ولا أعضب ولا شيء مما يتشاهمون به إلا والغراب عندهم أنكد منه ، وأبشع إخباراً ، وأشنع أخباراً ، فلماذا خصوا الغراب بهذا ؟

لعل سبب ذلك أمور راجعة إلى لونه ، وإلى عمله ، وإلى اسمه ، ونستطيع أن نستنبطها من قول الجاحظ : « وتطيروا بالغراب إذا كان أسود ، ولاختلاف لونه إن كان أبقع ، ولأنه غريب لا ينقطع إليهم ، ولأنه لا يوجد في موضع خيامهم يتقعم إلا عند مباينتهم لمساكنهم ومزايلتهم لدورهم ، ولأنه ليس شيء أشد على ذوات الدبر من إبلهم من الغربان ، ولأنه ينقب عن الدبر حتى يبلغ إلى دابات العنق وما اتصل بها من خرزات الصلب وفقار الظهر » (٣) . وقد بسط ولوعه بنقر قروح الإبل في موضع آخر إذ يقول إن العرب تسمى الغراب ابن دابة ، « لأنه إذا وجد دبرة في ظهر البعير أو قرحة في عنقه سقط عليها ونقره وعقره حتى يبلغ الدابات ، وإذا كان في ظهر البعير دبرة غرزوا في سنامه إما قوادم نسر أسود وإما خرقة سوداء لتفزع الغربان منه ولا تسقط عليه . وقد يوضع الريش علامة للجمال الملوك » (٤)

وأشار إلى التشاؤم باسم الغراب بقوله إن اسمه قد اشتقت منه الغرابة والاعتراب والغريب (٥) .

(١) الحيوان ١٣٥/٣ (٢) صبح الأعشى ٣٩٩/١

(٣) الحيوان ١٣٦/٣ الأبقع : الذي فيه بقع كالبلق في الدابة . الدبر : جم دبرة ومى القرحة .

دابات العنق : فقراته (٤) الحيوان ١٢٩/٣ (٥) الحيوان ١٣٥/٣

لهذا جعلوا الغراب مثلاً في الشؤم ، حتى إنهم إذا ذكروا غيره ذكروا الغراب معه ، وقد يذكرون الغراب وحده ، وهم يتشاءمون بغيره من وجه واحد ، أما هو فكثير المعاني في هذا الباب ، فهو المقدم في الشؤم ^(١) .

وبلغ من بغضتهم له أن تحرزوا من التصريح باسمه ، فكثروا عنه بالأعور مع أنه مشهور عندهم بقوة الإبصار وصفاء العين ، فيقال : « أصح بدنا من غراب ، وأبصر من غراب ، وأصفى عينا من غراب » ^(٢) .

وقد أكثر الشعراء من ذكر تشاؤمهم بنعيه وشجيجه ، قال عنتره إن الغراب الأبقع قد أنذرته بين أحبابه ، وإنه غراب كرية المنظر منسول الريش مولع بتفريق الأحبة ، فكان فكيه مقص يقطع الأواصر :

ظعن الذين فراقهم أتوقع	وجرى بينهم الغراب الأبقع
حرق الجناح كأن لحى رأسه	جلان . بالأخبار هش مولع
فزجرته ألا يفرخ طيره	أبدأ ويصبح خائفا يتفجع
إن الذين نعبت لي بفراقهم	هم أسهروا ليلي التمام فأوجعوا ^(٣)

وتوجس زهير أن يرتحل عنه أحباؤه لما سمع نعي الغراب :

ألقى فراقهم في المقاتين قذى
أمسى بذاك غراب البين قد نعقا
وكذلك توجس النابغة :

زعم العواذل أن رحلتنا غدا وبذاك تنعاب الغراب الأسود ^(٤)

وبقى التشاؤم بالغراب إلى ما بعد الإسلام ، وما زال الناس يتشاءمون به وباليوم إلى اليوم ، قال عمر بن أبي ربيعة :

نعب الغراب بين ذات الدملج ليت الغراب بينهما لم يشحج ^(٥)

(٢) الحيوان ٣/١٣٠

(١) الحيوان ٣/١٣٧

(٣) ديوان عنتره ١٠٣ والحيوان ٣/١٣٦ . حرق الجناح : منسول الريش متقطعه . الاحيان :

جانبا الوجه . الجلم : المقص الكبير . يفرخ : تصير له فراخ (٤) الأغاني ٩/١٥٧ ساسي

(٥) يشحج : يصوت . يقال شحج الغراب إذا غلظ صوته لسكبه سنه .

وقال جرير :

إن الغراب بما كرهت لمولع بنوى الأحية دائم التشحاج

ليت الغراب غداة ينعب دائباً كان الغراب مقطع الأوداج

على أنهم تشاءموا بطيور أخرى ، منها الجراد ، لأن فيه معنى الجرد ، ولأنه ذو ألوان ^(١) ، والجرد من معانيه القحط والمنع والتعرية والبلى ^(٢) . وسندكر قصة النابغة وصاحبه لما خرجا للغزو فسقطت جرادة على أحدهما فتطير ورجع ، ولم يعبا الآخر فغنم وعاد .

وقد يتطيرون بالبازي والغراب والرَّخَم والبوم ، وأشياء كثيرة من جهة التسمية وقيم بها آخرون ^(٣) .

وكذلك تشاءموا ببعض الحيوان كالثور الأعضب — المكسور القرن — والأبتر — المقطوع الذنب — والقعيد — ما أتاك من ورائك من ظبي أو طائر — والنطيح ما استقبلك من أمامك من طائر أو ظبي أو وحش ^(٤) .

قال الرَّماح بن أبرد :

جرى بأنيتاتِ الجبل من أم جَحْدَرٍ ظباءٌ وطير بالفراق نَعُوبٌ ^(٥)
وهذه حادثة تاريخية تنبئ عن تشاؤمهم بالكلاب ، ذكر الطبري أن السيدة عائشة سارت إلى البصرة لتشارك في موقعة الجمل ، فلما مرت على ماء الخوِرب نبحتها كلابه ، فقالت هي ومن معها : أي ماء هذا ؟ فقيل لها : ماء الخوِرب . فصرخت السيدة عائشة بأعلى صوتها ، ثم ضربت عضد بغيرها فأناخته ، ثم قالت : « أنا والله صاحبة كلاب الخوِرب ، طُروقا رُدوني ، تقول ذلك ثلاثاً . فأناخت وأناخوا حولها وهم على ذلك وهي تأتي ، فغالطوها وقالوا لها إنه ليس ماء الخوِرب ، حتى كان الغد

(١) الحيوان للجاحظ ١٣٦/٣
(٢) القاموس المحيط مادة جرد
(٣) العمدة ٢٠٣/٢
(٤) الخمص لابن سيده مواد الكلمات
(٥) الأغاني ٢٧٣/٢

جاءها ابن الزبير فقال : النجاة النجاة ، فقد أدرككم والله على بن أبي طالب ، فارتحلوا ^(١) ويظهر أن العرب كانوا يتشاءمون بكلاب الحووب إن نبحتهم ، ويتفاملون بها إن لم تنبحتهم ، وظل وهمهم هذا إلى ظهور الاسلام .

وأشركوا النبات مع الطير والحيوان ، فتشاءموا بالغرب - شجرة حجازية ضخمة شائكة - والبان ، والخلاف - الصفصاف - ولعل السبب أنهم ربطوا بين أسمائها وما تدل عليه مادتها من غربة وبين اختلاف ، وربما نظروا إلى مرارة طعم الريحان - وهم يتفاملون بالريحان - فتشاءموا به ^(٢)

ولم يقف تشاؤمهم عند هذا ، فإنهم تشاءموا ببعض الأحداث . فإذا انكشف من المرأة إناء وصُب ما فيه تشاءمت واستعاذت من ذلك بقولها : دافقُ خير . وتشاءموا بالعطاس ، قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى قبل العطاس بهيكل شديد منيع الجنب فعم المنطق

يقول إنه يبكر قبل أن يستيقظ الناس ، حتى لا يسمع عطاسهم فيتشاءم ويخيب . وإذا استمع أحدهم عطاسا لا يعرفه ، قال : بكلامي أسأل الله أن يجعل شؤمك بك لابي ^(٣) .

ح - ولهم ضروب من التفاؤل أسلفت بعضها في أول الفصل ، على أنهم تفاملوا بالهدد إلى أبعد حد ، لأنهم زعموا أنه كان يهدى سليمان عليه السلام إلى مواضع الماء في أعماق الأرض ، وزعموا أن الله تعالى آثره بالقنزة التي على رأسه مشوبة له على بره بأمه ، لأنها لما ماتت جعل قبرها على رأسه ، فهذه القنزة عوض عن تلك الوهدة ، ويروون قصيدة في ذلك لامية بن أبي الصلت أو غيره ^(٤) .

و - ولكن الزجر لم يكن ضربة لازبة يدين به جميع الناس ، فإنه وهم لا يستند

(١) تاريخ الطبري ١٧١/٥ ومعجم البلدان ٣٠٦/٣

(٢) الحيوان للجاحظ ١٤٢/٣

(٣) بلوغ الأرب ٣٦٦/٢ (٤) الحيوان للجاحظ ١٦٠/٣

إلى منطق الحوادث والعقل . لذا ندد به كثير من الشعراء ، وسفهبوا المتشائمين خاصة ، لأن التشاؤم يدعو إلى الكف والإحجام ، أما التفاؤل - على أنه وهم أيضا - فإنه يدعو إلى الإنجاز والإقدام .

قال المرقم :

لا يَمْنَعَنَّكَ مِنْ بُغَا الطير تعقيد التمام
لا والتشاؤم بالعطا س ولا التيمن بالمقاسم
ولقد غدوت وكنت لا أغدو على واق وحاتم
فإذا الأشائم كالآيا من والآيا من كالأشائم^(١)

ونصح أفنون بن صريم التغلبي من يزعم الرحلة ألا يثنيه زاجر الطير ، ولا يعوقه الغراب ولا الوعول الآتية من الخلف :

يا أيها المزمع وئشك النوى لا يثنيك الحازي ولا الشاحج
ولا وعول نجشت كدسا خارجها من غمرة والجب^(٢)

وافخر ربيعة بن مقروم بأن مقادته إلى الله ، فلا يثنيه طير سانح ، ولا يعوقه غراب ، وهو على مذهب أهل العالية في تشاؤمهم بالسانح

أصبح ربي في الأمر يرشدني إذا نويت المسير والطلبا
لا سانح من سوانح الطير يثني في ولا ناعب إذا نعبا^(٣)

ويشاركه لييد في إيمانه بالقضاء والقدر ، وأن الغيب مفاتيحه بيد الله وحده :

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصا ولا زاجرات الطير ما الله فاعل^(٤)

ولم يقتصر بعضهم على إنكار التطير ورفضه ، بل زادوا على جحدهم له أنه

(١) حماسة البحرى ٢٥٥ والأغانى ١٥٧/٩ ساسى . المقاسم من يقاسمك . الواقى : الصرد وهو طائر ضخم الرأس . الحاتم : الغراب . ويروى حاتم وهو الطير .

(٢) حماسة البحرى ٢٥٦ ورواها الجاحظ للبحار بن حلزة في الحيوان ١٣٩/٣ الحازي : زاجر الطير . الشاحج : المراد به الغراب نجشت : ثارت . كدسا : جمع كادس وهو الذى يجىء من الخلف والعرب تشاءم به . غمرة : جماعة الظباء والوعول ، يعنى أن الذى يتخلف عنها يدركها سريعا فيلج فيها لأنه عداء

(٣) حماسة البحرى ٢٥٧ (٤) بلوغ الأرب ٣/٣٢٧

شؤم على من يعتقده ، لأنه إن لم يعوقه عن طيته يزعرع ثقته ويلبل عقله ، قال
علقمة بن عبدة :

ومن تعرض للغربان يزرها على سلامته لا بد مشؤم^(١)

وروى أن النابغة خرج هو وزبان بن منظور الفزاري للغزو ، فسقطت جرادة
على النابغة فتطير وعاد ، وأما زبان فمضى فظفر وغنم ، فقال :

تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا طِيرَ إِلَّا عَلَى مَطِيرٍ ، وَهِيَ الثُّبُورُ

بلى ! شيء يوافق بعض شيء أحايينا ، وباطله كثير
يقولها في جملة أبيات لا أقف على جملتها^(٢).

وقد ذكر الجاحظ هذه الأبيات في البيان والتبيين ونسبها إلى زبان بن سيار بن
عمرو بن جابر ، ولم يشر إلى قصة النابغة ، ولكن البيت الأول فيه اسمه (زياد) :

تَخَبَّرَ طَيْرُهُ فِيهَا زِيَادٌ لَتَخْبِرُهُ ، وَمَا فِيهَا خَيْرٌ

أَقَامَ كَأَنَّ لِقَامَ بْنَ عَادٍ أَشَارَ لَهُ بِحِكْمَتِهِ مَشِيرٌ

تَعَلَّمْ أَنَّهُ لَا طِيرَ إِلَّا عَلَى مَطِيرٍ وَهُوَ الثُّبُورُ

بلى شيء يوافق بعض شيء أحايينا وباطله كثير

وَمَنْ يُنَزِّحْ بِهِ لَا بَدَّ يَوْمًا يَجِيءُ بِهِ نَعِيٌّ أَوْ بَشِيرٌ^(٣)

ولكنه في كتاب الحيوان ذكر قصة النابغة وزبان ، وأن الجرادة وقعت على
النابغة أو على زبان ، وأورد الأبيات^(٤)

وفي هذه الأبيات معنى جديد هو أن الطير لا أثر لها في خيبة أو نُجْح ، وما هي
إلا مصادفات في بعض الأحيان ، والمصادفة ليست سببا ولا علة .

وهذا عوف بن عطية بن الحُرْع التيمي لا يعبا بالطير ، يقول إنهم يقصدون
البلاد ليهجموا وليغنموا غير متوجسين من طير شرأحيثا اتجهت وكيفها طارت ،
سيان عندهم السانح منها والبارح :

(١) المفضليات ١٠١/٢ (٢) العمدة ٢٠٢/٢ وربيع الأبرار للزخشري ورقة ١٢٣ مخطوط

(٣) البيان والتبيين ١٨٤/٣ والهوامل والشوامل (٤) الحيوان ١٣٨/٣

نَوْمُ البلاد لحب اللقاء ولا نَتَقَى طائراً حيث طارا
 سنيحاً ولا بارحاً إن جرى ونرجو هناك بهن اليسار^(١)
 وافترحاتهم بن عدى بأنه ذو عزيمة قوية لا يثنيه عن قصده صُرد ولا غراب :
 وليس بهيب إذا شد رحله يقول عداني اليوم واق وحاتم^(٢)
 وكان من الطبيعي أن يكون شعراء الإسلام أكثر تنديداً بالزجر والزاجرين ،
 لأنه يفتر العزائم ، ويعوق عن الأعمال ، ويكل الغيب إلى غير الله تعالى علام الغيوب .
 ومن أطف ما قيل أبيات لأبي الشيص يرى فيها الغراب من الطيرة ، ويقول إذا
 كان الناس يتطيرون منه لأن اسمه قريب من الغربة فأولى بهم أن يتطيروا بالإبل ،
 لأنها مطايا الغربة والفرقة :

الناس يَلْحَوْنَ غرا ب البين لما جهلوا
 وما على ظهر غرا ب البين تَطْوِي الرُّحْلَ
 ولا إذا صاح غرا ب في الديار احتملوا
 ما فرق الأحباب بعد د الله إلا الإبل
 وما غراب البين إلا ناقة أو جمل^(٣)

وكذلك فعل شعراء إسلاميون كثيرون منهم السكيت ، فهو على خبرته بعادات
 العرب وعقائدهم لم يحارهم في تشاؤمهم :

ولا أنا ممن يزجر الطير هُمه أصاح غراب أم تعرض ثعلب
 ولا الساعات البارحات عشية أمر صحيح القرن أم مرأعضب^(٤)

ومنهم ضابي بن الحارث ، فقد أعلن أن الإنسان قد يتوجس شراً من أمر
 لا ضير فيه ، والرجل الذي يوطن نفسه على تحمل رزايا الدهر إنما هو رجل
 ضعيف العزيمة :

(١) معجم الشعراء ٢٧٦ (٢) الجوان ١٣٠/٣ حاتم : هو الغراب . الوافي : الصرد

(٣) العمدة ٢٠١/٢ الرجل : جمع رحلة بضم الراء وكسرهما

(٤) العمدة ٢٠٢/٢ ونسبهما الألويسي إلى ضابي بن الحارث البرجي ٣٢٧/٣

وما عاجلات الطير تُدنى من الفقى نجاحا ولا عن ريشهن يخيب
 ورب أمور لا تُضيرك ضيرة وللقلب من مخشاتها وجيب
 ولا خير فيمن لا يوطن نفسه على نائبات الدهر حين تنوب^(١)
 والمراد بعاجلات الطير تلك التي تمر أمام الزاجر أول ما يبصر ، فإن أبطأت
 عليه وزجرها فقد راثت ، والأول محمود والثاني مذموم .

(٦) عقر الإبل على القبور

كانوا يعقرون على قبر الميت ، واختلف في الباعث على العقر ، قال ابن السيمد
 فيما كتبه على الكامل للبرد : قال قوم إنما كانوا يفعلون ذلك مكافأة للميت على ما كان
 يعقره من الإبل في حياته لضيفانه ، واحتجوا بقول زياد الأعجم يرثي المغيرة بن المهلب
 (وقيل إن الشعر للصاتان العبدى) .

فإذا مررت بقبره فاعقر به كوم الجِلَاد وكلَّ طَرْفٍ ساج
 وانضح جوانب قبره بدمائها فلقد يكون أخا دم وذباح^(٢)

وقال آخرون إنما كانوا يفعلون ذلك إعظاما للميت كما كانوا يذبحون للأصنام .
 وقيل إنهم فعلوه لأن الإبل كانت تأكل عظام الموتى إذا بليت ، فكأنهم يثأرون لهم
 منها ، وقيل إن الإبل أنفس أمواتهم فكانوا يريدون بعقرها أنها قد هانت عليهم لعظم
 المصيبة . وقد أبطلت الشريعة ذلك بحديث : لا عقر في الإسلام . .
 وأنا أميل إلى أن العقر كان تسكريما للميت ، وإشهاراً لفضله بين الناس ، وتباهياً
 بما نحر بنوه على قبره من ذباح لإطعام الفقراء ، وإذا كانوا قد تياسروا لتوزيع لحم

(١) تهذيب السكامل للبرد ٢٥٨/٢ وبلوغ الأرب ٣٢٦/٣ والأصمعيات من مجموع أشعار العرب نشرها

وليم بن الورد البروسى ١٦

(٢) السكامل وحاشية الخالدين ٣٩٨ مخطوط ومرات وأشعار ليزيدى . مخطوط بمعهد المخطوطات .

الذبايح على المحاويج ، فهم يعقرون على القبور لإطعام المحاويج ، ثم لم يكن الذبح موقوفاً على النوق ، بل كانت تذبح الخيل أيضاً ، والبيت الأول لزياد الأعجم مع أنه في العصر الاسلامي يقرر هذا .

ولعل هذا الفرض الذي ذهبت إليه هو الذي حمل جريبة بن الأشيم الفقعسي أن يوصي ابنه أن يعقر على قبره ، ودعا عليه أن يفتقر إن لم يعقر :

إذا مت فادفني بحراً ، ما بها سوى الأصرخين ، أو يفوز ركب
فإن أنت لم تعقر على مطيتي فلا قام في مال لك الدهر حالب
ولا تدفني في صووى ، وادفني بديمومة تنزو عليها الجنادب
ويظهر أن النوق كانت تتهيب الذبح إذا مارأت قبراً ، لأنها نظرت غيرها يذبح عليه أولانها تتهيب الدم ، أو أن الشاعر تخيل هذا وصوره ، قال شاعر مرة على قبر ربيعة بن مكدم :

نقرت قلوصى عن حجارة حرّة بُنيت على طلق اليدين وهوب
لا تنفري يانا منى ، فإنه شريب خمر ، مسعر لحروب
لولا السفار وبعد خرق مهمه لتركتها تحبو على العرقوب^(١)

ويعزز هذا التعليل أن بعض الناس مازالوا إلى اليوم يعقرون الذبايح على عتبة الدار أو على المقبرة ، ويوزعون اللحم على الفقراء ، ثم إن الرعاة في أريتريا إذا مروا بمقابر أقاربهم حلبوا البقرة وألقوا ببعض لبنها على القبر ذاكرين اسم الراحل .^(٢)

(٧) الهامة والصدى

وهذه خرافة مبعثها ولوعهم بالثأر ، وأى تحريض على الثأر أقوى من زعمهم أن القتل الذى لم يؤخذ بثأره يخرج من هامته طائر يسمى الهامة ، فلا يزال يقول :

(١) العقد الفريد ١٣٦/١ نسب هذا الشعر إلى حفص بن الأخيف وإلى عمرو بن شقيق وإلى كرز ابن حفص بن الأخيف وفي الأغاني ١٢٦/١٤ ساسى أن الشعر لرجل من بني الحارث بن فهر . أو لضرار ابن الخطاب بن مرداس أحد بني مغارب بن فهر أو لحسان بن ثابت أو لكرز بن حفص بن الأخنف وفي تهذيب السكامل ٢٥٨/١ أنه لحسان بن ثابت (٢) في بلاد النجاشي الدكتور كامل مراد ٨١ سلسلة أقرأ

اسقوني اسقوني ، حتى يقتل قاتله فيسكن ؟^(١).

ويقول المسعودي : إن من العرب من يزعم أن النفس طائر ينسط في الجسم ، فإذا مات الإنسان أو قتل لم يزل بطيف به مستوحشاً يصدح على قبره ، ويزعمون أن هذا الطائر يكون صغيراً ، ثم يكبر حتى يكون كضرب من البوم ، وهو أبداً مستوحش ، ويسكن في الديار المعطلة ومصارع القتلى والقبور ، وأنها لم تزل عند ولد الميت لتعلم ما يكون بعده ، فتخبره به^(٢).

قال شداد بن الأسود بن عبد شمس في رثاء كفار قریش يوم بدر :
يخبرنا الرسول بأن سنحيا وكيف حياة أصداء وهام ؟
وقال أبو دواد الإيادي :

سلط الموت والمنون عليهم فلم في صدى المقابر هام^(٣)
وقال شاعر لابنه يوصيه أن يثار له إن قتل حتى لا تنادي هامته بالسقيا ، لأن
أى عطش إنما هو بأبيه لا بالهامة ، وإهمال الثأر مصيبة كبرى يبيض الرأس منها :
ولا تزقون لي هامة فوق مَرَحَبٍ فَإِنَّ زُقَاءَ الهام للرم عائب
تنادي : ألا اسقوني ، وكل صدئى به وتلك التي تبيض منها الذوائب
وقال ذو الاصبع العدواني مهدداً ابن عمه المبعض له :

يا عمرو إلا تدع شتمى ومنقصتى أضربك حيث تقول الهامة اسقوني^(٤)
واستعطف عبيد بن الأبرص حُجراً لما طرد بنى أسد إلى تهامة بقصيدة قال فيها
إن الوديان ملاء بتوجيع المنكوبين وآهات المحروقين وأصوات الهام :
في كل واد بين يث رب فالقصور إلى اليمامة
تطريب عانٍ أو صيا ح محرق أو صوت هامة^(٥)

(٣) مروج الذهب ٢٥١/١

(٢) مروج الذهب ٢٥١/١

(١) الأمل ١٢٩/١

(٤) المفضيات ١٥٨/١ والأمل ١٢٩/١

(٥) ديوان عبيد القصيدة ٢٩

وقد عَيَّرُوا بترك الثَّأر ، وعبروا عن ذلك بأن الهامة تطالب بثأر القَتِيل ،
قال مُغَلِّسُ الفَقْعَسِي :

وإن أخاكم - قد علمتُ مكانه بسفح قُبا - تَسِفِي عليه الأعاصِر
له هامة تدعو إذا الليل جنها بنى عامر هل للهلالى ثائر؟^(١)
أما الصدى فمن معانيه أنه طائر يخرج من رأس القَتِيل إذا بلى ، كما يزعم العرب^(٢) ،
ويظهر أنهم أطلقوه على غير القَتِيل فيما بعد كما يتضح من النصوص .
قال حاتم :

أماوى إن يصبح صداى بقفرة من الأرض لا ماء لدى ولا خمر
ترى أن ما أنفقت لم يك ضررى وأن يدى مما بخلتُ به صِيفر^(٣)
وقد ظل هذا من تخيلات العرب بعد الإسلام ، مما يدل على أصالته فى نفوس
العرب ، قال توبة :

ولو أن ليلي الأخيلى سلمت على ودونى جندل وصفائح
لسلمت تسليم البشاشة أو زقا إليها صدئى من جانب القبر صائح
وقال قيس بن الملوِّح :

ولو تلتقى أصداؤنا بعد موتنا ومن دوننا رمس من الأرض أنسكب
لظل صدئى رمسى - وإن كنت رمة - لصوت صدئى ليلي يهشُّ ويطرب
وقال جميل بن معمر :

يهواك ما عشتُ الفؤاد فإن أمت يتبع صداى صداك بين الأقبر
وذكر الجاحظ أن الصدى طائر يخرج من قبر الميت فينعى إليه ضعف وليه
وعجزه ، وهذا كانت العرب تقوله فى الجاهلية ، وأورد للنمر بن تولب :

(١) المرأة العربية ١٣٣/١ قبا : موضع قرب المدينة وآخر بين مكة والبصرة

(٢) القاموس المحيط مادة صدى (٣) شعراء النصرانية ١١٠

أعاذل إن يصبح صدای بقفرة بعيداً فآتى صاحبي وقربي
ترى أن ما أبقيت لم أك ربّه وأن الذي أنفقتُ كان نصيبي^(١)

(٨) شق الرداء لتقوية الحب وتأكيده

وكانوا يزعمون أن المتحايين إذا شق كل واحد منهما ثوب صاحبه دامت مودتهما ولم تفسد . وقال أبو عبيدة : كان من شأن العرب إذا تجالسوا مع الفتيات للتغزل أن يتعابثوا بشق الثياب لشدة المعالجة عن إبداء المحاسن . وقيل : إنما يفعلون ذلك ليذكر كل واحد منهما صاحبه به ، وقال العيني : كانت عادة العرب في الجاهلية أن يلبس كل واحد من الزوجين برد الآخر ثم يتداولان على تخريقه حتى لا يبقى فيه لبس طلباً لتأكيد المودة .^(٢)

وأيا ما كان الباعث على هذا الشق العجيب فإن شعرهم قد صورته ، ونستطيع أن نفسر به قول عبد يغوث بن الحارث :

وأنحر للشرب الكرام مطيتي وأصدع بين القينتين ردائي^(٣)

فهو في القصيدة يتحسر على حرّيته المسلوّبة وماضيه الجميل السعيد ، فيقول إنه كان ينحر مطيته للندامى ويوطد حبه للبخيتين اللتين تطربانه ؛ على أنا نستطيع أن نذهب مذهبا آخر هو أنه جيشاش الشعور طروب ، إذا ما سمع غناء القينتين شق رداءه إعجاباً وفورة .

وبقى هذا الوهم إلى ما بعد العصر الجاهلي ، فهذا سحيم عبد بن الحسحاس يشير إلى شق الرداء والبرقع وإن كان يشك في نفعه :

فكم قد شققنا من رداء منيرٍ على طفلة ممكورة غير عانس

(٢) خزانة الأدب . البغدادى ٣٨١/١

(١) التبيين ٢٣٢/١

(٣) المفضليات ١٥٦/١

إذا شُقُّ برد شق بالبرد برقع دوايك حتى كلنا غير لابس
 نروم بهذا الفعل بُقياً على الهوى وإلف الهوى يُغري بهذى الوسوس^(١)
 وعجب شاعر آخر من فتور الحب وزواله بعد ما شق برقع حبيبته وشقت رداه :
 شققت رداي يوم بُرقة عاج وأمكنني من شق برقعك السحقا
 فما بال هذا الود يفسد بيننا ويمحق حبل الوصل ما بيننا محقا^(٢)

(٩) وطء المقللة دم الشريف

زعموا أن المرأة التي لا يعيش لها ولد إذا وطئت دم الشريف عاش ولدها ، أو
 هو خاص بالشريف القتل^(٣) سواء قتل غدرأ أو قودأ ، وقال ابن الأعرابي :
 يمرون به ويطنون حوله ، وقال أبو عبيدة : تمخطاه المقللة سبع مرات ، وهذا معنى
 وطئها له^(٤) . وشبهه به ما تفعله بعض النساء الجاهلات في مصر من تخطين القتل
 للبرء من العقم .

قال بشر بن أبي خازم :

تظل مقاليت النساء يطأنه يقلن : ألا يُلقَى على المرء مئزرُ
 وقال الكميث متأثراً بهذه العقيدة ، أو لعلها ظلت إلى عهده ، في مدحه الحسين
 ابن علي عليهما السلام :

وتطيل المرزآت المقالي ت إليه القعود بعد القيام
 وقال آخر :

تركن الشعثمين برمل خبت تزورهما مقاليت النساء
 وقال آخر :

بنفسى الذى تمشى المقاليت حوله يطأن له كشحاً هضياً مهُشاً

(١) خزانة الأدب ٣٨٢/١ وريبع الأبرار للزنجشري ورقة ٣٦ مخطوط بمكتبة تيمور

(٢) صبح الأعشى ٤٠٦/١

(٣) السحفي : الرقيق

(٤) بلوغ الأرب ٣٥١/٢

وقال آخر :

تباشرت المقاتل حين قالوا ثوى عمرو بن مرة بالحفر

(١٠) تعليق الحلى والجلال على اللديغ

كانوا يعلقون الحلى والجلال على اللديغ ، زاعمين أنه يفيق ، وذلك لأنهم أرادوا شغله بصلصالها حتى لا ينام فيسرى السم فيه فيهلك على زعمهم ، قال القتيبي : كانوا يجعلون الحلى في يد الملدوغ ويحركونها لئلا ينام فيدب فيه السم ، وقيل لبعض الأعراب : أتريدون أن يسهر ؟ فقال : إن الحلى لا تسهر ، ولكنها سنة ورثناها (١) أو لأنهم زعموا أن حلى الذهب تبرئه ، وحلى الرصاص أو الرصاص يميته . قال عويمر النبهاني :

فبت معنى بالهموم كأننى سقيم نفى عنه الرقاد الجلال
وقال آخر :

كأنى سليم سهد الحلى عينه فراقب من ليل التمام السكواكبا (٢)
وقال النابغة :

فبت كأنى ساورتنى ضئيلة من الرقش فى أنيابها السم ناقع
تسهد من نوم العشاء سليمها حلى النساء فى يديه قعاقع (٣)

وشبه بعض بنى عذرة أثر الحب فى نفسه بالسليم المحلى :

كأنى سليم ناله كلم حية ترى حوله حلى النساء موضعا
وازدري بعضهم هذه العقيدة فقال :

وقد عللوا بالبطل فى كل موضع وغرّوا كما غرّ السليم الجلال

وأشار بعض الشعراء الإسلاميين إلى هذه العادة ، قال جميل إذا كان الحلى يبرى

(١) بلوغ الأرب ٣٣٦/٢

(٣) المخصص ٤/١٤

(٢) ليل التمام : ليل الشقاء الطويل

اللدیغ فإن حلیك سقام لی ، یرید أن زینتها وجمالها وحلاها تزیده بها تیا :
إذا ما لدیغ أبرأ الحلی داه فلیك أمسی یا بثینة دائیا

(١١) إذا خافوا دخول قرية

زعموا أن الرجل إذا أراد دخول قرية نخاف جنبها أو وباءها فوقف على مدخلها
وعشر - نهق عشرا - كما ينهق الحمار ثم دخلها لم يصبه شيء (١) ، وزاد الألوسي :
ثم علق عليه كعب أرنب كان ذلك عوذة له ورقية من الوباء والجن ، (٢) .

وروا أن عروة بن الورد خرج في رفقة إلى خيبر ليمتاروا ، فلما قربوا منها
عشروا ، واستنكف عروة أن يفعل فعلهم ، وقال :

وقالوا احب وانق لا تضرك خير وذلك من دين اليهود ولوع

لعمري لئن عشت من خشية الردى نهاق الحمار إنني لجزوع (٣)

ورأى شاعر آخر أن التعشير وغيره لا ينجى من القضاء .

ولا ينفع التعشير في جنب جرمة ولا دعدع يغني ولا كعب أرنب (٤)

ومثله قول الآخر :

لا ينجينك من حمام واقع كعب تعلقه ولا تعشير

(١) صبح الأعشى ٤٠٨/١ والحيوان للجاحظ ٣٥٨/٦ طبعة هارون

(٢) بلوغ الأرب ٣٤٨/٢

(٣) الديوان ٢١ ومعجم البلدان ٣٠٩/٤ والحيوان للجاحظ ٣٥٩/٦ ولوع : كذب . أحب :

(٤) الحيوان للجاحظ ٣٥٨/٦ نشره هارون . الجرمة : القطعة من النخل . دعدع :
من حبا يحبو كلمة كانوا يقولونها عند العثار

(١٢) إذا ضلوا في فلاة

وكانوا على دربتهم ، وبصيرتهم بالصحراء قد يضلون ، فإذا ضل الرجل في فلاة قلب قميصه ، وصفق بيديه كأنما يومئ إلى إنسان ليهديه .^(١)

ولم يذكر أحد تعليلاً لهذا العمل ، ولعل منشأه أن الرجل يريد أن يسلي نفسه بسماع صدى يديه ، أو يتوهم أن إنساناً يسمع تصفيقه فيسرع إليه ليعينه .

وأما قلب القميص فـللتفاؤل بتغير الحال ، وقد جاء نحوه في الشريعة الإسلامية في الاستسقاء . وقد ذكر القلقشندي أن الرجل كان يحبس ناقته ويصيح في أذنها كأنه يومئ إلى إنسان ، ثم يحركها ويزعم أنها تهتدي إلى الطريق^(٢) ، ولكن الشعر المروى ليس فيه ذكر الناقة ، وإنما فيه قلب الثوب والتصفيق .

قال أعرابي :

قلبت ثيابي والظنون تجول بي وترمي برجلي نحو كل سبيل
فلأياً بلأى ما عرفت جأياً وأبصرت قصداً لم يُصَبْ بدليل

وقال أبو العمّس الطائي :

فلو أبصرتني بلوى بظان أصفق بالبنان على البنان
فأقلب تارة خوفاً ردائي وأصرخ تارة بأبي فلان
لقلت أبو العمّس قد دهاه من الجنان خالعة العنان

وقال الشاعر :

وآذن بالتصفيق من ساء ظنه فلم يذر من أي اليدين جوابها

(١٣) کی السليم ليصح الاجرب

ومن عجائب معتقداتهم أنهم يكونون الجمل السليم ليصح الاجرب .

وقد أكثر الشعراء من التشبيه بهذا العمل الجائر ، قال النابغة :

وكلّفتني ذنب امرئ وتركتهُ كذي العريكوى غيره وهوراتع^(١)
وقال آخر :

فألزمتني ذنبا وغيرى جره حنانيك لا تكو الصحيح بأجربا
وقال بعض الأعراب :

كن يكوى الصحيح يروم برءاً به من كل جرباء الإهاب
ذكر الجاحظ أنهم كانوا إذا أصاب إبلهم العر كواوا السليم ليدفعه عن السقيم
فأسقموا الصحيح من غير أن يبرئوا السقيم^(٢) .
وقال ابن السيد : في هذا الفعل خمسة أقوال :

١ — إنه من أعمال جهال العرب ، كانوا إذا وقع العر في إبل أحدهم اعترضوا
بغير أصحاحا منها فسكوا مشفره وعضده ونخذه ، ويرون أنهم بذلك يبرئون الإبل
من العر ، كما كانوا يعلقون على أنفسهم كعوب الأرانب خشية العطب ، ويفقثون
عين فحل الإبل لئلا تصيبها العين ، وهذا قول الأصمعي وأبي عمرو وأكثر اللغويين^(٣) .

٢ — قال يونس : سألت روبة بن العجاج عن هذا ، فقال : هذا ، وقول الآخر :
كالثور يضرب لما عافت البقر ، شيء كان قديما ثم تركه الناس .

٣ — كانوا يكونون الصحيح لئلا يتعلق الداء به ، لا ليرأ السقيم ، وحكى ذلك
ابن دريد .

(١) حماسة البحتري ٣٥٢

(٢) الجيوان للجاحظ ١٧/١ طبعة هارون

(٣) شرح أدب السكاك وخزانة الأدب للبغدادى ٢٠٩/٢

٤ — قال أبو عبيدة : هذا لم يكن ، وإنما هو مثل لا حقيقة ، أى أخذت البرى وترك المذنب ، فسكنت كمن كوى البعير الصحيح وترك السقيم لو كان هذا مما يكون . قال : ونحو هذا قولهم : « يشرب عجلان ويسكر ميسرة » ، ولم يكونا شخصين موجودين .

٥ — قيل أصل هذا أن الفصل كان إذا أصابه العرُ لفساد فى لبن أمه عمدوا إليها فسكرووها فتبرأ ، ويرأ فصليها ببرئها لأن ذلك الداء سرى إليه من لبنها . فأى هذه التعليلات نرتضى ؟

نعتقد أن رأى الرابع أجودها وأحقها بالموافقة ، فليس بمعقول أن يكوى العرب البعير السليم ليبرأ الأجرب وهم بتجاربهم الكثيرة يعرفون جرائر الجرب ويعرفون علاجه ، ويقون السليم حتى لا تنتقل إليه العدوى .

وإنما هذا مثل لبيان سوء التصرف وعماية الظلم . وقد وافقنى على هذا الشيخ الحجازى الكبير الخبير بحياة البادية وأدبها الشيخ محمد جبر ، وقال إن من أمثالهم إلى اليوم : « يخلط العفراء بالصفراء » ، وليس لهذا المثل حقيقة وإنما هو تخيل لسوء الفعل .

(١٤) ضرب الثور إذا عافت البقر الماء

كانوا إذا أوردوا البقر فلم تشرب إما لسكدر الماء أو لقلة العطش ، ضربوا الثور ليقتمحهم الماء ، لأن البقر تتبعه كما تتبع الشَّوْلُ الفحل ، وكما تتبع أنثى الوحش الحمار . فقال فى ذلك عوف بن الحرّ ع :

تمنت طيء جهلاً وجبنا وقد خاليتهم فأبوا خلائى
هجوئى أن هجوت جبال سلمى كضرب الثور للبقر الظماء
وقال فى ذلك أنس بن مدرك فى قتله سُلَيْك بن السُّلَكَة :

إنى وقتلى سليكا ثم أعقِلَه كالثور يضرب لما عافت البقر

وقال الهيبان الفقى :

كما ضُربَ اليعسوب أن عاف باقر وما ذنبه إن عافت الماء باقر^(١)
ولما كان الثور أمير البقر وهى تطيعه كطاعة إناث النحل لليعسوب سماه باسم
أمير النحل .

وقيل إنهم كانوا يزعمون أن الجن هى التى تصد الثيران عن الماء حتى تمسك
البقرُ عن الشرب حتى تهلك .

وقال فى ذلك الأعشى :

فإنى وما كلفتمونى - وربكم - لأعلم من أمسى أعقَّ وأحوبا
للكالثور والجنى يُضربُ ظهره وما ذنبه أن عافت الماء مشربا
وما ذنبه إن عافت الماء باقر وما إن تعاف الماء إلا ليُضربا^(٢)
كأنه قال : إذا كان يضرب أبدا لأنها عافت الماء فكأنها إنما عافت الماء
ليضرب .

وقال يحيى بن منصور الذُهَلِى فى ذلك :

للكالثور والجنى يضرب وجهه وما ذنبه إن كانت الجن ظالمة
وقال نهشل بن حَرى :

أُتْرِكُ عارضُ وبنو عدى وتغرم دارم وهمُ براء
كدأب الثور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقر الظماء^(٣)
وقال نهشل بن حَرى :

كذاك التور يضرب بالهراوى إذا ما عافت البقرُ الظماء^(٤)

(١) معجم الشعراء ٤٨٩

(٢) حماسة البحتى ٣٥٢ والحيوان ٥٣/٦

(٣) الحيوان للجاحظ ١٨/١ - ٢١ طبعة هارون

(٤) حماسة البحتى ٣٥٣

وعجب النابغة الديباني من أن تلقى عليه جريرة لم يقتربها ، وشبه حاله بحال الثور المظلوم يضرب لأن البقر لا ترد الماء :

أترك معشراً قتلوا هذيلاً وتُعقبنى بما فعلت جذام
كذلك يضربُ الثور المعنى إذا ما عافت البقر الحيام^(١)
وأشار بعض الشعراء إلى دعر البقر من الماء ، وإلى ضرب الثور وهو غير متعص على الورود :

فلا تجعلوني كالبعير وغلها يكسر ضرباً وهو للورد طائع
وما ذنبه إن لم ترد بقراته وقد فاجأتها عند ذاك الشرائع
فهل لذلك من سبب ؟

قيل إنهم زعموا أن الجن تصد البقر عن الماء ، وإن الشيطان يركب قرني الثور ، فسكانهم بضرب الثور يطردون الجن ، ولكنني لا أرتضى هذا التعليل ، وأرى أن البقر - شأنها شأن إناث الحيوان مع ذكرانه - تقتدى بالثور وتحاكيه ، فإذا ورد الماء وردت معه .

وقريب من هذا التعليل قول الشنقيطي : إذا امتنعت البقر من شرب الماء لا تضرب لأنها ذات لبن ، وإنما يضرب الثور لتفزع هي فتشرب ،^(٢) .
ولسكن الذي لا تعليل له ما قيل من أنهم كانوا يضربون الثور بعد ما ورد الماء وشرب لتشرب البقر عند ضربه ، وأرجح أن هذه مبالغة من قصاص العادات أو مجافاة لفهم النصوص .

(١) الوقاية من العين والجن

يتفشى في الأمم البدائية والشعوب الجاهلة ربط المسببات بغير أسبابها الطبيعية ، فيؤمن الناس بالسحر ، ويعتمدون على التائم في جلب النفع ودفع الضرر ، وقد دان

العرب بالتأثم ونوعوها ، قال رفاع بن قيس الأسدي :
أَحَبُّ بِلَادِ اللَّهِ مَا بَيْنَ مَنْعَجٍ إِلَى وَسْلَى أَنْ يَهْصُوبَ سَحَابُهَا
بِلَادُهَا حُلَّ الشَّبَابِ تَمَائِي وَأَوَّلُ أَرْضِ مَسْ جَلْدَى تَرَابِهَا^(١)
ومن تَمَائِمِهِمْ :

١ - تعليق كعب الأرنب :

كانوا يعلقون على أجسامهم كعب الأرنب ، ويعتقدون أنه وقاية من السحر ،
وأن الجن تنفر من الأرنب ، لأنها تحيض^(٢)

قال ابن الأعرابي : « قلت لزيد بن كثوة : أتقولون إن من علق عليه كعب أرنب
لم تقربه جنَّان الدار ولا عُمَّار الحى ؟ قال : إى والله ، ولا شيطان الخناطة ، ولا جار
العُشيرة ، ولا غول القفر ،^(٣) . قال امرؤ القيس :

أَيَا هَنَدَ لَا تَسْكِي بُوْهَةً عَلَيْهِ عَقِيقَتُهُ أَحْسَبًا
مُلْسَعَةً وَسَطًا أَرْبَاعَهُ بِهِ عَسَمٌ يَبْتَغِي أَرْبَا
لِيَجْعَلَ فِي مَسَاقِهِ كَعْبَهَا حَذَارُ الْمَنِيَةِ أَنْ يَعْطَبَا^(٤)

ب - تعليق سن الثعلب وسن الهرة ، وحيض السمرة :

رزعوا أن الصبي إذا خيف عليه نظرة أو خطفة فعلق عليه شيء من هذه سلم ،
وأن الجن إذا رآته لم تقدر عليه ، قالت امرأة تصف ولداً :

كَانَتْ عَلَيْهِ سِنَّةٌ مِنْ هَرَّةٍ وَثُعْلَبٍ ، وَالْحَيْضُ حَيْضُ السَّمَرَةِ^(٥)

(١) الأمل ٨٣/١

(٢) صبح الأعشى ٤٠٦/١ (٣) بلوغ الأرب ٣٥٨/٢ . العمار : الجن التي تسكن مع الناس .
الخناطة : شجر شبيه بالسدر ، أو كل شجر لا شوك له ، أو كل شجر له شوك . العشيرة : تصغير
العشيرة : شجرة جبدة النار (٤) حماسة البحرى ١٨٩ البوهة : الرجل الأحق . العقيقة : غرلة
الصبي وشعر كل مولود من الناس والبهائم . الأحسب : من أبيض جلده من داء فصار أبيض وأحمر وهو
والأبرص . الملسة : المقيم في داره لا يرحلها . العسم : يصب مفصل الرسغ فتعوج القدم والكف
(٥) صبح الأعشى ٤٠٦/١

وتمتد بهم الخرافة إلى زعمهم أن جنية أرادت صدياً فلم تقدر عليه ، فلامها الجن في ذلك ، فقالت تعتذر إليهم :

كان عليه نفرة * ثعالب وهرة

والحيض حيض السمرة^(١)

تعني أنه كان يحمل ما ينفرها من التعرض له .

ح — تعليق الأقدار النجسة :

واعتقدوا أن تعليق الأقدار النجسة وقاية من العين والجن والأرواح الخبيثة ، وأنشدوا للزق العبدى :

ولو كنت في بيت تُسدُّ خصاصه حوالى من أبناء بكرة مجلس

ولو كان عندى حازيان وكاهن وعلق أنجاسا على المنجس

إذا لا تننى حيث كنت منى يحب بها هاد إلى معفرس^(٢)

وزعموا أن التنجيس يشفى إلا من العشق :

يقولون علق — يالك الخير — رمة وهل ينفع التنجيس من كان عاشقاً ؟

ولكن القضاء لا بد واقع ، ولا بد أن يخلف بعض الظنون ، فقد علق امرأة

على ولدها نجساً فلم يقه من الموت :

نجسته لا ينفع التنجيس والموت لا تفوته النفوس

ولم تخل البيئة العربية من عقلاء يسخفون هذه العقيدة ، قال المرقم :

لا يمنعك من بغا ، الخير تعقيد التائم^(٣)

وقال آخر :

ولا ينفع التعشير إن حم واقع ولا ودع يغنى ولا كعب أرنب

(١) بلوغ الأرب ٣٥٨/٢ السمرة : من شجر الطلح . وحيضها شيء يسيل من السمر كدم الغزال

(٢) حماسة البحترى ١٣٩ . الحازى : الخبير بالأمور والمراد هنا الطبيب الحاذق . معفرس : غالب

(٣) حماسة البحترى ٢٥٥

وما زال لهذه الخرافات أشباه يدين بها بعض الجاهلات في مصر ، فيعلقن على الصبي تمام فيها ناب ذئب ورأس كلب . . إلخ

و — وكانوا يحصنون الإبل من الحسد إذا بلغت ألفاً بأن يفتقوا عين الفحل ، فإن زادت فتقوا الأخرى ، وهذا هو المفقأ والمعمى ^(١) . وكان بشامة بن الغدير كثير المال ، وكان ممن فقأ عين بعير في الجاهلية ، وكان الرجل إذا ملك ألف بعير فقأ عين خيلها ^(٢) وقد أشار الشعراء إلى هذا :

فَقَأَتْ لَهَا عَيْنَ الْفَحِيلِ تَعِيفاً وفيهن رَعْلَاءُ الْمَسَامِعِ وَالْحَامِي ^(٣)
وقال آخر :

وَهَبْ لَنَا وَأَنْتَ ذُو امْتِنَانٍ تُفْقَأُ فِيهَا أَعْيُنُ الْبُعْرَانِ
وقال آخر :

فَكَانَ شُكْرُ الْقَوْمِ عِنْدَ الْمِنِّ كَيَّ الصَّحِيحَاتِ وَفَقَاءِ الْأَعْيُنِ ^(٤)

(١٦) الرَّم

كان الرجل إذا عزم على سفر عقد خيطاً في غصن شجرة أو ساقها ، فإذا عاد ووجد الخيط على حاله علم أن زوجته حفظت غيبته ، وإن لم يجده أو وجدته محلولا قال إنها خانتة ، وهذا العقد يسمى الرَّم : ^(٥) .

وقيل الرَّم نبت معروف كان يعقده الرجل إذا سافر . ^(٦)

والفيروز آبادي يذكر أن من أراد سفراً كان يعمد إلى شجرة فيعقد غصنين منها ، فإن رجع وكانا على حالهما قال إن أهله لم تخنه وإلا فقد خانتة وذلك الرَّم والرَّيْمَة ^(٧) .

(١) البيان والتبيين ٦٦/٣ والحيوان ١٧/١

(٢) ابن سلام ٢١٥ (٣) رعلاء : مشقوفة الأذن لسكرمها الفحل : الفحل السكرم المنجب .
تعيفا : كهانة . العامي : الفحل من الإبل يضرب عشرة أبطن يحمى ظهره بأن يترك ولا ينفع منه بشيء ولا يمنع من ماء ولا مرعى (٤) البيان والتبيين ٦٦/٣

(٥) جهرة الأمثال لأبي هلال ١٩٦ وبلوغ الأرب ٣٤٩/٢ (٦) صبح الأعشى ١/٨٠٨

(٧) القاموس المحيط مادة رَم

ولكنى أخالف هؤلاء جميعاً وأختار للرتم معنى آخر ورد في المادة نفسها هو أن الرّثمة خيط يعقد في الإصبع للتذكير ، وجمع الكلمة رَثَمَ ، فالرتم كالرثيمة واحدة الرثائم والرثام^(١).

والنصوص التي وردت لا تجافي هذا الرأي ، بل كلها صالحة لأن تفسر به .
قال الشاعر :

خاتته لما رأت شيئاً بـمفرقه وغرّه حلفها والعقد للرتم
وقال آخر مستهيناً بهذه الرثائم :

لا تحسبن رثائماً عَقَّدْتُمَا تنبيك عنها باليقين الصادق
وظرف شاعر في قوله إن فلانا يعلم أن ظليه مُسْتَحَلٌّ ، ولكنه يخدع نفسه ويعلمها بالرتائم :

يعلّ عمرو بالرتائم قلبه وفي الحى ظبي قد أُحِلَّت محارمه
وقال آخر لاحقاً على رجل من العرب أخذ يوصى قبل سفره ويعتقد في الرتم :
هل ينفعنك اليوم أن همتُ بهم كثرة ما توصى وتعقاد الرّثَم ؟^(٢) .
فالرثمة في هذه النصوص الخيط المعقود في الإصبع للتذكير ، وهذا فعل المحبين ، يعقد كل منهم في إصبع الآخر خيطاً ليذكّره دائماً .

(١) القاموس المحيط وهامشه

(٢) مجمع الأمثال للعبداني ٢٠٢/٢ وجهرة الأمثال لأبي هلال ١٩٦ ومعجم البلدان ٢٢٥/٤

المراجع

على حسب الترتيب الهجائي

- ١ - الإتيقان في علوم القرآن . السيوطي
- ٢ - أخبار النساء . ابن قيم الجوزية . مطبعة التقدم العلمية بمصر
- ٣ - أخبار مكة . الأزرقى . المطبعة الماجدية
- ٤ - الأدب المقارن . الأستاذ نجيب العقيلي
- ٥ - أديان العرب . الأستاذ محمد نعمان الجارم
- ٦ - الأساس في الأمم السامية ولغاتها . الدكتور على العناني والأستاذ ليون محرز والأستاذ محمد عطية الإبراشي .
- ٧ - الأسرة والمجتمع . الدكتور على عبد الواحد وافي
- ٨ - الأسلوب . الأستاذ أحمد الشايب
- ٩ - الأشباه والنظائر المعروف بحماسة الخالدين . مخطوط بدارالكتب ٢٧٠٩ أدب
- ١٠ - الأشربة . ابن قتيبة .
- ١١ - الأصنام . هشام بن محمد السكلي بتحقيق أحمد زكي باشا
- ١٢ - أصول النقد الأدبي . الأستاذ أحمد للشايب
- ١٣ - أعجب العجب في شرح لامية العرب . محمود الزمخشري
- ١٤ - الأغاني . الأصفهاني . طبعة دارالكتب وساسي
- ١٥ - الأمل . القالي . طبعة دارالكتب
- ١٦ - أمل السيد المرتضى . مطبعة السعادة
- ١٧ - أنيس الجلساء في شرح ديوان الخنساء . الأب لويس شيخو اليسوعي
- ١٧ - إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون ، المعروف بالسيرة الحلبية .
برهان الدين الحلبي

- ١٨ — أيام العرب . الأستاذة محمد أحمد جاد المولى وأبو الفضل إبراهيم وعلى البجاوى
- ١٩ — أيمان العرب . النجيرى . مخطوط بمعهد المخطوطات بجامعة الدول العربية
ف ٧٩١ (١٦٨) .
- ٢٠ — بلاغات النساء . أبو الفضل أحمد بن أبى طاهر طيفور . مطبعة والده
عباس الأول .
- ٢١ — بلال داعى السماء . الأستاذ عباس محمود العقاد .
- ٢٢ — بلوغ الأرب فى أحوال العرب . السيد محمود شكرى الألوسى . مطبعة
دار السلام ببغداد .
- ٢٣ — البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق حسن السندوبى . طبعة ثانية . وطبعة هارون
- ٢٤ — تاريخ آداب العرب . مصطفى صادق الرافعى .
- ٢٥ — تاريخ آداب اللغة العربية . جرجى زيدان .
- ٢٦ — تاريخ الأدب العربى فى العصر الجاهلى . السباعى بيومى .
- ٢٧ — تاريخ الأمم والملوك . محمد بن جرير الطبرى . المطبعة الحسينية .
- ٢٨ — تاريخ الإسلام السياسى . الدكتور حسن إبراهيم .
- ٢٩ — تاريخ التمدن الإسلامى . جرجى زيدان .
- ٣٠ — تاريخ اليهود فى بلاد العرب . إسرائيل ليفنسون .
- ٣١ — تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان . النيسابورى .
- ٣٢ — تفسير الطبرى . مطبعة بولاق .
- ٣٣ — ثلاث رسائل (أولاهها فى الرد على النصارى) . الجاحظ . نشرها يوشع فinkel
المطبعة السلفية .
- ٣٤ — الجامع لأحكام القرآن . القرطبي . طبعة دار الكتب .
- ٣٥ — جامع البيان فى تفسير القرآن . الطبرى . مطبعة بولاق .
- ٣٦ — الجامع الصحيح . البخارى . مطبعة بولاق .
- ٣٧ — جمهرة أشعار العرب . أبو زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى . المطبعة الرحمانية .

- ٣٨ — جمهرة الأمثال . ابو هلال العسكري . طبعة بمبي ، وطبعة على هامش أمثال الميداني .
- ٣٩ — حضارة العرب . جوستاف لوبون . ترجمة عادل زعيتر . الطبعة الثانية .
- ٤٠ — الحماسة . البحتري . المطبعة الرحمانية .
- ٤١ — حياة الحيوان . الدميري . طبعة بولاق .
- ٤٢ — الحيوان للجاحظ . طبعة ساسي وطبعة هارون .
- ٤٣ — خزانة الأدب . البغدادى . طبعة دار العصور .
- ٤٤ — الخصائص . ابن جني . طبعة دار الكتب .
- ٤٥ — خلاصة تاريخ العرب . سيديو . مطبعة محمد مصطفى بمصر ١٣٠٩ هـ .
- ٤٦ — دائرة المعارف الإسلامية . الترجمة العربية .
- ٤٧ — دراسة الشعراء . المرصفي .
- ٤٨ — ديوان الحماسة لأبي تمام . شرح التبريزي وشرح المرزوقي .
- ٥٩ — ديوان الجرنق . مخطوط بدار الكتب رقم ٨ ش أدب .
- ٥٠ — ديوان المتنبي . شرح البرقوقى . المطبعة الرحمانية .
- ٥١ — ديوان المتلمس . مخطوط بدار الكتب ٥٩٨ أدب .
- ٥٢ — ديوان امرئ القيس . شرح السندوبى .
- ٥٣ — ديوان المثقب العبدى . مخطوط بدار الكتب ٥٦٥ أدب .
- ٥٤ — ديوان أمية بن أبى الصلت . نشره المستشرق فون سريدريك شلتنيز .
- ٥٥ — ديوان أوس بن حجر . نشره المستشرق رودلف جوير . فينا ١٨٩٢ .
- ٥٦ — ديوان حاتم الطائي . طبعة بيروت .
- ٥٧ — ديوان طرفة بن العبد . شرح الشنقيطى .
- ٥٨ — ديوان عامر بن الطفيل . المستشرق ليال .
- ٦٩ — ديوان عبيد بن الأبرص . ليال .
- ٦٠ — ديوان عروة بن الورد . طبعة بيروت .
- ٦١ — ديوان عنتره . شرح عبد المنعم شلبي .

- ٦٢ — ربيع الأبرار للزحشرى . مخطوط بمكتبة تيمور ٥٩٢ أدب .
- ٦٣ — رسائل أبي العلاء .
- ٦٤ — رسائل إخوان الصفا . طبعة مصر .
- ٦٥ — روح الاجتماع . جوستاف لوبون . ترجمة أحمد فتحي زغلول باشا .
- ٦٦ — زهر الآداب الحصرى .
- ٦٧ — شرح نهج البلاغة . ابن أبي الحديد . مطبعة البابى الحلبي بمصر .
- ٦٨ — شرح أدب السكاتب . ابن السيد البطليوسى . طبعة بيروت .
- ٧٩ — شرح الأشموني على ألفية بن مالك .
- ٧٠ — شرح المعلقات السبع . الزوزنى .
- ٧١ — شرح القصائد العشر . التبريزى .
- ٧٢ — شرح بانث سعاد . ابن هشام .
- ٧٣ — شرح ديوان جران العود النيرى . أبو جعفر محمد بن حبيب .
- ٧٤ — الشعر والشعراء . ابن قتيبة تصحيح مصطفى السقا الطبعة الثانية .
- ٨٥ — الشعر المعاصر . مصطفى السحرى .
- ٧٦ — شعراء النصرانية . الأب لويس شيخو اليسوعى .
- ٧٧ — الصاحي . ابن فارس . المطبعة السلفية .
- ٧٨ — صبح الأعشى . القلقشندى . طبعة دار السكتب .
- ٨٩ — الصناعتين . أبو هلال العسكري . الطبعة الثانية . صبيح .
- ٨٠ — طبقات الأمم . صاعد الأندلسى . تحقيق الأب لويس شيخو اليسوعى .
المطبعة الكاثوليكية ببيروت سنة ١٩١٢
- ٨١ — طبقات الشعراء . محمد بن سلام الجمحي . مطبعة السعادة بمصر .
- ٨٢ — طهارة العرب . أحمد بن الأمين الشنقيطى .
- ٨٣ — العبر وديوان المبتدأ والخبر . ابن خلدون . طبعة بولاق ١٢٨٤ هـ
- ٨٤ — العرب قبل الإسلام . جورجى زيدان .
- ٨٥ — العرب والإمبراطورية العربية . بروكلمان . ترجمة الدكتور نبيه أمين فارس
ومنيർ البعلبكي . بيروت .

- ٨٦ — عصر المأمون . الدكتور فريد رفاعي
- ٨٧ — عصر ما قبل الإسلام . مبروك نافع
- ٨٧ — العقد الفريد . ابن عبد ربه . لجنة التأليف والترجمة والنشر
- ٨٩ — العمدة في صناعة الشعر ونقده . ابن رشيق . مطبعة أمين هندية
- ٩٠ — عيون الأخبار . ابن قتيبة . طبعة دار الكتب
- ٩١ — فجر الإسلام . أحمد أمين
- ٩٢ — فقه اللغة . الدكتور علي عبد الواحد وافي
- ٩٣ — الفن ومذاهبه في الشعر العربي . الدكتور شوقي ضيف
- ٩٤ — الفهرست . ابن النديم . طبعة ليبزج
- ٩٥ — في أصول الأدب . الأستاذ أحمد حسن الزيات
- ٩٦ — في الأدب الجاهلي . الدكتور طه حسين
- ٩٧ — القاموس المحيط . الفيروز آبادي
- ٩٨ — القرى لقاصد أم القرى لمحج الدين الطبري . نشره الأستاذ مصطفى السقا
مطبعة البابي الحلبي بمصر ١٩٤٨ م
- ٩٩ — قواعد النقد الأدبي . لاسل كرومي . ترجمة الأستاذ محمد عوض
- ١٠٠ — الكامل في التاريخ . ابن الأثير . طبعة ليدن
- ١٠١ — الكامل . المبرد . طبعه المستشرق ريت بمدينة ليبزج
- ١٠٢ — الكرما . أبو هلال العسكري *
- ١٠٣ — الكشف عن حقائق غوامض التنزيل . محمود بن عمر الزمخشري . المطبعة
البيهية المصرية
- ١٠٤ — كيف يعمل العقل . سرل برت . ترجمة الأستاذين محمد خلف الله وفؤاد جلال
- ١٠٥ — لسان العرب . ابن منظور . طبعة بولاق
- ١٠٦ — المؤلف والمختلف . الآمدي . نشره وصححه المستشرق الدكتور فريقتس
كرنسكو . مكتبة القدسي بالقاهرة
- ١٠٧ — مجالس ثعلب . أبو العباس أحمد بن يحيى ثعلب . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون

- ١٠٨ — مجمع الأمثال . الميداني . المطبعة البهية المصرية
- ١٠٩ — مجموعة رسائل الجاحظ . طبعة ساسي
- ١١٠ — محاضرات في تاريخ الأمم الإسلامية . محمد الخضرى بك
- ١١١ — مختصر تاريخ البشر . أبو الفداء . طبعة القسطنطينية
- ١١٢ — المختص . ابن سيده . مطبعة بولاق
- ١١٣ — المرأة العربية . عبد الله عفيفى بك
- ١١٤ — المرأة في مختلف العصور . الأستاذ أحمد خاكي
- ١١٥ — المرأة في التاريخ والشرائع . جميل بيهم
- ١١٦ — مرآئ شواعر العرب . الأدب لويس شيخو
- ١١٧ — مرآث وأشعار . اليزيدى . مخطوط بمعهد المخطوطات بالجامعة العربية
في ٨١٦ (٣٩٣)
- ١١٨ — مروج الذهب ومعادن الجوهر . المسعودى . مطبعة بولاق ١٢٨٣ هـ
- ١١٩ — مسائل فلسفة الفن المعاصرة ج.م . جويو ترجمة سامى الدروبي
- ١٢٠ — معجم البلدان . ياقوت الحموى . مطبعة السعادة بمصر
- ١٢١ — معجم الشعراء . المرزبانى . أخرجه المستشرق الدكتور سالم الكرنكوى
- ١٢٢ — المزهرة . السيوطى . طبعة صبيح
- ١٢٣ — المعارف . ابن قتيبة . طبعه المستشرق وستنفلد بمدينة جوتنجن
- ١٢٤ — مغنى اللبيب . ابن هشام . المطبعة الأزهرية بمصر
- ١٢٥ — مفتاح دار السعادة . ابن القيم
- ١٢٦ — المفضليات . الضبي . شرح الأستاذين شاكر وهارون ، وطبعة السندوبى
- ١٢٧ — مقدمة ابن خلدون . المطبعة الأزهرية بمصر
- ١٢٨ — مقدمة الحضارات الأولى . جوستاف لوبون . ترجمة الأستاذ
محمد صادق رستم .
- ١٢٩ — مقدمة ترجمة الإلياذة . البستاني
- ١٣٠ — الملامى للضبي . مخطوط بدار الكتب . فنون جميلة ٥٣٣

١٣٢ — الملل والنحل . الشهرستاني . على هامش الفصل لابن حزم المطبعة الادبية

بمصر ١٣٢٠ هـ

١٣٣ — مذهب الاغانى . محمد الخضرى بك

١٣٤ — النابغة الذبياني . الأستاذ عمر الدسوقي

١٣٥ — النقائض بين جرير والفرزدق . طبعة بريل . ليدن ١٩٠٧ م

١٣٦ — النظم الاجتماعية والسياسية عند قدماء العرب والامم السامية . الأستاذ

محمود جمعة

١٣٧ — نقد النثر . قدامة بن جعفر . مطبعة لجنة التأليف

١٣٨ — نهاية الأرب في فنون الأدب . النويرى . طبعة دار الكتب

١٣٩ — الهوامل والشوامل . لأبى حيان التوحيدى ومسكويه نشره الأستاذ

أحمد أمين بك والأستاذ السيد صقر . مطبعة لجنة التأليف ١٩٥١

١٤٠ — وفيات الأعيان . ابن خلكان . مطبعة بولاق

١٤١ — Literary History of the Arabs . by Reynold A. Nicholson . london . 1907 .

فهرس الكتاب

صفحة

٥-٣

المقدمة

الباب الأول

بحوث تمهيدية

١٦-٨

الأدب وتطوره

معناه فى الجاهلية وصدر الإسلام ، اشتقاق الكلمة ، دلالتها الخلقية ، مناقشة آراء فى اشتقاق المعنى الخلقى ، معناه فى العصر الأموى ، دلالاته الثقافية ، رأى فى اشتقاق المعنى الجديد ، معناه فى العصر العباسى الثانى ، ضيق الدائرة الثقافية ، دلالة أخرى للكلمة أحياناً فى العصر العباسى .

١٨-١٧

تاريخ الأدب

معناه ، قيمته ، ثقافة مؤرخ الأدب .

٢٩-١٩

اللغة العربية

اللغات السامية ، اللغة العربية سامية ، أطوار رقيها وتهذيبها ، عوامل التقريب بين اللهجات ، أثر قریش فى وحدة اللهجة . أثر الأسواق . موقع سوق عكاظ .

٥٠-٣٠

اللغة العربية واللهجات

لغة الشمال ولغة الجنوب ، اختلاف اللهجتين طبيعى ، اللغة واحدة وإن اختلفت اللهجة ، لماذا لم يظهر هذا الاختلاف فى الشعر الجاهلى ؟ بعض الشعر المروى يسجل اللهجات ، القراءات واللهجات ، رحلات القحطانيين إلى الشمال قديمة وثابتة ، معنى كلمة أبى عمرو بن العلام .

صفحة

١٠٨-٥١ اتصال العرب بغيرهم

صلاتهم التجارية بالأمم : العراق وفارس ومصر والحبشة والهند . أثر ٥١-٥٧
هذا الاتصال .

٧٥-٥٧ اتصالهم السياسى والحربى بالفرس ، قبل إنشاء إمارة الحيرة ،
عن طريق الحيرة ، عن طريق اليمن ، عن الحروب . آثار الاتصال .

٨٤-٧٦ اتصالهم السياسى والحربى باليونان والرومان ، حملة حربية رومانية إلى
اليمن ، دولة الأنباط ، دولة تدمر ، إمارة غسان ، حضارة الغساسنة
ومكانتهم ، أثر اليونان والروم فى اللغة والأدب .

٨٩-٨٥ اليهودية ، وفود اليهود إلى يثرب ، قبائلهم ، القبائل العربية التى خالطتهم
فى يثرب والحجاز ، اليهود فى اليمن ، تأثير اليهود فى العرب ، تأثيرهم
بالعرب ، السبب فى ضعف تأثيرهم .

٩٦-٩٠ النصرانية . انتشارها فى بلاد العرب . آثارها فى العرب ، عجزها عن
اكتساح الوثنية العربية .

١٠٨-٩٦ اتصالهم السياسى والحربى بالحبشة ، غزوات الأحباش لليمن وكندة ،
تأثير الأحباش فى اللغة والأدب عن طريق مباشر ، وعن طريق اليمن
نواحى هذا التأثير ومظاهره المختلفة .

١١٧-١٠٩ شاعرية العرب

عوامل شاعريتهم ، إعزازهم للشعر والشعراء ، أمثلة على مكانة
الشاعر وقيمة الشعر ، كثرة ما خلفوا من شعر ، ضياع كثير مما خلفوا .

١٢٣-١١٨ أولية الشعر العربى

أول شعر قيل مجهول ، الشعر الذى وصل إلينا ليس هو أول الشعر
هو شعر ناضج ومنقح ، تسمية بعض الشعراء بما يدل على مميزاتهم ،
وتسمية بعض القصائد بما يدل على مميزاتها ، فى الشعر الجاهلى نفسه ما ثبت
أنه مسبوق ، تنازع القبائل فى أولية الشعر .

صفحة

١٢٤ — ١٤٢

نشأة الوزن والقافية

نشأة الوزن والقافية نشأة عربية خالصة ، الأدلة على ذلك ، رأى ابن رشيق فى نشأة الوزن ، الرد عليه ، رأى فى نشأتها ، مراحل هذه النشأة : السجع ، الغناء بالسجع ، علاقة الشعر بالغناء ، مظاهر هذه العلاقة ، نشوء الوزن والقافية . تعزيز رأى أبى حيان لهذه النظرية . رأى جويو .

المعلقات

١٤٢ — ١٥١

ماهى ؟ الخلاف فى عددها ، السبب فى تسميتها ، مناقشة القائلين بتعليقها على الكعبة ، رأى الذى أرتضيه .

الباب الثانى

١٥٤ — ٢٣٨

الحياة الاجتماعية من الشعر

(الصلات الأسرية)

١٥٤ — ١٥٨

مكانة المرأة فى الأسرة والمجتمع

إعزاز الرجل لها ، إشهادها على مفاخره ، الانتساب إليها ، مشاركتها فى الحزب وفى السلم ، استشارتها فى زواجها .

١٥٩ — ١٦١

الزواج

نظامه الشائع عندهم ، أصحاب الرايات ، تزوجهم بالسبايا ، دفاع الشعراء السود عن سوادهم ، زواج القريبات مضعف للنسل .

١٦١ — ١٦٢

الطلاق

الطلاق بيد الرجل ، وأحياناً بيد المرأة ، لم ينفرد العرب بالطلاق .

١٦٢ — ١٦٣

تعدد الزوجات

شيوعه بينهم وبين غيرهم من الأمم .

صفحة

١٦٨-١٦٣

الأولاد

تربيتهم ، تسميتهم ، الوأد وبواعثه ، حب بعضهم للنبات ، إحياء
الموودات .

(الصلات القبيلة)

الحرب

بواعث الحروب ، طريقة المقاتلة ، العرب ذوو خطط حربية ،
زمن القتال ، أدوات الحرب ، الأسرى والسبايا ، معاملتهم ، فداء ١٦٩-٢١٠
الأسرى ، الزواج بالسبايا ، الصلح ، التنفير من الحرب :

٢١٧-٢١٠

الثأر

كلفهم بالثأر ، امتناعهم عن اللذات حتى يثأروا ، الثأر من الأقارب ،
اثر البيئة في أهمية الثأر ، النساء والثأر ، قبول الدية عار .

الحلف والجوار

محالفات بين الفرد والفرد وبين القبيلة ، وبين القبائل ، لماذا نشأ
الحلف ؟ توثيق الحلف ، التحالف على الدم ، لعق الدم ، توثيقه بسوائل ٢١٧-٢٢٥
أخرى ، غمس أيدي المتحالفين في الطيب ، التمسح بالكعبة ، التحالف
على النار ، إعزازهم للحليف والجار وحمايتهم له ، تشنيعهم بالغادر .

٢٢٨-٢٢٥

الغنى والفقر

مظاهر الغنى ، مظاهر الفقر ، سخط بعض الفقراء ، نشأة الصعلكة
والصعاليك ، حياة الصعاليك ومذهبهم في الحياة ، أدب الصعاليك .

٢٩١—٢٤٠

الباب الثالث

الحياة الخلقية من الشعر

٢٥٢—٢٤٠

الكرم

بواعثه ، مظاهره ، أوقاته ، أنواعه ، هداية الضيف . نخر بالكرم
ومدح به .

٢٥٨—٢٥٢

البخل

بعض الرجال بخلاء ، بخل النساء ، لومهن الرجال على الكرم ، لماذا
بخلت المرأة ؟ صدق الشعر في تصوير الكرم والبخل .

٢٦٧—٢٥٨

الشجاعة

بواعثها ، مظاهرها : القتل مفخرة والموت حتف الأنف معرة ،
افتخروا بصبرهم عند اللقاء العنيف ، لا يفخر الشاعر بقومه إن لم يكونوا
شجعانا ، عدم مبالاة بعضهم بأن يقتل ، النساء لا ينحن على قتيل في الحرب ،
شهد العرب لأعدائهم بالشجاعة ، إنصاف الأعداء الشجعان .

٢٧١—٢٦٨

الجنب

اعتراف بالجنب والفرار ، تدلس بعضهم المعاذير ، إقرار بعضهم
بالجنب ، تحسر بعض الفارين وندمهم ، صدق الشعر في تصوير الشجاعة
والجنب .

٢٧٣—٢٧٢

الطيش وسرعة الانفعال

نشأة هذا الخلق وأسبابه ، بعض دلالاته ، التهمك بالحلماة ، حسنة هذا
الخلق في البيئة الجاهلية .

٢٧٦—٢٧٣

الحلم

قلة الحلماة ، الحلم على القريب والصديق ، قصص عن بعض حلماهم .

٢٨١—٢٧٦

الحرية والإباء

طبيعة في العرب منذ القدم ، رفض الضيم حتى من الملوك والفاحين ،

صفحة

أسباب الحرية والعزة ، الفخار بالقوة ، الفخار بالتعالى على الملوك ، فساد فهمهم لمعنى الحرية ، أثر هذا الفهم في تفرقهم .

٢٨٥—٢٨١

الوفاء

الكلمة التي ينطقها العربي عهد عليه ، السموءل مثل أعلى في الوفاء ، وكذلك هانيء بن مسعود ، وفاؤهم للموتى ، وللمذاهب المضطهدة ، وفاء الزوجة لزوجها . غدرهم أحيانا .

٢٩١—٢٨٦

العفة والغيرة

حرصهم على العفة ، طردا الخلعاء ، الفخر بالعفة ، هي حلية القادرين ، عفة نسائهم ، غيرتهم على النساء ، أمثلة من غيرتهم .

٣٤٥—٢٩٤

الباب الرابع

الحياة الدينية من الشعر

٣٠٣—٢٩٤

تمهيد

هل يحجز الشعر الجاهلي عن تصوير الحياة الدينية ؟ مناقشة هذا الرأي : ضياع شعر كثير ، تناسى كثير من شعر الوثنية وأديان الجاهلية ، اليهود يغضون عن شعرهم في أصنامهم ، الشعراء لا يحفلون بالدين كثيرا ، الباقي من الشعر الجاهلي يصور الحياة الدينية ، الأدلة على صحة هذا الشعر ، ضعف الوثنية في أواخر العصر الجاهلي ، أمثلة وأدلة على هذا الضعف .

٣٢٠—٣٠٣

الأصنام

تعدد المعبودات ، كيف نشأت عبادة الأصنام ؟ ما ترمز إليه بعض أصنامهم ، أصنامهم المشهورة ، إخلاصهم لها ، الأصنام في الشعر : القسم بها ، ذكرها ، الاستقسام عندها ، الدوار بها ، قرابينهم لها .

٣٣٦—٣٢٠

التوحيد

تمهيد ، التوحيد في الشعر ، أمية بن أبي الصلت نموذج للشاعر الديني ، عدى بن زيد ، شعراء آخرون ، مظاهر توحيدهم : القسم بالله ، إسناد

صفحة

الثواب والعقاب إليه ، هو علام الغيوب ، هو الباقي ، يوم القيامة ، علاقة
البلايا بالبعث ، شعائر اليهودية والنصرانية على سبيل التشبيه والتصوير
واستمداد المعاني .

الكواكب

٣٣٨-٣٣٦

عبادة الشمس ، عبادة القمر وسهيل وعطارد والثريا ، مظاهر عبادتهم لها .

٣٤٢-٣٣٨

النار

نشأة عبادتهم لها ، مظاهر عبادتها : الحلف بها ، التحالف عليها ،
الاستمطار بها .

٣٤٢

الملائكة والجن

قليل منهم عبد الملائكة والجن ، تبرؤ أمية بن أبي الصلت من
عبادة الجن .

٣٤٢

الشجر

نشأة عبادتهم له . عثر إله الخصب والنتاج . العزى

٣٤٥

الدهريون

عقيدتهم ، وإنكارهم البعث

٣٤٨

الباب الخامس

٤١٤-٣٣٤

العادات والمعتقدات من الشعر

٣٤٩-٣٤٨

تمهيد

٣٦٥-٤٣٩

الخمر

لماذا أولعوا بها ؟ مظاهر ولعهم بها ، مجالسها وأدواتها ، أثرها ،
المحرمون لها .

٣٦٩-٣٦٥

الميسر

طريقته ، الغرض منه ، الفخر به ، المدح به ، العرب خير الأمم
غرضاً منه .

٣٨٣-٣٧٠

✓ الجن

تصورهم لها ، تشكّلها ، مساكنها ، استعاذتهم بها ، صحبتهم لها ، زواجهم بها ، قتلهم الغول . الجن في الأدب اليوناني .

٣٨٩-٣٨٣

شياطين الشعراء

عبقر ، شيطانا الشعر ، شياطين بعض الشعراء ، أقاصيصهم عنها ومساجلتهم لها وتلقيهم منها ، شياطين شعراء الإفرنج ، أقاصيصهم عنها واستيحاؤهم منها . العقل الباطن .

٣٩٨-٣٨٩

الزجر والعيافة

ماالزجر ؟ بم تشاءموا ؟ بم تفاءلوا ؟ اختلافهم في الاصطلاح ، رفض بعضهم للزجر .

٣٩٩-٣٩٨

عقر الإبل على القبور

لماذا عقروها ؟ آراء في ذلك ، الرأي الذي أميل إليه .

٤٠٢-٣٩٩

الهامة والصدى

ما الهامة ؟ مبعث هذه الخرافة . الصدى ، بقاء هذا التخيل إلى الإسلام .

٤٠٣-٤٠٢

شق الرداء لتقوية الحب

لماذا فعلوا ذلك ؟ بقاء هذه العادة إلى الإسلام .

٤٠٤-٤٠٣

وطء المقلاة دم الشريف

الغرض منه ، ذكر الشعراء لهذه العادة .

٤٠٥-٤٠٤

تعليق الحلي والجلاجل على اللديغ

لماذا علقوها ؟ زراية بعضهم بها ، بقاء العادة إلى الإسلام .

٤٠٥

إذا خافوا دخول قرية

ماذا يفعلون ؟

٤٠٦

إذا ضلوا في فلاة

ماذا يعملون ؟

٤٠٨—٤٠٧ كي السليم ليصح الأجرب

إكثار الشعراء من التشبيه بهذا العمل الجائر ، هل فعلوا ذلك ؟ الآراء فيه . التعليل الذي أرتضيه .

٤١٠—٤٠٨ ضرب الثور لتشرب البقر

لماذا فعلوا ذلك ؟ استمداد الشعراء صوراً من هذا العمل .

٤١٣—٤١٠ الوقاية من الجن والعين

التمائم ، تعليق كعب الأرنب ، تعليق سن الثعلب والهرة وحيض السمرة ، تعليق الأقدار النجسة ، زراية بعضهم بهذا ، تحصين الإبل إذا بلغت ألفاً بفقاء عين خلها .

٤١٤—٤١٣ الرتم

ما المراد به ؟ رأيي في معناه .

٤١٥ المراجع

كتب مطبوعة لل مؤلف

١ - وحي الفسيب في شعر شوقي

٢ - فن الخط _____ ابة

٣ - الحياة العربية من الشعر الجاهلي

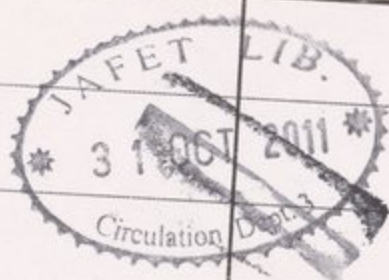
٤ - العزل في العصر الجاهلي

٥ - مع ابن خلدون

تم بحمد الله في أول أكتوبر سنة ١٩٥٢
بمطبعة نهضة مصر بالقاهرة



DATE DUE



W

892.709:H88hA:c.1

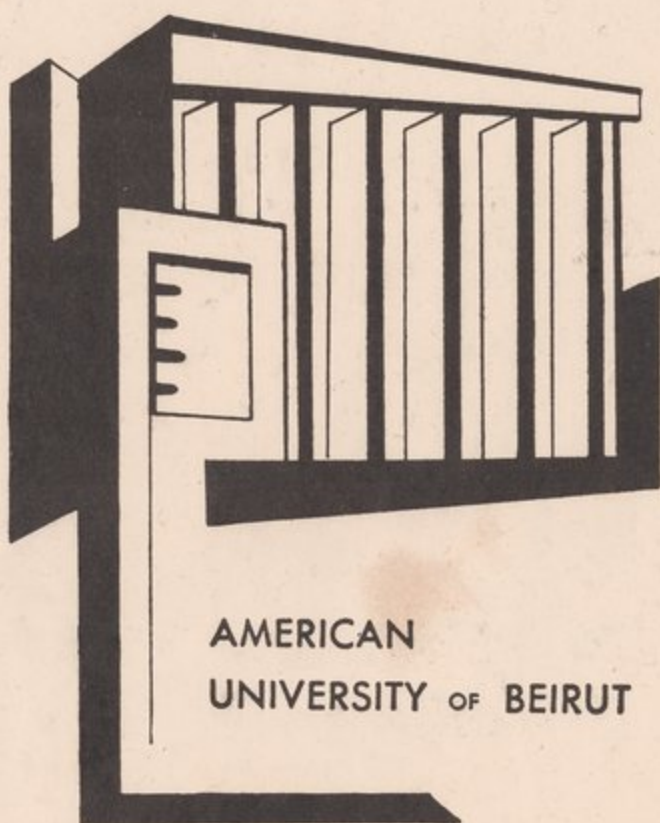
الحوفي، أحمد محمد

الحياة العربية من الشعر الجاهلي

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01033443



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

